

صفحة

- الطرف العاشر - في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ،
 ولها حالتان ٥
- الحالة الأولى - ما كان الأمر عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها
 في الدولة الأخشيدية والطولونية وما قبلهما ... ٥
- » الثانية - ما كان الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة
 الأيوبية ١٩
- الطرف الحادي عشر - في المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب ،
 ولها حالتان ٣٠
- الحالة الأولى - ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ٣١
- » الثانية - ما الأمر مستقر عليه مما كان عليه علامة متأخرى
 كتاب المغرب أبو عبد الله محمد بن الخطيب ... ٣٩
- الطرف الثاني عشر - في الكتب الصادرة عن وزراء الخلفاء المنفذين
 أمور الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وفيه جملتان ٧٢
- المجلة الأولى - في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بني العباس
 ببغداد ووزراء ملوكها يومئذ ٧٢
- » الثانية - في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين
 بالديار المصرية ٧٨
- الطرف الثالث عشر - في المكاتبات الصادرة عن الأتباع إلى الملوك
 ومن في معناتهم ، وفيه ثلاث جمل ٨١

صفحة

- الجملة الأولى - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الشرق إليهم
 ٨١ في الزمن المتقدم
 » الثانية - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار
 المصرية إليهم ٨٧
 » الثالثة - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب
 إليهم ٩١
 الطرف الرابع عشر - فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك إليهم ،
 وهي على ضربين ١٠٣
 الضرب الأول - الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم ،
 وفيه ثلاث جمل ١٠٤
 الجملة الأولى - في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق ١٠٤
 » الثانية - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية
 من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقام الملوك
 الآن فمن بعدهم ١٠٧
 » الثالثة - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب ١١٠
 الضرب الثاني - الأجوبة الواردة على الملوك ١١١
 القسم الثاني - المكاتبات الصادرة عنهم إلى ملوك الكفر ،
 وفيه طرفان ١١٣
 الطرف الأول - في الابتداءات ، وفيه ثلاث جمل ١١٣

منه

الجملة الأولى - في المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق

من بنى بويه فمن بعدهم ١١٣

» الثانية - في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

إليهم ١١٥

» الثالثة - في الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب ... ١١٦

الطرف الثاني - (وكتب خطأ الخامس عشر) المكاتبات الصادرة إلى

ملوك الكفر في الأجوبة، وهي إما أن تصدر بما

يصدّره الابتداء وقد تقدّم، وإما أن تصدر

بلفظ وصل أو ورد ١١٧

الفصل الرابع - من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبات

الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر

عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زمان

المؤلف على رأس الثمانمائة، وفيه أربعة أطراف

(وكتب خطأ ثلاثة) ١١٩

الطرف الأول - في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفاء من بنى

العباس ١١٩

» الثاني - في المكاتبة إلى ولاية العهد بالخلافة ... ١٣٤

» الثالث - في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

إلى أهل المملكة من مصر والشام والحجاز،

وفيه ثلاثة مقاصد ١٣٨

صفحة

- المقصود الأول - في المكتبات المفردة ، وفيه مسلكان ١٣٨
- المسلك الأول - في بيان رتب المكتبات ورتب أهلها ،
وهى على ضربين ١٣٨
- الضرب الأول - المكتبات إلى الملوك على ما كان عليه الحال
في الزمن المتقدم ١٣٨
- » الثانى - المكتبات إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف
والأقلام ... وفيه مهيعان ١٤٠
- المهيع الأول - في رتب المكتبات ، وهى على عشر درجات ... ١٤٠
- » الثانى - في بيان مراتب المكتوب إليهم من أهل
المملكة ... وهم على ثلاثة أنواع ١٥٤
- النوع الأول - أرباب السيوف ١٥٤
- » الثانى - أرباب الأقلام ، وهم على ضربين ١٦٣
- الضرب الأول - أرباب الدواوين من الوزراء ومن في معانهم ... ١٦٣
- » الثانى - أرباب الوظائف الدينية والعلماء ١٦٥
- النوع الثالث - ممن يكتب عن الأبواب السلطانية
- الخوندات السلطانية ١٦٦
- المسلك الثانى - في معرفة ترتيب المكتبات المقدمة الذكر وكيفية
أوضاعها ١٩٤

صفحة

المقصد الثاني - في المكاتبات العامة إلى أهل هذه المملكة وهي

المطلقات، وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب ٢١٨

الضرب الأول - المطلقات المكبرة ٢١٩

» الثاني - المطلقات المصغرة ٢٢٣

» الثالث - (وكتب خط الثاني) من المطلقات البرالغ ٢٢٩

المقصد الثالث - من المكاتبات في أوراق الجواز وبطائق الحمام،

وفيه جملتان ٢٣١

الجملة الأولى - في أوراق الجواز ٢٣١

» الثانية - في نسخ البطائق، وهي على ضربين ٢٣٤

الضرب الأول - أن تكون البطاقة بعلامة شريفة ٢٣٤

» الثاني - أن تكون بغير علامة ٢٣٤

الطرف الرابع - (وكتب خط الثالث) في المكاتبات إلى عظماء ملوك

الإسلام ومن انطوت عليه بمالكهم ممن دونهم ...

وفيه أربعة مقاصد ٢٣٥

المقصد الأول - في المكاتبات إلى عظماء ملوك الشرق

وفيه أربعة مهاج ٢٣٦

المهج الأول - في المكاتبة إلى الملوك والحكام ومن جرى مجراهم

بمملكة إيران ويشتمل المقصود منها على

ثلاث جل ٢٣٦

صفحة

- الجملة الأولى - في رسم المكتبة إلى قاتها الأعظم ... ٢٣٦
- » الثانية - في المكتبات إلى من ملك توريز وبغداد بعد ... ٢٥٧
- موت أبي سعيد ... ٢٦٢
- » الثالثة - في رسم المكتبة إلى من أنطوت دليه مملكة إيران ... ٢٩٢
- المهييع الثاني - من المكتبة إلى الملوك، مملكة توران ... ٣٣٢
- » الثالث - في المكتبات إلى من يجزيرة العرب ... وفيه جملتان ... ٣٣٢
- الجملة الأولى - في المكتبات إلى ملوك اليمن ... ٣٧٠
- » الثانية - في المكتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم ... ٣٧٢
- المقصد الثاني - ... في المكتبات إلى ملوك الغرب، وفيه ... ٣٧٦
- أربع جمل ... ٣٧٦
- الجملة الأولى - في المكتبات إلى صاحب افريقية وهو صاحب تونس ... ٣٨٥
- » الثانية - في مكتبة صاحب الغرب الأوسط وهو صاحب تلمسان ... ٣٨٥
- » الثالثة - في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى ... ٤١٢
- » الرابعة - في مكتبة ملك المسلمين بالأندلس ... ٤١٢

صَبْحُ الْأَسْبَحِ

الجزء السابع

دَارُ الْكِتَابِ السُّلْطَانِيَّةِ

كِتَابُ

صَبْحُ الْأَسَدِ

تَالِيفُ

السَّيِّحِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدَكِيِّ

الجزء السابع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
م ١٩١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَفُ العَاشِرُ

في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
(ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها في الدولة
الأخشبيدية والطولونية وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبه عنهم أن تُفتَحَ بلفظ: «من فلان إلى فلان» .
كما كتب أبْنُ عبد كان عن أحمد بن طولون إلى أبْنه العباس حين عصى^(١) [عليه]
بالإسكندرية ، منذراً له وموَجِّهاً له على فعله ، وهو :

«من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المُلمِّ
بذنبه ، المُفسِد لكتّبه ، العادى لظوره ، الجاهل لقدره ، الناكِص على عقبه ، المَرْتَكِس
في قتلته ، المَبْخُوس^(١) [من] حَظَّ دنياه وآخرته !

سلامٌ على كل مُنيبٍ مستَجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول
القوت والنّدم .

وأحمد الله الذي لا إله إلا هو حمدَ معترفٍ له بالبلاء الجليل ، والطول الجليل ؛
وأسأله مسألة مخلص في رجائه ، مجتهد في دُعائه ؛ أن يصلي على عبد المصطفى ،
وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي ؛ صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مثلك مثل البقرة تُثير المذبة بقرنتها ، والنملة يكون حنقها في جناحيها ،
وستعلم - هيلتك الهوابل ! أيها الأحمق الجاهل ؛ الذي قنّى على النقي صطفه ، وأعتر
بضجاج المراكب خلفه - أي ماردة هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله جل وعز
تمردت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلا : ﴿ قَرِيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مُطْمَئِنَّةً بِأَيْمَانِ رِزْقِهَا رَخَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وإنا كنا نقرّبك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ؛ طمعا في إنايتك ، وتأميلا لقيمتك ؛
فلما طال في النقي - أيهما كك ، وفي غمرة الجهل آرتيا كك ؛ ولم نر الموعظة تلين كبدك ،
ولا التدكير يهيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعا
ومحلا ؛ بل لا نكني بأبي العباس إلا تكرها وطمعا بأن يهب الله منك خلقا تقلده أسمك
ونكني به دونك ، ونعدك كنت نسيا منسيا ، ولم تك شيئا مقصيا ؛ فانظر ولا نظّر
بك إلى عار نسبته تقلدت ، ومخيط من قبلنا تعرضت ؛ وأعلم أن البلاء بإذن الله
قد أطلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ؛ والعساكر بحمد الله قد أتت كالكسيل
في الليل ، تؤذئك بحرب وبويل ؛ فإننا نقسم ، وزجوا أن لا تجور ونظلم ؛ أن لا نثني
عنك عانا ، ولا نؤثر على شانك شانا ؛ ولا نتوقل ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد ؛
إلا جعلناك ^(١) بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أجمت منهما ؛ متفقين فيك كل
مالٍ خطير ، ومستصغرين بسبك كل خطب جليل ؛ حتى تستمر من طعم العيش

(١) لعله "بعتاك" والمراد انتفاء أثره حيث يم .

ما أَسْتَطَعْتُ ، وَتَسْتَدْفِعَ مِنَ الْبَلَايَا مَا أَسْتَدْعِيَتْ ؛ حِينَ لَا دَافِعَ بِحَوْلِ اللَّهِ عَنْكَ ،
وَلَا مُزْخَرَحَ لِنَاعِنِ سَاحَتِكَ ؛ وَتَعْرِفَ مِنْ قَدْرِ الرِّضَاءِ مَا جَهِلْتَ ، وَتَوَدَّ أَنَّكَ هُيَلَتْ
وَلَمْ تُكُنْ بِالْمَعْصِيَةِ مَحْجَلَتْ ، وَلَا رَأَى مَنْ أَضْلَكَ مِنْ غُوثِكَ قِيلَتْ ؛ فَحِينَئِذٍ يَنْفَرُ^(١)
لَكَ اللَّيْلُ عَنْ صُجُوحِهِ ، وَيُسْفِرُ لَكَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ ؛ فَتَنْظُرُ بَيْنَيْنِ لِغِشَاوَةِ عَلَيْهِمَا ،
وَتَسْمَعُ بِأَذْنَيْنِ لَا وَقَرَ فِيهِمَا ؛ وَتَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ مَمْسُكًا بِجِبَالِ عُرُورٍ ، مُمَادِيَا
فِي مَقَابِحِ أُمُورٍ : مِنْ جُحُوقِ لَا يَنْأَمُ طَالِبُهُ ، وَبَنَى لَا يَجْوُ هَارِبُهُ ؛ وَقَدَّرَ لَا يَتَّعِشُ
صَرِيحُهُ ، وَكُفْرَانٍ لَا يُوَدِّي قَتِيلُهُ ؛ وَتَقِفُ عَلَى سُوءِ رَوِيَّتِكَ ، وَعِظَمِ جَرِيرَتِكَ ؛ فِي نَزْكِكَ
قَبُولِ الْأَمَانِ إِذْ هُوَ لَكَ مَبْدُولٌ ، وَأَنْتِ عَلَيْهِ مَحْمُولٌ ؛ وَإِذِ السَّيْفُ عَنْكَ مَغْمُودٌ ،
وَبَابُ التَّوْبَةِ إِلَيْكَ مَفْتُوحٌ ؛ وَتَتَلَهَّفُ وَالتَّلَهُّفُ غَيْرُ نَافِعِكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَجَبْتَ إِلَيْهِ
مُسْرًا ، وَأَقْنَدْتَ إِلَيْهِ مَتَصِصًا .

وَأَنَّ مَا زَادَ فِي ذُنُوبِكَ عِنْدِي مَا وَرَدَ بِهِ كِتَابُكَ عَلَىَّ بَعْدَ نُفُوذِي عَلَى الْفُسْطَاطِ مِنَ
الْمُتَوَهِّجَاتِ وَالْأَعَالِيلِ ، وَالْعِدَّاتِ بِالْأَبَاطِيلِ ؛ مِنْ مَصِيرِكَ بِزَعْمِكَ إِلَى إِمْلَاحٍ مَا ذَكَرْتَ
أَنَّهُ فَسَدَ عَلَىَّ ، حَتَّى مِلْتُ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، فَأَقَمْتُ بِهَا طَوْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ . وَأَسْتَظْهَرَا
عَلَيْكَ بِالْحُجَّةِ ؛ وَقَطَعَا لِمَنْ عَسَى أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ مَعْذَرَةٌ عِلْمُ أَنَّ الْأُنَاةَ غَيْرَ صَادَّةٍ ، وَلَا أَنَّهُ
خَاطَبَتْنِي شَكٌّ وَلَا عَارِضُنِي رَيْبٌ فِي أَنَّكَ إِنَّمَا أَرَدْتَ التُّزُوجَ وَالْإِحْتِيَالَ لِلْهَرَبِ ، وَالتُّزُوجَ
إِلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَعَلَّ قَصْدَكَ لِأَهْلِهَا يُودِيكَ ، وَلَعَلَّ مَصِيرَكَ إِلَيْهَا يَكْفِيْنِيكَ ؛
وَيَسْلُغُ إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْإِرَادَةِ فِيكَ ، لِأَنَّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَقْصِدُ مَوْضِعًا إِلَّا تَلَوَّنَاكَ ،
وَلَا تَأْتِي بِلَدًا إِلَّا قَفَوْنَاكَ ؛ وَلَا تَلُوذُ بِعِصْمَةٍ تَنْظُنُّ أَنَّهَا تُنْجِيكَ إِلَّا أَسْتَعْنَيْتَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
فِي جَدِّ حَبْلِهَا ، وَفَقَمَ عُرْوَتَهَا ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يُؤْوِي مِثْلَكَ وَلَا يَنْصُرُهُ إِلَّا لِأَحَدِ أَسْرِينِ

(١) أَيْ يَنْسُقُ يُقَالُ فَرَّاهُ فَاهَرَى وَتَفَرَّى انْظُرِ الْمُخْتَارَ .

من دينٍ أو دُنْيَا . فاما الدينَ فانتَ خارجٌ من جملته لمُقامك على العُقُوق ، ومخالفة ربِّك وإسقاطه . واما الدُنْيَا فإِأَراه بَقِيَّ معك من الحُطَام الذى سَرَقته وحمَلتَ نفسَك على الإيثار به ، ما يَتَهَيَّا لك مَكاثِرُنا بِمَثَلِه ، مع ما وهَبَ الله لنا من جَزِيلِ النعمة التى نَسْتَوِدِعُه تبارك وتعالى إِياها ، ونرغبُ إِلَيه فى انمائها ، إلى ما أنت مقيمٌ عليه من البغْي الذى هو صارعك ، والعقُوق الذى هو طالِبُك .

وأما ما مِنَيْتَناه من مَصيرك إلينا فى حُشُودك وِجُوعك ، وَمَنْ دَخَلَ فى طاعتك ؛ لإصلاح عملنا ، ومُخالفة أعدائنا ؛ بأمر أظهروا فيه الشَّماتة بنا ، فما كان إلا بِسْبَيْك فأصلَحَ أيها الصَّبِيُّ الأخرقُ أمرَ نفسك قبل إصلاحك عملنا ، وأَحْزَمَ فى أمرِك قبل استئمالك الحَزْمَ لنا ؛ فما أَحْوجَنا اللهُ وله الحمد إلى نُصرتك ومُوازَرتِك ، ولا اضْطَرَّرتنا إلى التَّكاثُرِ [بك] على شِقاقتك ومَعْصيتِك : (وما كُنْتُ مُتَّخِذُ المُضِلِّينَ عَضْداً)

وليتَ شِغْرى على مَنْ تَهَوَّلَ بالجنُود ، وتَمَحَرَّقُ بذكر الجيوش ؛ وَمَنْ هُوَ لاءِ المسخَرُونِ لك ، الباذِلون دِمَاءَهُم وأموالَهُم وأديانَهُم دُونَكَ ؟ دُونَ رِزْقِ تَرْزُقُهُم إِياه ، ولا عطاءَ تُدْرِهِ عليهم ؛ فقد علمتَ إِنْ كانَ لك تمييز ، أو عندك تَحْصِيل ؛ كيف كانتَ حالُك فى الوقعة التى كانتَ بناحية أَطْرابِلس ، وكيف خَذَلَك أَوْلِياؤُك والمرَافِقَةُ معك حَتَّى هَرِمْتَ ، فكيف تَفْتَرُّ بِمَنْ معك من الجنود الذى لا أَسْمَ لهُم معك ، ولا رِزْقَ يجرى لهُم على يَدِكَ ؟ فإن كان يَدْعُوهُم إلى نُصرتك هَيْبَتُك والمداراةُ لك والخَوْفُ من سلطانك ، فإنهم لَيَجْنِبُهُم أَضعافُ ذلك مِنّا ، ووجودُهُم من البَسْطِ الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا ما لا يَجِدُونَهُ عندك ، وإنهم لأَحرى بِجَذَلِك ، والميلِ إلينا دُونَكَ . ولو كانوا جميعا معك ومقيمين على نُصرتك ، لرجونا أَنْ يَمَكِّنَ اللهُ مِنْكَ ومنهم ، ويعمَلُ دائرةُ السَّوءِ عليك وعليهم ، ويُخْرِيتا من عادته فى النُّصْر وإِعْزازِ الأمرِ على ما لم يَزَلْ . يَتَفَضَّلُ

علينا بأمثاله ، ويتطوّل بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خناقك ،
والإطالة من عثائك ، طوّل هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك
وأستصغاره ، وقلة الاحتفال والأكثرية به ؛ وإنى أقصرت من عقوبتك على
ما خلقت به نفسك من الإبقاء إلى أقاصى بلاد المغرب شريداً عن متراك وبلك ،
فريداً من أهلك ولذلك . والآخرة أتى علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز إلى
حيث انحزت إليه ، فأردت التسكين من نفاك ، والطمانينة من جأشك ؛ وعلمت
على أنك تمين إلينا حين الولد ، وتثوق إلى قربنا توقان ذى الرحم والنسب ؛ فإن
فى رفقتنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تأخينا إليك ما يردك علينا ، ولم نسمع منا سامع
فى خلأ ولا ملأ انتقاصاً بك ، ولا غصاً منك ، ولا قدحاً فيك ؛ رقة عليك ، وأستاماً
للبد عندك ؛ وتأميلاً لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك
وحفظك ؛ فاما الآن مع اضطرابك إياى إلى ما اضطرتنى إليه من الانزعاج نحوك ،
وحبسك رُسلى النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ؛ وأستمالك المواربة والخذاع فيما
يجرى عليه تديرك . فما أنت بموضع الصيانة ، ولا أهل للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنة
عليك حاله ، والذمة منك بريه ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق
والقطيعه ، والإضاعة لرحم الأبوه . فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين ،
والملائكة والناس أجمعين ؛ ولا قيل الله لك صرفاً ولا عدلاً ، ولا ترك لك متقلباً
ترجع إليه ، وحدك خذلان من لا يؤبه له ، وأنك لا تتركه ، ولا حاطك
ولا حيفظك . فوالله لأستعملنّ لك فى دبر كل صلاة ، والدعاء عليك فى آتاء الليل
والنهار ، والغدق والآصال ؛ ولا كتبت إلى مضر ، وأجناد الشامات والثغور ،
وقيسرين ، والعواصم ، والجزيرة ، والحجاز ، ومكة ، والمدينة كتباً تقرأ على منارها

فيك ، باللهن لك ، والبراءة منك ، والدلالة على عقوقك وقطيعتك ؛ يتناقلها آخر عن أول ، ويأثرها غائر عن ماض ، وتخلد في بطون الصحائف ، وتعملها الرُكبان ، ويحدث بها في الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما أطرد الليل والنهار ، وأختلف الظلام والأنوار .

فحينئذ تعلم أيها المخالف أمر أبيه ، الفاطح رحمة ، العاصي ربه ؛ أي جنابة على نفسك جنيت ؟ وأي كبيرة أقرت واجتنت ، وتثني لو كانت فيك مسكة ، أو فيك فضل إنسانية ؛ أنك لم تكن ولدت ، ولا في الخلق عرفت ؛ إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا خاضعا ذليلا كما يلزوك ، فيقيم الاستغفار مقام اللعنة ، والرقعة مقام الغلظة ؛ والسلام على من سمع الموعظة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى .



وكما كتب الأخشيد محمد بن طنج [صاحب الديار المصرية] ^(١) وما معها من البلاد الشامية ، والأعمال المجازية ، إلى أرمأنوس : ملك الروم ، وقد أرسل أرمأنوس إليه كتابا يذكر من حملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادته أن يكتب إلا الخليفة ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكتاب عدة أجوبة ورفعوا نسخها إليه ، فلم يرض منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النجيري وكان عالما بوجوه الكتابة .

ونسخته على ما ذكره ابن سعيد في كتابه "المغرب في أخبار المغرب" :

من محمد بن طنج مولى أمير المؤمنين ، إلى أرمأنوس عظيم الروم ومن يليه .

سلام بقدر ما أتم له مستحقون ، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد، فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع نُقُولِنا وإسحاق رسولك ، فوجدناه مَفْتَحًا
بذكر فضيلة الرحمة، وما يُحْيِي عَنَّا إِلَيْكَ، وَصَحَّ من شَيْئَانِ فِيهَا لَدَيْكَ ؛ وبما نحن عليه
من الْمَعْدِلَةِ وَحُسْنِ السَّيْرِ فِي رِعَايَاتِنَا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء
والتوصل إلى تخلص الأسرى، إلى [غير] ذلك مما أَشْتَمَل عليه ونفهمناه .

فأما ما أَطْبَعَتْ فِيهِ من فضيلة الرحمة فمن سَدِيدِ القول، الذى يُلْقِي بِدَوَى الْفَضْلِ
وَالنَّبْلِ ؛ ونحنُ نُبْجِدُ الله ونعِمْه علينا بذلك عَارِفُونَ ، وإليه رَاغِبُونَ ، وعليه باعْثُونَ ،
وفيه بتوفيق الله إِيَّانَا مُجْتَهِدُونَ ، وبه مُتَوَاصُونَ وعَامِلُونَ . وإِيَّاهُ نَسْأَلُ التَّوْفِيقَ لِمَا رَأَيْدُ
الْأُمُورِ وَجَوَامِعِ الْمَصَالِحِ بِمَنَّةٍ وَقُدْرَةٍ .

وأما ما نَسَبَتْهُ إِلَى أَخْلَاقِنَا من الرحمة والمَعْدِلَةِ ، فَإِنَّا نَرْغَبُ إِلَى الله جَلَّ وَعَلَا الذى
تَفَرَّدَ بِكَمَالِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ ، وَوَهَبَهَا لِأَوْلِيَائِهِ ثُمَّ أَنَابَهُمْ عَلَيْهَا ، أَنْ يُوقِّعَنَا لَهَا ، وَيُصَلِّحَنَا
مِنْ أَهْلِهَا ، وَيُسَيِّرَنَا لِلْإِجْتِهَادِ فِيهَا ، وَالْإِعْتَصَامِ مِنْ زَيْغِ الْهَوَى عَنِهَا ، وَغِرَّةِ الْفُسُوقِ
بِهَا ؛ وَيَجْعَلُ مَا أَوْدَعَ قُلُوبَنَا مِنْ ذَلِكَ مَوْقُوفًا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَمُوجِبَاتِ مَرْضَاتِهِ ؛
حَتَّى نَكُونَ أَهْلًا لَهَا وَصَفَّتْنَا بِهِ ، وَأَحَقَّ حَقًّا بِمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ ؛ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الزُّلْفَى
مِنْ الله تَعَالَى ، فَإِنَّا فُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِهِ . وَحَقٌّ لِمَنْ أَنْزَلَهُ اللهُ بِحَيْثُ أَنْزَلَنَا ، وَحَمَلَهُ مِنْ
جَسِيمِ الْأُمْرِ مَا حَمَلْنَا ؛ وَجَمَعَ لَهُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِكِ مَا جَمَعَ لَنَا بِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، أَنْ يَتَّيْهَلَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي مَعُونَتِهِ لِدَلِّكَ وَتَوْفِيقِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ
إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا قَلَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

وأما ما وَصَفَتْهُ مِنْ أَرْتِفَاعِ عَمَلِكَ عَنْ مَرْتَبَةٍ مَنْ هُوَ دُونَ الْخَلِيفَةِ فِي الْمَكَاثِبَةِ لِمَا
يَقْتَضِيهِ عِظَمُ مُلْكِكَ ، وَأَنَّهُ الْمُلْكُ الْقَدِيمُ الْمَوْهُوبُ مِنْ الله ، الْبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ ،
وَأَنَّكَ إِنَّمَا خَصَصْتَنَا بِالْمَكَاثِبَةِ لِمَا تَحَقَّقَتْهُ مِنْ حَالِنَا عِنْدَكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ حَقًّا

وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصّر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك في ترك مكاتبنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحطى وأرشد وأولى بن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وشمّة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقّبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ؛ ويعرض مهجته ، فيما ينفع رعيته ؛ والذي نجشّمته من مكاتبنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ؛ وجل نفعه وصلاحه وعائده تخصّصكم ، لأن مذهبنا أنتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منّا في أيديكم فهو على بينة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله ؛ وإن في الأسارى من يؤثّر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وغيرها لحسن متقلبه ، وحيد عاقبه ؛ ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه ، ولم يعده من أن يثليه . هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم ، وماتوجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ؛ ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المسامحة في الجواب ؛ لأضربنا عن ذلك صفحاً . إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سمّا إلى مكتبة الخلفاء عليهم السلام من كتابهم ، أو عدا عنهم إلى من حلّ محلنا في دولتهم ؛ بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد متمسّسه من جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كلّ في إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جلّ قدره في ردّهم ؛ ومن وثق في نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبلين عليه ، وأدناها إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم . وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ؛ فمالئك عتة ، كان يتقلد في سالف الدهر كلّ مملكة منها ملك عظيم الشأن .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطنى فرعون على خَطَر أمره، حتى أدعى الإلهية وأنتصر على نبي الله موسى بذلك .

ومنها ممالك اليمن التى كانت للتبابعة، والأقيال العَبَّالَة : ملوك حمير، على عظم شأنهم، وكثرة عددهم .

ومنها أجناد الشام التى

منها جُندُ حِصص، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظمائها .

ومنها جُندُ دِمَشق على جلالته فى القديم والحديث، واختيار الملوك المتقدمين له .

ومنها جُندُ الأُرْدُن على جلالته قدره، وأنه دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين .

ومنها جُندُ فلسطين، وهى الأرض المقدسة، وبها المسجد الأقصى، وكرسى النصرانية، ومعتقد غيرها، ومحج النصارى واليهود طراً، ومقر داود وسليمان ومسجدهما . وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوب ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام، وبها مولد المسيح وأمه وقبرها .

هذا إلى ما انتقله من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة؛ فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرىها، وعظم قدرها، وما حوت من الفضل تُوفى على كل مملكة، لأنها محج آدم ومحج إبراهيم^(١) وارثه ومهاجرة، ومحج سائر الأنبياء، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره، ومنبت ولده، ومحج العرب على مر الحقب، ومحل أشرافها، وذوى أخطارها، على عظم شأنهم، ونفاسة أمرهم . وهو البيت

(١) كذا فى "المغرب" أيضاً ويظهر أنه مقدم على ما بعده ويكون الضمير فيه عائداً على سيدنا إسماعيل فإن مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحترم المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذى يعترف بفضلِهِ وقَدَمِهِ أَهْلُ الشرف ، من مَضَى وَمَنْ خَلَفَ ؛ وهو اليَتُّ المعمور ، وله الفضلُ المشهور .

ومنها مدينةُ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقدَّسةُ بِرَبَّتِهِ ، وإنَّهَا مَهِيْطُ الوَحْيِ ، وبيضةُ هذا الدِّينِ المستقيمِ الذى أَمْتَدَّ ظِلُّهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالْمَهْلِ وَالْوَعْرِ ، وَالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَصَحَارَى الْعَرَبِ عَلَى بَعْدِ أَطْرَافِهَا ، وَتَسَازُجِ أَقْطَارِهَا ؛ وَكَثْرَةِ سُكَّانِهَا فِي حَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا ، وَعَظَمِهَا فِي وَفُودِهَا وَشِدَّتِهَا ، وَصِدْقِ بَاسِهَا وَتَجَدُّدِهَا ؛ وَكِبَرِ أَحْلَامِهَا ، وَبُعْدِ مَرَامِهَا ، وَأَعْقَادِ النُّصْرَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِرَايَاتِهَا . وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَادَ خَضْرَاءِ كِسْرَى ، وَشَرَّدَ قَيْصَرَ عَنْ دَارِهِ وَمَحَلِّ عِزِّهِ وَبَجْدِهِ بِطَائِفَةِ مِنْهَا . هَذَا إِلَى مَا تَعَلَّمَهُ مِنْ أَعْمَالِنَا ؛ وَتَحْتَ أَمْرِنَا وَنَهْيِنَا ثَلَاثَةُ كِرَاسِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ كِرَاسِيَّتِكُمْ : بَيْتُ الْعَقْدِسِ ، وَأَنْطَاكِيَّةُ ، وَالْإِسْكَندَرِيَّةُ . مَعَ مَا إِلَيْنَا مِنَ الْبَحْرِ وَجَزَائِرِهِ ، وَاسْتَظْهَارِنَا بِأَتَمِّ الْعِتَادِ . وَإِذَا وَقَّيْتَ النَّظَرَ حَقَّهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَصْفَانَا بِحُجَلِ الْمَالِكِ الَّتِي يَنْتَفِعُ الْأَنْامُ بِهَا ، وَبَشَرَفِ الْأَرْضِ الْمُخْصُوصَةِ بِالشَّرَفِ كُلِّهِ دُنْيَا وَآخِرَةً ، وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ مِثْلَنَا بِمَا وَهَبَهُ اللَّهُ لَنَا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ كُلِّ مِثْلَةٍ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِىَّ كُلِّ نِعْمَةٍ .

وَسَيَّاسَتُنَا لِهَذِهِ الْمَالِكِ قَرِيبًا وَبَعِيدًا عَلَى عِظَمِهَا وَسَعَتِهَا بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَإِحْسَانِهِ إِلَيْنَا وَمَعُونَتِهِ لَنَا وَتَوْفِيقِهِ لِإِنَّا كَمَا كَتَبْتَ إِلَيْنَا وَصَّحَّ عِنْدَكَ مِنْ حُسْنِ السَّيَرَةِ ، وَبِمَا يُؤَلَّفُ بَيْنَ قُلُوبِ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَةِ وَيَجْمَعُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَاجْتِنَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَيُوسِعُهَا الْأَمْنَ وَالِدَّعَةَ فِي الْمَعِيشَةِ وَيُكْسِبُهَا الْمَوَدَّةَ وَالْحُبَّةَ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوَّلًا وَآخِرًا عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تَفُوتُ عِنْدَنَا عِبَادَ الْعَادِّينَ ، وَإِحْصَاءَ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَتَنْشُرُ النَّاشِرِينَ ، وَقَوَّلَ الْقَائِلِينَ ، وَشُكْرَ الشَّاكِرِينَ . وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ تَحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ شُكْرًا لَهَا ، وَنَشْرًا لِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنْهَا [وَمَنْ رَضِيَ

اجتهاده في شكرها، ومن أراد الآخرة^(١) وسعى لها سعيها؛ وكان سعيه مشكورا، إنه حديد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقُدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن^(٢) أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا آخذنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومثرتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم ، جميع من تقدمك من سلفك . ومن كان مجودا في أمره ، رغب في محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبك ومماثلتك من آسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ؛ فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمّة ؛ وهي أجل الممالك التي يتفجع بها الأنام ، ويسر الأرض المخصوصة بالشرف . فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصصين بذلك إلى مالنا بقديمتنا وحديثنا وموقعنا . والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلطفه . ولم يتطو عنك أمرنا فيما آخذنا ،

وإن [كنت] تجرى في المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدلت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل حملنا ، ولا أغنى

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

(٢) في المغرب "لم يجوز لنا أن نعدل الخ" .

غَاءَنَا ، ولا مَسَاسَ في الأمور سياسَتَنَا ، ولا قَلْدَه مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه
ما قَلْدَنَا ، ولا فَوْضَ إلَهِه ما فَوْضَ إلَينَا ؛ وقد كُوتِبَ أبو الحَيْشِ نُمَارويه بن أحمد
ابن طُولون ، وآخر من كُوتِبَ تَكِينِ مولَى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مِصرَ
وأعْمَالِهَا .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرنا على نِعَمِهِ الَّتِي يَفُوتُ عِنْدَنَا عَدُّهَا عَدَّ الْعَادِّينَ ،
وَنُشْرُ النَّاشِرِينَ . ولم نرد بما ذَكَرناه المَفَانِرَةَ ، وَلَكِنَّا قَصَدْنَا بِمَا عَدَدْنَا مِنْ ذَلِكَ
حَالَاتٍ : أَوَّلُهَا التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا ؛ ثُمَّ الْجَوَابُ عَمَّا تَضَمَّنَتْ تَخْلُوكَ مِنْ ذِكْرِ الْمَحَلِّ
وَالْمُزِيلَةِ فِي الْمَكَاتِبَةِ ، وَلِتَعْلَمَ قَدْرَ مَا بَسَطَهُ اللَّهُ لَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَعِنْدَنَا قُوَّةٌ تَامَةٌ عَلَى
الْمُكَافَاةِ عَلَى جَمِيلِ فِعْلِكَ بِالْأَسَارِيِّ ، وَشُكْرُ وَاثِقٍ لِمَا تُؤَلِّمُهُمْ وَتَتَوَخَّاهُ مِنْ مَسَرَّتِهِمْ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَفَقَّكَ اللَّهُ لِمَوَاهِبِ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالتَّوْفِيقِ
لِلسَّدَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، وَالتَّيْسِيرِ لِمَصْلَاحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُنِيبُ
عَلَيْهِ ، وَيَرْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَهْلَهُ ، بِمَنَّةٍ وَرَحْمَةٍ .

وأما الْمُلْكُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ بَاقٍ عَلَى الدَّهْرِ لِأَنَّهُ مُوَهَّبٌ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ خَاصَّةً ،
فَإِنَّ الْأَرْضَ اللَّهُ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيينَ . وَإِنَّ الْمُلْكَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُؤْتِي
الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الْخَلِيرِ
وَالِإِلَهِ الْمَصِيرِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَسَخَ مُلْكَ الْمُلُوكِ وَجَبَرِيَّةَ
الْجَبَّارِينَ بِبُيُوتِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ ، وَشَفَعَ نَبُوَّتَهُ بِالْإِمَامَةِ وَسَازَها
إِلَى الْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ مِنَ الْعُنُصُرِ الَّذِي مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أطال الله بقاءه ، وَالشَّجَرَةَ الَّتِي
مِنْهَا غُصْنَتُهُ ، وَجَعَلَهَا خَالِدَةً فِيهِمْ يَتَوَارَثُهَا مِنْهُمْ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ ، وَيُلْقِيهَا مَاضٍ إِلَى غَايٍ ؛
حَتَّى تَجْزَأَ أَمْرُ اللَّهِ وَوَعْدُهُ ، وَبَهْرُ نَصْرِهِ وَكَلِمَتُهُ ، وَأُظْهِرَ حُجَّتُهُ وَأَضَاءَ عُمُودِ الدِّينِ بِالْأَئِمَّةِ

المهتدين ، وَقَطَعَ دَابَرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

وإنَّ أَحَقَّ مُلْكٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَأَوْلَاهُ وَأَخْلَقَهُ أَنْ يَكْتَفِيَ اللَّهُ بِمُحْرَاةِ وَحِياطَتِهِ ، وَيُخَفِّهِ بَعْزَهُ وَأَيْدِهِ ، وَيَجَلِّلَهُ بِهَاءِ السَّكِينَةِ فِي بَهْجَةِ الْكَرَامَةِ ، وَيَجْمَلُهُ بِالْبَقَاءِ وَالنَّجَاءِ مَالِاحٍ بِخَرٍّ ، وَكَرْدَهَرٍ ، مُلْكُ إِمَامَةٍ عَادِلَةٍ خَلَقَتْ نَبَوَّةً بِفَرَتْ عَلَى رُسُلِهَا وَسَنَّتْهَا ، وَارْتَسَمَتْ أَمْرَهَا ، وَأَقَامَتْ شَرَائِعَهَا ، وَدَعَتْ إِلَى سُبُلِهَا ، مُسْتَنْصِرَةً بِأَيْدِهَا ، مُنْتَجِزَةً لَوَعْدِهَا ؛ وَإِنَّ يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ إِمَامَةِ عَادِلَةٍ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا تَمْلُكًا وَجَبَرِيَّةً .

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُدِيمَ نِعَمَهُ عَلَيْنَا ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْنَا بِشَرَفِ الْوَلَايَةِ ، ثُمَّ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ بِمَا وَفَّرَ عَلَيْنَا نَفْرَهُ وَعُلاَهُ ، وَبِجَدِّهِ وَإِحْسَانِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَأَمَّا الْفِدَاءُ وَرَأْيُكَ فِي تَخْلِصِ الْأَسْرَى ، فَإِنَّا وَإِنَّا مُكَّانًا وَاقِفِينَ لَنْ فِي أَيْدِيكُمْ بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، وَعَلَى بَيْنَةِ لَهْمٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَثَبَاتٍ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَعِظَمِ الْمَثُوبَةِ ، طَالِمِينَ بِمَا لَهْمٌ ، فَإِنْ فِيهِمْ مِنْ يُؤْثِرُ مَكَانَهُ مِنْ ضَنْكِ الْأَسْرِ وَشِدَّةِ الْبِاسَاءِ عَلَى نَعِيمِ الدُّنْيَا وَلَذَنُهَا ، سَكُونًا إِلَى مَا يَتَحَقَّقُهُ مِنْ حُسْنِ الْمُنْقَلَبِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ . وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَهُ مِنْ أَنْ يَقْتَنِيَهُ ، وَلَمْ يُعِدِّهِ مِنْ أَنْ يَتْلِيَهُ ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَّا مَعَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْبَابِ مَا شَرَعَهُ لَنَا الْأُئِمَّةُ الْمَاضُونَ ، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُونَ ؛ فَوَجَدْنَا ذَلِكَ مُوَافِقًا لِمَا آتَمَسْتَهُ ، وَغَيْرَ خَارِجٍ عَمَّا أَحَبَبْتَهُ ؛ فَمُرَرْنَا بِمَا تَيْسَّرَ مِنْهُ ، وَبَعَثْنَا الْكِتَابَ وَالرُّسُلَ إِلَى عُمَّالِنَا فِي سَائِرِ أَعْمَالِنَا ، وَعَزَمْنَا عَلَيْهِمْ فِي جَمْعِ [كُلِّ مَنْ قَبْلَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِمَا وَفَرَ الْإِيمَانَ فِي إِنْفَاقِهِمْ ، وَبَذَلْنَا فِي ذَلِكَ] ^(١) كُلِّ مِمَّا مُمْكِنٌ ، وَأَخَّرْنَا إِبْجَابَتَكَ عَنْ كِتَابِكَ لِتَقْدِمَ فَعَلُنَا

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

قولنا ، وإِنْجَازُنَا وَعَدَانَا ؛ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَهَرَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ مِنْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وأما ما آتَيْنَا بِهِ مِنَ الْمُوَاصَلَةِ ، وَاسْتَشْعَرْتَهُ لَنَا مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالْحُبَّةِ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا مِنْ مَقَابِلَةِ ذَلِكَ مَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ الَّتِي تَجْمَعُنَا عَلَى اخْتِلَافِ الْمَذَاهِبِ ، وَتَقْتَضِيهِ نِسْبَةِ الشَّرَفِ الَّتِي يُؤَلِّفُنَا عَلَى تَبَايُنِ النُّصْلِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُخَصِّنُنَا وَإِيَّاكَ .
ورَأَيْنَا مِنْ تَحْقِيقِ جَمِيلِ ظَنِّكَ بِنَا لِيُنَاسَ رُسُلُكَ وَبَسْطِهِمْ ، وَالِاسْتِمَاعَ مِنْهُمْ وَالِإِصْغَاءَ إِلَيْهِمْ وَالِإِقْبَالَ عَلَيْهِمْ ؛ وَتَلَقُّنَا أَنْبَسَاطَكَ إِلَيْنَا ، وَالطَّافَكَ لِيَانَا بِالْقَبُولِ الَّتِي يَحِقُّ عَلَيْنَا ؛ لِيَقَعَ ذَلِكَ مَوْقِعَهُ . وَزَدْنَا فِي تَوْكِيدِ مَا اعْتَمَدْتَهُ مَا حَمَلْنَاهُ رُسُلُكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ عَلَى اسْتِقْلَالِنَا إِيَّاهُ مِنْ طَرَائِفِ بَلَدِنَا وَمَا يَطُرُ مِنَ الْبِلَادِ عَلَيْنَا ؛ وَإِنَّ اللَّهَ بِسَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَوْدَعَ كُلَّ قَرْيَةٍ صِنْفًا ، لِيَتَشَوَّفَ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِ عَنْهُ ، فَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمَعَارَةِ الدُّنْيَا وَمَعَاشِ أَهْلِهَا . وَنَحْنُ نَفْرُدُكَ بِمَا سَلَّمْنَاهُ إِلَى رَسُولِكَ لَتَقِفَ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وأما مَا أَنْفَضْتَهُ لِلتِّجَارَةِ فَقَدْ أَمَكَّا أَصْحَابَكَ مِنْهُ ، وَإِذَا لَمْ فِي الْبَيْعِ وَفِي آبَتِياعِ مَا أَرَادُوهُ وَآخْتَارُوهُ ؛ لِأَنَّا وَجَدْنَا جَمِيعَهُ مِمَّا لَا يَحْظَرُهُ عَلَيْنَا دِينٌ وَلَا سِيَاسَةٌ . وَعِنْدَنَا مِنْ بَسْطِكَ وَبَسْطِ مَنْ يَرِدُ مِنْ جِهَتِكَ ، وَالْحَرِصِ عَلَى عِمَارَةِ مَا بَدَأْتَنَا بِهِ وَرِعَايَتِهِ ، وَرَبِّ مَا غَرَسْتَهُ ، أَفْضَلُ مَا يَكُونُ عِنْدَ مِثْلِنَا لِمِثْلِكَ . وَاللَّهُ يُعِينُ عَلَى مَا نَنْوِيهِ مِنْ جَمِيلٍ ، وَتَعَقُّدِهِ مِنْ خَيْرٍ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَمِنْ آبَتْنَا بِجَمِيلٍ لَزِمَهُ الْحَرِيُّ عَلَيْهِ وَالزِّيَادَةُ ، وَلَا سِيَمَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِهِ وَخَلِيقًا بِهِ . وَقَدْ آبَتْنَا بِالْمَوَاسَّةِ وَالْمُبَاسَّطَةِ ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِعِمَارَةِ مَا بَدَأْنَا ، وَبِاعْتِمَادِنَا بِجَوَائِجِكَ وَعَوَارِضِكَ قَبْلَنَا ؛ فَأُبَيِّرُ بِتَسْيِيرِ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَحَقُّ مَا آبَتَدِي بِهِ ، وَخُتِمَ بِذِكْرِهِ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

الحالة الثانية

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة الأيوبية)

وقد ذكر «عبدالرحيم بن شيث» أحد كتّاب الدولة الأيوبية في أواخر دولتهم مصطلح ما يكتب عن السلطان في خلال كلامه، فقال: إن الناس كانوا لا يكتبون «المجلس» إلا للسلطان خاصة، ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحضرة» ثم أفردوا السلطان بالمقام والمقر، وصاروا يكتبون «المجلس» لمن دونه، ولم يسوغوا مكتبة السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحضرة. قال: ويكتب السلطان إلى ولده المستخلف عنه «المجلس» دون المقام. وأصطلحوا على الاختصار في نعت الملوك المكتوب إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحت أمر السلطان وتحت حوزته، فإنه كلما كثرت النعوت والدعاء له في مكتبة السلطان إليه، كان أبلغ: لأن ذلك في معنى التشريف من السلطان، وأنه لا يقال في المقام «السامى» بل «العالى». وأنه إذا كتب السلطان إلى من هو دونه من ذوى الأقدار عبر «بالمجلس السامى»، ولا يزداد على ذلك، ثم يفرد عن النسب بعد السامى، فيقال: الأمير الأجل من غيرياء النسب. وأنه لا يقال العالى مكان السامى في الكتابة عن السلطان، وقد يجمع بينهما لذوى الأقدار، وأنه يضاف في نعت كل أمير «عمدة الملوك والسلاطين عز الإسلام، أو نصرة الإسلام، أو فارس المسلمين» أو ما شابه ذلك من غير ضبط ولا تخصيص لأحد دون أحد إذا أحرزوا النعت الذى أشتهر به المكتوب إليه. وأنه يقال: «عمدة الملوك والسلاطين» و«عمدة الملوك والسلاطين» و«دُخْر الملوك» ودونها «اختيار الملوك». ولأقارب «نُخْر الملوك» و«جمال الملوك» و«عز الملوك» و«زين الملوك». ولأما مثل «معين الملوك» و«نصرة الملوك» وما أشبه ذلك.

وأنه يكتب للأمرء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و«سَيْفُ أمير المؤمنين» .
ولكُبراء الدولة من الكُتّاب : «خاصّةُ أمير المؤمنين» و«وَلِيُّ أمير المؤمنين»
و«صفوةُ أمير المؤمنين» . و«ثِقَّةُ أمير المؤمنين» و«صَنِيعَةُ أمير المؤمنين» على
مقدار مراتبهم . وأن نعتَ الأجلّ يذكر بعد العلوّ والسّموّ بأن يقال : «المجلس العالى
الأجلّ» أو «السامى الأجلّ» وربما كان بعد ذكر الإمرة أو القضاء فيقال
«الأمير الأجلّ» أو «القاضى الأجلّ» . وأن السلطان لا يتدعى بالدعاء في كتبه إلى
أحدٍ إلا من ماثله في الملُك . وأن السلطان لا يكتب إلى أحد من هو تحت أمره
«بلا زَالٍ» «ولا بَرَحٍ» في الدعاء ، وإنما يكتب بذلك إلى من ماثله من الملُوك ،
أو إلى ولده المستخلف عنه في الملُك . وأن الدعاء للملوك يكون مثل «أدام الله أيامه»
و«خَلَدَ سلطانه وثَبَّتَ دولته» وما أشبه ذلك . وأن التحميد في أوائل الكُتب
لا يكون إلا في الكُتب الصادرة عن السلطان . وأن غاية عَظَمة المكتوب إليه أن
يكون الحمدُ ثانية وثالثة في الكُتاب ، ثم يؤتى بالشهادتين ، ويصلّى على النبي صلى الله
عليه وسلم . وأنه يكتب في الكتب السلطانية «صدرت» و«أصدرناها» ولا يكتب
«كتبت» . وأن الذى يُخاطَب به الخلافةُ عن السلطان : «المواقف المقدسة
الشريفة ، والعُتبات العالِيَة ، ومَقَرِّ الرحمة ، ومَحَلِّ الشرف» . والذى يُخاطَب به
الملوك : «المقام العالى ، والمَقَرُّ الأشرف» ولا يقال «المَقَام السامى» . والذى
يُخاطَب به الوزراء ؛ «الجناب العالى ، والمَحَلَّ السامى» . ومن دون ذلك «المجلس
السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحضرة» . وأنه لا يكتب عن السلطان
لمن هو تحت أمره إلا بنون الجمع لدلالاتها على العَظَمة ، ولا يُكْتَب «تسعر» إلا عن
السلطان خاصّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة
الطرّة ، وتكون بقلم جليل غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتى يكون بين كل

سطين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لا يخرج عن سَمَتِ البسمة في الكتابة ، ولا يحتمل ذلك إلا في الحمدة . وأنه لا يكثر النقط والشكل في الكتب الصادرة عن السلطان لاسيما في الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء على العدو كان محظورا في الكتب الصادرة عن السلطان إلى مَنْ دُونَهُ ، ثم أَسْتَعْمَلَ ذلك . وأنه لا تترك فضلا في آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب في حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان في كتبه لمن تحت أمره أعلام وأدنام ، العلامة ؛ فإن أراد تمييز أحد منهم كتب له شيئا بخطه في مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلى البسمة من السلطان أقرب ، وأنه لا حرج على السلطان أن يترجم للقضاة والعلماء والعباد بأخيه وولده . وأن عَونَةَ الكتاب وختمه مَخْصَصٌ بصاحب ديوان الإنشاء ليُدَلَّ ذلك على وقوفه على الكتاب . وأنه لا يجوز عَونَةُ الكتاب قبل أن يَكْتُبَ عليه السلطان ترجمته أو علامته . وأن الكتب لا تبقى مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكتاب ختمه ، ولا أَكْرَمَ من كتب السلطان ؛ ويكون طَيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتبتهم على أربعة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بالدعاء للجلس أو الجَناب)

مثل : أدام الله أيامَ المجلس ، أو أدام الله سلطانَ المجلس ، أو أدام الله نعمةَ المجلس ، أو أدام الله اقتدارَ المجلس ، أو أدام الله سعاداتِ المجلس ؛ أو خلد الله أيامَ المجلس أو سلطانَ المجلس ، أو بُدِّتَ الله دولةَ المجلس ، وما أشبه ذلك مما فيه معنى

(١) في الضم " وأنه يترك " بنير لا النافية وإثباتها أوضح .

الدوام ؛ وربما أبدل لفظ الدوام وما في معناه بالمُضَاعَفَة ، مثل : ضاعَفَ الله نعمة المجلس . ويؤتى على الألقاب إلى آخرها ، ثم يقال : نُشِعِرَ المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك ، ويؤتى على المقصود إلى آخره ، ويُحْتَمَّ بالدعاء وقد يُحْتَمَّ بغيره .

وهذه نسخة مكاتبة من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح غزرة وأقلاعها من الفرنج الديوية ، الذين كانوا مستولين عليها ، وهي :

» أدام الله سعادَاتِ المجلس ، وأحسن له التدبير ، وأصفى عيشه من التكدير ، وَحَقَّقَ له وفيه أحسنَ الرجاء والتقدير ، وجعل وجهه من أهلة الأكابر والتكبير ، وأعاد تأخير أجله من التقديم وتقديم حظه من التأخير .

نُشِعِرَ المجلس بما منَّ الله تعالى به من فتح مدينة غزرة يوم الجمعة الجامع لشمَلِ النصر ، القاطع لحبل الكُفْرِ ؛ وهذه المدينة قد علم الله أنها من أوسع المدائن ، وأملأ الكائن ، وأثرى المعادِن ؛ وهي كريمة الديوية ومهيطة رُؤوسهم ، ومحط نفوسهم ، وحيى كليبهم بل كلابهم ، وظهيرُ صليبيهم بل أصلابهم ؛ وما كانت الأبصار إليها تطمح ، ولا الأقدارُ بها قبلنا تسمع ؛ ولها قلعة أنفها شاخ في الهواء ، وعطفها جامع عن عطفة اللواء ؛ قد أوغلت في الجوّ مرتفعه ، وأومضت في الليل مُتَمِّعه ، ويردء السحاب ملتفعه ؛ قد صاحتها أيدى الأنام بالسلامة من قوارِعها ، وهادتها حوادث الأيام على الأمن من روائعها ، إلى أن أتيج لها من أتاح لها الحين ، وقُبِضَ لها من اقتضى منها الدين ؛ فصَبَّحَها بما ساء به صَبَّاحُها ، وزَعَرَها بالزُّعْر الذي نَحَسَ له بُنْأُها . وكانت من خبرها أننا لما أطلنا عليها مُفْهِرين ، وأطفنا بها دائرَين ، ولكُؤوس الحرب مُدِيرَين ؛ تَغَلَّتِ الأبناجُ والأبطال على الزحف ، وأعجلَ أرتياح النصر عن انتظام عقد الصف ، وأَقْضَوْا عليها ، أَقْضَاضَ البُرَّة على طرائدها ، وأسرعوا إليها ، إسرَاعَ العطاش إلى مَوَارِدِها ؛

ورُفِعَت الألوِيَّةُ خافِقةٌ كذَوَابِ الضَّرَامِ ، طالعةٌ برسائلِ الحِمَامِ ، مُشيرةٌ بالعَدَبَاتِ
إشارةً لم يطمئِنُوا إليها بالسَّلامِ ؛ وجاءهم الموتُ من كلِّ مكانٍ ، وأُمْطِرَتِ الثُّمْبُ
من كلِّ سِتَانٍ ؛ فرَأَوْا مَتَوَاهِمَ الحَيِّيبِ ، ومَحْلَهَمَ الحَصِيبِ ؛ وقد رَكَضَتْ فِيهِ خِيُولُ
الْغَيْرِ ، وأَعْرَضَتْ فِيهِ سُيُولُ الْعِبرِ ، وَجُرِدَتْ فِيهِ نُصُولُ الْقَدَرِ ؛ والنَّارُ قد لَعِبَتْ فِيهِ
مُجِدَّةً ، وأَحْمَرَّتْ فِيهِ خَدُودُهَا مَخْدَةً ؛ وأَقْوَاتَهُمُ الْمُدْنَحَرَّةُ ، وَأَمْوَالُهُمُ الْمُتَمَرِّهَةُ ؛ فَفَلَا
مُبَاحًا ، وَزَيْدًا مُطَاحًا ؛ وَمَغْنًا مُشَاعًا ، وَنَهْيًا مُضَاعًا ؛ قَدُمِلَتْ مِنْهُ الرِّحَالُ وَأَخْصَبَتْ ،
وَأَتَسَعَتْ بِهِ الأَيْدِي وَضَاقَتْ بِهِ الأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ .

الأسلوب الثانى

(أن تُفْتَحَ المكتبةُ بلفظ الإصدار)

مثل : أصدرنا هذه المكتبة ، أو أصدرت ، أو صدرت ؛ ويؤتى على المقصود
على ما تقدم .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضل ، عن السلطان
«صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن ، يستقدمه
إليه معاونًا له على قتال الفرنج خذلهم الله ! ويدشّره بفتح كوكب ، وصفد ، والكرك
فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو :

«أصدرنا هذه المكتبة إلى المجلس ، ومما تجلّد بحضرتنا فتوح كوكب : وهى كرمى
الاستبارية ودار كفرهم ، ومستقرّ صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذرهم ؛
وكان يجمع الطُّرُق قاعدا ، ولملتقى السُّبُل راصدا ؛ فتعلّقت بفتحه بلادُ الفتح
وأستوطنت ، وسليكت الطُّرُق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ؛ ولم يبق
فى هذا الجانب إلا صور ، ولولا أن البحر يُجيدُها ، والمراكب تَرِدُها ؛ لكان قيادها

قد أمكن ، وحرّاحها قد أذن ، وما هم بحمد الله في حصن يجمعهم ، بل في سجين يحويهم ؛ بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء ، وأموات وإن كانوا أحياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَحْجِلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ولكل أمرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه ، وأمل لا بد أن يكذبه خائبه . وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحت صفد بلد الديوية ومعقلهم ، ومشتغلهم وعملهم ، ومحلهم الأحصن ومترهم ؛ وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه ؛ والمجلس السيفي أسماء الله أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته المتخلة ، وقضيته المشككة ، وعلة المضلة ؛ وأن الفرنج - لنهم الله - كانوا يقعدون منه مقاعد السمع ، ويتبؤون منه مواضع النقع ؛ ويحولون بين قات وراكبها ، فيذلّلون الأرض بما كان منه نفلا على منّا كبا ؛ والآن ما من بلاد الحرمين ، بأشد من أمن بلاد الحرمين ؛ فكلها كان مشتركاً في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت ترائي ولا ترام ، وتسامي ولا تسام ؛ وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن صجّت النصال من النصال ؛ والله المشكور على ما أنطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام . وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا ثانيا إلا قليلاً سلاًماً سلاًماً . وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بين الأنواء في موكبه ؛ والتلوج تنشر على البلاد ملاءها القضيض ، وتكسو الجبال عمامها البيض ؛ والأودية قد تجت بامها ، وفاضت عند امتلائها ؛ وشجّت أنوفها سيولا ، تخرقت الأرض وبلغت الجبال طولا ؛ والأحوال قد اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات ؛ فتجشمتنا السناء نحن ورجال العساكر ، وكاترتا العدو والزمان وقد يحرز الحظ المكاث ؛ وعلم الله النية فأنجدنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ؛ وزلنا من رعوس الجبال بمنازل كان

(١) في "الرويتين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أضعَبَ من ثِقَلِها ، والوقوفُ بساحتِها أهونُ من ثِقَلِها ؛ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

والحمد لله الذى ألهمنا بِنِعْمَتِهِ الحديث ، ونَصَرَ بِسَيْفِ الإسلام الذى هو سَيْفُهُ وسَيْفِ الإسلام الذى هو أَخُونَا الطيبَ على النخِيتِ ؛ فمدَحُ السيفِ يَنقِمُ على حَديثه ، ومدَحُ الكريمِ يتعدى إلى يَدَيْهِ ؛ وَالآنَ فَالْمَجْلِسُ - أَسْمَاءُ اللَّهِ - يَعْلَمُ أَنَّ الْفَرَنْجَ لَا يَسْلُونُ عَمَّا فَتَحْنَا ، وَلَا يَصْهَرُونَ عَلَى مَا جَرَحْنَا ؛ فَإِنَّهُمْ - خَذَلُمُ اللَّهُ - أُمَمٌ لَا تُحْصَى ، وَجَبِشُوا لَا تُسْتَقْصَى ؛ وَوَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْبَحْرِ مَنْ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا ، وَيَطْمَعُ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ كَسْبًا ؛ وَيَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأَقْرَبِيهِمْ وَأَبْعَدِيهِمْ ؛ وَ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ، ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ .

وَمَا هُمْ إِلَّا كَلَابُ قد تَعَاوَتْ ، وَشَيَاطِينُ قد تَفَاوَتْ ؛ وَإِنْ لَمْ يُقَدِّمُوا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ، وَيُتْبِعُوا بِكُلِّ شَهَابٍ نَاقِبٍ مَدْحُورًا ، أَسْتَأْمَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَتَأَلَّبُوا وَجَلَبُوا وَأَجْلَبُوا ، وَحَارَبُوا ، وَحَرَّبُوا ، وَكَانُوا لِبَاطِلِهِمُ الدَّاحِضُ ، أَنْصَرَمْنَا لِحَقِّهَا النَّاهِضُ ؛ وَفِي ضَلَالِهِمُ الْفَاضِحُ ، أَبْصَرَمْنَا لِهَدَانَا الْوَاضِحُ . وَلَهُ دُرٌّ جَرِيحٌ يَقُولُ :
إِنَّ الْكَرِمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَمَ أَبْنَاهُ ، * وَأَبْنُ اللَّثِيمَةِ لِلثَّامِ نَصُورُ !

فَالْيَدَارُ إِلَى التَّجْدَةِ الْيَدَارُ ! وَالْمُسَارَعَةُ إِلَى الْإِخْتَةِ فَإِنَّهَا لِأَثْنَالٍ إِلَّا بِإِقَادِ نَارِ الْحَرْبِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ ؛ وَالْهَيْمَةُ الْهَيْمَةُ ! فَإِنَّ الْبَحَارَ لَا تُتْلَى إِلَّا بِالْبَحَارِ ، وَالْمُلُوكُ الْكِبَارُ لَا يَقْفُ فِي وَجْهِهَا إِلَّا الْمُلُوكُ الْكِبَارُ :

وَمَا هِيَ إِلَّا نَهْضَةٌ تُورِثُ الْعُلَا * لِيَوْمِكَ مَا حَنَّتْ رَوَاكِمُ نَيْبُ !

وَنَحْنُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - تَنَزَّلُ عَلَى أَنْطَاكِيَّةَ ، وَيَنْزِلُ وَلَدُنَا الْمَلِكُ الْمَظْفَرُ - أَظْفَرَهُ اللَّهُ - عَلَى طَرَابُلُسَ ، وَيَسْتَقِرُّ الرِّكَابُ الْعَادِلَى - أَعْلَاهُ اللَّهُ -

بمصر؛ فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تُطْرَق، وأن الطلب على الشام ومصر تفرق؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماء الله - بحراً في بلاد الساحل يزخر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على ما فتحناه قفلاً ولما لم يفتح بعد مفتاحاً؛ فإنه ليس لأحد مالاخ من شئمة لها في كل مسمع سمعه، وفي كل روع روعه؛ وفي كل محضر محضر، وفي كل مسجد منبر، وفي كل مشهد منبر؛ فما يدعى العظيم إلا للعظيم [الأيرجى] لموقف الصبر الكريم إلا الكريم [هذا] والأقدار ماضية، وبمشيئة الله جاريه؛ فإن يشأ الله ينصر على العدو المضعف، بالعدد الأضعف؛ ويوصل إلى الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى؛ فإننا لانتاب بأن الله مفتح علينا هذه الفتوح ليثقلها، ولا يجمع علينا هذه الأمة ليفرقها؛ وأن العدو إن خرج من داره بطراً، ودخل إلى دارنا كان فيها جزراً؛ وما بقي إن شاء الله إلا أموال تُساق إلى ناهبها، ورقاب تُقاد إلى ضاربها، وأسلحة تُحمل إلى كاسبها؛ وإنما تؤثر أن لاتطوى صحائف الحمد خالية من أسمه، ومواقف الرشد خالية من عزمه؛ وتؤثر أن يساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقع الصبر، ومطالع النصر؛ فوالله إنا على أن نعطيه عطايا الآخرة الفانحة، أشد منّا حرصاً على أن نعطيه عطايا الدنيا القاصرة؛ وإنا لايسرنا أن ينقضى عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكُفء المناظر؛ ولا نشك أن سبقه لو اتصل بلسان ناطق وقم، لقال مادمت هناك فلست تتم؛ وما هو محمول على خطئة يتحافها، ولا متكلف قضية بحكمتنا يعافها؛ والذي بيده لا تستكثره، بل تستقصيه عن حقه ونستصغره؛ وما ناولناه لفتح أرضه السلاح، ولا أعزناه للملك مركزه النجاح؛ إلا على سخاء من النفس به وبأمثاله، على علم منّا أنه لا يقعد عنا إذا قامت [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نكن به ظناً أحسن منه فعلاً، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلاً أن لانراه

لَنَصْرِنَا أَهْلًا ؛ وَلَيْسَتْ شَرُّ أَهْلِ الرَّشَادِ فَإِنَّهُمْ [لَا يَأْلُونَهُ] ^(١) حَقًّا وَاسْتِنَاحَا ، وَلَيَعِصْ أَهْلُ
 الْغَوَايَةِ فَانْهَمَ إِنَّمَا يَتَغَالَوْنَ بِهِ لِمَصَالِحِهِمْ أَغْرَاضًا ؛ وَمَنْ بَيْتُهُ يَقْطَنُ ، وَإِلَى بَيْتِهِ يَقْفُلُ ؛
 وَهُوَ يُجِيبُنَا جَوَابَ مِثْلِهِ لِمَثَلُنَا ، وَيَنْوِي فِي هَذِهِ الزِّيَارَةِ جَمْعَ شَمَلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ نِيَّةِ جَمْعِ
 شَمَلُنَا ؛ وَلَا تَقْعُدْ بِهِ فِي اللَّهِ نَهْضَةً قَائِمًا ، وَلَا تَحْدُلْهُ عِزْمَةٌ عَازِمٌ ، وَلَا يَسْتَفْتِ فِيهَا فَوْتَ
 طَالِبٍ وَلَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ؛ فَإِنَّمَا هِيَ سَفَرَةٌ قَاصِدَةٌ ، وَزَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ؛
 فَإِذَا هُوَ قَدْ بَيَّضَ الصَّحِيفَةَ وَالْوَجْهَ وَالذِّكْرَ وَالسَّمْعَةَ ، وَدَانَ اللَّهُ أَحْسَنَ دَيْنٍ
 فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِنْ فَاءَ إِلَى أَرْضِهِ بِالرَّجْعَةِ ؛ وَلَيْتَدَبَّرَ مَا كَتَبْنَاهُ ، وَلَيْتَفَهَّمْ مَا أَرْدَنَاهُ ؛
 وَلْيُقَدِّمِ الْإِسْتِخَارَةَ ، فَإِنَّهَا سِرَاجُ الْإِسْتِنَارَةِ [وَلْيَغْضِبِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلِدِينَهُ وَلَأَخِيهِ
 فَإِنَّهَا مَكَانُ الْإِسْتِغْضَابِ وَالْإِسْتِشَارَةِ] ^(٢) وَلْيَحْضُرْ حَتَّى يَشَاهِدَ أَوْلَادًا لِأَخِيهِ
 يَسْتَشْعِرُونَ لِفُرْقَتِهِ غَمًّا ، وَقَدْ عَاشُوا مَا عَاشُوا لَا يَعْرِفُونَ أَنْ لَمْ يَمُوتُوا مَعَهُمْ غَمًّا ؛
 وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُلْهِمُهُمْ تَوْفِيقًا ! وَيَسْأَلُكَ بِهِ إِلَيْهِ طَرِيقًا ؛ وَيُجِيبُنَا بِهِ سَبْقًا لِرُقْبَةِ الْكَفْرِ
 مَرَقًا وَدَمِهِ مَرِيحًا ؛ وَيَجْعَلُهُ فِي مِضْهَارِ الطَّاعَاتِ سَابِقًا لَا مُسْبِقًا .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «هذه المكاتبة إلى المجلس»)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أيلة التي تحت العقبة في ممر.

مجاج مصر . وهى :

هذه المكاتبة إلى المجلس الفلانى أعلى الله سلطانه ، وعمر بالنجاح آماله وبالسعادة
 أوطانه ؛ ولا زالت يد النصر تُصَرِّفُ يَوْمَ اللَّقَاءِ عِناهُ ، ويدُ لَطِيفِ اللَّهِ تُفَيِّضُ عَلَى

(١) في الأصل فانهم يألووه والصواب ما أثبتناه في الصلب .

(٢) كذا في الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضاً لنوال مصالحهم الداتية .

(٣) الزيادة عما ساقى له في المصحح الثالث من هذا الجزء .

الخلق يومَ العلياءِ عَنانَه ، وتمكَّن من هامِ الأعداءِ وتحوَّروهم سيقَه وسَنانَه ؛ (تُسْعِرُه) أنه لم تزلْ عوائِدُ الله سبحانه عندنا متكفِّلةً ما يُوجب أن يُبدَأَ الحمد ويُعاد ، مقربةً لنا من الآمالِ كُلِّ ما كان رَهِينَ نَأْيٍ ويُعاد ، موافقةً لنا بالتوفيق فكأننا وإياه على ميعاد ، مُعينةً لنا على ما يعتدُّه الغاشُّ معاشٍ وعيدٌ مُعاد . وقد كان ماعِلمٌ من غَزَوتنا إلى أيلةَ التي اتخذها العدوَّ معقلاً ، وتديرُها منزِلاً ، وعدّها مؤثلاً ؛ وغاضَّ بها رونقُ الجملة ، وفاضَّ بها أهلُ القبله ؛ وصارتْ على مَنَارجِ الأنفاسِ ، وعلى مراصدِ الأقراصِ والأقتراسِ ؛ وخصَّصَتِ الجرمينِ بأعظمِ قادحٍ ، وأشدَّتْ عن حادثها من لُطفِ الله أعظمُ فاتحٍ ؛ ولما توجَّهتا إليها ، ونزلنا عليها ؛ شاهدنا قلعةً يَحْتَاجُ رامِها إلى الدَّهرِ المديدِ ، والأملِ البعيدِ ؛ والزادِ العتيدِ ، والبأسِ الشديدِ ؛ تَبُو بِعُطِفٍ جاحٍ عن الخِطْبهِ ، وتُعْرِضُ بِذِكْرِ مانعٍ عن الضربه ؛ وتُعْطِفُ بِأَنْفٍ على السَّحابِ شاخٍ ، وتطلُعُ في الصَّباحِ بوجهٍ شادخٍ ؛ كأنما يَنتَها وبين الأيامِ ذِمامٌ ، وكأنَّ نارَ الحوادثِ إذا بلغتْ ماءَها بردٌ وسلامٌ ؛ فأطفئنا بها متبصِّرين ، ونزلنا من ناحيةِ البرِّها مفكِّرين ؛ وبيننا نحنُ نأمرُ بالحربِ أن يُسَبَّ أوارُها ، وبالحليلِ أن تُسِيرَ أسرارُها ؛ وبنارِ اللِّقاءِ أن يستطيرَ سَرارُها ، وبقناطرِ الموتِ من القسيِّ أن تُعَقَّدَ أوتارُها ؛ وبالمجانيقِ أن تُعَقَّدَ حناياها ومُحَلِّ أزارُها ، وبالكواكبِ أن تُدَيِّقَهم طعمَ الصَّغارِ بكأرُها ؛ إذ نادى مُنادٍ من أعلى قِمَّتِها ، ورأسِ قُلَّتِها ؛ مُعلنًا بالأمانِ ، ناسخًا لآيةِ الكفرِ بآيةِ الإيمانِ ؛ فأعارتَه الأسماعُ إنصاتِها ، وأستحقتِ القلوبُ حصانَها ؛ وعمدتِ إليه بنتُ بحرٍ ، عادتْ بابَ نصرٍ ، وساعةً بدهرٍ ؛ وبشرفي بغلامٍ على كِبَرٍ ، وبظفرٍ في سَفَرٍ على قَدَرٍ ؛ فأعطى فرَجَها ما طلبوا ، وأتى اللُّطْفُ للسَّابِينِ بما لم يَحْتَسِبُوا ؛ وفي الحالِ رُفِصَتْ عليها ألويةُ الإسلامِ ونُشِرَتْ ، وأوبَتْ إليها فِئَةُ الحقِّ وحُشِرَتْ ، وتظاهرت عليها أولياءُ الله وظهَرتْ ؛ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين .

الأسلوب الرابع

(أن تفتح المكتبة بلفظ : « كتابنا » وبقى الأمر على نحو ما تقدم)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهى :

كتابنا هذا إلى الأمير، معزّين بالرزء الذى كُلت أقسامه وتمت ، ورمّت أحداثه القلوب فأصمّت وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمّت ، وأبى أن تعفو كلُّومُه ، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره ونكدر نجومه ، وتلم جانب الدين لفقد من لولاه لدرست أعلامه ولم تدرس علومه ، وقباً فاستولى على كل قلب وجيبه وعلى كل خاطير وجُومِه ؛ بانتقال المولى « نور الدين » إلى سُكنى دار السلام ، وقُدومِه على ما أعدّه الله من جزاء ذبّه عن الإسلام ؛ وبكى أهله على فقد عزائمه التى بها حفظت وحرست ، وشكت الممالك وحشة بعده وإن أبتهجت الملائكة بقربه وأست به فله هو ! من مصابٍ أغرى العيون بفيضها ، والنفوس بغيظها ؛ وتقل الأولياء من ظل المسرة ونعيمها إلى هجير المساء وغيظها ؛ وأوجب تناجى الكفار بالنجاة من تلك السطوة التى لم تزل تزيدها غمّاً وتردها بغيظها .

ومهتين بما أسا الكَلَمَ وداواه ، وحوى الحق إلى الجانب الأمتع وآواه ؛ من جلوس ولده « الملك الصالح » ذى التصويب والتسديد مشمولاً منّا بالعرف العميم ، والطول الجسم ؛ جاريّاً على سنّته المعهودة ، وعاديه المحموده ؛ فى رفع صالح أدعيته عن صفاء سريره ، وخلوص عقيدته ؛ مستمراً على جميل تحيته ، فى إمدادنا ببركته ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليه الحال فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذة من الأساليب الثلاثة : الأول والثانى والثالث المقدم ذكرها . على أن فى الدولة الأيوبية أساليب أخرى لا يسع استيعابها ، ويقتضى عنها بما تقدم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد أنفردوا عن تكتاب المشرق وتكتاب الديار المصرية بأمور :

منها أن المخاطبة تقع للكتوب إليه بميم الجمع مع الأفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الأفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : « كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا » .

ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائم بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه فى أثناء التكتاب ، وباقى مكاتباتهم على نحو من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكتبهم تُختتم بالسلام غالبا ، وربما ختمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عندهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رياستكم الكريمة ونحو ذلك . ولها حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكتبة بلفظ "من فلان إلى فلان" ويدعى للكتاب إليه، ثم يقع التخلُّص إلى المقصود بآما بعد، ويُؤتى عليه إلى آخره، ويُتمم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بن هشام عن أبي محمد بن هود، في قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلد من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة، أدام الله كرامتهم وآثرهم بتقواه، وعرفهم عوارف نعمه؛ وكنفهم في حرمة المنيع وحماه، وجعلهم ممن وفق إلى رضاه، وحف بجير مآقده وقضاه، بسلام

أما بعد حمد الله على متابع واسع فضله، هازم الباطل وأهله، ومورط الجاهل في مهواة جهله؛ المسالي بدعوة الحق ما أوسع من حزن المعمور وسهله، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المصطفى خاتم رسله، المؤيد بالقرءان الذي عجزت الجن والإنس أن يأتوا بمثله؛ وعلى آله وصحبه الجارين على قويم سنته وواضح سبله؛ والرضا عن الإمام العباسي أمير المؤمنين، الذي لا إمام سواه للمسلمين؛ المفرج من محتده الكريم وأصله، المدافع عن حرم أمره بسديد نظره وحديد نصله؛ والدعاء لمقامه العلى، ومكانه السنى؛ بالسعد المصاحب بمصاحبة ظله، والعُصْدِ الفاتح مالم يُفتح لأحد من قبله، فإننا كتهناه لكم - كتبكم الله ممن أنتفع بقوله وعمله، وتوجه إلى رضاه بمبسوط أمله، وجرئت له الأقدار بأفضل معاد وأجمله - من فلانة، والتوكل على الله سبحانه نتأملج تبرزها الأيام، ويستنجدها السعد والحسام، ويستندنها التفويض

إلى الله سبحانه والاستسلام ؛ والدعوة العلية - أدام الله أيامها ، وأسعد أعلامها ؛ -
 الآثار التي تجلت بها المذاهب ، والأنوار التي وَصَّحت بها المساري والمسارب ،
 وأضاءت بها المشارق والمغارب . والحمد لله حمدا كثيرا - المكان الذي يُجَدَّد
 حُرْمَتُهُ ، ونَتَأَكَّدُ ذِمَّتَهُ ؛ ولا تُوضَعُ عن يَدِ الاعتناء والاهتمام أَرْزَمَتُهُ ، وإذا أُنْهَضَتِ
 العزائم لمصالح العباد تقدَّمتْ كُلُّ العِزَمَاتِ عِزَمَتُهُ ؛ لأنه المكان الذي صرف وجوه
 الأعداء ، وصابر مكابدة الإضرار والاعتداء ؛ وأَحْتَمَلَ مَكْرَهُ الدَّوَاءِ ، في مُعَالَجَةِ
 الشِّفَاءِ ومُعَالَجَةِ حَسَمِ الدَّاءِ ؛ فَكُرِّمَتْ آثَارُهُ ، وتَعَيَّنَ تَخْصِيصُهُ بِالْمَزِيدِ وإِيثارُهُ ؛
 وطابَتْ أَخْبَارُهُ ، وطالت في مَضَائِقِ جَمَالِ الرِّجَالِ أَسِنَّتُهُ وَشِقَارُهُ ، فَنَحْنُ نُوجِبُ
 تَكْرِيمَهُ ، وَنُؤَثِّرُ تَقْدِيمَهُ ؛ وَنُتَّبِعُ حَدِيثَهُ فِي الْإِعْتِنَاءِ قَدِيمَهُ ، وَاللهُ يَتَوَلَّى تَكْيِيلَ قَصْدِنَا
 الْجَمِيلِ فِيهِ وَتُجْمِيئِهِ ! .

وقد بَلَغَ - بَلَّغَكُمْ اللهُ أَمْلَكُمْ ، وأتم نعمته قِبَلَكُمْ - تحرك ذلك الخائن للإضرار بالبلاد ،
 وإيثاره دَوَاعِيَ الشر والفساد ؛ ومضى آحْتِيجُ إِلَى إِعْلَامِ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ بِأَحْوَالِهِ ،
 وما يتصوَّره بفساد خياله ؛ وتَغَلَّبَ كِبَرُهُ المَرْدِيُّ وأَخْتِيَالُهُ ، وما يصدر عنه من قبيح
 آثاره وأعماله ؛ فَإِنَّمَا يُسْتَعْلَمُ تَحْقِيقُهَا مِنْكُمْ ، وَيُتَعَرَّفُ تَصَدِيقُهَا مِنْ لَدُنْكُمْ ؛ يَصْدُقُ
 جِوَارِكُمْ ، وَدُقْتُ دَارِكُمْ ، وتداخل آثاره مع آثارِكُمْ ؛ فأنتم أَقْرَبُ أَطْلَاعًا عَلَى خُبْرَتِهِ سِرِّهِ ،
 وسوء مَكْرِهِ ، وما يُضْمِرُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ إِذَاتِهِ وَضُرِّهِ ؛ ففِي أَنْصَرَفَتْ وَجْهُهُ الْمُسْلِمِينَ
 إِلَى جِهَادِهِمْ ، وَاشْتَغَلُّوا بِتَأْمِينِ بِلَادِهِمْ ؛ أَنْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِي فِسَادِ يُحْدِثُهُ ، وَعَقَّدَ يَنْكُتُهُ ،
 وَأَسْتَعْجَالَ مَا يَعْجَلُ عَلَيْهِ وَلَا يَلْبَثُهُ ؛ وَنَحْنُ نَعْرِضُ عَنْهُ إِعْرَاضَ مَنْ يَرْجُو مَتَابَهُ ،
 وَيَرْتَقِبُ رُجُوعَهُ إِلَى الْحَقِّ وَإِيَابَهُ ؛ وَهُوَ مُتَخَبِّطٌ فِي أَهْوَاؤِهِ ، مُسْتَمِرٌّ عَلَى غُلُوءَاتِهِ ، مُصِرٌّ
 عَلَى إِضْرَارِهِ وَأَعْتِدَاتِهِ ؛ لَا يَكْفُ الْكَفُّ عَنْهُ مِنْ أَسْطَالَتِهِ ، وَلَا يُرِيهِ الْأَسْتِصَارُ
 وَجْهَةَ جِهَاتِهِ ؛ فَوَجِبَ عَلَيْنَا بِحَكْمِ النَّظَرِ لِلْبِلَادِ الَّتِي لَحِقَ بِهَا عُدْوَانُهُ ، وَأَضُرَّ بِهَا مَكَانُهُ ،

وتكرّر عليها امتحانه، أن نعامل حَسَمِ عِلَّه ، ونُسَدَ مَوَاقِعَ خَلَّه ، ونزِدَ عليه كُلَّ
مَصْرَةٍ لاحِقَةٍ من قِبَلِه ؛ حتَّى يَسْتَرِجِ النَّاسُ إِلَى أَمْنٍ مَبْسُوطٍ ، وَكَتِفٍ مَضْبُوطٍ ،
وَحُوزٍ بِالْكِفَايَةِ وَالْوَقَايَةِ مُحُوطٍ ؛ وقد كُنَّا عِنْدَ الْفَرَاغِ من مَصَالِحِ الْبِلَادِ الْغَرِيبَةِ ،
وَأَتَمَّاهُ الْفَتْحَ فِيهَا إِلَى مَا لَمْ يَذَرُ بِالْخَاطِرِ وَلَمْ يُحَسَّبْ بِالنِّبَةِ ؛ نَظَرْنَا فِي إِعْدَادِ جَمُوعٍ من
أَجْنَادِ الْغَرْبِ ، وَتَحَيَّرْنَا مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ دَرَبَ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ؛ وَسَعِدَ لَكُمْ (٩) من جَاهِرِ
الْأَغْرَابِ وَجُرُولَةِ وَسَائِرِ الْقَبَائِلِ النَّازِلِينَ بِالْبِلَادِ ، الْمُتَاهِبِينَ لِمَا يُطْلَبُونَ بِهِ من الْغَزْوِ
وَالْجِهَادِ ؛ وَرَسَمْنَا لَهُمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِنَا عِنْدَ الْاِسْتِدَاءِ ، عَلَى مَا جَدَدْنَا لَهُمْ فِي الْاِتِّخَابِ
وَالْاِنتِقَاءِ ؛ لِنَأْخُذَ الْجُمُوعَ كُلَّهَا مِنْ حَوْثِ أَثَرِ هَذَا الْخَائِنِ بِنَصِيبٍ ، وَنَضْرِبَ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ
عَمَلٍ يَعْقِيهِ ، بِسَهْمٍ مُصِيبٍ ؛ لَكِنْ لَمَّا تَعَجَّلَ حَرَكَتَهُ الَّتِي تَعَجَّلَ بِهَا الْحَيُّ ، وَسَاقَهُ إِلَيْهَا
الْقَدَرُ الَّذِي أَعْمَى الْبَصِيرَةَ وَالْعَيْنَ ؛ رَأَيْنَا أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْهِ قَصْدَنَا ، وَأَنْ نَعَاجِلَهُ بِمَا حَضَرَ
عِنْدَنَا ؛ مُتَوَافِرَةَ الْأَعْدَادِ ، غَنِيَّةً عَنِ الْاِسْتِمْدَادِ ، غَيْرَ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى الْاِزْدِيَادِ ؛ وَمَعَ هَذَا
فَقَدْ أَمَرْنَا أَهْلَ الْجِهَاتِ كُلَّهَا بِاللِّهَاقِ بِنَا ، وَأَنْ يَنْهَضَ جَمِيعُ أَعْدَادِهِمْ مِنْ اِنْخِلِيلَ وَالْبَطَلِ
وَالرُّمَّةِ عَلَى سَيْلِنَا وَمَذْهَبِنَا ؛ لِنَكُونَ الْاَيْدِي فِي هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الْعَامَّةِ وَاحِدَةً ، وَالْعَقَائِدُ
فِي دِفْعِ هَذَا الضَّرَرِ عَنِ الْكَافَةِ مُتَعَاقِدَةً ، حَتَّى يَذْهَبَ أَثَرُ هَذِهِ النُّكْبَةِ وَعَيْنُهَا ، وَيُزُولَ
عَنْ بَهْجَةِ الْإِحْقَاقِ وَالْاِتِّفَاقِ شَيْئُهَا ؛ وَإِذَا وَجِبَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَنْفِرُوا
فِي هَذِهِ الدَّعَاةِ خَفَافًا وَثِقَالًا ، وَيُيَادِرُوا رُكْبَانًا وَرِجَالًا ؛ كَانِ الْوَجُوبُ فِي حَقِّكُمْ
وَجُوبِينَ ، وَالْفَرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَضِينَ ؛ لِمَا يُحْصِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الَّتِي أَتَمَّ أَوَّلُهَا مِنْ
يَحْتَلِ صُورُهَا ، وَيَحْتَئِي ثَمَرُهَا ، وَيُجِئُ فِي حَالِهِ وَاسْتِقْبَالِهِ لِأَثَرِهَا ؛ فَلْيَكُنْ اِسْتِعْدَادُكُمْ
بِحَسَبِ ذَلِكَ ، وَاسْتَوْعِبُوا جَمِيعَ أَنْجَادِكُمْ ، مِنْ خَيْلِكُمْ وَرِجَالِكُمْ وَكُونُوا وَاقِفِينَ
عَلَى قَدَمِ التَّأَهُبِ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْاِجْتِيَازُ مِنْ هُنَاكُمْ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّلَامُ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «أما بعد» وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن تُعقب البعديَّةُ بالحمد لله ، ويُؤتى على الخطبة إلى آخرها ، ثم يتخلَّص

إلى المقصود ويختتم بالسلام على نحو ما تقدم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبي عبد الله بن هُود أيضا إلى أكابر بلده بالرقى بالرعية عند ورود كتابهم عليه بتحسين البلد ، وبلوغه جور المستخدمين بها على الرعية ، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مُعْلي مَنَارِ الحَقِّ ورافعه ، ومُؤلى مُتَوَالِي الإِنْعَام ومُتَابِعِه ؛
والصلاة على سيدنا محمد ورسوله مشفق الحشر وشافعه ، المبعوث ببدايع الحِكم
وجواميعه ؛ وعلى آله وصحبه المبادرين إلى مقاصده العلية ومنازعه ، والذائين عن
حوزة الإسلام ، بمواضى الاعتزام ، وقواطعهِ ؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسي
أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَال سَمُوَ مَطَالعه .

فإننا كتبنا إليكم - كتب الله لكم عِزَّةً قَدْ حُفَّهَا بالثبوت فائز ، وسعادة قَسَطَهَا للنماء
حائز - من فلانة ، وكلمة الحق منصورة اللواء ، منشورة الأضواء ، والتوكل على الله
فى الإعادة والإبداء ، والتسليم إليه مناط أمرنا فى الانتهاء والابتداء ؛ وحمدُ الله تعالى
وشكره وصلنا إلى نيل مزيد النعماء والآلاء ؛ ومكانتكم لدينا مكانة السني المناسب ؛
المتحى إلى كرام المتممات والمناسب ، المتحلى فى الغناء والاكتفاء ، والخلوص والصفاء ،
بأكرم السجيات والمناقب ؛ المعلوم مآلديه من المصالحة السالكة بأكرم السجيات
فى المنأحي الحسان على المنهج الأوضح والسَّنن اللاحب .

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بنجر فلانة وما رأيتموه من المصلحة في تحصينها ،
والاجتهاد في أسباب تأمينها ؛ ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح ، وتوحدون
ماتوسمون فيه النجاح ؛ لكن أهم الأمور عندنا ، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا ، الرفق
بالزعيه ، وحملها على قوانين الإحسان المرعيه - وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
[أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ، ويتظلمون من متحيفيهم
ومتعسفهم ؛ وفي هذا ما لا يخفى عليكم ، ولا ترضون به لو أتته إليكم ؛ فإنه إذا كان
الناظر في خدمة من لا يحسن سياسة الأمور ، ولا يعلم طريقة الرفق الجارية بوفق
الخاصة والجمهور ؛ أعاد التسكين تنفيرا ، والتيسير تعسيرا ؛ وتعلمون أنا لا نقدم
على إثارة العدا في عباد الله المسلمين عملا ، ولا نبغى لهم باطنية بغير التخفيف
عنهم والإحسان إليهم بدلا ؛ وأتم أولى من يعتد فيه أنه يكمل هذا المقصد ،
ويتحرى في مصالح الرعايا هذا السنن الأرشد ؛ وقد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب
وجلهم ، ويضط أمهم ؛ وعرفناهم بأنكم لوعلمتم من جار عليهم من الخدمة لأخذتم
على يده ، وجازيتموه بسوء معتقده ؛ وأشعرناهم بأننا قد استوصيناكم بهم خيرا ،
ونبهناكم على ما يذفع عنهم ضيما ويرفع ضييرا ؛ وأتم - إن شاء الله - تستأنفون
نظرا جملا ، وتؤثرون عنهم الخدمة الذين لا يسلكون من السياسة سيلا ؛
وقد علمون عليهم من تحسن فيهم سيرته ، وتكرم في تمشيته الرفق علايته وسيرته ،
ومثلكم لا يؤكده عليه في مذهب تحسن عواقبه ، وغرض يوافق القصد الاحتياطي
ويصاحبه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضرب الثاني

(أن تعقب البعديَّة بذكر المقصود من غير خطبة ، ثم يؤتى على المقصود إلى آخره على نحو ما قلتم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبي جحيل إلى أهل ناحية بولاية وإل عليهم وهي :

أما بعد ، فالكاتب - كتب الله لكم ملاء الجوانب ، قرارا ، وأرسل عليكم سماء المواهب ، مندرارا ، من فلانة ، وليس إلا الخير الدائم ، واليسر الملازم ؛ وقد توالى إعلامكم بالغرض الجميل فيكم ، والأعتناء المتصل بتمهيد نواحيكم ؛ وأتم اليوم بشيخ متجنيف ، وجناب متطرف ؛ يتضاعف الاحتياط عليه ، ويجب تيسير المير إليه ؛ فالنظر له مُعَمَّل ، والتهنم به لا يُهْمَل ؛ وهذه السن قد ملك قيادها ، وأوثر بوجوه القرابة إمدادها ، وفلان قد خاطب يستأذن في القدوم على الباب الكريم ، ويؤكد ما عنده في الخدمة والتصميم ؛ والخيرات بسبيل الاتصال ، والمسرات واردة مع البكور والأصال .

والحمد لله الجسيم فضله ، والعظيم نيّله ؛ فاحمدوا الله على ما يسر لنا ولكم ، وأستوزعوه شكر ما خولنا وخولكم ؛ وأعلموا أننا نراكم ، كما رعى أولنا أولاكم ؛ وقد عين لموضعكم كذا وكذا فانفذوا إلينا بعضكم مُعَجَّلا ، وأستشعروا إنماء الأثرة ، وأطراد النصرة ، حالا ومستقبلا ؛ والحركة الكبرى - يمنها الله - قد شُرع في أسبابها ، وأتى ما يؤتي بمشيئة الله الفتح القريب من بابها ؛ ولا غنى بما يُدار في ذلك عن فلان وقد خُوطب بالوصول ، ووجه إليكم فلان واليا عليكم ، وثاويا لديكم ؛ وهو من خيرت كفايته ، وأرضيت لجبر أحوالكم سياسته ، وشكرنا فأورثتم به هنالك ؛ وقد فُوض

إليكم من نظر لخاصّكم وجمهوركم، وقد بما يستقلُّ أتمّ الاستقلال من تدبير أموركم؛
وأُمضى معه من الأجناد طائفةً يحسنون الدفاع والدِّياد، ولا يفارقون الحُدَّ
والاجتهاد؛ ووراء هذا من كريم العناية وجميل النظر، ما يقضى لكم بالقَلْب والظَّفَر،
ويُدِيلكم بالأمانة الشاملة من الذمِّر والحدِّز، إن شاء الله تعالى والسلام .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «كُتِّبْنَا إِلَيْكُمْ من موضع كذا، والأمرُ على كذا وكذا»
ويؤتى على المقصد إلى آخره ويُحتمّ بالسَّلام)

وربما قيل : «هذا كُتِّبْنَا إِلَيْكُمْ» وربما قيل : «كُتِّبْنَا إِلَيْكُمْ» ونحو ذلك .
كما كتب أبو المطوف بن عميرة عن ابن هود في الإشارة بفتح حصن، وهو :
كُتِّبْنَا إِلَيْكُمْ - أطلع الله عليكم من البشائر أنورها جبيناً، وأوصَّحها صُبْحاً مُبيناً - من
فلانة في يوم كذا .

سلامٌ عليكم فإنِّي أحمدُ إليكم اللهَ الذي تكفَّلَ بنَصْرٍ من ينصُرُهُ، ونصليَّ على
سيدنا محمد الكريم محمَّده الزاكي عنصُرُهُ، ونُجَدِّدُ مشفوعَ الصلوات، ونزِدُّدُ مرفوعَ
الدعوات ؛ للإمام الخليفة «المستنصر بالله أمير المؤمنين» ذى المناقب التى لا عاَدَ
يُعَدُّها، ولا حاصر يحصرُّها .

والحمد لله الذى أنعم علينا بتقليد إمامته، التى لا تُعَقَّدُ معها إمامه، وأقامنا لإقامة
دَعْوَتِهِ، التى لا تمجوز على غيرها إقامه ؛ وجعلنا نرعى الغرض باسمه الأشرف فنصبيهِ ،
ونستوهِبُ فضلَ الله سبحانه فيتوقَّرُ قِبَلُنَا نصبيهِ ؛ ونستزِلُّ بخلافته المباركة جوامعَ
النصر، كما استنزل الفاروقُ بغرة جدِّه هوامعَ القطر؛ فتسيرُ أمامَ رايته السَّوداءُ بالأثرِ

الْمَيْيُصُ ، وَتُرَوَّى هَذِهِ أَوَّامَ الْقُلُوبِ كَمَا أَرَوَى ذَلِكَ أَوَّامَ الْأَرْضِ ؛ وَمَا زِلْنَا مِنْذُ كَانَ
 التَّزَوُّلُ عَلَى هَذَا الْحَصَنِ نَتَعَرَّفُ فِيهِ مِنْ غَايِلِ النَّجْحِ ، وَدَلَائِلِ الظَّفَرِ وَالْفَتْحِ ؛
 مَا أَعْطَانَا فَتَلَجَّ الْيَقِينُ بَأَنَّا نَفْصِمُ عُرْوَتَهُ ، وَنَقْرَعُ ذِرْوَتَهُ ، وَلَمْ يَزَلِ الْعَزْمُ يَذَلُّ شِمَاسَهُ ،
 وَيَقْلَلُ نَاسَهُ ؛ حَتَّى أَذْعَبُوا لَمَّا عُرِفَتْ بِهِ مِنَ التَّزَوُّلِ لَوْقِيَتِ مَعْدُودٌ ، وَأَمِدَ مَحْدُودٌ .
 ثُمَّ إِنَّهُمْ خَاصَرَهُمْ طَارِقُ الْوَجَلِ ، فَعَجَلُوا أَدَاءَ دَيْنِهِ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ ؛ وَأَمَكَّنَ اللَّهُ
 مِنْ هَذَا الْمَعْقِلِ الْفَدَّ فِي الْمَعَاقِلِ ، وَقَتَلَ الظَّالِمِينَ لِامْتِنَاعِهِمْ وَالْحَسَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
 فِي يَدِ الْقَاتِلِ ؛ وَقَدْ صَعِدَتْ رَايَاتُنَا عَلَى السُّورِ ، وَسَعِدَتْ إِدَارَتُنَا بِالْعَزْمِ الْمَنْصُورِ ؛
 وَشَيْدَ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ أَقْصَى الْفَتْوحِ بَعْلُوهُ ، وَأَشْجَاهَا لِلْعَدُوِّ ، وَأَدْنَاهَا عَلَى
 نُجْحِ عَمَلٍ مُسْتَأْنِفٍ وَبُلُوغِ أَمَلٍ مَرْجُوعٍ .

والحمد لله الذي رَدَّ حَقَّنَا الْمُقْتَصَبَ ، وَكَفَانَا فِي وَجْهِنَا هَذَا التَّعَبَ وَالنَّصَبَ ؛
 وَعَزَّفَنَا كَمْ يَهَذَا الْخَبْرَ الَّذِي هُوَ غِذَاءُ لِلرُّوحِ ، وَالْمَنْبَى عَنْ فَتْحِ الْفَتْوحِ : لَتَشْكُرُوا اللَّهَ
 عَلَيْهِ شُكْرًا ، وَتُؤَفِّقُوهُ حَقَّهُ لِإِذَاعَةِ لَهُ وَتَنْشُرَا ؛ وَتُجَدِّدُوا بِحَمْدِ اللَّهِ [عَلَى] مَا أَوْلَى مِنْ خَالِصِ
 النِّعَمِ ، وَوَأَفْرِ الْقِسَمِ ؛ مَا يَطِيبُ بِهِ الْمُعْرَسَ وَالْمَقِيلَ ، وَيُسْتَقْصِرُ بِهِ الْأَمَدَ الطَّوِيلَ .
 وَأَكْتُبُوا مِنْ خُطَابِنَا هَذَا تُسَخِّطُوا إِلَى الْجِهَاتِ لِيَأْخُذَ مِنْهَا كُلُّ بِحْظَةٍ ، وَيَنْتَعِمَ الْقَرِيبُ
 وَالبَعِيدُ بِجَلَالَةِ مَعْنَاهُ وَبِرَّالَةِ لَفْظِهِ ؛ أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى شُكْرِ إِحْسَانِهِ الْجَزِيلِ ،
 وَلَا أَخْلَى مِنْ لُطْفِهِ الْعَمِيمِ وَنَظَرِهِ الْجَمِيلِ ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامِ .

الحالة الثانية

(ما الأمر مستقر عليه الآن مما كان عليه علامة متأخرى كُتِبَ المغرب

أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ابن الأحمر : صاحب

حمراء غرناطة من الأندلس)

والأمر فيها على نحو ما تقدم في الحالة الأولى : من التعبير عن المكتوب إليه بجمع وإن كان واحداً ، والالتزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا إليكم ونحو ذلك . وعادتهم أن يكتب كتاب السلطان في طومار كامل ، فإن استوعب الكلام جميع الطومار كتب على حاشيته ، ويكتب صاحب العلامة علامة السلطان في آخره ، ويطوى طياً عريضاً في نحو ثلاث أصابع معترضة ، ثم يكسروا يطوى نصفين ، ويكتب العنوان بالألقاب التي في الصدر ، ويحزم بدسرة من الورق ، ثم يحتم بخاتم السلطان على شمع أحمر كما تقدم بيانه .

وهي على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة باللقب اللائق بالمكتوب إليه ، وهو على ضرب)

الضرب الأول

(أن يتبدأ بلفظ «المقام» وهو مختص بالكتابة إلى الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المقام» وينت بما يليق به ، ثم يقال : «محل أخينا ، أو محل ولدنا ، أو محل والدنا السلطان» ويؤتى بالقباه ثم يسمى ، ثم يقال : «من فلان» ويقال فيه كذلك إلى منتهى نسبه ، ويدعى له بالبقاء وما يتبعه ؛

ثم يقال : معظّم قدره أومعظّم مقامه ، وما أشبه ذلك ، ويذكر أسم المكتوب عنه ؛
ثم يقال : أما بعد حمد الله ويؤتى بالخطبة إلى آخرها ؛ ثم يقال : فإنّا كتبناه إليك
من موضع كذا ، ويؤتى على المقصود إلى آخره ، وينتتم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبو عبد الله بن الخطيب المقدم ذكره عن سلطانه ابن الأحمر المذكور
أعلاه ، إلى السلطان أبي عَينان بن أبي الحسن المَرينيّ صاحب فاس ، عند موت
الطاغية ملك قشتالة من إقليم أشبيلية ، وطلّيطلة ، وفُرطبة وما معها بعد نزوله على
جبل الفتح من مملكة المسلمين بالأندلس لمحاربة المسلمين فيه ، ورحيل قومه بعد
موته به ، وهو :

المقام الذى أنارت آياتُ سعده ، فى مسطور الوجود ، وتبارت جِادُ مجده ،
فى ميدان البأس والجدود ، وضمنت إياثه لمن بهذه الأقطار الغربية تجديد السُعود ،
وإعادة العهود ، وأختلفت كتابُ تأييد الله ونصره لوقته المشهور فيها ويومه المشهود ؛
مقام محلّ أختينا الذى نُعظّمه وزُفّعهُ ، ويُوجب له الحقّ العلىّ موضعهُ ؛ السلطان
أبى عَينان ابن السلطان أبى الحسن ، ابن السلطان أبى سعيد ، ابن السلطان
أبى يوسف ، بن عبد الحق - أبقاه الله يتهلّل للبشرى جَنابهُ ، ويُفتح لوارِدِ الفتح
الإلهى بابهُ ؛ وتُعمل فى سبيل الله مكارمهُ وعزائمهُ وركابهُ ، ويتوقّف بالجهاد فيه
مجده وسعده ونفّره وثوابهُ ؛ معظّم قدره الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين
أبى الوليد إسماعيل بن قَرج بن نصر ، سلام كريم مشفوعٌ بالبشار والتّهانى ، مخفوف
[الركاب^(١)] ببلوغ الأمانى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله مُطالع أنوار الصنائع العجيبة متألّفة الفَرّ ، ومُنشئ صحائب
الألطف ، الكريمة الأوصاف ، هامية الدّرر ، الكريم الذى يُجيب دعوة المُضطرّ إذا

دعاه، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وما أمرُهُ إِلَّا واحدةٌ كُلِّحٍ بالبصر؛ حَجَبَ كَامِنٌ أَلطافه عن قُوَى الْفِطَنِ وَمَدَارِكِ الْفِطْرِ، فَا (يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهْدِي إِلَّا ذِكْرِي لِلْبَشَرِ).
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولِ ذى المعجزاتِ الباهرة والآياتِ
الكُبرى، الذى يباهه الحصينِ نَمْتَنِعُ عندَ اسْتِشْعَارِ الْحَذَرِ، وبنور هُدهاه نستضيءُ
عندَ انْبِثَاسِ الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ، فنَحْصُلُ على الخير العاجِلِ والمُنْتَظَرِ؛ والرضا عن آله
وأصحابه الكرامِ الْأَثَرِ، الذين جَنَوْا من أَفْئَانِ الصَّبْرِ فى الله تِمَارَ الظَّفَرِ؛ وفازوا من إنْجَازِ
الوَعْدِ بأقصى الْوَطَرِ، وَأَنْتَظِمُوا فى سِلَكِ الْمِلَّةِ الرِّفِيعَةِ أَنْتَظَامَ الدَّرَرِ؛ والدعاء لمقامكم
الأعلى؛ باتصالِ الْمَسَرَّاتِ وتَوَالِي الْبُشْرِ، والسَّعِيدِ الذى تجرى بأحكامه النافذة
تصاريْفُ الْقَدَرِ، والصُّنْعِ الذى تُجَلِّى عَجَائِبُهُ فى أَجْمَلِ الصُّورِ - فإنا كتبناه إليكم -
كتب الله لكم من حُظُوطِ فضله وإحسانه أَجْرَلَ الْأَقْسامِ، وعَرَّفَكُم عَوَارِفَ نِعَمِهِ
الثَّغْرِ وآلائه الْجَسَامِ - من حمراءِ غَرْنَاطَةٍ - حرسها الله - والْيُسْرِ بفضلِ الله طَارِدُ
الْأَرْمَاتِ بعد ما قَعَدَتْ، وكاشَفُ الشَّدَائِدِ بعد ما أَبْرَقَتْ وأرَعَدَتْ . ثم ما عندنا
من الاعتدادِ بِإِيَالَيْكُمْ التى أَنْجَزَتْ لَنَا فى الله ما وَعَدَتْ، ومَدَدْنَا إِلَيْهَا يَدَ الْإِسْتِصَارِ
على أعدائه فَاسْعَدَتْ؛ إِلَّا الصُّنْعُ الْعَجِيبُ، والْيُسْرُ الذى أَتَاحَ أَلطافه السَّمِيعُ الْحَجِيبُ؛
والْيُمْنُ الذى رَفَعَ عِمَادَهُ التَّيْسِيرُ الْغَرِيبَ، ومَدَّ رِوَاقَهُ الْفَرَجُ الْقَرِيبَ؛ وإلى هذا أَيْدِيكُمْ
الله على أعدائه، وَأَجْزَلَ لَدَيْكُمْ مَوَاهِبَ آلائِهِ؛ وَحَكَمَ لِلْإِسْلَامِ على أَيْدِيكُمْ بظُهُورِهِ
واعتلائِهِ، وعَرَّفَكُم من أخبارِ الْفَتْحِ الْهَنِيِّ الْمَدْفَعِ وَأَنْبَاءَهُ كُلِّ شَاهِدٍ بِرَحْمَتِهِ وَأَعْتِنَائِهِ .
فإنا كتبناه إليكم مُحَقَّقٌ لَدَيْكُمْ الْبُشْرَى التى بِمَثَلِهَا تُنْضَى الرَّكَّابُ ^(٢)، وَيُخَاضُ الْعُبَابُ؛
وَنَعْرِضُ عَلَيْكُمْ ثَمَرَةَ سَعِيدِكُمُ الْجَدِيدِ الْأَثْوَابِ؛ الْمَفْتَحَ لِلْأَبْوَابِ؛ عِلْمًا بما عندكم

(١) فى رِيحانة الْكُتُبِ "مَكْنَسٌ" .

(٢) الرِّكَابُ الْمَطِيُّ واحدا راحلة من غير لفظها .

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالة الأحساب ، والمعرفة بمواقع
نعم الله التي لا تجرى خلقه على حساب ، والعناية بأموال هذا القطر الذي تعلّق
بأذيال ملككم السامي الجَناب . [وقد تقرر لدى مقامكم الأسنى^(١) ما كانت الحال
آلت إليه بهذا الطاغية] الذي غرّه الإمهال والإملاء ، وأقدمه على الإسلام
التحريض المكتوب والابتلاء ؛ فتملأَ تيهاً ونجهاً ، وأرتكب من قهر هذه الأمة
المسلمة مَرَجاً صعباً ؛ وسام كلمة الإسلام بأساً وحرباً ، فكثأبُ برّه توسّع
لأرجاء طعننا وضرباً ؛ وكثأبُ بحره تأخذ كل سفينة غصباً ، والمحارِف قد تجاوزت
شرقاً وغرباً ؛ والقلوب قد بلغت الحناجر غمّاً وكرهاً ؛ وجبل الفتح الذي هو بابُ
هذه الدار ، وسبب الاستعداد على الأعداء والإنتصار ، ومسلك الملّة الحنيفيّة
إلى هذه الأقطار ؛ قد رماه بؤاتقه ، وصير ساحته مجرّ عوَالِه وتجري سوايقه ؛
وأخذته دار مُقامه ، وجعله شُغل يَقطّته وحلم مَنامه ، ويُسرّله ما يجاوزُه من المعازل
إملاءً [من الله] لأيامه ؛ فاستقرّ به القرار ، وأطمأنت الدار ، وطال الحصار ، وعجزت
عن نصره الخيل والأنصار ، ورجمت الظنون وساءت الأفكار ، وشجر نظار القلوب
الاضطرار ، إلى رحمة الله والافتقار ، فجز الله الخواطر عظم بها الانكسار ، ودار بآدالته
الإسلام الفلك الدوّار ، وتمخّض عن عجائب صنع الله الليل والنهار ، وهبت نوايسمُ
الفرج ، عاطرة الأرج ، من يخاف ما يشاء ويختار ؛ لا إله إلا هو الواحد القهار .
وبينا نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام بلعةً متراميةً
المعاطب ، وقتعد صعباً لا يليق بالراكب ؛ ولولا التعلّق بأسبابكم في أنواء تلك
الغياهب ، وما خلّص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المآهب ؛ ومواعيدكم الصادقة
ومكارمكم القرائب ، وكُتبتكم التي تقوم عند العدو مقام الكتائب ؛ وإمدادكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ربحانة الكتاب .

تَلَحُّقَ الْعِظَامِ الْجَنَائِبِ ، لَمَّا رَجَعَ الْكَفَرُ بِصَفْقَةِ الْخِلَابِ ، إِذْ تَجَلَّى نُورُ الْفَرَجِ مِنْ خِلَالِ
تِلْكَ الظُّلُمَةِ ، وَهَمَّتْ بِمَحَابِّ الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ وَرَمَى اللَّهُ الْعُدُوَّ بِحِيشِ
مِنْ جُيُوشِ قُدْرَتِهِ أَغْنَى عَنْ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ ، وَأَرَانَا رَأَى الْعِيَانَ لَطَائِفَ الْفَرَجِ مِنْ بَعْدِ
الشَّدَةِ ، وَأَهْلَكَ الطَّاعِيَةَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْ أَمَلِهِ قَاطِعَ حَتْفِهِ ، وَغَالَتْ أَيْدِي الْمُتَوَنِّينِ
فِي غِيَلِهِ ، وَاتَّهَتْ إِلَى حُدُودِ الْقَوَاطِعِ الْقَوِيَّةِ وَالْأَشْعَةَ الْمُرْجِيَّةَ نَصِيرُ دَلِيلِهِ ؛ فَشَفَى اللَّهُ
مِنْهُ دَاءً ، وَأَخَذَهُ أَشَدَّ مَا كَانَ أَعْتِدَادًا وَأَعْتِدَاءً ؛ وَحَمَى الْجَزِيرَةَ الْغَرِيبَةَ وَقَدْ صَارَتْ
نُجْبَةً طُغَانَةً ، وَأَشْرَفَهُ بِرِيقِهِ وَهِيَ مُضْغَةٌ فِي لَهَوَاتِهِ ؛ سَبَّحَانَهُ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ .

فَأَنْتَرِسِلْكُهُ الَّذِي نَقَّمَهُ ، وَأَخْتَلَّ تَدْيِيرُهُ الَّذِي أَحْكَمَهُ ؛ وَنَطَقَتْ بِبَيَارِ عَمَلَاتِهِ
الْسَّنَةُ النَّارَ ، وَعَاجَلَتْ أَنْتِظَامَهَا أَيْدِي الْأَنْتِثَارِ ؛ وَرَكَدَتْ رِيحُهُ الزَّرْعُزُغُ مِنْ بَعْدِ
الْإِعْصَارِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ أَسْتَظْهَرِهِ مِنَ الْأَشْيَاعِ وَالْأَنْصَارِ ﴿ يُحَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ وَوَلَّوْا بِهِ يَحْتُونُ التُّرَابَ فَوْقَ الْمَقَارِقِ
وَالْتَّرَائِبِ ، وَيَخْلُطُونَ تَبَرَّ السَّبَالِ الصُّهْبِ بِذُوبِ الدَّوَابِّ ؛ قَدْ لَيْسُوا الْمُسَوِّحَ حُرْنَا ،
وَأَرْسَلُوا الدَّمُوعَ مُزْنًا ؛ وَشَقُّوا جُيُوبَهُمْ أَسْفًا ، وَأَضْرَمُوا قُلُوبَهُمْ تَلْهَفًا ؛ وَرَأَوْا أَنَّ
حَصْنَ اسْتِطْبُونَةَ لَا يَتَأَثَّرُ لَهُمْ بِهِ أَمْتِنَاعٌ ، وَلَا يُمَكِّنُهُمْ لِمَنْ يَرُومُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دِفَاعٌ ؛
فَاخْلَوْهُ مِنْ سُكَّانِهِ ، وَعَادَ فِيهِ الْإِسْلَامُ إِلَى مَكَانِهِ ؛ وَهُوَ مَا هُوَ مِنْ طِيبِ الْبُقْعَةِ ،
وَأَنْفَسَاحِ الرُّقْعَةِ ؛ وَلَوْ تَمَسَّكَ بِهِ الْعُدُوُّ لَكَانَ ذَلِكَ الْوَطَنُ بِسُوءِ جَوَارِهِ مَكْدُودًا ،
وَالْمُسْلِكُ إِلَى الْجَبَلِ - عَصَمَهُ اللَّهُ - مُسْدُودًا ؛ فَكَانَ الصَّنِيعُ فِيهِ طَرَاؤًا عَلَى عَاتِقِ تِلْكَ
الْحَلَّةِ الضَّائِفَةِ ، وَمَزِيدًا لِحُسْنِ الْعَارِفَةِ الْوَافِيَةِ ؛ فَلَمَّا اسْتَجَلَبْنَا غَزَا هَذَا الْفَتْحِ الْهَوِيِّ ،
وَالْمَنْحِ السَّنِيِّ ، قَابَلْنَاهُ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَمْدِهِ ، وَضَرَعْنَا إِلَيْهِ فِي صَلَاةٍ نِعَمَهُ فَلَا نِعْمَةَ
إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ؛ وَعَلِمْنَا أَنَّهُ عُنَاؤُنَا عَلَى مَزِيدِ مَلِكِكُمُ الْأَعْلَى وَعِلَامَةُ عَلَى سَعْدِهِ ، وَأَثَرُ نَيْتِهِ

للإسلام وحسن قصده ؛ ونفّر ذنره الله لأيامكم لا نهاية لحده ، فإنكم صرفتم وجهه عنايتكم إلى هذا القطر على تأي المحلّ وبعده ؛ ولم تشغلّكم الشواغل عن إصلاح شأنه وإجزال رفده .

وأما البلد المحصور ، فظهر فيه من عزّكم الأمضى ما صدّق الآمال والطنون ، وشرح الصدور بمقامكم وأقرّ العيون : من صلة الإمداد على الخطر ، وتردد السالبة البحرية على بُعد الوطن وتعذر الوطر ؛ واختلاف الشوائب التي تسرى إليه سري الطيف ، وتحلّص سهاؤها إلى غرضه بعد أذى وكيف ؛ حتى لم تعدم فيه مرفقة يسوء فقداؤها ، ولا علة يهيم شأنها ؛ فجزأؤكم عند الله موفور القسم ، وسعيكم لديه مشكور الذم ؛ كافا الله أعمالكم العالية الهيم ، وخلّلكم الزاكية الشيم ؛ فقد سجد الإسلام - والحمد لله - بملككم الميمون الطائر ، وسرت أنباء عنايتكم بهذه البلاد كالمثل السائر ؛ وما هو إلا أن يستتب اضطراب الكفار واختلافهم ، ويتنازع الأشر أصنافهم ؛ فتغتنمون إن شاء الله فيهم الغرة التي ترتبها العزائم الشريفة ، والهيم المنيفه ؛ وتنجح شيمكم العليا ، بين نخر الآخرة والدنيا ، وتحصل على الكمال الذي لا شرط فيه ولا ثنيا ؛ فاهنؤا بهذه النعمة التي خباها الله إلى أيامكم ، والتحفة التي بعثها السعد إلى مقامكم ؛ فإنما هي بتوفيق الله ثمرة إمدادكم ، وعقبى جهادكم ؛ أوزعنا الله وإياكم شكرها ، وأهمنّا ذكرها .

عرفناكم بما أتصل لدينا ، وورد من البشائر علينا ؛ عملاً بما يجب لمقامكم من الإعلام بالترديدات ، والأحوال الواردات ؛ ووجهنا إليكم بگلبن هذا من ينوب عنا في هذا الهناء ، ويقرر ماعتدنا من الولاء ، وما يتردد لدينا بالأنباء ؛ خالصة لانعامنا ، المتميز بالوسيلة المرعية إلى مقامنا ؛ الخطى لدينا ، المقرب إلينا ؛ القاتد الفلاني أبا الحسن عبادا وصل الله عزّته ، ويمن وجهته ؛ ويحمدكم ينعم بالإصغاء إليه ، فيها أحلنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام .



وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبي سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب
تلمسان، عند بعثه بطعام إلى الأندلس، شاكرًا له على ذلك، ونخبًا له بفتح حصن
من حصون الأندلس يسمى حصن قنيط، وهو :

المقام الذى تحدثت بسعاده دولة أسلافه ، وأتفق به قولنا من بعد اختلافه ،
وعاد العقد إلى انتظامه والشمل إلى اختلافه ؛ مقام ولينا فى الله الذى هيا الله له من
جميل صنعه أسبابا ، وفتح به من [مبهم^(١)] السعد أبوبا ؛ وأطلع منه فى سماء قومه
شهابا . وصفيْنَا الذى نُسببُ القول فى شكر جلاله ووصف خلالِه إسهابا ؛ السلطان
أبو سعيد عثمان ، ابنُ الأمير أبي زيد ، ابنِ الأمير أبي زكريّا ، ابنِ السلطان أبي يحيى
يغمراسن ، بن زيان ؛ مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه - أبقاه الله للدولة الزبانية -
يزين بالاعمال الصالحة أحيادها ، ويملك بالعدل والإحسان قيادها ؛ ويؤجرى
فى ميدان الندى والباس ، ووضع العرف بين الله والناس ، جياها . سلام كريم
كما زحفت للصباح تُهبب المواكب ، وتفتحت عن نهر المجرة أزهار الكواكب ؛
ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله جامع الشمل بعد أنصداه وشتاته ، وواصل الحبل بعد انقطاعه
وأنيباته ؛ سبحانه لا مبدل لكلماته ، والصلوة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الصادع
بآياته ، المؤيد ببيناته ؛ الذى أصطفاه لحمل الأمانة العظمى ، وجباه بالقدر الرفيع
والمحلّ الأسنى ؛ والله أعلم حيث يجعل رسالته . والرضا عن آله وصحبه وأنصاره
وحزبه وحجته ، المتواصلين فى ذات الله وذاته ، القائمين بنصر دينه وقهر عداته .
فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سعدا ثابت الأركان ، وعزّا ساعى المكان ؛ وبعدا

وَنَيْقُ الْبُنْيَانِ ، وَصُنْعَا كَرِيمِ الْأَثَرِ وَالْعِيَانِ مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةِ حَرَسِهَا اللَّهُ وَالثَّقَةِ بِاللَّهِ
سُبْحَانَهُ أَسْبَابُهَا وَثِقَةٍ ، وَأَنْسَابُهَا عَتِيقَةٍ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ لَا تَلْتَبِيسَ مِنْ سَائِلِكِ طَرِيقَهُ
وَلَا تَخْتَلِطُ بِالْحِجَازِ مِنْهُ حَقِيقَةٍ ؛ وَعِنْدَنَا مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِكُمْ فِي اللَّهِ عُقُودٌ مُبَرَّمَةٌ ، وَأَيُّ
فِي كِتَابِ الْإِخْلَاصِ مُحْكَمَةٌ ؛ وَلَدَيْنَا مِنَ السَّرُورِ ، بِمَا سَنَاهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَسْبَابِ الظُّهُورِ ،
الَّذِي حُلَّاهُ مُعَلِّمُهُ ، وَحُجَّجُهُ الْبَالِغَةُ مَسَامُهُ ، مَا لَا نَفِي الْعِبَارَةِ بِبَعْضِ حُقُوقِهِ الْمُتَرَمَّةِ ؛
وَالِىَ هَذَا أَيْدِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ . فَإِنَّا وَرَدَ عَلَيْنَا فَلَانِ وَصَلَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ ، وَسَيِّئَ سَلَامَتَهُ ؛
صَادِرًا عَنْ جِهَتِكُمُ الرَّفِيعَةِ الْجَانِبِ ، السَّامِيَةِ الْمَرَاقِبِ ؛ طَلَّقَ اللِّسَانُ بِالنَّهْثِ بِمَا خَصَّكُمْ .
اللَّهُ بِهِ مِنْ فَضْلِ الشَّمَائِلِ وَكَرَمِ الْمَذَاهِبِ ، مُحَدَّثًا عَنْ بَحْرِ مَكَارِمِكُمُ بِالْعَجَائِبِ ؛ فَخَضِرَ
بَيْنَ يَدَيْنَا مُلْقِيَا مَا شَاهَدَهُ مِنْ أَزْدِيَادِ الْمَشَاهِدِ ، بِتِلْكَ الْإِيَالَةِ ، وَأَسْتَبْشَارِ الْمَعَاهِدِ ، بِعُودَةِ
ذَلِكَ الْمَلِكِ الرَّفِيعِ الْجَلَّالَةِ ، الشَّهِيرِ الْأَصَالَةِ ؛ وَوَصَلَ مُحَبِّبَتُهُ مَا حَلَّتُمْ جَفْنَةً^(١) مِنَ الطَّعَامِ
بِرِسْمِ إِعَانَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَالْإِمْدَادِ الَّذِي أَفْتَتَحْتُمْ بِهِ دِيُونََ أَعْمَالِكُمُ السَّيِّئَةِ ،
وَأَعْرَبْتُمْ بِهِ عَمَّا لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ خَالِصِ النَّيَّةِ ؛ وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ رِشَّةٌ
مِنْ عَمَامٍ ، وَطَلِيعَةٌ مِنْ جَيْشٍ هَامٍ ؛ وَوَفِدَ مِنْ عَدَدٍ ، وَبَعْضٌ مِنْ مَدَدٍ ؛ وَأَنَّ عِزَّائَكُمْ
فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِمْدَادِ عَلَى أَوَّلِيهَا ، وَمَكَارِمِكُمْ يُنْسَى الْمَاضِي مِنْهَا بِمُسْتَقْبَلِهَا ؛ فَاتَّيْنَا عَلَى
قَصْدِكُمُ الَّذِي اللَّهُ أَخْلَصْتُمُوهُ ، وَبِهَذَا الْعَمَلِ الْبَرِّ خَصَّصْتُمُوهُ ؛ وَقُلْنَا : لَا يَنْكَرُ الْفَضْلُ
عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا يُرْصَدُ عَنْ مَحَلِّهِ ؛ فَلَيْسَتْ إِعَانَةُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْجِهَادِيَّةِ يَبْدَعُ مِنْ
مَكَارِمِ جَنَابِكُمُ الرَّفِيعِ ، وَلَا شَاذَّةٌ فِيمَا أُسْدِي عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ حُسْنِ الصَّنِيعِ ؛ فَقَدْ عَلِمَ
الشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ ، وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنَتْ عَلَيْهَا الْحَقَائِبُ ؛ مَا تَقَدَّمَ لَسَلَفِكُمْ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ
مِنْ الْإِرْفَاقِ وَالْإِرْفَادِ ، وَالْأَخْذِ بِالْحِطِّ الْمَوْفُورِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْجِهَادِ ؛ وَأَتَمَّ أَوَّلَى مَنْ
جَدَّدَ عُهُودَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ غَدُهُ فِي الْفَخْرِ أَكْبَرَ مِنْ يَوْمِهِ ؛ وَقَدْ ظَهَرَتْ لِلَّهِ فِي حَيْزِ تِلْكَ

الإيالة الزبائية نتيجة تلك المقدمات، وعُرفت بركة ما أسلفته من المكرمات. وسئى
الله سبحانه بين يدي وصول ما به تفضلتم، وفي سبيله بذلتم، أن فتح جيشنا حصناً
من الحصون المجاورة لغربى مألقة يعرف بحصن قنيط من الحصون الشهيرة المعروفة،
والبقع المذكورة بالخصب الموصوفه؛ ودفع الله مضرته عن الإسلام وأهله، ويسره
بمعهود فضله؛ فجعلنا من ذلك الطعام الذى وجّهتم طعمة حمانه، ونفقات رجاله
ورماته، اختياراً له فى أرضى العراف من سبل الخير وجهاته. وأما نحن فإن ذهبنا إلى
تقرير ما عندنا من الثناء، على معالى ملككم الأصيل البناء، والاعتداد بمقامكم الرفيع
العِماد، والاستناد إلى ولائكم الثابت الإسناد؛ لم نبلغ بعض المُراد، ولا وفى اللسان
بما فى الفؤاد؛ فمن الله نسأل أن يجعله فى ذاته، وذريعة إلى مرضاته؛ ومرادنا
من فضلكم العميم، وودّكم السليم؛ أن تحسبوا هذه الجهة بجهتكم فيما يعرض من
الأغراض: لنعمل فى نعيمها بمقتضى الوُدِّ العذب الموارِد، الكريم الشواهد؛ والله
يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام.

الضرب الثانى

(أن يقع الابتداء بالمقر)

والرسم فيه أن يقال: المقر، ويُنتع، ثم يقال: مقر فلان، ويُنتع بالألقاب،
ثم يذكر المكتوب عنه. ثم يقال: أما بعد حمد الله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها؛
ثم يقال: فإنّا كتبناه لكم من موضع كذا، ويُتخلّص إلى المقصد بلفظ: وإلى هذا
فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصد إلى آخره ويُتمّ بالسلام.

كما كتب ابن الخطيب عن سلطان ابن الأحمر إلى تجلان سلطان مكة شرفها
الله تعالى وعظّمها، وهو:

الْمَقَرَّ الْأَشْرَفُ، الَّذِي فَضَّلَ الْحَالَ الدِّينِيَّةَ مَحَلَّهُ ، وَكُرِّمَ فِي بَرْزَمَزَمَ مُنِيطَ إِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهْلَهُ وَعَلَّهُ ، وَخَصَّهُ بِإِمْرَةِ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ الْأَمِينِ مِنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ ؛ فَاسْفَرَ عَنْ صُبْحِ النَّصْرِ الْعَزِيزِ فَضْلُهُ ، وَاشْتَمَلَ عَلَى خَوَاصِّ الشَّرَفِ الْوَضَّاحِ جَنْثُهُ وَفَضْلُهُ ، وَطَابَتْ فُرُوعُهُ لِمَا آسَمَدَتْ مِنْ رِيحَانَتِي الْجَنَّةِ أَصْلُهُ .

مَقَرُّ السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ ، الْكَبِيرِ ، الشَّرِيفِ ، الطَّاهِرِ ، الظَّاهِرِ ، الْأَعْجَدِ ، الْأَسْعَدِ ، الْأَوْحَدِ ؛ الْأَسْمَى الشَّهِيرِ الْبَيْتِ ، الْكَرِيمِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ ، الْمَوْقَرِّ ، الْمَعْظَمِ ، ابْنِ الْحُسَيْنِ ، وَحَافِدِ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ ؛ تَاجِ الْمَعَالَى ، عَزِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَبِي السَّبْقِ عِجْلَانَ ، ابْنَ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ ، الشَّهِيرِ ، الرَّفِيعِ ، الْخَطِيرِ ، الْجَلِيلِ ، الْمَثِيلِ ، الطَّاهِرِ ، الظَّاهِرِ ، الشَّرِيفِ ، الْأَصِيلِ ، الْمَعْظَمِ ، الْأَرْضِيِّ ، الْمُقَدَّسِ ، الْمُتَعَمِّمِ ، أَسَدِ الدِّينِ ، أَبِي الْفَضْلِ "رَيْثَةُ" بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سَعِيدِ الْحُسَيْنِيِّ - أَبَقَاهُ اللَّهُ ، وَجَعَلَ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَى رَاقِطِي مَثْوَاهُ ، عَلَى بُعْدِ الدَّارِ ، وَتَتَقَرَّبُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّامِّ التَّرَابِ وَاسْتِلَامِ الْجِدَارِ ، وَتُجِيبُ أَذَانَ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ بِالْحُجَّاجَةِ الْإِيتِدَارِ ؛ وَهَنَاهُ الْمَزِيَّةَ الَّتِي خَصَّهُ بِهَا مِنْ بَيْنِ مُلُوكِ الْأَقْفَارِ ، وَأَوَّلِي الْمَرَاتِبِ فِي عِبَادِهِ وَالْأَخْطَارِ ؛ كَمَا رَفَعَ قَدْرَهُ عَلَى الْأَقْدَارِ ، وَسَجَّلَ لَهُ بِسِقَايَةِ الْحُجَّاجَةِ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَقْدَ الْفَخَارِ . وَيُنْهَى إِلَيْهِ أَكْرَمَ التَّحِيَّاتِ تَتَأَرَّجُ عَنْ شَدَا رُوضَةِ الْمِطَارِ ، عَقِبَ الْأَمْطَارِ ، مَعْظَمَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ شَعَائِرِ مَثْوَاهُ ، وَمَلْتَمَسُ الْبَرَكَةِ مِنْ أَبْوَابِ مِفْتَاحِيهِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَاهُ ، وَمُوجِبُ حَقِّهِ الَّذِي يَلِيقُ بِمَنْ الْبَتُولُ وَالرُّضَا أَبَوَاهُ ، الشَّقِيقُ إِلَى الْوِفَادَةِ عَلَيْهِ وَإِنْ مَطَّلَهُ الدَّهْرُ وَلَوَاهُ ؛ فَلَان . كَانَ اللَّهُ لَهُ فِي غَرْبَتِهِ وَأَنْفَرَادِهِ ، وَتَوَلَّى عَوْنَهُ عَلَى الْجِهَادِ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَلِيِّ الْحَمْدِ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ ، وَمَطْمَحِ النُّفُوسِ الْعَالِيَةِ وَالْهِمَمِ الْفَاحِرَةِ ؛ مُؤَيِّدِ الْعَزَائِمِ الْمُتَعَاذِلَةِ فِي سَبِيلِهِ الْمُتَنَاصِرَةِ ، وَمُعَزِّ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ وَمُذِلِّ

الطائفة الكافرة ، ومُنيل القياصرة الغائب والأَكاسِره ، وتارك أرضها عبْرَةً للأَذانِ السامعةِ والعيونِ الباصرة .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله نبي الرحمة الهامية الهامية الهامية ، والبركات الباطنة والظاهرة ، المجاهد في سبيل الله بالعزائم الماضية والصّوارم الباترة ، مُصمِّمَتِ الشَّقَاشِقِ الهادِرة ، ومُرغِمِ الضَّلالةِ المكابرة ، المنصور بالرُّعب من جنود ربّه الناصِرة ، المحروس بحرس الملائكة الوافرة ، الموَعِرِ مَلِكٍ أُمّتِهِ بِمَا زُوِيَ لَهُ من أطراف البسيطة العامِرة ، حَسَبَ ما ثَبَتَ بالدلائل المتواترة .

والرضا عن آلِهِ وأَحْزابه ، وعِترته وأَصْحابه ، المجاهدة الصابرة ؛ أُولَى القلوبِ المُرَاقِبةِ والأَلْسُنِ الذاكِرة ، والآدابِ الحريصة على الإِهْتِدَاءِ بِهَدَاهِ المثارِبة ؛ الذين جاهدُوا في الله حقَّ جِهَادِهِ يَخُوضُونَ لأنْ تَكُونَ كلمةُ الله هي العُلَا بِحَارِ الرُّوعِ الزَّائِرِ ؛ وَيُقَدِّمُونَ بالجموعِ القليلة على الآلافِ المتكاثرة ، حتّى قُتِلَتْ بِظُهُورِ الإسلامِ العُيُونُ النَّاظِرَة ، وَحَلَّتْ في العُدُوِّ الفاقِرة ، فَكُنُوا في الذَّبِّ عن أُمّتِهِ كالأَسُودِ الخالِرة ، وفي الهدايةِ بِسَاءِ مِلَّتِهِ كالتَّجُومِ الزَّاهِرَة .

والدعاء لشرككم الأصيل المتأسب الطاهرة ، والمكآرم الزاهية بِبُنُوّةِ الزَّهراءِ البتُولِ بِضَعَةِ الرُّسُولِ الزَّاهِرَة ، بالصُّنْعِ الذي يُسْفِرُ عن الغرِّ المشرقةِ السَّافِرَة ، والعِزِّ الذي يَضْفُو منه الجَنَاحُ على الوفودِ الوافرة ، والفَضْلِ من المجاوره ، ولا زال ذِكْرُكُمْ بالجميل هَيَّيْرى الرُّكائبِ الوارِدةِ والصَّادِرَة ، والثناء على مكارمكم يُجْجِلُ أَغْصَانُ الرِّياضِ العاطِرة ، عَقِبَ الغائمِ الماطره .

فإنّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كتب الله لكم عنايةً تُحِبُّ الأَسْوَءَ [بُيْنَهَا] السَّاتِرَة ، ورعايةً تَجْمَعُ الأَهْوَءَ المُخْتَلَفَة والقُلُوبَ المُتَنَافِرَة - من حمراءِ غُرْناطةِ دارِ المُلْكِ الإسلاميّ

(١) الزيادة من رِعايةِ الكُتُبِ .

بِالْأَنْدَلُسِ - حَرَسَهُ اللهُ وَوَقَّرَ جَمُوعَ حَامِيَتِهَا الْمُتَأَغِرَةِ - وَسَدَّدَ بِيَدِ قُدْرَتِهِ مَا هَمَّ بِهَا
 مِنْ أَنْفَوَاهِ الْعِدَى الْفَاغِرَةِ ، وَلَا زَالَتْ سَحَابُ رَحْمَةِ اللهِ الْحَاطَةِ لَهَا الْغَامِرَةِ ، تُظَلِّلُ
 جُمُوعَ جِهَادِهَا الظَّافِرَةِ ، وَتَجُودُ رِثَمَ شَهَدَاتِهَا النَّاسِرَةِ ، وَنِعْمَ اللهُ تَحِطُّ رِكَائِبُ الْمَزِيدِ
 فِي نَوَادِيهَا الْحَامِدَةِ الشَّاكِرَةِ .

والحمد لله كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله . وجانيكم موفى حقّه من العظيم
 الذى أناف وأربى ، وقدركم يعرفه من صام وصلّى فضلاً عن حجّ ولبي ، ومستند
 وُدِّكم ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وإلى هنا - حرس الله مجدكم
 ومقرّم الأشرف ، كما تحب على البيت العتيق ظلكم الأورف - فإن الجهاد والحج
 أخوان ، يشهد بذلك الملوان ، مرتضعان تذى المناسبه ، ويكادان يتكافآن في المحاسبه :
 سَفَرًا وَزَادًا ، وَنِيَّةً وَاسْتِعْدَادًا ، وَإِتْلَاقًا لِمَصُونِ الْمَالِ وَإِنْفَادًا ، وَخُرُوجًا إِلَى اللهِ لِأَثَرِ
 أَهْلًا وَلَا وَلَدًا ، وَإِنْ أَفْتَرَقَا مَحَلًّا فَقَدْ أَجْتَمَعَا جِهَادًا ، وَرَفَعَا لِلَّهِ مَنَارًا سَامِيًا وَعِمَادًا ،
 وَوُطَّنًا - والحمد لله - على هذا العهد المخصوص بكال هذه المزيه ، والقيام بفرض كفايتها
 البحرية والبرية عن جميع البرية ، [السليمة من الضلال البرية] وهذا النسب واشجعة^(١)
 عُرُوقُهُ ، صادقة بروقه ، ومثاته لا يفضلُه مَتَاتٌ وَلَا يُفَوِّقُهُ . ونحن نعرفكم بأحوال
 هذا القطر المستمسكة قُروعه بتلك الجُرثومة الراسية ، الممدودة أيديه إلى مثابها
 المتصقة بالدعاء المؤاسيه ، فاعلموا أن الإسلام به مع الحياة في سَفَطِ حَرَجٍ ،
 وفى أمر مَرَجٍ ، وطائفة الحق قليلٌ عددها ، منقطع إلا من الله مددها ، مستغرق
 يومها فى الشِّتَةِ وَضُدَّهَا ، فالطلائع فى قُنَنِ الْجِبَالِ تُنَوِّرُ ، والمُصْهِرُ من بيته مغزٍ ،
 والصَّيْحَةُ مع الأَخْيَانِ مَسْمُوعَةٍ ، والأعداء لَرَدِّ مَا اسْتَخْلَصَهُ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ بِجُمُوعِهِ ،
 والصبر قد لُبِسَتْ مَدَارِعُهُ ، والنصر قد أُلْتُمِسَتْ مَشَارِعُهُ ، والشهداء تُنَوِّشُ أَشْلَاءَهُمْ

القَسَام ، وتحتفلُ منها للعواصِ الولائم والمَطَام ؛ والصَّيَّاتُ تُدْرَبُ على العمل بالسَّلاح ، وتُعَلَّمُ أَحكامَ الجهادِ تعلَّمُ القرآن في الألواح ؛ وأَذَانُ الخيلِ مستشرفة للصَّياح ، ومَفَارِقُ الطائحين في سبيلِ الله تعالى تَبْلُى بأيدى الرياح ؛ والمآذِنُ تُجَيِّبُها النواقيسُ مناقِضه ، وتراجعُها مُغاضِبةٌ معارِضه ؛ وعددُ المسلمين لا يبلغُ من عَدَدِ الكُفَّارِ ، عَشْرَ المعشارِ ، ولا وَبَرَةٌ من جلودِ العِشارِ ؛ إلا أن الله عز وجلَّ حلَّ يولّا بِنّا الخَتَقَ المشدود ، وفتح إلى التيسيرِ المَهْمَجِ المسدود ، وأضفى ظلالَ اليَمْنِ الممدود ، وألهم - وله الشُّكرُ على الإلهام ، وتسديد السَّهام . والحمد لله الذى يفوتُ مداركَ الأنفهام إلى اجتِهَادِ قُرْنٍ به التوفيق ، وجهادٍ نُهَجَ به إلى النجاة المُنتَجِية الطريق ؛ سبحانه من كريمِ يُلْهِمُ العملَ لِيُثْبِتَ ، ويأمرُنّا بالدعاء لِيُجِيبَ ؛ فتحرَّكنا حركاتٍ ساعدها - والله المنة - السعد ، وتولّى أمرها ونُصرتُها مَنْ له الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ .

ففتحنا مدينة بُرْقة الفاصلة كانت بين البلادِ المسلمه ، والشَّجَا المعترض في تَحْرُ الكَلِمه ؛ وتبعها بناتٌ كنَّ يرتضعن أخلافَ دِزْتِها ، ويتعلّقن في الحرب والسَّلم بأَرْزِها . ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغاراتِ الكافره ، ومستقرَّ الشوكه الوافره ؛ ورفع اللهُ إصْرَه الثقيل ، وكان من عَثَرَةِ الدِّينِ فيه المِقِيل .

ثم قصدنا مدينةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر ، وعَرِيرَ الأَسود الغُلبِ وكِاسَ الظَّباءِ العُقرِ ؛ فاستبجناها عَنوةً أضمرت البلادَ نارا ، ودارت بأسوارها المنيعه سِوَارا ، واستأصلنا أهلها قَتْلًا وإسارًا ؛ وملاّت الأيدي من قُتَاوة سبي تعددت آلافه ، وموقُور غُثم شَدَّتْ عن العبارة أوصافُه .

ثم كانت الحركةُ إلى مدينة جِيَّان وشَهْرَتِها في المعمور ، وشِياعُ وصفها المشهور ، تُقْنِي عن بَسْطِ مالها من الأمور ؛ ففتحها الله على يَدَيْنَا عَنوةً وجُعِلَتْ مقاتِلُها نَهْبا .

للسيوف الرِّقَاق، وَسَبَّيْهَا مَلَكَةً لِلْأَسْتِرْقَاقِ، وَأَهْلَةً مَبَانِيهَا الْبَيْضَ دَرِيْثَةً لِلْمِخَاقِ،
وَأَسْتَوْلَتْ عَلَى جَمِيعِهَا أَيْدِي الْهَدْمِ وَالْإِحْرَاقِ؛ ثُمَّ دُكَّتِ الْأَسْوَارُ، وَعُقِرَتِ الْأَشْجَارُ،
وَأَسْتُخْلِفَ عَلَى خَارِجِهَا النَّارُ، فَهِيَ الْيَوْمَ صَفْصَفٌ يَنْشَأُ بِهَا الْأَعْتَابُ، وَتَعْجَبُ
الْأَبْصَارُ.

وغزونا بعدها مدينة أْبْدَةَ أَخْتَهَا الْكَبْرَى، وَلِدَتْهَا ذَاتُ الْحُلِّ الْأُسْرَى؛ وَكَانَتْ
أُسُوءَةً لَهَا فِي التَّدْمِيرِ، وَالتَّيْدِيرِ وَالْعَفَاءِ الْمُبِيرِ.

ثم نازلنا مدينة قُرْطَبَةَ وَهِيَ أُمُّ هَذِهِ الْبِلَادِ الْكَافِرَةِ، وَدَارُ النِّعَمِ الْوَافِرَةِ، وَذَاتُ
الْمَحَاسَنِ السَّافِرَةِ؛ فَكُنْذُنَا نَسْتَبِيحُ حَاهَا الْمَنِيْعَ، وَنُسَنِّتُ شَمْلَهَا الْجَمِيْعَ، وَنُحْتَفِلُ بِفَتْحِهَا
الَّذِي [هُوَ لِلدِّينِ أَجَلٌ] صُنِيعٌ، لَوْلَا عَوَائِقُ أَمْطَارٍ، وَأَجَلٌ مَتَّهِ إِلَى مِقْدَارٍ؛ فَرَحَلْنَا عَنْهَا
بَعْدَ أَتْنَاهَا زَلْزَلُ الطُّوْدِ، وَوَعْدْنَاهَا الْعَوْدِ؛ وَتَوَمَّلْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ إِفْثَاذَ الْبُشْرَى بِفَتْحِهَا
عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَمُتَحَافَةً مِّنْ بِهَا مِنَ الْمُلُوكِ الْأَعْلَامِ، بِالْإِخْبَارِ بِهِ وَالْإِعْلَامِ.
وَبَلَّغَ [مِنْ] صُنِيعِ اللَّهِ لَنَا وَهُوَ كَافٍ مِنْ تَوَكَّلٍ عَلَيْهِ، وَفَوْضِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ؛ أَنْ لَا طَقْنَا
النَّصْرُ بِمُحْصُونَ أَرْبَعَةَ لَمْ تُوجِفْ عَلَيْهَا رِكَابًا، وَلَا تَمْلِكُنَّهَا غَلَابًا؛ فَطَهَرْنَا بِيُوتَ اللَّهِ
مِنْ دَنَسِ الْأَوْتَانِ، وَعَوَّضْنَا النُّوَاقِيسَ بِكَلِمَةِ الْإِيْمَانِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَوَاهِبِ
الْإِثْمَانِ، وَمَنْهُ نَسْتَرِيدُ عَوَائِدَ الْإِحْسَانِ.

وهذه المجملات تحتل شرحاً، تَسِيحُ فِي بَحْرِهِ سِنَانُ الْأَقْلَامِ سَبِيحاً؛ مِنْ أَوْصَافِ
مَعَانِمِ شَدَّتْ عَنْ الْحَصْرِ، وَمَوَاقِفَ لَتَزُلَّ السَّكِينَةُ وَهَبُوبِ النَّصْرِ؛ وَمَظْهَرَ مِنْ جَدِّ
الْمُسْلِمِينَ فِي آفَتْحِ تِلْكَ الْمَعَاقِلِ الْمَنِيْعَةِ الْمُتَنِيْقَةِ؛ وَمَقَارِعَةِ الْجَمُوعِ الْكَثِيْفَةِ؛ وَبَرَكَهُ
الْحَرَمِ الشَّرِيفِ فِي كُلِّ حَالٍ مَوْجُودِهِ، وَأَقْطَارِ الْإِسْلَامِ بِهَا مَجُودِهِ، وَالْوَسَائِلِ إِلَى اللَّهِ
بِأَهْلِهِ فِي التَّقْدِيمِ وَالْحَدِيثِ لَا مُخَيِّبَةً وَلَا مَرْدُودَهُ؛ فَهُوَ الْأَصْلُ، وَالْفِعْدُ الَّذِي سُلِّ

منه النَّصْل ؛ حتى بلغ التَّخَوُّمَ القاصيه ، وذللَّ المالك المتعاصيه ، وقاد من تقاعد أو تقاعس بالناسيه .

وقد ظهر لنا أن نوجّه الى المدينة المقدسة صلوات الله على من بها وسلامه رسالة نعرفه بهذه البركات الهامية من سماء عنايته الممدود خارجها آية من آياته ، وكلنا جنّاه ، وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله بهداه ؛ وأصحابنا أشخاصا من نواقيس القرّنج مما تأتى حملة ، وأمكن نقله ؛ وما سواه فكانت جبالا ، لا يقبل نقلها احتيالا ؛ فتناوَل درعها المسخ والتكسير ، وشغى بذهاب رؤسومها الاقامة والتكثير ، والأذان الجهير ؛ ومرادنا أن تُعرض بمجتمع الوفود تذكرة تستدعى الإمداد بالدعاء ، وتقتضى بتلك المعاهد النصر على الأعداء ؛ ثم تُصحب ركاب الزّيارة ، الى أبواب النبوة ومطالع الإنارة ؛ وأتمّ عملون في توفية هذه الأحوال ورعايتها ، وإبلاغها الى غايتها ، ما يليق بحسبك الوضاح ، ومجدكم الصّراح ، وشرفكم المتبلّجة أنواره تبلّج الإصباح (فانتم خير من ركب المطايا وأنذئ العالمين بطون راح) ولكم بذلك الحظ الرّغيب في هذه الأعمال البرّة ، والله سبحانه لا يُضيع مثقال الذرّة ؛ وهو سبحانه يتولّىكم بما تولى به من أعزّ شعاره وعظّمها ، ورعى وسائله واحترمها ؛ ويصل أسباب سعدكم ، وينفعكم بقصدكم . والسلام الكريم ، الطيب البرّ العميم ؛ يحیی معاهدكم الكريمة على الله عهودها ، النامية بغائم الرّحمت والبركات عهودها ؛ ورحمة الله وبركاته .

وربما قدّم على لفظ المقرّ صلة يُعتمد عليها في البداة .

كما كتب عنه أيضا في معنى ذلك الى أمير المدينة النبوية على ساكنها سيدنا محمد افضل الصلاة والسلام .

يعتمد المقرّ الأشرف الذى طاب بطيبة نشره ، وجلّ بإمارتها الشريفة أمره ، وقُدّر في الآفاق شرفه وشرف قدره ، وعظّم بخدمة ضريح سيّد ولد آدم فقره ،

[أبقاه الله منشراحاً بجوار روضة الجنة صدره ، مُشرقاً بذلك الأفق الأعلى بدره ،^(١)
 ذائعاً على الألسن المسدحة ، في الأقطار النازحة ، حمدُهُ وشُكْرُهُ ، مُزريّاً بَسَدًا مِسْك
 الأذفر في الجمع الأوفى ذِكْرُهُ ؛ تحيةً مُعظَّم ما عَظَّم الله مِنْ دار الهجرة دارِهِ ،
 ومَطلَع إبداره ، الملتَمِس بركة آثاره ، المتقَرَّب إلى الله بحبه وإيثاره . فلان .

أما بعد حمد الله الذي فضَّل البَقع بخصائصها الكريمة ومَزاياها ، تفضيلَ الرياض
 الوَسِية بريَّاها ، وجعل منها مَتَابَاتٍ رحمةً تضربُ إليها العبادُ أَبَاطَ مَطَاياها ، مؤمِّلةً
 من الله غُفرانَ زَلَّاتِها وحَطَّ خطاياها ؛ وخَصَّ المدينةَ الأَمينةَ بِضريحِ سيدِ المرسلين
 فأسعدَ منها مَمَاتِها ومَحياها ، ورفعَ عَلياها .

والصلاة على سَيدنا ومولانا محمدٍ رسولِهِ الكريم ، الرُّؤوفِ بالمؤمنينَ الرَّحيم ؛
 مُطْلِع أوجهِ السعادة بِرُوقِ مَحياها ، ومُوضِّح أسرارِ النِّجاةِ ومَبِينِ خَفاياها ؛ الذي
 تَدَارَكُ الخَلِيقَةَ بهِديهِ وكَشَفَ بَلَاياها ، ورعى لِسَنَةَ الله رِعاياها ، وجمعَ بينَ صلاحِ
 دينِها ودُنياها .

والرضا عن آلِهِ وصَحْبِهِ ، وعِزَّتِهِ وحِزْبِهِ ؛ التي كُرِّمَتْ بِمَجايها ، وعَظُمَتْ لَطافُها
 الهادِيةُ وهَدَاياها ؛ وجاهدَتْ بَعْدَهُ طوائِفُ الكُفَّارِ ، تُشعِشِعُ لها في أَكْوَاسِ^(٢)
 الشِّفَارِ ، مَتَاياها ، وتُطْلِعُ عليها في الليلِ البَهِيمِ ، سَنا الصُّباحِ الوَسيمِ ؛ من غُرَرِ
 سَراياها ، وتُسَدُّ بِغَمَامِ الأَمْسَةِ ورياحِ ذَوَاتِ الأَمَةِ ثَنايها .

والدعاء لِمَقَرِّ أصالَتِك الشَّريفةِ حَيَّاهَا اللهُ وبَيَّاهَا ، كما شَرَّفَها بِولادةِ الوَصِيِّ الذي قَرَرَ
 وَصاياها ، وسُلالةِ النَّبيِّ الذي أعظَّم مَوَاهِبَ فَخْرَها . منه وَعَطاياها ، بالسَّعادةِ التي تُبْرِزُ
 أَكفُ الأَقْدارِ على مَرورِ الأعْصارِ خَبَاياها ، والعِزِّ الذي يُزَاحِمُ فِرْقَدَ السَّاءِ وَثَريَّاهَا .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) كذا في الريحانة أيضا وأبْن الخطيب يستعمل هذا الجمع كثيرا ولكن الذي في كتب اللغة أن جمع
 الكاس أكوس وكشوس ويرر .

فانا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من مواهب الصنع الجليل أغياها ، كما طيب
بذكركم أطراف البسيطة وزواياها ؛ وجعل فخر الحوار الكريم في عقيبكم كلمة صدق
لا تختلف قضاياها ، ما مرضت الرياض مؤرسات عشاياها ؛ ففعلت من النواسم
مشمومها ومن الأزهار البواسم حشاياها . من حمراء غرناطة - حرسها الله -
ونعم الله يحولك حللها الجهاد ، والسيوف الحداد ، وتلبسها البلاد والعباد ، وتزيها .
وقول الكفر ناكسة على الأعقاب ، من بعد شد الوثاق وضرب الرقاب ، خزاياها ؛
وبركات حرم النبي الوجيه على الله يستظلها الإسلام ويتقيها ، ويتق الغل
من رواياها .

والحمد لله كثيرا كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ؛ ولعاهدكم الكريمة الأرياح ،
كلما أو مضت البروق وخفقت الرياح ؛ ولستى عنايتنا الاتحاح ، إذا أشجرت
الرماح ؛ وفي تأميل المتول بها تعمل الأفكار وإن هيض الجناح ، وبهذا الاستنارة
إذا خفي للمرآشد الصباح ، وبالإعتمال في مرضاة من صم منها الثرى القواح ، والصفيح
الذي ثراث ساكنه العوامل المجاهدة والصفاح والجهاد الصراح ، يعظم في الصدر
الانصراف ، ويعز المغدئ في سبيل الله والمراح .

وإلى هذا أجزل الله مسرتكم بظهور الدين ، وأعتلاء صبحه المبين ؛ فاننا نعزفكم
أنسا فتح الله علينا وعلى إخوانكم المؤمنين بهذه الثغور المنقطعة الغريه ، الماتة
على الآماد البعيدة بالذمم العربية ؛ فتوحا حوزت من مملكة الكفر البلاد ، ونقلت
الطارف والتلاد ؛ حسب ما تنصه مخاطبتنا إلى نبينا الكريم الذي شرفكم الله بخدمة
لحمده ، وأستخلفكم على دار هجرته من بعده ؛ إذ لاحاجة إلى التكرار بعد ما شريحت
به الصدور من الأخبار ، في الإيراد والإصدار ؛ ووجهنا صحتها من النواقيس التي
كانت تضيع نداء الضلال ، وتعارض الأذان بجلاد الحلال ، وتبادر أمر التمثال

بالإستئثار ، ما يكون تذكرةً تحين بها القلوب إلى هذه الطائفة المسلمة إذا رأتها ، وتنتظر قبول الدماء لها من الله كلها نظرتها ، وتصور الأيدي المجاهدة التي جنتها من أفنان المستشرفات العالية وأهتصرتها إذا أبصرتها .

وهذا كله لا يتحصل على الثمام إلا بمشاركة منكم تسوغه ، وإعانة تؤديه وتبلغه ؛ تُسبِّح لكم عند تعرفها الثناء الدائم الترداد ، والدماء بحسن المكافأة من رب العباد ، وسبهمكم في أمر الجهاد ؛ وأتم تعملون في ذلك بما يناسب مثلكم من الشرفاء الأجداد ، والله عز وجل يواليكم بنعمه الثرة العهاد ، ويعرفكم عوارف السعادة في المبدأ والمعاد ، ويختم لنا ولكم بسعادة المعاد ؛ والسلام الكريم ينخصكم عودا على بدء ورحمة الله تعالى وبركاته .

الضرب الثالث

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ الإمارة)

بأن يقال : الإمارة التي نعتها كذا وكذا إمارة عمل أخينا فلان ، ويدعى له . ثم يقال : معظم إمارته ، أو معظم أخوته فلان . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله ، ويؤتى بخطبة ؛ ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا ؛ ثم يُختلص إلى المقصود بلفظ وإلى هذا ، ويؤتى على القصد إلى آخره ، ويختم بالسلام على نحو ما تقدم في غيره من الضروب ، وبذلك يكتب إلى الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب أبو الخطيب عن ابن الأحمر إلى أبي علي الناصر ابن السلطان أبي الحسن المريقي بفاس ، عند ما أرسله إليه إلى ناحية من النواحي لإمارتها وإصلاح حالها ، مهنئا له بما أجزاه الله على يديه من الصلاح ، وهو :

الإمارة التي لها المكارم الراضيه، والعزائم الماسيه؛ والجلالة الرقيه، والأعمال الصالحة الباقيه؛ إمارة محل أخينا الذي نعظم مجده السامى الجلال، ونثني على شيمه الطاهرة الجلال؛ ونعتد بوده الكريم الأقوال والأعمال، ونسر بما يسنيه الله لعزه الفسيح المجال، من عوائد الإيمان والإقبال .

الأمير الأجل، الأعز، الأسمى، الأظهر، الأظهر، الأسمى، الأسعد، الأرشد، الأرضى، المؤيد، الأمضى، الأفضل، الأكل، أبو على الناصر ابن محل أبينا الذى نعظمه ونجله، ونوجب له الحق الذى هو أهله؛ السلطان الحليل الكذا أبو الحسن ابن السلطان المؤيد، المعان المظفر، صاحب الجود الشهير فى الإفطار، والفضل المتألق الأنوار، والمآثر التى هى أسمى من تحيا النهار؛ أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين؛ أبى سعيد ابن أمير المسلمين وناصر الدين، قاصع الكافرين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، أبى يوسف بن عبد الحق . أبقاه الله والسعود إليه مبتدرة مستيقه، والمسرات لديه منظمه منسقه؛ وغرر أيامه واصله مشرقه، والأهواء على محبته متفقه. معظم إمارته الرفعة الجانب، القائم من أجلها ونشر خلاها بالحق الواجب، المنفى على ماها من السير الفاضلة المذاهب، والأصالة الرفعة المناسب، والبسالة الماسية المضارب؛ والمكارم التى تشهد بها مواقف الجهاد، وظهور الحيا، وصحائف الكتب وصفائح الجلال؛ الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر . سلام كريم، بر عيم؛ نتائج الأرجاء من طيب نفحته، ويشرق نور الود الأصيل على صفحته؛ يخص أخوتكم الفاضله، وإمارتكم الحافله؛ ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي شَرَحَ بالتوكل عليه صُدُوراً ، و [جعل الوُدَّ في ذاته كَثْرًا مذخوراً] والأعمال التي تقرب إليه نُوراً ، والصلاة على سيدنا ومولانا مجد رسوله الذي بعثه بالحق هادياً وبالرَّعب منصوراً ، ورَفَعَ لدَعْوته العالِية لِيُؤَاءَ من عِنايته مَنشوراً ، وأختاره لإقامة دين الحق والأرض قد مُلِثَ إفكاً وزُوراً ، حتَّى بلغ مُلْكُ أُمته ما كان منها مَعْمُوراً .

والرَّضا عن آلِهِ وأحزابه الذين أَسْقُوا في قلاتدِ ملته الرِّفعة شُكُوراً ، وطلَّعُوا في سَمَائِها بُدُوراً ، وبَذَلُوا نَفُوسَهُم النَفِيسَةَ في نَصْرِهِ وإِعلاءِ أَمْرِهِ فكانت شفاعتُهُ لهم جزاءً وكان سَعِيهِمْ مَشْكُوراً .

والدُّعاء لإمارتكم العالِية بالسعد الذي يُصاحبُ منه رِكابُها مَدَدًا مؤفُوراً ، والتوفيق الذي يُوسِّعُ عملُها مُجْتَحَاً وأَمَلُها سُرُوراً .

فإنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كتب الله لكم سَعْدًا متجددَ الأحكام ، وصُنْعًا مُشْرِقَ القَسَامِ وافِرِ الأقسام ، وعَرَفْكُمْ ماعُودَكُمْ من عَوَارِفِ الإنعام ، وعَوَائِدِ النصر الواضِحِ الأعلام - [ولازائد بفضل الله سبحانه ، ثم بركة سيدنا ومولانا مجد رسوله الذي أَوْضَحَ برهانه ، ثم بما عندنا من التشيُّع في مقام محلِّ أَيْنَا والدِّم السُّلْطَانِ الجليل ، أسعد الله سلطانه ! ومَهَّدَ به أوطانه ! إلا ما يَرِجُ من عَوَائِدِ الله الجميلة ، وَمِنَّةِ الجزيلة ، وَالطَّافَةِ الكافية الكِفِيلَةِ] (١) وعندنا من التعظيم لِمِلْكِ الإِمَارَةِ الرِّفْعَةِ ما هو أَشْهُرُ من الشَّهِير ، وأَعْظَمُ من أن يَحْتَاجَ إلى التفسير ؛ فلا نَزَالَ نَعْتَدُ لِحَانِبِ أَخُوْتِها بِالْعَتَادِ الكَبِيرِ ، وَالذَّنْخِ الْخَطِيرِ ، وَنُنْثِي عَلَى مَكَارِمِها بِالْقَلَمِ وَاللِّسَانِ وَالضَّمِيرِ . وَإِلَى هَذَا أَيْدِ اللَّهِ إِمَارَتَكُمْ ، وَسَنِي إِرَادَتَكُمْ ، وَأَسْعَدَ إِدَارَتَكُمْ ؛ فَقَدْ عَلِمَ الْغَائِبُ وَالشَّاهِدُ ، وَالصَّادِرُ وَالْوَارِدُ ؛ مَا عِنْدَنَا لَكُمْ مِنَ الْحُبِّ الَّذِي

صَفَتْ مِنْهُ الْمَوَارِدُ ، وَالْوَلَاءِ الَّذِي تَضَوَّعَتْ مِنْ طَبِيعِهِ الْمَعَاهدُ ؛ وَإِنَّا تَعَرَّفْنَا مَا كَانَ مِنْ قَدْوِمِكُمُ السَّعِيدِ عَلَى أَحْوَازِ الْمَرِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَقْطَارِ ، وَطُلُوعِكُمْ عَلَيْهَا بِالْعَزَمِ الْمَاضِي وَالْجَيْشِ الْجَزَارِ . وَأَنْ مَحَلَّ وَالدَّنا وَصَلَ اللَّهُ لَهُ عُلُوُّ الْمَقْدَارِ ، قَدَّمَ مِنْكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مُقَدِّمَةُ الْيُمْنِ وَالْإِسْتِيشَارِ ، وَرَأَيْتُمُ السَّعَادَةَ الْمَشْرِقَةَ الْأَنْوَارِ ، بِجَلَالِ مَا يَتَلَاخَقُ بِهَا رِكَابُهُ الْعَالِي قُدْرُهُ عَلَى الْأَقْدَارِ ؛ وَأَنْ مَحَايِلَ التُّجَحُّ لِإِمَارَتِكُمُ الرِّفْعَةَ قَدْ ظَهَرَتْ ، وَأَدِلَّةُ الصُّنْعِ الْجَمِيلِ قَدْ بَهَّرَتْ ؛ وَمَنْ بَتَلَكَ الْجِهَاتِ ، مِنْ الْقِبَالِ الْمُخْتَلِفَاتِ ، بِالطَّاعَةِ قَدْ أَبْتَدَرَتْ ؛ وَبِأَوَامِرِهَا الْإِمَارِيَّةِ قَدْ أَثْمَرَتْ ؛ وَأَنْكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِي تَسْكِينِ الْأَوْطَانِ وَتَهْمِيدِهَا ، وَأَسْتَنْافِ الْعَزَائِمِ وَتَجْدِيدِهَا ، [وإطفاء نار الفتن وإخمادها] وإعلاء أركان تلك الإِبَالَةِ وَرَفْعِ عِمَادِهَا ؛ فَكَتَبْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْكِتَابَ نَهْنُتُكُمْ بِمَا سَنَاهُ اللَّهُ لِمُجْدِكُمُ الرِّفْعِ ، مِنْ حُسْنِ الصَّبْرِ ؛ وَتُقَرَّرُ مَا عِنْدَنَا مِنَ الْوُدِّ الْكَرِيمِ ، وَالْحُبِّ الصَّحِيمِ ، وَنُسْتَفْهِمُ عَنْ أَحْوَالِ أَخْوَاتِكُمْ لِنَكُونَ مِنْ عِلْبِهَا عَلَى السَّنَنِ الْقَوِيمِ ؛ وَحَتَّى لَا تَزُلَّ الْأَسْبَابُ مُتَّصِلَةً ، وَالْمَوَدَّةُ جَدِيدَةً مُقْتَبِلَةً ؛ وَلَوْلَا الْعَوَائِقُ الْمَانِعَةُ ، وَالشُّقَّةُ الْبَعِيدَةُ الشَّاسِعَةُ ، وَالْأَمْوَاجُ الْمَتْرَامِيَّةُ الْمَتَدَا فِعُهُ ، لَمْ تُغِبْ الْمَخَاطِبَةُ ، وَلَوْصَلْنَا الْمُرَاسَلَةَ وَالْمَكَاتِبَةَ ؛ وَمُجْدِكُمْ يَقْبَلُ الْأَعْذَارُ الصَّحِيحَةُ بِمُقْتَضَى كِبَالِهِ ، وَمَعْمُودِ إِفْضَالِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُصْلِحُ بِكُمْ الْأَحْوَالَ ، وَيَسْكُنُ الْأَهْوَالَ ، وَيُيَسِّلُنَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْآمَالِ . وَغَرَضُنَا أَنْ تَعْرِفُونَا بِمَا لَدَيْكُمْ مِنَ الْمَتَرِيدَاتِ ، وَالصَّنَائِعِ الْمُتَجَدِّدَاتِ ، وَبِمَا عِنْدَكُمْ مِنْ أَحْوَالِ مَحَلِّ أَيْدِنَا وَصَلَ اللَّهُ عَوَائِدَ النَّصْرِ لِسُلْطَانِهِ ، وَتَكْتَلُ بِإِعْلَاءِ أَمْرِهِ وَتَهْمِيدِ أَوْطَانِهِ . وَقَدْ كَتَبْنَا إِلَيْهِ صَحْبَةً هَذَا كِتَابًا غَرَضُنَا مِنْ أَخْوَاتِكُمُ الطَّاهِرَةِ ، أَنْ يَصِلَ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ تَحْتَ عِنَايَتِكُمْ وَوَصَاتِكُمْ ، وَالرَّعَايَةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِذَاتِكُمْ ؛ وَهُوَ سَبْطَانُهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ وَيَحْرُسُ مُجْدَكُمْ ، وَيَحْفَظُ وِلَاءَكُمْ الْكَرِيمَ وَوُدَّكُمْ ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الاسلوب الثانى

(أن تُفتتح المكاتبة باسم المكتوب إليه أو المكتوب عنه ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن تُفتتح المكاتبة باسم المكتوب إليه تعظيماً له)

والرسم فيه أن يقال : إلى فلان ، ويُنتعت بما يليق به ؛ ثم يُؤتى بالسلام ، ويقال : أما بعد ويؤتى بخطبة ، ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم كذا وكذا ، من موضع كذا ، ويُتخلص إلى المقصود بلفظ « وإلى هذا » ويؤتى على المقصود إلى آخره ويُختتم بالسلام .

كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلى الأمير بلبغا العمري الشهير بالخاصكى : أتابك العساكر بالديار المصرية في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » .

إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ، المقلد بتديره السيد قلادة الدين ، المثنى على رسوم ربه المقامة لسان الحرم الأمين ، الآوى من مرضاة الله تعالى ورسوله إلى ربوة ذات قرار ومعين ، المستعين من الله على ما تحمله وأمله بالقوى المعين ؛ سيف الدعوة ، ركن الدولة ، قوام الملك ، مؤمل الأمل ، تاج الخواص ، أسيد الجيوش ، كافي الكفاة ؛ زين الأمراء ، علم الكبراء ؛ عين الأعيان ، حسنة الزمان ؛ الأجل ، المرفق ، الأسنى ، الكبير ، الأشهر ، الأسنى ، الحافل ، الفاضل ، الكامل المعظم ، الموقر ، الأمير ، الأوحد ، « بلبغا الخاصكى » وصل الله له سعادة شريفة غرثها ، وصنائع تسخ فلا تسخ دزثها ، وأبقى تلك المنابة قلادة الله وهو دزثها ؛ سلام كريم ، طيب عيم ؛ يخص إمارتك التى جعل الله الفضل على سعادتها أماره ،

وَالْيُسْرَ لَهَا شَارَهُ ؛ فَيَسَاعِدُ الْفَلَكَ الدَّوَارَ مَهْمَا أَعْمَلْتَ إِدَارَهُ ، وَتَمْتَلِ الرُّسُومُ كُلُّهَا
أَشَارَتْ لِإِشَارِهِ .

أما بعد حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَعْلُكُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، مِنْ قَاصِّ وَدَانٍ ، وَإِلَيْهِ تُوجَّهُ
الْوُجُوهُ وَإِنْ اخْتَلَفَتِ السَّيَرُ وَتَبَاعَدَتِ الْبُلْدَانُ ، وَمِنْهُ يُتَمَسَّ الْإِحْسَانُ ؛ وَبَذَكْرُهُ
يَنْشَرُ الصَّدْرُ وَيَطْمُنُّ الْقَلْبُ وَيَرْجُ الْلَّسَانُ .

وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ ، وَنَبِيِّهِ الصَّادِقِ
الْبَيِّنِ ، الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ .

وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَعْمَامِهِ وَأَحْزَابِهِ ، أَحْلَاسِ الْخَيْلِ ، وَرُهْبَانِ اللَّيْلِ ،
وَأَسْوَدِ الْمَيْدَانِ .

وَالدُّعَاءُ لِإِمَارَتِكُمُ السَّعِيدَةِ بِالْعَزِّ الرَّائِقِ الْخَبَرِ وَالْعِيَانِ ، وَالتَّوْفِيقِ الْوَثِيقِ الْبُذْيَانِ ؛
فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ حَقًّا مِنْ فَضْلِهِ وَأَقْرَبًا ، وَصَبَّحْنَا عَنْ نُحْيَا الشَّرُّورِ
سَافِرًا ، وَفِي جَوْ الْإِعْلَامِ بِالنِّعَمِ الْجِسَامِ مُسَافِرًا . مِنْ حِمَاءِ غَرْنَاطَةِ - حَرَمِهَا اللَّهُ -
دَارِ الْمَلِكِ بِالْأَنْدَلُسِ ، دَافِعِ اللَّهِ عَنْ حَوْزَتِهَا كَيْدِ الْعُدَاةِ ، وَأَنْمَحِفِ نَصْلَهَا بَيَوتَاكَرِ
النَّصْرِ الْمُهْدَاهِ ؛ وَلَا زَائِدَ إِلَّا الشَّوْقُ إِلَى التَّعَارُفِ بِتِلْكَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي أَنْتُمْ
عُنْوَانُ كِتَابِهَا الْمَرْقُومِ ، وَبَيْتُ قَصِيدِهَا الْمَنْظُومِ ، وَأَتَمَّاسُ بَرَكَاتِهَا الثَّابِتَةِ الرُّسُومِ ،
وَتَقْرِيرِ الْمُثُولِ فِي سَبِيلِ زِيَارَتِهَا بِالْأَرْوَاحِ عِنْدَ تَعَدُّهِ بِالْجُسُومِ .

وَالْإِلَى هَذَا فَإِنَّا كَانَتْ بَيْنَ سَلَفِنَا - تَقَبَّلَ اللَّهُ جِهَادَهُمْ وَقَدَّسَ نُفُوسَهُمْ وَأَمَّنْ مَعَادَهُمْ -
وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَبْوَابِ السَّلْطَانِيَّةِ - أَلَيْهِ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ظِلَالُهَا ، كَمَا عَزَفَهُمْ
عَلَيْهَا وَإِفْضَالَهَا - مِرَاسِلُهُ يَمُّ عَرَفُ الْخُلُوصِ مِنْ خِلَالِهَا ، وَتَسَطَّعَ أَنْوَارُ السَّعَادَةِ
مِنْ آفَاقِ كَجَلَّهَا ، وَتَلْتَمَّحَ مِنْ أَسْطَارِ طُرُوسِهَا مَحَاسِنُ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ ، الزَّاكِيَةِ الْمَشَاهِدِ ،

وَتُعْرِيبَ عَنْ فَضْلِ الْمَذَاهِبِ وَكَرَمِ الْمَقَاصِدِ، أَشْتَقْنَا إِلَى أَنْ تُجْتَدِهَا بِحُسْنِ مَنَازِكِكُمْ، وَتَصِلَهَا بِمَوَاصِلَةِ جَنَابِكُمْ، وَتَفْتِنَ فِي عَوْدِهَا الْحَمِيدِ مَكَائِكُمْ، وَتَفْضِلَ لَهَا زَمَانَكُمْ بِخَاطِبَتِنَا الْأَبْوَابَ الشَّرِيفَةَ فِي هَذَا الْغَرَضِ بِخَاطِبَةِ تَجَلٍّ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَجِلَّةٍ مِنَ النَّاقِدِ الْبَصِيرِ؛ وَتُؤَمِّلَ الْوَصُولَ فِي خِفَارَةِ يَدِكُمْ الَّتِي لَهَا الْأَيَادِي الْبَيْضُ، وَالْمَوَارِدُ الَّتِي لَا تَفِيضُ؛ وَمِثْلَكُمْ مِنْ لَا تَخْتِيبُ الْمَقَاصِدَ فِي شِمَائِلِهِ، وَلَا تَضْحَى الْمَآمِلُ فِي ظِلِّ نَحَائِلِهِ؛ فَقَدْ أَشْهَرَ مِنْ عَظِيمِ سِيرَتِكُمْ مَا طَبَّقَ الْآفَاقُ، وَصَحَّبَ الرَّفَاقُ وَأَسْتَلْزَمَ الْإِصْفَاقُ؛ وَهَذِهِ الْبِلَادُ مُبَارَكَةٌ، مَا أَسْلَفَ أَحَدٌ فِيهَا مُشَارَكَةَ، إِلَّا وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَدِينِهِ وَعِيَالِهِ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ وَفَى لِأَمْرِيٍّ بِمِثَالِهِ؛ وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَيَنْفَعُ بِوَسِيلَةِ النَّبِيِّ الَّذِي نَعُولُ عَلَى شِفَاعَتِهِ؛ وَيُبْقِي تِلْكَ الْأَبْوَابَ مُلْجَأً لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَظِلًّا لِلَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَإِقَامَةً لَشُعَائِرِ الْحَرَمِ الْأَمِينِ؛ وَيَتَوَلَّى إِعَانَةً أَمَارَتِكُمْ عَلَى وَظَائِفِ الدِّينِ، وَيَجْعَلُكُمْ مِنْ أَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يُخَصِّصُكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الضرب الثاني

(أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِاسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ، وَهُوَ عَلَى صَنِيفَيْنِ)

الصنف الأول

(مَا يَكْتُبُ بِهِ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ)

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَقَالَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، بِأَلْقَابِهِ وَنَعُوته وَنُصُوتِ آبَائِهِ عَلَى مَا تَقَسَّمَ؛ ثُمَّ يُؤْتَى بِالسَّلَامِ، وَيَقَالُ أَمَا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ، وَيُؤْتَى بِخُطْبَةٍ ثُمَّ يَقَالُ فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ كَذَا؛ ثُمَّ يَقَالُ: وَإِلَى هَذَا فَإِنْ كَذَا وَكَذَا، وَيُؤْتَى عَلَى الْمَقْصُودِ إِلَى آخِرِهِ، وَيُخْتَمُ بِالدَّعَاءِ ثُمَّ بِالسَّلَامِ عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّ.

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى بعض ملوك الغرب نيته بدخول مدينة بجاية في طاعته ماصورته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره؛ إلى محل أخينا الذي فصل له أسباب الإعظام والإجلال، وتثنى عليه بما له من كريم الشيم وحيد الخلال، وسرله ببلوغ الآمال، وتجاح الأعمال، في طاعة ذي الجلال؛ السلطان فلان ابن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصل الله له سعدًا متصل الدوام دائم الاتصال، وصنعا تحبلى وجوهه من ثنأيا القبول والإقبال، وعزًا تنفيا ظلاله عن اليمين والشمال؛ سلام كريم، برحميم؛ ينخص سلطانكم الأسمى، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحسنى، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواهب الفاتح، المانع المايح؛ مظهر عنايته بمن خالص إليه قصده، وقصر على مآلديه صدره وورده؛ أبدى من محيا النهار الواضح . الذي وعد من أتقاه حق ثقاته، على السنة سفرة الوحي وثقاته؛ ينجح انخوائهم والقوائح .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المبعث لدرء المفسد ورحي المصلح، وسعادة الغايدى والرائح، مقصد الناس يوم الفرع الأكبر وقد طاحت بهم أيدي الطوائح، وهاديتهم إلى سواء السبيل بأزمة النصائح، ومظفرهم من السعادة الدائمة بأريج البضائع وأسنى المنائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعثرته وأحزابه، الذين خلقوه امتثالًا لأمر الصحائف وإعمالًا للصفائح؛ وكانوا لأمتهم من بعده في الاقتداء بسنته والمحافظة على سننه كالنجوم اللوائح .

والدعاء لسلطانكم الإثمى ، بالسعد الذى يفتى بوثاقه سبيه ، ووضوح مذهبه ،
عن زجر البارج والسايح ، والعز البعيد المطارح ، السامى المطايح ، والصنع
الجميل الباهر الملاح ، ولا زال توفيق الله عائدًا على تديركم السعيد بالسعى الناجح ،
والتجر الرابع .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من فضله أوفر الأقسام وأوفاهها ، وأوردكم من
موارد عنايته أصدب الحمام وأصفهاها ، كما أسبغ عليكم أثواب المواهب وأصفهاها .
[وأبدي لكم وجوه اللطائف الجميلة وأحفاها] من حمراء غرناطة - حرسها الله -
وفضل الله هامية ديمه ، وعوائد اللطف يصلها فضله وكرمه ، والإسلام بهذا الثغر
الجهادى مرعية ذمه ؛ وجاه النبوة المحمدية يعمل بين إرغام العدو الكافر ، وإهداء
المسرات والبشائر ، سيفه وقلمه . والشروع بما يبلغ من مزيد سعادكم وميضه
خافق علمه ؛ وودكم ثابت فى مواقف الخلوص قدمه .

وقد اتصل بنا ما كان من دخول حضرة مجاية حرسها الله فى طاعتكم ، وانتظامها
فى سلك جماعتكم ؛ وأنقطاعها إلى عيظتكم ، وتمسكها بأزميتكم ؛ وعقدكم منها
ومن أختها السابقة الدمام ، الخليفة بمزيد الاهتمام ؛ على عقيلتى الأقطار التى لا يجمع
بينهما إلا ملك همام ، وخليفة إمام ؛ ومن وصحت من سعادته أحكام ، وشهرت
بعباية الله له أدلة واضحة وأعلام ؛ ومن جمع الله له بين البر المتراكم الخيول ،
والجيش المتدافع السيول ، والخصب الذى تضى مواجده المستنجرة ظهور الخيول ؛
وبين البحر الشمر بتجدة الأسطول ، وإنجاز وعد النصر الممطلوب ؛ ومرسى السفن
التى تخوض أحشاء البحار ، وتجلب مرافق الأمطار والأقطار ، وتخف على النوى
بطرف الأخبار .

بِحَايَةٍ وَمَا بِحَايَةٍ ! دَارُ الْمَلِكِ الْأَصِيلِ الْعَتِيقِ ، وَكُرْسِيُّ الْعِزِّ الْوَثِيقِ ، وَالْعُدَّةِ ،
إِذَا تَوَقَّعَتِ الشَّدَّةُ بِكُمْ ثَبَّتَتْ عَلَى الزَّلْزَالِ ، وَصَابَرَتْ مَوَاقِفَ الزَّلَالِ ، أَمَّا كُمْ السَّعْدُ
صَهْوَتَهَا ، وَأَحْلَمَ التَّوْفِيقُ رَبَّوْتَهَا ، مِنْ غَيْرِ مُطَاوَلَةٍ حِصَارٍ ، وَلَا أَسْتِنْفَادِ ذِي
وُسْعٍ وَأَقْتِدَارٍ ، وَلَا تَسْوَرِ جِدَارٍ ، فَاصْبَحَتْ دَوْلَتُكُمُ السَّعِيدَةُ نَتْفِيًا [جَنَى الْجَنَّتَيْنِ ،
وَتَحْتَالُ فِي حُلَّتَيْنِ ، وَتَجْمَعُ بَقْتِيًا^(١)] السُّيُوفِ الْمَالِكِيَّةِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ، أَوْزَعَكُمْ
اللَّهُ شُكْرَهَا مِنْ نِعْمَةٍ جَلَّتْ مَوَاهِبُهَا ، وَوَضَحَتْ مِزَاجُهَا ، وَصَدِيعَةٌ بَهَّرَتْ عَجَائِبُهَا .
وَإِذَا كَانَتْ عَقَائِلُ النَّعْمِ تَحْتَطِبُ أَكْفَاءَهَا ، وَمَوَارِدُ الْمَنِّ تَعْرِضُ عَلَى الْوَرَادِ
صَفَاءَهَا ، فَاتَمَّ أَهْلُهَا الَّذِينَ لَكُمْ تُذَنَّرُ ، وَبِمَنْ دُونَكُمْ تَسْخَرُ ، فَإِنَّكُمْ تَمِيزْتُمْ بِخِصَالِ
الْعَفَافِ وَالْبَسَالَةِ ، وَالْحَسْبِ وَالْجَلَالَةِ ، وَأَصْبَحْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ صَدْرًا ، وَفِي هَالَةِ
قَوْمِكُمْ بَدْرًا ، مَوَاقِفُكُمْ شَهِيدَةٌ ، وَسِيرَتُكُمْ فِي الْفَضْلِ لَا تَفْضُلُهَا سِيرَةٌ ، وَنَحْنُ نَهْنُتُكُمْ
بِمَا مَنَحَكُمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفَاسِ الْإِبَالَةِ ، وَنُمُو الْجَلَالَةِ ، وَالنَّعْمِ الْمُتَمَثِّلَةِ ، بِسُلْطَانِ أَلْفِي
عِثَانِهِ إِلَى مِثْلِكُمْ قَدْ اخْتَارَهُ لِقِيَادِهِ ، وَآرَتَادَ فَسَعِدَ فِي آرْتِيَادِهِ ، وَتَكْفُلَ الْحَزْمُ بِحِفْظِ
بِلَادِهِ ، وَصَوْنِ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ، وَكَأَنَّ بِهِ قَدْ أَسْتَوْلَى عَلَى آمَادِهِ ، وَتَطَاوَلَ لِإِرْثِ
أَجْدَادِهِ . وَلَنَا فِيكُمْ - عِلْمُ اللَّهِ - وَدٌّ [تَأْسَسَ بِنَاؤُهُ ، وَكُرِّمَتْ أُنَاؤُهُ] وَحُبٌّ وَجِبَ
بِالشَّرْعِ إِنْفَادُهُ إِلَيْكُمْ وَإِنْهَاؤُهُ . وَغَرَضُنَا الَّذِي نُؤَيِّرُهُ عَلَى الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ ، وَنَقْدَمُهُ
بِمَقْتَضَى الْخُلُوصِ الَّذِي زَكَّتْ مِنْهُ الشُّوَاهِدُ ، أَنْ نَتَّصَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْخَاطِبَةُ ،
وَنَتَعَاقَبَ الْمَوَاصِلَةُ وَالْمُبَالِغَةُ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَعِينُ عَلَى مَا يَجِبُ لَوْ دَكَمَ مِنْ بَرٍّ تَكْفُلِ
وَاجِبُهُ ، وَتَوْضُوحِ مِزَاجِهِ ، وَاعْتِقَادِ جَمِيلِ يَتَسَاوَى شَاهِدُهُ وَغَائِبُهُ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَصِلُ
سَعْدَكُمْ ، وَيُحَرِّسُ مَجْدَكُمْ ، وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يُخَصِّصُكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الصنف الثاني

(ما يكتب به إلى الرعايا)

والحكم فيه على نحو ما تقدم في الصنف الذي قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .
كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر أيضًا إلى بعض رعاياه بمدينة الميرية
بالأندلس ، بالبشارة بموت الطاغية ملك قشتالة بجبل الفتح ، ورحيل قومه به إلى
بلادهم ماصورة :

من الأمير عبد الله يوسف ، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن قرج
ابن نصر أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عصره ؛ إلى أوليائنا في الله تعالى الذين
نبأهم بهم بالبشائر السافرة الغرر ، ونجلو عليهم وجوه الصنائع الإلهية ^(١) كريمة ،
ونعلم ما لهم من الوعد الكريم الآخر : القائد بالميرية ، والقاضي بها ، والفقهاء ، والأشياخ ،
والوزراء والأمرء والكافة والدُّهماء من أهلها ؛ عرفهم الله عوارف الأداء ، وأوزعهم
شكر نعمته هذا الفتح الرباني الذي تفتحت له أبواب السماء ، وأُنشِرت معجزاته ميت
الرجاء في هذه الأرجاء . سلام كريم ، طيب برعميم ؛ تُنشقُّ منه تفحات الفرج ، عاطرة
الأرجح ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله فاتيح أبواب الأمل بعد استغلاقتها ، ومُتدارك هذه الأمة المحمدية
بالصنيع الذي تجلَّى لها ملء أحداقها ، والرحمة التي مدت على النفوس والأموال ،
والحرُمات والأحوال ، ضافي رواقها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي دعوته هي العروة الوثقى لمن
تمسك باعتلاقتها ، وأقام على ميثاقها ؛ ذى المعجزات التي بهرت العقول باعتلاقتها ،

(١) في الريحانة ج ٢ " من وجوه الفناء الإلهية كريم " الخ .

الذى لم ترعه في الله الشدائد على أشدائد وثاقها ، وفظاعة مداها ؛ حتى بلغت كلمة الله ما شاعت من انتظامها وأتساقها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعترته وحزبه ؛ الفائزين في ميدان الدنيا والدين بمحصل سباقها . فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم شُكراً لنعمه ، ومعرفة بمواقع كرمه . من حمراء غرناطة - حرمها الله - ولا زائد بفضل الله سبحانه إلّا ما آمن الأرجاء ومهدّها ، وأنشأ معالم الإسلام وجنّدّها ، وأسس أركان الدين الحنيف وأقام أودها ؛ وأتم الأولياء ، الذين نعلم منهم خلوص الأهواء ، وتحقق ما عندهم من الخُلوص والصفاء . وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرى في ميدان الأمل جرى الجحوش ، ودارت عليه حمرة النخوة والخيلاء مع الغبوق والصبوح ؛ حتى طَفَحَ بسُكْرِ اغتراره ، ومُحَصَّ المسلمون على يديه بالوقائع التى تُجَاوِزُ منتهى مقداره ؛ وتوجّهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ، ووثق بأنّه [يطفىء^(١) نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشدّ محقق حصاره ، وأدار أشياعه في البر والبحر دور السوار على أسواره ؛ واتهز الفرصة بانقطاع الأسباب ، وأنهم الأبواب ، والأمور التى لم تجر للسامين بالعدوتين على ما لوف الحساب ؛ وتكالب التثليث على التوحيد ، وساعت الظنون في هذا القطر الوحيد ؛ المقطع بين الأمم الكافرة ، والبحور الزاهرة ، والمَرَامِ البعيد . وإننا صابرين بالله تيار سَيْلِهِ ، واستصْباناً بنور التوكل عليه في جُنْحِ هذا الخطب ودُجَّةِ ليله ؛ ولحاناً إلى مَنْ بيده نواصي الخلائق ، واعتقنا من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفَسَحْنَا بَحَالَ الأمل في ذلك الميدان المتضامق ؛ وأخْلَصْنَا لله مُقْبِلِ العَارِ ، ومَوْلَى أُولَى الاضطراب ، قُلُوبَنَا ، ورفعنا إليه أَمْرَنَا ، ووقفنا عليه مَطْلُوبَنَا ؛ ولم نُصَرِّعْ ذلك في إبرام العزم ، واستشعار الحزم ؛ وإمداد

التَّغُورُ بِأَقْصَى الْإِمْكَانِ ، وَبَثَّ الْجِيُوشَ إِلَى مَا يَلِينَا مِنْ بِلَادِهِ عَلَى الْأَحْيَانِ ؛
 فَرَحِمَ اللَّهُ أَقْطَاعَنَا إِلَى كَرَمِهِ ، حِينَ لَجَأْنَا إِلَى حَرَمِهِ ؛ بِغَلَا بَفَضْلِهِ سَبْعَانَهُ ظِلَامَ الشَّدَةِ ،
 وَمَدَّ عَلَى الْحَرِيمِ وَالْأَطْفَالِ ظِلَالَ رَحْمَتِهِ الْمُنْتَدَةِ ، وَعَرَّفَنَا عَوَارِفَ الصُّنْعِ الَّذِي قَدَّمَ
 بِهِ الْعَهْدَ عَلَى طَوْلِ الْمُدَّةِ ؛ وَرَمَاهُ بِجَيْشٍ مِنْ جِيُوشِ قُدْرَتِهِ أَغْنَى عَنْ إِيحَافِ الرُّكَّابِ ،
 وَأَحْتِشَادِ الْأَحْزَابِ ؛ وَأَظْهَرَ فِينَا قُدْرَةَ مُلْكِهِ عِنْدَ اقْطَاعِ الْأَسْبَابِ ، وَأَسْتَخْلَصَ
 الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْ بَيْنِ الظُّفْرِ وَالنَّابِ ؛ فَقَدْ كَانَ سَدَّ الْحِجَازِ بِأَسَاطِيلِهِ ، وَكَاتَرُ كَلِمَةِ الْحَقِّ
 بِأَبَاطِيلِهِ ؛ وَرَمَى الْجُزَيْرَةَ الْأَنْدَلُسِيَّةَ بِشَوْ بَوْبِ شَرِّهِ ، وَصَبَّرَهَا فَرِيسَةً بَيْنَ غِرْيَانِ بَحْرِهِ
 وَعِقْبَانِ بَرِّهِ ؛ فَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ مَرَفَقَةً إِلَّا عَلَى الْخَطَرِ الشَّدِيدِ ،
 وَالْإِفْلَاتِ مِنْ يَدِ الْعُدُوِّ الْعَنِيدِ ، مَعَ تَوْفُرِ الْعَزَائِمِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - عَلَى الْعَمَلِ الْحَمِيدِ ،
 وَالسَّعْيِ فِيَا يَعُودُ عَلَى الدِّينِ بِالتَّائِيدِ .

وَبَيْنَمَا شَفَقْتُنَا عَلَى جَبَلِ الْفَتْحِ تُقِيمُ وَتُقْعِدُ ، وَكَلَّبَ الْأَعْدَاءُ عَلَيْهِ يُبْرِقُ وَيُرْعَدُ ،
 وَالْيَأْسُ وَالرَّجَاءُ خَصَمَانِ هَذَا يَقْرُبُ وَهَذَا يُبْعِدُ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا الْبَشِيرُ بِاتِّفَاجِ
 الْأَزْمَةِ ، وَحَلَّ تِلْكَ الْعَزْمَةِ ؛ وَمَوْتِ شَاةٍ تِلْكَ الرُّقْعَةِ ، وَإِبْقَاءِ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ ؛
 وَأَنَّهُ سَبْعَانَهُ أَخَذَ الطَّاعِيَةَ أَكْلَ مَا كَانَ أَغْتَرَا ، وَأَعْظَمَ أَنْصَارَا ؛ وَزَلَزَلَ أَرْضَ
 عِزِّهِ وَقَدْ أَصَابَتْ قَرَارَا ؛ وَأَنَّ شِهَابَ سَعْدِهِ أَصْبَحَ آفِلَا ، وَعَلِمَ كِبَرُهُ آتِقَابَ
 سَافِلَا ؛ وَأَنَّ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَرَقَهُ بِحَتْفِهِ ، وَأَهْلَكَ
 بَرْغَمَ أَنْفِهِ ؛ وَأَنَّ مَحَلَّتَهُ عَاجِلُهَا التَّيَّابُ وَالتَّبَارُ ، وَعَاقَتْهُ فِي مَنَازِلِهِ النَّارُ ، وَتَمَحَّضَ
 عَنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ؛ وَأَنَّ حُمَاتَهَا يُخْرِجُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيُنَادِي بِشَبَاتِ
 الشَّمْلِ لِسَانُ مُنَادِيهِمْ ؛ وَتَلَا حَقَّ بَنَى الْقُرْسَانَ مِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ : الْمَعْقِلِ الَّذِي عَلَيْهِ مِنْ
 عِنَايَةِ اللَّهِ رُؤَاكٍ مَضْرُوبِ ، وَالرَّيَاطِ الَّذِي مَنْ حَازَهُ فَهُوَ الْمُخْرُوبِ ؛ فَأَخْبَرَتْ بِاتِّفَاجِ
 الضُّيْقِ ، وَارْتِفَاعِ الْعَاقِقِ لَهَا عَنِ الطَّرِيقِ ؛ وَبُرْءِ الدَّاءِ الَّذِي أَشْرَقَ بِالرِّيقِ . وَأَنَّ

النصارى دَرَّهم الله جدَّت في آرتحالها ، وأسرعَتْ بِحِفْظِ طاعتها إلى سُوء مَآلِها ،
وَسَمَحَتْ [لِلسَّهْبِ^(١)] والنَّهْب والنار بأَسْلَابِها وأموالها ؛ فبَهَرَنَا هذا الصَّنْعُ الإِلَهِيُّ الَّذِي مَهَّدَ
الاقطار بعد رَجْفَانِها ، وَأَنَامَ العُيُونَ بعد سُهَادِ أَجْفَانِها ؛ وَسَأَلْنَا الله أَنْ يُعِينَنَا عَلَى شُكْرِ
هذه النِّعْمَةِ الَّتِي إِن سُلِّطَتْ عَلَيْهَا قُوَى البَشَرِ فَضَحَّتْها وَرَجَحَتْها ، أَوْ قِيسَتْ بالنِّعْمِ
فَضَلَّتْها ؛ وَرَأَيْنَا سِرَّ اللِّطَافِ الْخَفِيَّةِ كَيْفَ سَرَّائِهِ فِي الْوُجُودِ ، وَشَاهَدْنَا بِالْبَيَانِ
أَنوَارَ اللِّطْفِ الإِلَهِيِّ وَالْجُودِ ؛ وَقَلْنَا إِنَّمَا هُوَ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ شُفْعُ بَنَانٍ ، وَقَوَاعِدُ الدِّينِ
الْخَفِيَّةِ أُيِّدَتْ مِنْ صُنْعِ الله بَيَانٌ .

اللهم لك الحمد على نِعَمِكَ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، وَمِنْكَ الْوَاقِفَةِ ، أَنْتَ وَلَيْسَ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَأَمَرْنَا لِلْحَيِّينِ فَقُلَّدْتَ لَبَّاتُ الْمَنَائِرِ بِهذا الْخَبَرِ ، وَجَلَّيْتَ
فِي جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَجْهَهُ هَذَا الْفَتْحُ الرَّائِقُ بِالْعُرْرِ ؛ وَعَجَّلْنَا تَعْرِيفَكُمْ بِهِ سَاعَةً
أَسْتَجِلَّاهُ ، وَتَحَقَّقْ أَنبَاءَهُ لِنَسْحَبُوا لَهُ أُنُوبَ الْجَدَلِ ضَافِيهِ ، وَتَرَدُّوا بِهِ مَوَارِدَ الْأَمَلِ
صَافِيهِ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ سِرُّ الله شَمِلَ أَنْفُسَكُمْ وَحَرَّمَكُمْ ، وَأَمَانَهُ كُفَّلَ ظِلَالَكُمْ وَمُقِيمَكُمْ ؛
فَقَرَّطُوا بِهِ الْأَذَانَ [وَبَشِّرُوا بِهِ الْإِقَامَةَ وَالْأَذَانَ^(١)] وَتَمَلَّوْا بِالْمَيْشِ فِي ظِلِّهِ ، وَوَاطَبُوا
حَمْدَ الله وَلِيَّ الْحَمْدِ وَأَهْلِيهِ ؛ وَأَنْشُرُوا فَوْقَ أَعْوَادِ الْمَنَابِرِ مِنْ خِطَابِهِ رَايَةَ مَيْمُونَةٍ
الطَّائِرِ ، وَأَجْعَلُوا هَذِهِ الْبِشَارَةَ سِحْلًا فِي قُرْآنِ الْبَشَائِرِ ؛ فَشُكِّرْ الله سُبْحَانَهُ يَسْتَدْعِي
الْمَزِيدَ مِنْ نِعْمِهِ ، وَيَضْمَنُ اتِّصَالَ كَرَمِهِ ؛ وَعَرَفُوا بِذَلِكَ مِنْ بَلِيكِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ لِيَأْخُذَ
مِثْلَ أَخْذِكُمْ ، وَيَلْحَظَ هَذَا الْأَمْرَ بِمِثْلِ لَحْظِكُمْ ؛ فَحَقِيقٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشِيدُوا بِهذا
الْخَبَرِ فِي الْحَاضِرِ وَالْبَادِ ، وَتَجْعَلُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ الَّذِي تَجَلَّى فِيهِ هَذَا الصَّنْعُ ثَالِثَ
الْأَعْيَادِ ؛ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ لَلْسَرَاتِ عُنُونًا ، وَيُطْلِعَ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَجْهَهُ صُبْحَهُ غُرًّا
حَسَنًا ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ بِخُصِّكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ .

الأسلوب الثالث

(أن تُفَتِّحَ المَكاتِبَةَ بلفظ «أما بعد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعد حمد الله ، أو أما بعدُ فالحمدُ لله ، ويُؤتى بخطبة . ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ، ثم يُخَصَّصُ إلى المقصود ويُؤتى عليه إلى آخره ، ويُخْتَمُ بالدعاء ثم بالسalam .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر من الأندلس .

أما بعد حمد الله مُحسن العَوَاقِب ، ومُحلِّد المَنَاقِب ؛ ومُعلِّى المَرَاقِبِ فى دَرَجِ عِلْيَةِ المَرَاقِبِ ، ومَسحَرُ النجم الثاقب ، فى الفسَقِ الواقِبِ ، والكفيل بالحسنى للتوَكُّلِ عليه . المَرَاقِبِ ، ناسِجُ التحييص ، بالعناية والتخصيص ، لتظهر حِكْمَةُ المُتَيْبِ والمعاقِبِ . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولِ الماسِحِ الحاشِرِ العاقِبِ ، ذى القَدْرِ المُسَامِى لِلزَّهْرِ المُصَاقِبِ .

والرضا عن آلِه الذين كانوا فى سماءِ ملته هداية أمتِه كالثَّهْبِ الثَّوَابِ ؛ فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم تَوَالِي المَوَاهِبِ ، ووضوح المَذَاهِبِ ؛ ووقوف الدهر لديكم مَوْقِفَ الثَّابِ من القُدْحِ الثَّابِ ؛ ووالى لديكم مُفَاتِحَةَ الكُتُبِ المِهْنَةِ بِقُتُوحِ السَّحَابِ - من حراءِ غرناطة - حرسها الله - وفضل الله بتغرُّفِ صنْعِه لكم هَامِي السَّحَابِ ، وكفيلٌ بِبَيْلِ الرِّغَائِبِ ؛ والسُرورُ بِمَا سَنَاهُ الله لكم من استقامة أحوالكم شأنَ الشاهد والغائب ، والرائع والآيب .

والحمد لله على ما توالى من الألفاظ والعجائب . وقد وصل كتابكم الذى أَكَّدَ السُّرورَ وأصَّلَه ، وأَجْمَلَ مقتضى البشرى وفَصَّلَه ، ونَظَّمَ خبر الفتح ووصلَه ؛ وراش سَهَمَ

السَّعَادَةِ وَالسَّادَاتِ، وَالْعَنَايَةِ وَالْإِمْدَادَ، وَنَصَّلَهُ، وَأَحْرَزَ حَقَّ السَّعَادَةِ وَحَصَّلَهُ، تَعْرِفُونَ
مَا أَتَّاحَ لَكُمْ اللَّطِيفُ الْخَلِيرُ، وَالْوَلِيُّ النَّصِيرُ؛ مِنَ الصَّنْعِ الَّذِي أَسْقَى نِظَامَهُ، وَالنَّصِيرَ
الَّذِي سُنَّتْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَحْكَامُهُ، وَالْعَزَّ الَّذِي خَفَقَتْ أَعْلَامُهُ، وَالتَّوْفِيقِ الَّذِي
قَرَّطَسَتْ الْغَرَضَ سِهَامُهُ، وَأَنْتُمْ مِنْ بَعْدِ الْكَائِنَةِ الَّتِي رَاشَّ لَطْفُ اللَّهِ بِهَا وَجِبَرَ،
وَأَحْسَنَ الْخَلِيرَ وَأَدَالَ الْخَلِيرَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَى لِمَنْ صَبَرَ؛ جَهَزْتُمُ الْجُيُوشَ الْمُخْتَارَةَ،
وَالْمَسَاكِرَ الْجَرَّارَةَ؛ يَقُودُهَا الْخُلُصَانُ مِنَ الْوُزَرَاءِ، وَتَتَقَدَّمُ رَأْيَتَهَا مَيَامِنُ الْآرَاءِ؛ فَكَتَبَ
اللَّهُ ثَبَاتَ أَقْدَامِهَا، وَتَوَلَّى نَصْرَ أَعْلَامِهَا؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يَحْيَ وَطِيسُ الثَّرَالِ، وَرَجَفَتْ
الْأَرْضُ لَهْوَلِ الزَّلْزَالِ، وَتَوَعَّطِيتُ كُتُوسُ الْأَجَالِ، فِي ضَنْكِ الْحَبَالِ؛ وَدَجَا الْقِتَامُ،
وَتَوَهَّمْ مَعَ فَضْلِ اللَّهِ الْإِغْتِنَامَ، وَعَبَسَ الْوَجْهَ الْعَبَّاسَ وَصَحَّكَ النَّصْلَ الْبَسَامَ، وَأُورِدَ
الْخَلِيلَ مَوَارِدَ الطَّعْمَانِ الْإِقْدَامَ؛ فَكَانَ لِحَزْبِكُمُ الظُّهُورُ الَّذِي حَكَّمَ الْمَهْنَدَةَ فِي الرِّقَابِ،
وَالسُّمُورَ الطَّوَالَ فِي الثُّغُرِ، وَبَشَّرَتْ بَرُؤِيَّةَ هَلَالِ الْفَتْحِ عُيُونُ الْإِرْتِقَابِ،
وَحَطَّتْ عَنْ وَجْهِ الصَّنْعِ الْجَمِيلِ مَارَانَ مِنَ النَّقَابِ؛ وَأَنْ مِنْ بَغْيٍ عَلَيْكُمْ حَسَبَ مَا قَرَّرْتُمْ،
وَعَلَى نَحْوِ مَا أَجَلَّيْتُمْ وَفَسَّرْتُمْ، مِنْ شَيْخِ الْغَرْبِ الْمُحْيِيهِ، وَوُجُوهِ الْخَلْدِ الْمُنْتَمِيَةِ إِلَى
حَسَنِ الْعَهْدِ الْمُنْتَسِبَةِ؛ تَحْصُلُ فِي حُكْمِ اسْتِرْقَاقِكُمْ، وَتَحْتَ شِدَّةِ وِتَاقِكُمْ؛ وَرَبَّمَا
أَسْفَرَ الْمَكْرُوهَ عَنِ الْمَحْبُوبِ، وَأَنْجَلَى الْمَرْهُوبَ عَنِ الْمَرْغُوبِ، وَاللَّهُ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ؛
وَشَيْئَكُمْ فِي أَتْلَافِ النَّافِرِ، وَالْأَخْذِ مِنْ فَضْلِ الْعَفْوِ بِالْحَظِّ الْوَافِرِ، كَفِيلَ لَكُمْ بِالصَّنْعِ
السَّافِرِ؛ وَاللَّهُ يَجْعَلُكُمْ عَلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ، وَيَخَيِّرُكُمْ فِيمَا قَضَاهُ؛

فُسِّرْنَا بِمَا أَتَّصَلَ لَكُمْ مِنَ الصَّنْعِ وَأَطْرَدَ، وَرَحَّبْنَا بِهَذَا الْوَارِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي وَرَدَ؛
وَشَكَرْنَا فَضْلَكُمْ فِي التَّعْرِيفِ بِخَبْرَةِ الْمُدُودِ؛ وَالشَّرْحِ لِمَقَامِهِ الْمَحْمُودِ؛ وَكَتَبْنَا نَهْشَكُمْ بِهِ
هِنَاءَ مَشْفُوعَا، وَبِالدَّعَاءِ لَكُمْ مَتَبُوعَا؛ وَاللَّهُ يُطْلِعُ مَنْ تَوَالَى مَسَرَّتَكُمْ عَلَى مَا يَسْتَسْطِ

الآمال، وَيُنِجِجُ الأعمالَ ؛ وَيَقْسَحُ في السعدِ المَجَال . والذي عندنا من وُدِّكُمْ أعظمُ من أَسْتِيفائِهِ بالمَقَال ، أو نهوضِ البرّاعِ بوظائفِهِ الثَّقَال ؛ يعلمُ ذلك عالمُ الخَفِيَّاتِ ، والمجازي بالثَبَاتِ ؛ سُبْحانِهِ . والله يَصِلُ سَعْدَكُمْ ، ويَحْرُسُ تَجَدُّكُمْ ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

الطَّرَفُ الثَّانِي عَشَرَ

(في الكتبِ الصادرةِ عن وُزَرَاءِ الخلفاءِ المُتَقَدِّينِ أمورَ الخِلافةِ
اللاحقينِ بِشَأْنِ المُلُوكِ ، وفيه جملتان)

الجملةُ الأولى

(في الكتبِ الصادرةِ عن وزراءِ خلفاءِ بَنِي العَبَّاسِ ببغداد
وُزَرَاءِ ملوكِها يومئذ)

أما وُزَرَاءُ إقطاعياتِها ، فقد ذَكَرَ أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" أن المكتبة من الوزير إلى الخليفة في زمانه كانت : « أَطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المؤمنين وأَعَزَّهُ وأَيَّدَهُ وأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عليه ، وأدامَ كرامَتَهُ له » .

قال آبن حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" : وإن كانت المكتبة من الوزير إلى مَنْ دُونَهُ فدعاؤه له : « أَطالَ اللهُ بقاءَكَ وأدامَ تَأْيِيدَكَ وتمهيدَكَ وكرامَتَكَ » . ودونه « أَطالَ اللهُ بقاءَكَ وأدامَ عِزَّكَ وحرَّاسَتَكَ » . قال : وعلى مقدار المكتبة يكونُ الدعاء . وأقسامه كثيرة . ثم ذكر الأدعية العامة بعد ذلك على الترتيب ، فقال : إن أعلاها يومئذ « أَطالَ اللهُ بقاءَهُ وأدامَ تمكينَهُ ورفعتَهُ وبَسَطَتَهُ وعلَّوَهُ وشمَّوَهُ ، وكَبَّتْ أعداءَهُ وحسدَتَهُ » . ودونه « أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ، وأدامَ تمكينَهُ وارتقاءَهُ » . ورفعتَهُ

وسناه ، وتمهيدته وكبت أعداءه . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده ونعماءه وكبت أعداءه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده وحرس حَوْبَاهُ^(١) » . ودونه « أطل الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام عزّه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام توفيقه وتسديده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام سدادَه وإرشاده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام حراسته » . ودونه « أدام الله تأييده وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقه وتسديده » . ودونه « أدام الله عزّه وسناه » . ودونه « أدام الله عزّه » . ودونه « أدام الله حراسته » . ودونه « أدام الله كرامته » . ودونه « أدام الله سلامته » . ودونه « أدام الله رعايته » . ودونه « أدام الله كفايته » . ودونه « أبقاه الله » . ودونه « حَفِظَ الله » ودونه « أعزّه الله » . ودونه « أيده الله » . ودونه « حرسه الله » . ودونه « أكرمّه الله » ودونه « وقّقه الله » . ودونه « سلّمه الله » . ودونه « رَاحَهُ الله » . ودونه « عَافَاهُ الله » .

ثم المكتبات الصادرة عنهم على أسلوبيين :

الأسلوب الأول

(أن تُفتَح المكتبة بلفظ « كتابي »)

والرسم فيه أن يقال كتابي - أطل الله بقاء سيدي ، أوبقاء مولانا - والأمر على كذا وكذا ، ومولانا أمير المؤمنين ، أو الجانب الأشرَف ونحو ذلك على حال كذا ، ثم يتخلّص إلى المقصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُجَنَّبُ بقوله ورأى حضرة سيدنا أعلى .

(١) في القاموس الحوياه النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صدقة إلى بعض وُزَرَاء ملوك زمانه في معنى أمير مكة المشرفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاج في بعض السنين ما صورته :

كتّابي - أطال الله بقاء حضرة سيدنا - ومواهب الله سبحانه في أمر مولانا أمير المؤمنين جارية على الإرادة ، مقابلةً بالشكر المؤذن لها بالدوام والزيادة ، والحمد لله رب العالمين . وقد تتابعت المكاتبات في أمر النوبة المتخية نتابعا علمه السامي به محيط ، والعذر في الإيجاز بها مع إنعام النظر بسببها مبسوط ؛ وبعد ما صدر أنفا في المعنى المذكور وصل كتاب زعيم مكة بما نفذ على جهته يُعلم منه ومما لا ريب أنه أصدره إلى الديوان العالي السلطاني - أعلاه الله - حقائق الأحوال بغير شك : أنه قد اتضح تفريط من قرط في هذه النوبة وتخل ، وتحقيق المشل السائر « رب وإنتي تخیل » وأسباب ثمة الهوى الذي مازال يفتح براكه ، ويُرِيه سوء عواقبه ؛ وعلم أنه لم يُخط فيما شرع فيه ، واستمرت على الخطأ أو أحره ومبادئه ، إلا بوعد أخلف ، ومال أتلف ؛ وخطر أرتكب ، وصواب تُكَب ؛ وحزم أُضيع ، وهوى أُطيع ؛ حتى كان قصاره دفع اللائمة عنه ، فإنه أوصل التحجيج إلى مقصودهم وأعادهم ، وأحسن التواصل حتى أدركوا من أداء الفريضة مُرادهم ؛ وهل أعترض دون هذا الأمر مانع ، أو كان عنه دافع ؟ لولا ما صورته من الأسباب التي أفسد بها الأمور ، وأوغر بمكايها الصُّنُور ؛ وكفل بعد ما قرره من ذلك ومهدد ما عكسه سفه الرأي عليه ، وأبعد العجز عن الوصول إليه ؛ وأى عذر في هذا المقام يُستمع ؟ أم أى لائمة عنه تندفع ؟ وقد جرت الحال على ما علم ، وتحدث بانخراق حجاب الهيبة كل لسان ناطق وفم ؛ ووقع الاتفاق من كافة الحاج على أن تمسك نائب مكة بطلب الرضا ، وتكفيل خصمه باستدراك ما تَلَف من التفريط في معاشه ومضى ؛

ونظّره في العاقبة التي يَنْظُر فيها ذُوو الألباب ، وعمله بما أصدره الديوانُ العزيزُ من
مكاتبةٍ أُمِر فيها بالطاعة وخطاب ؛ هو الذي لَأَمَّ النوبةَ وشعبها ، وسَهَّلَ عسيرها
ومستصعبها ؛ ولو أفتقرت إلى سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده ، ولإبراقه بعسكره وإرعاده ؛
لكان الحُجَّ ممتنعا وانلَطَر العَظِيمُ متوقعا ؛ ولم يحصلُ الوفدُ إلا على التغير بالنفوس ،
والجود منها بكل مَضْنُون به مَنقُوس ؛ ثم عَرَبُ الطريق الذي ما زال أميرُ الحاجِّ
في حقِّهم خاطبا ، ولما كرامهم بالقول المتكرّر طالبا ؛ وجاعلا ماله يتأخّر من رسم
أحدهم من دَواعى الخطر في سلوك [الطريق] المُردِّيه ، ومُوجِبات الفساد
في المَنَاهِل والأودية ، يتلو من التَّهَبِّ والاجتياح ، والأذنى العائد على فاعله بالاعتراف
العظيم الوزر والاجترار ، بما يُؤلم شجاعة القلوب ويحرقها ، ويُسبِي العيون ويؤرقها ؛
ولقد أتتهى أن العسكر المنقذ أمامه كان يَنْتَقِلُ في هَضَاب البريةِ ويَغِيظُها ، ويُسَبِّ
عن منازل العرب وأوطانها ؛ فيستقرى أحياءهم حيا حيا ، ويَتَخَلَّلُ الفِجَاجُ فجًّا فجًّا ؛
فاذا شارفوا قبيلةً منهم طلب النجاة منهم بالحشاشات رجالها ، وأسأمت إليهم نسائها
وأطفالها وأموالها ؛ فيتحكّكون في ذلك تحكّم من استحلَّ موقفه في إباحة محارم الله
ومقامه ، وأمن مكره الحائِث بالظالمين وأتقاهم ؛ ويستريحون حريم كلِّ برىء غافل لم
يُعارِفْ ذنبا ، وطائع لا يستحقُّ غارةً ولا نهبًا ؛ فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل
في حِفْظ عَرَب الطريق ؟ وكيف عَرُب عنه في هذا الرأى منبج التوفيق ؟ وهل
تُصوّر الثقة بكل قبائل العرب عن إفساد الآبار والمصانع ؟ والعبث بكل مستطاع
في المَنَاهِل والمشارع ؛ خاصة إذا علموا أن الذي ظلمهم ، وأباح حُرْمهم ؛ هو السالك
للطريق آنفا ، والمتسكّن فيهم من مُعاودة الأذى الذي أُسْحَى كُلُّ به عارفا ، وأستدراك
الفارط في هذا الأمر المهمّ متعين ، ووجه الرأى فيه واضحٌ متين ؛ والإشارة في كتاب
زعيم مكة ، إلى ما جرى من المعاهدة واستقرت القاعدة عليه [من] إعادة ارتفاعه المأخوذ

ورسومِهِ على التمام والكمال إليه ، أدلُّ الأدلَّة على بُعدِ التوبة من الأثام ، ودخولِ
الخللِ عليها وآنحلالِ النظام ؛ وتعدُّ الحجَّ في المستقبل . على أن مَنْ أفسدها ، لم
يتأمل لنفسه طريقَ الصِّدَر حين أو رَدَّها ؛ والألمعية السامية المعزية حرس الله عزَّها
اللاحمة بيديها العواقب ، المستشفعة سرائرها بالرأى الثاقب ؛ أهدى إلى تديرها بما
يستدرك الفارط ، ويتلافى غلط الغالط ؛ ويعيدُ الأحوال إلى جَدِّ الصلاح وسنِّه ،
ويُجربها على أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنه ؛ وما أولاه بالتقديم في هذا المهم الذي
لا أحق منه بالأهتمام ، وإلحْد الصادق التام ؛ بما تطمئنُّ به النفوس إلى صلاحه
وأنظامه ، وأرتفاع كلِّ مخشى من الخلل الداخلي عليه وأنحسامه ؛ والإعلام في الجواب
بما يقع السكون إلى معرفته ، ويحصل الأُنس والشكر في مقابلته ؛ ورأى حضرة
سيدنا أعلى إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(أن تُفتتح المكاتبة بلفظ الإصدار)

مثل أن يقال : أُصِدِّرت هذه المكاتبة ، أو هذه الجملة ، والأمرُ على كذا وكذا ،
بعد أن يُدعى للكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ؛ ثم يتخلَّص إلى المقصود بما يليق
بالمقام ، ويُوقى على القصد إلى آخره ، وينتَهِم بقوله : ورأى حضرة سيدنا أعلى .
كما كتَّيب عن الوزير قوام الدين بن صدقة أيضا إلى ملك سمرقند جواباً عن كتاب
وصل منه إليه :

أُصِدِّرت هذه الجملة ^(١) - أطال الله بقاءَ حضرة مولانا - ومواهبُ الله سبحانه
في الجَنَّتَاب الأشرِف - لا زالت مطالعُ سُعوده مُنيره ، وأعوادُ علائمه مُورقة

نَضِيره - أهله الرُّبُوع ، عَذْبَةُ الْيَبُوع ، قَارَةٌ لَا يَطْعُنُ رُكْبَهَا ، دَارَةٌ لَا يَعْزِ حَلْبَهَا ،
والحمد لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوه الصادر على يد الشيخ الأجل العالم أبي الحسن بن علك
ووقفت عليه وعرفت خَوَاه ، وتضاعف الشكر لله سبحانه بما حَوَاه ؛ من أطْرَادِ
الأمورِ وأنساقها ، وطلوع شمس النُّجُجِ في سماء مَبَاغِيهِ وإشراقها ؛ وأحدث آتِبَاجًا
بوروده متوقفا ، وأغْبَاطًا بما أولاه جَلَّتْ آلاؤُهُ من صنعه الذي أصبح ذَنْبُ الأيامِ
معه مغْتَفَرًا ؛ وعِرِضَتْ خدمته المَقْتَرِنَةُ به على مجالس العرض الشريفة قدسها الله
مشفوعة بذكر ما لبهته الكريم وسلفه الزاكي الأرومة من المماهر التي أضحي بها
في الفخر علما ، وعلى ناصية المجد محتيا محتكما ؛ في ضمن إيضاح المحاسن التي أصبح
أيد الله سموه بها منفردا ، ولنجاد المحاميد بحسبها مقلدا ؛ والمواقف في الطاعة الإمامية
التي أصبحت غُرَّة في جبهة الزمان ، ولم يسع في مثلها لغيره قَدَمَان ؛ وآتت في تمكين
القواعد وتوطيدِها ، وتأكيد الأحوال وتمهيدِها ؛ والتجرد في تحصيل الأرب ،
وتيسير المطلب ؛ إلى ما يوجبهُ الودُّ المُخَصَّفُ الأُمْرَاس ، والمصافاة الخالصة من
الشوائب والأدناس ؛ فأست في مقابلة ذلك من الإلتفات إلى ما أوردته بما يبين عن
لُطْفِ مكاتبته بالموقف الأشرف ويعرب ، ويصفو مؤرِدَ الفَخَارِ بِمثله ويعلم ؛
وجتد من التشریف والزِيَادَةِ فيه ما يؤي على الذي تقدمه قدرا ، ويَجِلُّ طَوْقُهُ عن
أن يرضى عُمرًا ؛ وشَفَعَ ذلك بتنفيذ التشریفات لولده أيد الله علوه والمُطِيفِينَ
بحضرتة ، واللائذين بمجوزته ؛ وأبتدأهم بالإحسان والإنعام ، والتَّكْرِمَةُ الْمُؤِفِيَةُ على
المَرَامِ ؛ لِجَارًا لِشَانِهِ ، وإِبَانَةً عن محلّه من الآراء الشريفة ومكانه ؛ وإِشَارًا لِإِعْظَامِ
أمره ، وإِعْلَاءِ قَدْرِهِ ؛ لِيَعْلَمَ - أيد الله علوه - مكانَ التجرد في هذه الحال ، وصدق

السعي الذي آتت ثمره عن نجاح الآمال ؛ وأرجو أن يصادف حسن المقام في ذلك عنده موقعه ، ويلقى لديه اعترافاً يوافق مرآه مسمعه .

فاما الإشارة إلى المشار إليه في التوزيع تلك الهبات الجارية ، التي مازالت الأيام بمثابة جانيه ؛ والاستبشار بزوال ما عرّض وأضحلاله ، وعود الرأي الأشرف إلى أكل أحواله ؛ وقد عرفها بمزيد الاعتداد والشكر قائلها ، ولم يكن الذي جرى مما يسعّب فكرا ، أو يتوزع سرا ؛ فإن الاعتداد الأشرف كان بحمد الله محفوظا ، والاجتهاد في الخدمة بعين الاعتراف والرضا ملحوظا ؛ لم تحله حال متجده ، ولا رمت الحوادث مورده ؛ وما زالت ثغور الأيام في كل وقت عن الزيادة باسمه ، وشعبه بنجح اشتطاط الآمال ساجحه ؛ والمنسوب لتحمل المشال وما يقترن به من التشريف فلان ، وهو من أعيان العلماء ، ومن له في ميدان السبق شأو القرناء ؛ وله في الدار العزيزة مجدها الله الخدمة الوافيه ، والمكانة الوافوه ؛ وما زالت مذهبها في خدمه حميده ، ومقاصده على تقلب الحالات مرضية سديده ؛ وجدير بلك الألفية الناقبة أن تلقى ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النعم المسداة إليه بالشكر الماطر الأنواء ؛ وتوقظ ناظر اهتمامه للنهوض بأعباء الخدمة الإماميه ، وحيازة المراضى المكترمة النبويه ؛ ونهيه عزيمتها فيما يكون بالإجماع الأشرف محظيا ، ولأمثال هذا العرف المصنوع مستدعيا ؛ ولرأى حضرة سيدنا في ذلك علو رأى إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علي بن خلف من كتاب دولتهم في كتابه "مواد البيان" أنه إذا كانت المكتبة من الوزير إلى من دونه ، تكون بغير تصدير ، إلا أنه الخطاب فيها يجب أن يثنى على أقدار الخططين في مراتبهم في الدولة ، ولم يزد على ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوب واحد : وهو أن يفتح الكتاب بلفظ « كتابنا والأمر على كذا » . ويُعرض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة ، ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه الحال ، ويؤتى عليه إلى آخره ، وينجم بالدعاء .

كما كتب القاضي الفاضل عن بعض وزراء العاضد : آخر خلفائهم إلى بعض الملوك ماصورته :

كتابنا - أطال الله بقاء الملك - عن مودة ظاهرة الأسباب ، متظاهرة الأنساب ، ضافية جلباب الشباب ؛ وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ، وفؤد فوائد لا يتصدع تأليفها ؛ ومساعي مساعد لا ينقص معروفها ولا ينفض مسوفا ؛ وسعادة بالخلافة التى عدق إليه أمرها وأوضح سرها ؛ وملأ سرائرها وسريها ، وأطلع شمسها وقرها . بولانا وسيدنا أمير المؤمنين نوالى ميامنها ، ونتلأ لأحاسنها ، ونشرف درجاتها ، ونضاعف سعادتها ؛ والكلمة قائمة على أصولها ، وأمور الخلق جارية على ما هوها ، ونظام الإسلام بسياستها لا يهوى ، وسياقة الدوام فى سعادتها لا تنهى ؛ والله الموزع شكر هذه المنن ، المسئول فى الإنهاض لما نهضت فيه النية وقصرت عنه المنن ؛ ولم نزل - أدام الله إقبال الملك المعظم - معظمين لأمره ، عارفين ببل قدره وجليل نغره ، مشيدين ببجل ذكره وبجزيل نصره ، معيدين لما تنهذى الألسن من مستطاب نشره ، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من نشره ، غير مستيمين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، مؤردين مما هو يبلغه من بارع ضرائب بالمقامات الشريفة من آثار سلفه وما نيرهم ، وما نور مكارمهم ومفاحريم ؛ وأستناد المكرمات إلى أولهم وأحريم ؛ ومشهور ذبهم عن اليلة ، ودفاعهم عن أهل القبله ؛ وسدادهم فى الأمور ، وسدادهم الثغور ، وسيادتهم الجمهور ؛ وأستقلالهم بالمشقات المتقدمة ، وإحماهم نيران الخطوب المضطرمه ، وكفهم سيول السيوف العرمه ؛ ومواليتهم أمور الدولة

العلوية التي أشتهر بها منهم الأكابر، وورثها كابر عن كابر، وحافظوا منها على سيرة معروف لا ينسخ، وعقد صفاء لا يفسخ؛ وسريّة صدق تستقرّ في الضائر وترسخ، وتوضح بها غمرة في جباه السبق وتشدخ؛ وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر، والثناء المشتهر؛ من الدعوات الشريفة العاضدية المعصودة بالنجح، المتوضحة عن مثل فلق الصبح؛ ما يتهلّل لمساعيه باليأمن المستلّه، ولرأيه بالإصابة المتصلة، بينه وبين هذه الدولة العاليه، والخلافة الحاليه؛ بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللاحب، وأستدعينا به إجابته التي تُتلقّى بالمرآحِب؛ وأعلمناه أنّ تهادي الأيام دون المراسلة وتطاوُلها، وتنقل الأحوال والدول وتناقلها؛ لا يزيد مودته إلا أستحكام معاقده، وأنتظام عقائده، ووفاء مواعده، وصفاء موارد؛ وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرحى المتباعد، ولا تُفترق المسافات القواصى ما بين النيات القواصد. فلما تانحرت الإجابة، تقدّمت الإسترابه؛ وتناجحت الظنون المتعابجه، وتراجعت الآراء المختلجه؛ بأن الرسول عاقته دون المقصّد عوائق، وتقسّمته من الأحداث دون الطريق طرائق؛ فلم ترد المكاتبه إلى جنابه، ولا أسعد السعى بطروق جنابه، الذي تُتال السعادة ويُتخى به؛ وإلا فلو أنه أتم له، بلغ ما أمّله، ولو وصله، لأجاب عما أوصله؛ لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرّع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض؛ وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبه أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض. فحدّدتنا هذه المكاتبه مشتملة على ذلك المراد، وفاوضناه بما يعبره الإصغاء، ويحبّبه الإلقاء؛ ويحسن له الإنصات، ولا يحتاج فيه إلى الوصّات. ورسمنا أن يكتبه حتى عن لسانه، وأن يطويه حتى عن جنّانه، وأن يتمسك بالأمر النبويّ في استعائته على أمره يكتبانه؛ فمن حُسن الحزم سوء الظن، وهل لأرباب الأسرار فرجٌ إلا مادامت في السجن؛ وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن؛

ونحن نحببتنا بما يُعلم به حسنُ موقع رسالة الأسترسال ، وبما يبين به عن دلالة الإِدلال ، وبما يرحب بمودته مجالُ الجمال ؛ والله سبحانه يؤيدُ المَلِك بنصرُ تُستخَدَم له الأقدار ، وسعادة لا تتصرّف في تصرّيفها أحكامُ الفلك المُنْدار ، وإقبالٍ يقابل آراءه وآدابه في فاتحة الورد وعاقبة الإصدار ، وعزٌّ لا يزال منه متوقّلاً في درجات الأقدار إن شاء الله تعالى .

الطرف الثالث عشر

(في المكاتبات الصادرة عن الأتباع ، إلى الملوك ومن في معانهم ؛
وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الشرق إليهم
في الزمن المتقدم ، وهي على أسلوبيين)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بلفظ : « كتابي »)

ويدعى للكتوب ^(١) كذا وكذا ، ويتخلّص إلى المقصود بما تقتضيه الحال ، ويخاطبُ السلطان في أثناء الكتاب بمولانا أو بمولانا الملك ، ويعبرُ المكتوب عنه عن نفسه بـ « المتكلم » ولفظ الأفراد ، ويُحتم بقوله : فإن رأى أن يفعل كذا فعل إن شاء الله تعالى . ويدعى للكتوب إليه بطول البقاء مع التعرّض لذكر الخليفة في أثناء الكتاب .

(١) في الأصل محو ولعله ويدعى للكتوب إليه ثم يقال والأمر على كذا الخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب، كتب به أبو إسحاق الصابي عن أبي الفضل الشيرازي: أحد تواب بني بويه إلى عضد الدولة بن بويه، في جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خراسان وطاعة صاحبها، وهو:

كتابي - أطال الله بقاء مولانا - والأمور التي أخدم فيها جارية على السداد، مستمرة على الأقطار؛ والتعم في ذلك خليقة بالتمام، مؤذنة بالدوام.

والحمد لله حق حمده، وهو المسؤول إطالة بقاء موالينا الأمراء، وحراسة ما خوّلهم من العز والعلاء؛ وأن لا يخلّهم من صلاح الشان^(١)، وممّو السلطان؛ وظهور الولي، وتبوء العدو.

ووصل كتاب مولانا [الأمير أطال الله بقاءه]^(٢) الصادر من معسكره المنصور بكازرين، بتاريخ كذا، مخبراً بسمول السلامة، مبشراً بعموم الاستقامة؛ موجباً لشكر ما منح الله من فضله وأعطى، مقتضياً [نشر]^(٣) ما أسبغ من طوله وأضنى؛ مشروحاً فيه الحال فيما كان يجري من الخلاف بين مولانا الأمير السيد «ركن الدولة» وبين ولاية خراسان، وجهاده لإيادهم في حياة الدين، وحماية حريم المسلمين؛ والدعاء إلى رضا رب العالمين، وطاعة مولانا أمير المؤمنين؛ وتذكّمه مع ذلك من دماء كانت باتّصال الحروب تُسفك، وحرمات باستمرار الوقائع تنهك؛ وغفوي تهمل بعد أن كانت ملحوظة، وحقوق تضاع بعد أن كانت محفوفة؛ وأنه لما جدّدت العزيمة على قصد جرجان ومنازعة ظهير الدولة أبي منصور بن شمكير مولی

(١) في المختارات المطبوعة ص ٩٣ من طو الثاني.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) في المختارات «يدارزين» وكتباها من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين^(١)] بوسيلة موالينا الأمراء
أدام الله تمكينهم منها ومنازعتهم ومجاذبتهم فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عضد الدولة]^(١)
إلى كُرمان على اتفاق كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة وبينه في التوجه إلى
حدود نُرَاسان . فحين عرف القوم الحجة في ردهم ، والتجريد في صلتهم ؛ وأنه
لامطمع لهم في جنبة إلى طاعة أمير المؤمنين آنسائها، وبندمام سادتنا الأمراء
اعتصامها ؛ اتعظوا واترعوا ؛ وعرجوا ورجعوا سالكين أقصدة مسالكهم، منتهجين
أرشد مناهجهم، معتمدين أعود الأمور على المسلمين عموماً وعليهم خصوصاً باجتماع
السُّلَم ، واتصال الجبل ؛ وأمن السَّرب ، وضُوبة الشَّرب ؛ وسكون الدهماء ،
وئْشْمول النِّعَاء ؛ فخطبوا الصُّلْحَ والوُضْلَه ، وجنَّحُوا إلى طلب السُّلْم والأُلْفَه ؛ وأن
مولانا [الأمير عضد الدولة]^(٢) آثر الأحسن واختار الأجل : فأجاب إلى المرغوب
فيه إليه ، وتوسَّط ما بين الأمير السيد ركن الدولة وبين تلك الجنبة فيه ، وتكفل
بتقريره وتمهيده ، وتحقق بتوطيده وتشييده ؛ وأخرج أبا الحسن عابد بن عليّ
إلى نُرَاسان حتَّى أحكم ذلك وأبرمه ، وأمضاه وتممه ؛ فيجتمع من الشيوخ والصلحاء ،
ومشَّهد من القضاة والفُقهاء ؛ وأنَّ صاحب نُرَاسان عاد على يد مولانا [الأمير عضد
الدولة]^(٢) إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومُشايعته ، والإمساك بعلائق ولآئِه وعِصْمته ؛
وصار ولياً بعد العداوة ، وصديقاً بعد الوحشة ؛ ومُصافياً بعد العناد ، ومُحالطاً بعد
الإفتراد ؛ وفهمته . وتأملت - أيد الله مولانا - ما في ذلك من ضروب النعم المتشعبة ،
وصُنُوف المَنَح المتفرقة ؛ العائدة على الملك بالجمال ، وعلى الرعية بصلاح الحال ؛

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخليفة .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعية إلى الإِسْلاَف والأَتْهاق، المزيّلة لِلْغِلاَف والشَّقاق؛ فوجَدَت النِّعَ بها عَظِما، والْحَظَّ فيها جَسيما؛ وَحَدَّثُ اللهُ حَقَّ حَمْدِها، وشَكَرْتُه أَنْ أَجْراها على يَدِ أَوَّلَى الناسِ بها؛ وأَحَقَّهم بالمِكارِمِ أَجمَعِها، وَأَنْ قَرَبَ اللهُ بِيَمْنِهِ [ما كان بعيدا مُعَصِلا وَيَسَّرَ بِرِكْنِهِ^(١)] ما كان مَمْتَنّا مَشْكِلا . فاصْلَحَ ذاتَ الْبَيِّنِ بعد فسادِها، وأَحْمَدَ نيرانَ الْفِتَنِ بعد تَلْهِبِها وآتِهادِها؛ ووافَقَ ما بين نِيَّاتِ القُلُوبِ، وطابَقَ بين نِخائِلِ الصُّدُورِ، وتَحَنَّنَ الضُّلُوعُ بِمُجِجِ سَعِيهِ على التَّائِبِ، وَأَنْضَمَّتِ الْجِوَانِحُ بِمِيمُونِ رَأْيِهِ على التَّعاطُفِ؛ وَحَصَلَ لَه في ذَلِكَ من جَزِيلِ الأَجْرِ، وَجَمِيلِ الذِّكْرِ؛ وَجَلِيلِ النِّعْرِ، وَأَرِيحِ النِّشْرِ؛ ما لا تَزَالُ الرِّوَاةُ تَدْرُسُهُ، والتَّوَارِيخُ تُحَرِّسُهُ؛ والقُرُونُ تُتَوَارِثُهُ، والأَزْمانُ تُتَدَاوِلُهُ؛ وَالْخَاصَّةُ تُتَحَلَّى بِفَضْلِهِ، وَالْعَامَّةُ تَأْوِي إلى ظِلِّهِ .

فالحمد لله كثيرا، والشكر دائما على هذه الآلاء المتواترة، والعطايا المتناصرة، والمعافاة السامية، والمبائر العالیه؛ وإياه أسأل أن يعترف مولانا الملك الخيرة فيما آتاه وأمضاه، والبركة فيما أولاه وأجراه؛ وأن يهنئته بنعمه عنده، ويظهر مواهبه لديه؛ ويسهل عليه أسباب الصلاح، ويفتح أمامه أبواب النجاح؛ ويعكس إلى طاعته الرقاب الآبية، ويذلل لموافقته النفوس النائية؛ ولا يُعْذِمَهُ وموالاتنا الأمراء أجمعين المنزلة التي يرى معها ملوك الأرض قاطبة التعلق بحبلهم أمانا، والإمسك بِذِمَامِهِم حصنا؛ والانتفاء إلى مخالطتهم عزّا، والاعتزاء إلى مواصلتهم حرزا؛ إنه جل وعز على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير .

وقد أجتهدت في القيام بحق هذه النعمة التي تلتزمني، وتأدية فؤضها الذي يجب على: من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعة؛ حتى أشتهرت في أعماله التي

أنافيا ، وأستوى خاصتها وعامتها في الوقوف عليها ؛ وأنشحت صدور الأولياء معها ، وكتب الله الأعداء بها ، وأعددت بالنعمة في المطالعة بها والمكاتبة فيها ؛ وأضفتها إلى ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وسلف من أترابها وأشكالها ، فإن رأى مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمر أعلى الله أمره باجرائى على أكرم عاداته فيها ، وأعتادى بعوارض أمره ونبيه كلها ؛ فإن وفور حظى من الإخلاص ، يقتضى لى وفور الحظ من الاستخلاص ؛ فعل . إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثانى

(أن يفتح الكتاب بالإصدار)

مثل : أصدر الخادم أو العبد ونحوه ، ويؤتى بالصدر إلى آخره ؛ ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختتم بقوله : وللراى العالى مزيد العلو ونحو ذلك .

كما كتبت عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلى السلطان ستجر السلجوقى ، فى حق قطب الدين أبى منصور أزدشير العبادى : وقد ورد إلى أبواب الخلافة ببغداد رسولا ، وكان أبوه وخاله وسلفه من أهل العلم والزهد ، وهو من الفصحاء البلقاء ما صورته :

أصدر خادم المجلس العالى هذه الخدمة عن ضمير معمور بالولاء ، وإخلاص دواعيه متصلة على الولاء ؛ وعكوف على ما يرجوه حصول المراضى عليه ، والتحقق لمشايعته الواضحة شواهدا جلية ، والمحمد لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجنب العالى السلطانى الشاهنشاهى الأعظمى أعلاه الله لكل خير منبعا ، وحرمة الأمن للفوائد الجمة مغانا ومربعا ؛ والسعادة والتوفيق مقرونين

بسأى آرائه ، مُطِيفِينَ بِهِ مِنْ أَمَامِهِ وَوَرَائِهِ ؛ فِي كُلِّ رَأْيٍ يَرْتَلِيهِ ، وَمُقَرَّبٍ يَصْطَفِيهِ ؛ وَأَمْرِي يُتَخَيَّرُ وَيَقْلَدُ ، وَأَمْرِي يَحُلُّ وَيَقْدَهُ ؛ وَصُنِّعَ جَمِيلٌ يُصِيبُ مِنَ الْأَسْتَحْقَاقِ مَوْضِعَهُ ، وَيُعِيدُ طَيْبَ الذِّكْرِ مَجْهَزَهُ وَمُبْضَعَهُ ؛ مَنَاقِبُ ثَفَوْتِ الْإِحْصَاءِ عَدَا ، وَتَرِدُ مِنْ مَفَانِرِ الْوَصْفِ مَنَهْلًا عَذْبًا وَتَسِيرُ بِذِكْرِهَا الرِّفَاقُ غَوْرًا وَتَجِدَا ، وَتُجَاوِزُ غَايَاتِ الْمَدْحِ عَلَاءَ وَجْدَا ؛ وَكَفَى عَلَى ذَلِكَ دَلِيلًا قَاطِعًا ، وَبِرْهَانًا سَاطِعًا ؛ مَا أَقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ الْعَلِيَّةُ مِنَ التَّعْوِيلِ عَلَى فُلَانِ الْعِبَادِي فِي تَحْمِيلِ الرِّسَالَةِ الْأَعْظَمِيَّةِ الَّتِي عُدَّتْ مِنْهُ بِالْبَنِيِّ الْحَبِيبِ ، الْبَرِيِّ مِنَ الْعَيْبِ ، الْعَارِي مِنَ دَنَسِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ ؛ فَإِنْ أَخْتَارَهُ لِهَذَا الْأَمْرِ طَبَقَ مَقْصِلِ الصَّوَابِ ، وَلِشَاكِلَةِ رَمَى الرَّأْيِ أَصَابَ ؛ إِذْ هُوَ الْقُدُّ فِي عِلْمِهِ وَفَضْلُهُ ، السَّيِّدُ فِي قَوْلِهِ وَفَعْلِهِ ؛ الْبَارِعُ فِي إِيْجَازِ الْخُطَابِ وَفَضْلُهُ ، الْمُعْرِقُ فِي الزَّهَادَةِ وَالِدِّيَانَةِ الْمَزِينِينَ لِفَرْعِهِ وَأَصْلِهِ .

ولما وصل إلى الأبواب العزيزة الإمامية - ضاعف الله تعالى مجدها - مثل .
بالخدمة مؤدياً من فرضها ما يلزم أمثاله من ذوى العقائد الصحيحة ، والموالاة المحضة الصريحة ؛ وصادف من التَّكْرِمَةِ وَالْإِنْعَامِ مَا يُوجِبُهُ لَهُ مَحَلُّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا تُكَدَّرُ الدَّلَالَةُ بِمَجْرِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ الْأَرِشِيَّةُ بِطَوْلِهَا قَعْرَهُ ؛ فَهُوَ فِيهِ نَسِيجٌ وَجْدِهِ ، وَنَاسِجٌ بُرْهِدِهِ ؛ وَنَاشِرٌ عِلْمَهُ ، وَمُسْتَغْنٍ دِينَهُ . وَأَلْفَى مِنْ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ اخْتِبَارُ أَحْوَالِهِ الشَّاهِدَةِ بِأَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ فِي يَدِهِ قِيَادُ الْفَصَاحَةِ الْأَلْفَى ، وَمَلَكَتُهُ زَمَامُهَا الْمُنْتَعِ عَلَى مِنْ عَدَاهُ الْعَصَى ؛ وَجُمِعَ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا أَصْبَحَ فِي سِوَاهُ مُتَّفَقًا ، وَخِيَرَلَهُ مِنْهَا مَا جَعَلَ جَفْنَ حَاسِدِهِ لِقُرْطِ الْكَدِّ مُؤَرِّقًا ؛ إِلَى مَا زَانَ هَذِهِ الْخُصَائِصَ الَّتِي تَفَرَّدَ فِيهَا وَبَرَعَ ، وَطَالَ مَنَاقِبَ الْأَقْرَانِ وَفَرَعَ : مِنْ الْإِخْلَاصِ الدَّالِّ عَلَى تَمَسُّكِه بِحَبْلِ الدِّينِ الْمُتَيْنِ ، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى جَدِّهِ الْوَاضِعِ الْمُتَيْنِ ؛ وَفَقَّصَلَ عَنِ الْأَبْوَابِ الْعَزِيزَةِ فَائِزًا مِنْ شَرَفِ الْإِرْعَاءِ ، مَا وَقَرَّ الْحُظُوظَ وَالْأَنْصِبَاءَ ؛ حَاصِلًا مِنْ حَمِيدِ الْآرَاءِ ، عَلَى أَنْفَسِ الْعَطَاءِ وَأَجَزَلِ الْحِبَاءِ .

وقد تمهد له من الوجاهة والمكانة ما يتفخر بمكانه ، وتتقطع دُونَ بلوغ شأوه أنفاسُ
أقرانه ؛ ورسم - أعلى الله المراسيم الإمامية وأمضاها - مطالعة المجلس العالى السلطاني
أعلاه الله بهذه الحال ، تقريرا لها عند العلم الكريم . واستمدادا للطول والإنعام ،
باختصاص قطب الدين بالاحترام ؛ الذى هو حقيق بمثله ، وخلق أن لا يضحي
عن وارف ظله ؛ وما يؤخر به من ذلك يصادف من دواعى الاستحقاق أوقافها ، ويرد
من متأهل الذكر الجليل أعذبها وأصفها ، ويتلقى من شرف المحامد بالطفها وأحفها ،
وللرأى العالى علو رأي ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى المكتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم ،
والمختار منه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكتبة بالدعاء)

مثل أن يدعى بعز الأنصار ، أو إدامة السلطان ، أو تخليده ، أو إدامة بسطة
السلطان ، أو إدامة الأيام ونحو ذلك . ويخاطب السلطان فيه بمولانا ، ويعبر
المكتوب عنه عن نفسه بالملوك ، ويختم بالدعاء . وهى طريقة القاضى الفاضل ومن
تلاه من كتاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

قال ابن شيث فى "معالم الكتاب" : ولا يقال فى مخاطبة السلطان : سيدنا مكان
مولانا ، وإن كان السيد من الألقاب السلطانية ، لأن لفظ سيدنا مما أصطلح عليه
لأكابر المتعممين من الفقهاء والقضاة والكتاب ، فاجتنب فى حق السلطان كي لا تقع
المشاركة بينه وبين غيره فى الخطاب .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كُتِبَ به إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب
في جواب كتاب ورد منه بالبشارة بفتح خلّاط وهي :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدّ على خلقه وإرف
ظله ، وأظهر به دينه على الدين كله ؛ وأوضح إلى مرضاته ما يسلكه من سبيله ،
ولا عَدِمَتْ يَدُ الإسلام والمسلمين التعلّق بوثيق حبله ؛ وفَرَّجَ به انحطاط المطيقه ،
وفتح به البلاد المستغلقه ؛ وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمّ بفتوحه الآفاق ؛ ودَمَّرَ
الكُفْرَ بمقامه ، وطوى أيامهم بما ينشره ويُدِيمه من أيامه ، وأنزل النصر في مواقف
الترّال بما ترفعه رايّاته من أعلامه .

وقف المملوك على ما أنعم به مولانا : من كتاب البشارة التي وصلت إلى كلّ قلب
وسمع ، وأمل بها كلّ مسلم كلّ خير وقع ؛ وعلم ما وراءها من جمع شمل كان عزيز
الجمع ، وعلم ما يتبعها من عواطف مولانا التي عودها منه أكرم طبع ؛ وتحقّق أن الله
سبحانه قد قلّد الدين منه سيفاً خلقه للوصل وخلق السيوف للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلى هذه الملة بنظر مولانا لها ، وكفّالته لأهلها ،
وسياستهم بشرف السجية وعدّها ؛ وإن كل ما اختلّس الملك الناصر رحمه الله فإن الله
يُثِمُّه على يديه ، ويجبر به تارة بصفحه وتارة بجديده ؛ ويهب له عمراً نوحياً إلى أن
لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ، وإلى أن يورث الإسلام بسيفه منهم أرضاً .
ومالاً ودياراً ؛ وهذه غايِل لا يُخْلِف الله باريّتها ، بل يُرِدُّ إلى جهة الكفر صاعقتها ؛
فما يحسب المملوك أن جانباً يتلوّى على طاعة مولانا ولا يتحرّف ، ولا أن كلمة عليه
بعد اليوم تختلف ، ولا أن ممتنعاً بالأمس يكون معه اليوم إلا أن يرضى عنه مولانا
وطيه يتعطف .

وعلى هذا فالشام القرني متاخذ بجناح إلى الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال
صلى الله عليه وسلم لا تمن لها، والقرص تمر السحاب، والمستعاض بالله من حشرات
الفتور بعد الإمكان (وَلْيُتَصَرَّنَ اللَّهُ مَنْ يَتَصَرَّهُ) وما يشخص لخطاب الله تعالى^(١)
بالجهاد إلا مولانا : النية خالصه، والبصيرة ثاقبه، والعزيمة ماضيه؛ والشجاعة منحة
من الله له موهوبه، والساحة خليفة من خلافة الكريمة موجوده؛ والرجال
تطاع عقيبه، والملك تطيع أمره والشجعان تبذل أنفسهم بين يديه، والعدو يعرف
منه خصما طالما خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كل من قدر عليه أراده،
وعكا أقرب من خلاط وأضع للسلمين فتحا، وأعظم في الكفار قدحا؛ فوالله لئن أغلق
باب الشام في وجه الكفر، لتتقطع آمال أهل البحر والبر؛ وما دام في الشام بقية
من الكفر فهو يقبل الزيادة، وينتظر التجدد ويؤمل الاستعادة؛ وما كرر المملوك
هذا الحديث جهلا بما يجب في خدمة المملوك من الأدب في أن لا يتكلم في القضية
إلا من استشير فيها، ولا يجترأ على الكلام إلا إذا كان مجيبا بما يؤمر بالإجابة
عنه، ولكن المملوك غلب على الضمير، وأقطع عن الخدمة؛ وعلم أنه لو كان حاضرا
لكان مولانا يسلطه ولا يقضيه، ويستشف ما عنده ويستعرضه؛ ويستشعر قلبه
في لسانه إذا هفا، ويعمله على صفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا؛
فقد علم الله أن المملوك يمتنئى للسلمين أن يرد عليهم حقهم، وترجع إليهم بلادهم؛ وأن
تكون هذه الأمانة جارية على يد مولانا ومستفاد من عزيمته، ومكتوبة في صحيفته؛
ومغتنة فيا يمتد الله في حياته؛ فإن الأمور فيا بعد ملموحه، ولكن أبواب قدرة الله
مفتوحة؛ فالله يعمل منها أن يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل، وأن يأخذ للإسلام به
أهبة المقيم والمقيم أهبة الراحل؛ وما يخلط المملوك هذا المهيم بغيره، طالع به، ولمولانا
صلو الرأي .

الأسلوب الثاني

(أن تَفْتَحَ المكتبة بِقَبْلِ الأرض مَصَدَّرًا بالملوك)

وهي من مصطلحات الدولة الأيوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تقدم .

كما كتب القاضي الفاضل عن نفسه إلى السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب »
يهنئه بمولودٍ وُلِدَ له :

الملك يقبل الأرض بالمقام العالى الناصرى نصر الله الإسلام بمقامه ، وأهلك
أعداء الحق بانتقامه ، ولا أعدم الأمة المحمدية عقد أعتزائه بكفالتها ومضاء أعتزاه .

يهنئ الملوك المولى بنعمة الله عنده وعند الإسلام وأهله بمن زاده في ولده ،
وكتّره في عدده ؛ وهو الأمير « أبو سليمان داود » أنشأه الله إنشاء الصالحين ، ومن الله
بكال خلقه ، ووسامة وجهه ، وسلامة أعضائه ، وتهلل غرته ، وآبئام أسرته ؛
ودل على أن هذا البيت الكريم فلك الإسلام لا يطلع فيه إلا البُدور ، كما دل على
عناية الله بأبيه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا ثَائِفُونَ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾
فطريق المولى هذه قد توالّت فيها البشائر ، ونصر الله فيها بالطاف أغنت بلطف
الخواطر عن قوة العساكر ، وأشتملت عليه (؟) في الغائب من أمره والحاضر
﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِي ويحصُرُها الحاصر ،
أيحيط ما ينقى بما لا يتقد ؟ .

فالحمد لله الذى جعل كتب المولى إلى أوليائه وكتبهم إليه منبئة عن المسائر ،
ناطقة بأطيب الأخبار ، منكشفة أسرارها عما يروح الأسرار ؛ وهذا الولد المبارك
هو المولى لأخى عشر ولدا ، بل اخفى عشر نجا متوقدا ؛ فقد زاد الله في أنجه عن أنجم

يوسف عليه السلام نبأ ، وراهم المولى يقظة ورأى ذلك الأئمة حلمًا ؛ وراهم
ساجدين له ورأينا الخلق له مجودا ، وهو سبحانه قادر أن يزيد جود المولى إلى أن
يراهم آباء وجدودا .

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم ،
والمختار منه أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بقلب المكتوب إليه)

مثل : المقام أو الجناح ، ويُنعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتى بالسلام
ثم بالبعدية ، ويؤتى بخطبة ، ويختلص إلى المقصد ، ويؤتى عليه إلى آخره ، ويختم
بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابن البناء عن ابن خلاص إلى أمير المسلمين الوائقي بالله أبي بكر بن هود ،
في جواب كتاب ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلى ، الوائقي المعتصمي ، المبارك السامي السني ؛ معدن الفضل ومقره ،
ومستحب ذيل الفخر ومجزه ، ومناط حمل أمانة المسلمين التي لا يحلها إلا أبلغ الشرف
أغره ، ولا يتقلد قلاذتها إلا تقي المنشأ بره ؛ مقام مولانا جمال الملك وبهائه ؛
والباعت في معطفه أزيحية النجاة وأزدهائه ؛ الأمير الأجل المعظم ، المكبر الهام
المكرم ؛ المبارك الميمون السعيد ، الموفق الرشيد ؛ المظفر المؤيد ، المرفع المجيد ؛ ولي
العهد ، وواسطة عقد المجد ، والمليّس سراييل اليمن والسعد ، الوائقي بالله ، المعتصم به ،

أبي بكر ابن مولانا مجد الإسلام، وجمال الأنام، ومجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين . أبقاء الله وارداً من مَشارِع التأييد أعدبها، منخولاً من صنْع الله الجميل ما يستدأ بعد الأئمة وأقربها؛ ممتداً مَد السعادة ماجلت غرة الفجر حنْدس الظلماء وغيَّيها . عبدُ بابِه الأشرَف، ومملوكُ إحسانه الأتمَّح الأذرف، مسترقه الآوى إلى ظلِ سلطانِه الأمدِّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيبُ الكريم وتحياته، يعتمد الواقفيّ المعنصميّ ورحمة الله وبركاته .
أما بعد حمد الله الذي له الأمر من قبل ومن بعد ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الذي تربّت على آجنتابه الشقاوة ووجب باتباعه السعد ؛ وعلى آله وصحبه الذين ناضلوا عن ديانته حتى وضع السنن وبان القصد - والرضا عن خليفته وآبن عمه الإمام العباسي أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور المستنصر بالله، وارث شرفه النبوي، ومجده الهاشمي ؛ بخصائصه التي لا تُعفى أنوارها الأبكار ، ولا يطمس آثارها الحجر .
وعن مولانا مجد الإسلام ، جمال الأنام؛ مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين ؛ ذى العزّامات التي لا تُفنى غناها الذُّبُل التي منيبتها انحطّ، ولا القُصْب التي منشوها الهند . والدعاء لمقام الثقة والإعتصام، ومقرّ الإحسان والإِنعام، بالنصر الذي يؤازره الظفر، ويظايره العضد .

فكتبه عبدُ المقام الواقفيّ المعنصميّ - كتب الله له تأييداً يحفظ على الدين نظامه، وتخلّيدا يرث لبالى الدهر وأيامه - من إشييلية حرسها الله تعالى، وللبركات المتوكلّيات والواققيات بها أنبئال كما نتاج القطر، وسطوع كما آبتسم في مطالعه الفجر، وتعهد

(١) لعل الصواب " البكر " .

(٢) جمع الذابل ككتب وركب أنظر القاموس .

لا تزال تَقْرُبُه العينُ وينشرح له الصدر؛ والخدمة اللازمة للثابة العلية الواثقة المعتمضة
 - أعلى الله مكانها، وشيدَ بعضُده أركانها - فرحٌ لا يسع تأخيرُه، وحقٌ لا يلقى به
 تفريطُ المتقلد له ولا تقصيرُه ؛ ولأزم من اللوازم التي لا يُشغل بسواها سرُ المملوك
 ولا ضميرُه ؛ والله يُجِد من ذلكم على ما يتسوعُ به صفو المنِّ ونميره . وإن الخطاب
 الكريم الوائق شرف الله منازعه ، وتور بانوار السعادة مطالعه ؛ ورد على العبد
 مُشيدا بذكره ، مُعليا من قدره ؛ مُسميا لرتبة نغره ، متضمنا من واسع الإنعام
 وعمره ؛ مالمو وزع على العالم لسميلهم بأُسره ؛ وأغرقهم بفيض يسير من بحره ؛
 فتناوله المملوك يمين إجلاله وإعظامه ، ووفى الواجب من كتمه وأستلامه ، وألقى به
 ريا ناعما لقليل الشوق المبرج إلى آجلاء غرته الكريمة وأوامه ؛ وجعل يتبع سطوره ،
 ويستقرى فقره وشُدوره ؛ فلا يقف من ذلكم كله إلا على ما يملأ حوياه جدلا ،
 ويحوّله الابتهاج غنا ونفلا ؛ ويؤثّه أسنى مراتب التشريف فُتنا وقللا ؛ وهو على
 ما حكته به الأفضية من شحطه عن المثابة الواثقة شرفها الله وشُسوعه ، وإيواء
 مغاني أنسه لذللكم ورُجوعه ؛ لا يجد أنسا إلا ما يتوالى قبلة من متعهد أهتاما ،
 وتُهديه إليه ألسنة أعلامها ؛ فكلما وفد عليه من صحائفها المكترمة وافد ، وورد
 من حضرتها المعظمة وارد ؛ فقد جدد الزمانُ عنده يدَا غرا ، وأطلع عليه بدرا ؛
 وأفاده من الابتهاج ما يعمر الخلد ، وينشر نسيم الاستبشار إذا سَكَن وركد ؛
 وما ينفك على نأي المكان ، وبعْد الأوطان ، يحافظ على رسمه من خديمها ، ويؤدّي
 وظائف الشكر بحسب منيحها وعميم نعيمها ؛ ويعمل على نفسه المملَكة رقيقا
 من أن يُخل في سرٍّ أو جهر بعهد من عهودها أو ذمة من ذِمَّها ؛ ومهما تجدد صنع
 يتعين إهدائه ، ويجب قضاء الحق بالدلالة عليه وأداؤه ؛ لم يصحبه في المطالعة به
 توان ، ولم يعبر في جلّائه أو أنا إلى آوان . وقد كان قدم مطالعته قبل إلى الباب الوائق

شرفه الله باسطقاً لتفاصيل الأحوال ، وشارحاً لها على الاستيفاء والكَمال ، ولم يتجدد بعد ذلك إلا تمكُّن الرجاء في فتح لبلة يسر الله مرآها عن دُتو يحول الله وقرب ، وأنطق لسان الحال بتيسير كل عصى من محاولاتنا وصعب . ولو أن مكانا عضه الدهر من أنياب حوادثه الجُون بما به عَضاً ، وقض الحصار أفعالها التي قضها منه ماقضها ؛ لكان قد ذهب شمسيسه ، وخفي عن أن يُسمع حسيسه ؛ لكن أبى الشقاء الغالب على أهلها إلا أن يمد عليهم أمد العذاب ، ويُزني لهم طول المهلة المشفية بهم كل يوم على مهاوى الخسار والنياب ، حتى يبلغ الكاتب فيهم أجله ، ويصل إلى الحد الذي شاء الله أن يصله ؛ فيأخذهم أخذ من عَمي عن إدراك الحق بصره وبصيرته ، وخبث في معاندته سره وسريته ؛ ويرجى أن الوقت في ذلكم داي بإمكان ، والله تعالى يُديم للقام الوثائق ماعوده من توالى السُعود وأطرادها ؛ وإصحاب الآمال وأتقيادها ؛ وسلام الله الطيب يراوحها ويُغادها ، وتحياته ، ورحماته الموصولة وبركاته .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بالحضرة)

وتوصف ويدعى لها ، ثم يقع التخلُّص إلى المقصد ، ويُتمَّت بالدعاء والسلام .
كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود القائم بالدعوة العباسية بالأندلس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح من الأنْدلس وقتل الناز بها ، وهو :

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من الخ " كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد في المراد) وفي معجم " ياقوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأنْدلس .

الحضرة العلية أبى الله ظلّ ملكها على العباد، وعرفها من تأييده وإنجاءه أفضل المعتاد؛ وجعل لها من الملأ إليه والتوكلي عليه أكثر المجموع وأكثف الأعداد، ولا زالت أحاديث نصرها سالمة المتون صحيحة الإسناد، ومخائف فتوحها تجمع صلاح العباد، وتطلع صباح البشائر من ليل المراد؛ عبدها ومملوكها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريق التي يجب سلوكها، فلان .

وبعد : فكتب العبد - كتب الله للقام العلى - المجاهدى المتوكلى - سعدا يرد الصعاب ذللاً، ويسد من المكاه سبلاً؛ وأمدّه بملائكة رسله جاعل الملائكة رُسلاً - من فلانة وبركاته مرويّة للظاء، وحركاته مسكنة للدهماء، وآثاره فى يومئ سلمه وحر به آثار الأشداء على الكفار والرحماء؛ والأرض بوضوح حياءه، وفتوح أسنّه وظبائه، تهتر أعطافا، وتعتز مواسط وأطرافا، وتبرز فى أنوابها القشيب فيزداد حسنها أضعافاً؛ والآيام بالبشائر التى فضت ختامها عفو على قدر، وقضت مسامها صفواً بلا كدر؛ لها أنف الشاخي تيه، ووجه الضاحك المتهلل إشادة بحالها وتنويه، ودلالة على رُحْب مجالها وتنويه . والحمد لله حمد من عرف قدر نعمائه فوق حق أسمائه تقديساً وتنزيهاً . وإن الخطاب العلى الكريم ورد راصفاً أجلّ الدرر، واصفاً أجمل الفتوح الغرر؛ رافلاً فى حلل الأيد والقهر، رافعاً منسأة الحوادث بإحدى حسنات الدهر، فياله من كتاب! أودع بدائع الكلم، وجوامع البيان الملتئم المنتظم، لو أستمده سناء أول الفلقين لم يك كاذبا، ولو أعير بحياه ثاني الشفقين كان عن ضوء النهار نائب؛ ذكر بآيام الله المشهودة بالملائكة والروح، ومد باع الكلام فى فتح الفتوح، وأطال ديوّل القول مفتاحاً منه للصعب الجموح؛ فكان الغزير الصيب، والكثير الطيب؛ والمتبع إن مضى بقلوب وأسماع، والمضاعف حسنة إن كرر إلى غير انقطاع . كيف لا؟ وقد بشر خبره بالمراد فى العراد، وأوقع اليقين بما خرق

العادات من الإسعاف والإسعاد، وكان من آحاد الأخبار لا من أخبار الآحاد؛ وما أقصه ما جرى من أوائل الحركة السعيدة، وأعرض من المتأعب الشديدة؛ وأن الشتاء كان في ابتدائه، والنعيم ساحباً لردائه، ساكبٌ فضل أُنْدائه. والمكاره في طيها النعم الحسام، والنفوس الكار تُتعب في مُرادها الأجسام؛ ولذلك هانت على المقام العلى - أيده الله - تلك المشاق، وربحى من عمله ونظره ما يجنى من ثمرة العاق؛ فسار إليه بالتحفل الأخفل، والعزيمة الزعيمة بفضّ المُقفل، ورَضّ الأعلَى والأسفل؛ وقد اعتزَّ بأجل المدائن شانا، وأوتقها بُنيانا، وأبعدها صيتاً ومكاناً؛ وهى التى أعيت رياضتها كل رافض، وتخيَّرتُ بكل قاعد بقنُونها رابض، وُجِيع إليها من طرد الآفاق، وأعداد الاجتماع والاتفاق؛ أتباع كل ناعق، وأشياء كل مارٍ مارق؛ فاستحلوا الدماء، وركبوا مَصَلَّة غمياء، وأدرك كل منهم مما شاء للإسلام ما شاء؛ وعدوا الله يفتل لهم فى الذروة والغارب، وبضربُ لهم سُكَّانَ البلد ضرب الغرائب؛ حتى أباد خضرأعهم، وجعلهم شرَّ خلف فيمن وراءهم؛ غير مُبال بما أحقَّب من الجرائر، وأقترَف من إباحة الحرائر؛ فاجترأ مئة بالجلء، وأزداد إثمًا بالإملاء؛ وحينئذ سَمَت إليه عساكر الإسلام، وناولته بالموت الزؤام، ورأى عياناً ما كان يظنُّ إليه قلبه لوراه فى المَنام، وتداولته المطاولة المستدرجه، والعاجلة المزججه؛ وفى كلِّ ذاق عذاب الهون، فأحس بقاصمة المتون وقاضية المنون؛ وأتقسمت شدته إلى المهلكين: خويف وإعدام، وأستكاثت تسعة أشهر وكان الفتح عندها تمام؛ وإنه للولد الذى هُتِّى به الإسلام، وصنَّت بمثله الأيام، وأستبشر بوجوده

(١) الفة بالضم الجبل الصغير أو الجبل المبل المنبسط على الأرض جمه فنن وقتان وقتون أنظر

الأنام ؛ فإعلى مقامه ! وأبهج يومه وأسعد عامه ! ؛ ولا غرور أن تكون غرته
أبهى الغرر، ومفتحه مباركا كالْبُشر؛ وقد أسفر عن أيمن وجه التُّجج، وخرج
من عموم الأيام مخصّص هذا الفتح؛ وأنتقم الله فيه من الشق الظالم، العظيم الجراءة
على ارتكاب المظالم؛ فطاح بموق أعماله، وعجل الله به إلى ما أعدّ لأمثاله؛ وكان
دمه شرّ دم أريق، وأديبه أخبث أديم لاقى التزيق .

والحمد لله الذى نصر الراية العباسية وأعلاها، وأظهر آية عنايته وجلّلاها، وأسبغ
نعمه الجسيمة والوالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيم [كان] أئدى من قطر الندى
على الأكباد ، وسرى في البلاد سريان الأرواح في الأجساد ؛ وكلفت به الأسماع
والأسمار، وسمت به وإليه الأمصار والأبصار ؛ وأستقر من ارتجاع البلد، وارتجاع
النفس الذاهبة إلى جرى الأبد ؛ حُكّان مدركهما الفعل والإقرار، وعلان تمّ بهما
المراد والاختيار؛ فرُفعت الأدعية إلى سامعها، وغصّت الأندية بحاضري مجامعها ؛
وزاع بالبشرى فيأحسن ذائعها وشائعها؛ وأذعنت الآمال لإدناؤه نازحها وشاسعها؛
وأخذ العبد من المسرة بحظّ أخلص العبيد مشهدا ومغيبا، وأجمعهم لمعالى الحد
تطنيا، ولعاني الثناء والحمد تطيبا؛ وجدّد من شكر الواهب لجزيل هذه الهبة ،
والفاتح لأعظم المعازل الآشبه (٩) ما يستغرق الممدد، ولا يبلغ الأمد؛ وأتى [المثل] أن
يصف البشرى الواصله، أو ينصف المقالة المتطاولة ؛ ولو حلب أشطر الإحسان،
وجلب أبحر البيان، وكيف والفكر قد قعد حصرا، والمدى لا يؤاخذ التقدير قسرا،
والقول لا يبيح مطولا ولا مختصرا؟ فحسبه دعاء هو له رافع، ولأوقات الخلوّات به
قاطع، وإلى الله سبحانه في قبوله ضارِع؛ والله يجب في المقام العلى المتوكلى أفضل.
دعاء الخلق، ويضاعف له مع السابقين ثواب السبق، ويؤمّز به خير الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق ؛ وهو تعالى ينصره يومَ الباس ؛ ويعصمه من الناس ،
ويبقى رفدهً للاكتساب ونوره للاقتباس ، ويعرفه في كل ما يستنبطه من أصل
التوكل صحة القياس ، بمنه والسلام .

الاسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بآما بعد ، ويتخلص إلى المقصد ويختم بما يناسب المقام)
كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود المقتدم ذكره ، عن نفسه ،
يهئته بوصول هدية الخليفة العباسي إليه من بغداد :

أما بعد ، فكتب العبد - كتب الله للقيام العلي الناصري المتوكل مجدداً يحل
الكواكب ، وجدنا يقل الكتاب . من شاطبة ، وبركات دعوته السعيدة قد
طبقت البسيطة ، وكأثرت البحار المحيطة ؛ وأنجزت للإسلام أفضل مواعده ،
وجددت عهداً لأهل بيت النبوة الرافعة لقواعده ؛ وفسحت له مجال البشرى ،
وأطلعت عليه أنوار العناية الكبرى ؛ فعاد إلى الوطن ، ووجد حال الشهد طعم
الوسن ؛ وأورق عوده ، وأنسقت سعوته ؛ وعاد إلى صحته بالنظر الإمامي الذي
جاء يعوده . وحين صئور رسول دار السلام ، ومتأية أهل الإسلام ؛ ومقعد
الجلالة ، ومضعد إقرار الرسالة ؛ ومعه الكتاب الذي هو غريب ، أنس به الدين
الغريب ، وبعيد الدار نزل به النصر القريب ؛ وآية بأدلتها الصادقة لتبطل الشبهة
الآفكة ، وسكنة من ربنا وبقية مما ترك آل نبيتنا تحمله الملائكة - أطمأنت القلوب ،
وحصل المطلوب ؛ ودزت أخلاف الإيناس ، وأرتفع الخلاف بين الناس ؛ وعلّموا
أن السالك قد أضاعت له المحجة ، والحق لا يعدو من يسده الحجة ؛ وأن من أمرته

الخلفاء العباسية قطعاً تجب قطعاً، ومخالفته تحرم شرعاً؛ ولم يبق إلا أن يبين للعيان شخصه، ويرد على الأذان نفسه؛ فيكون يومه غرة الليالي المعسكرات، وعلم الأيام المنكرات؛ واليوم الذي به تؤرخ الأيام المستقبل، وترفع فيه الأعمال المتقبل. وبإقبال الركاب السعيد إلى هذه يتزل به من سماء العلياء محكم وحكمه، ويصل به إلى الأنام فضل من الله ونعمه؛ ويقتضى دين على الأيام، لا يسبق معه عسره، ويوجد جبر للإسلام، لا يكون بعده كسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حسره.

الأسلوب الرابع

(أن تفتح المكتبة بالخطاب بلفظ «سیدی» أو «مولای»

مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبد الله بن الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب الأندلس عن نفسه إلى السلطان أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن المريخي صاحب فاس، عند ورود كتابه إلى الأندلس بفتح تلمسان، معترضا بأن صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبي الحسن بالأندلس، ما صورته :

مولای! فاتح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قُدوة أولى الأئدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب المولى في الآصال والأشجار. أبقاكم الله! لا تحف إياتكم عنده، ولا تحصى فتوحات الله عليكم بعد؛ ولا يفيق أعداؤكم من كد، ميسرا على مقامكم الكريم ماعسرا على كل أب كريم وجده.

عَبْدُكَ الَّذِي خَلَصَ لِرَبِّزُ عِبَادَتِهِ لِمَلِكٍ مَلِكِكُمْ الْمَنْصُورِ، الْمُعْتَرِفُ لِأَدْنَى رَحْمَةٍ
مِنْ رَحْمَاتِكَ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِهَا وَالْقُصُورِ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْصُرَ عَلَيْكَ
سَعَادَةُ الْقُصُورِ، وَيُذَلِّلَ بَعْزَ طَاعَتِكَ أَنْفَ الْأَمَدِ الْمُهْصُورِ، وَيُثَبِّتَ الْمَلِكَ فِي عَقَبِكَ
إِلَى يَوْمٍ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . فَلَان .

من الصريح المقدس : وهو الذي تعددت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره وتلاؤلاً
شروقهُ ، وبلغ مجده السماءَ لما بسقت فروعه ورستت عُروقه ، وعظم بنبوتكم فخرهُ
فأ فوق البسيطة فخر يقفوه ؛ حيثُ الجلالُ قد رست هضابهُ ، والمُلكُ قد سُرِت
بأستار الكعبة الشريفة قبابهُ ، والبيتُ العتيقُ قد ألحفت الملاحد الإمامية أثوابهُ ،
والقرآن العزيزُ ترتل أحزابه ، والعملُ الصالحُ يرتفع إلى الله ثوابهُ ، والمستجيرُ يخفى بأطنهُ
سؤالهُ فيجهر بنمرة العز جوابهُ ؛ وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديثهُ ، ونحيلة
أينقهُ ، وحطَّ بجودي الحق نفساً في طوفان الضَّرَّ غريقهُ ، وألحفت برق الهيبة الذي
لا تهتدي للنفس فيها إلا بإهداية الله طريقهُ ، وأعتز بعز الله وقد توسَّط جيش الحرمة
المريئية حقيقهُ ، إذ جعل المولى المقدس المرحوم أبا الحسن مقدّمه وأباه وجده
سقاء المولى الكريم بهذا المجد سيب رُحماه ، وطنب عليه من الرضا فسطاطاً ، وأعلى
به يد العناية المريئية أهتاماً وأغتاباً ؛ وحرّله أحكام الحرمة نصاً جلياً وأستنباطاً ،
وضين له حُسن المقفي التراما وأشترطاً ؛ وقد عقد البصر بطريق رحمتكم المنتظرة
المرتبة ، ومدد اليَدَ إلى اللطائف بشفاعتكم التي تتكفل بعنق المال كما تكفلت بعنق
الرُّقبة ، وشرع في المراح بميدان نعمكم بعد اقتحام هذه العقبة ؛ لما شنت الأذان
البشرى التي لم يبق طائرٌ إلا يجمع بها وصدح ، ولا شهابٌ دُجنٌ إلا اقتبس من نورها
وأقتدح ، ولا صدرٌ إلا أنشرح ، ولا غصنٌ عطف إلا مرّح ؛ بشرى الفتح القريب ،

وخبرُ النصرِ الصحيحِ الحسنِ العَرِيبِ ، وَتَبَأُ الصُّنْعِ العَجِيبِ ، وَهِدَايَةُ السَّمِيعِ المَجِيبِ :
فَتُحْ تَلْمَسَانِ الذِّى قَلَدَ المَنَارَ عَقُودَ الإِبْتِهَاجِ ، وَوَهَبَ الإِسْلَامَ مَنِيحَةَ النُّصْرَةِ غِيَّةً
عَنِ المَهِجَاجِ ، وَأَلْخَفَ الخَلْقَ ظِلًّا مُمْدُودًا ، وَفَتَحَ بَابَ الحُجِّ وَكَانَ مَسْدُودًا ، وَأَقَرَّ
عُيُونََ أولِيَاءِ اللهِ الذِّينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ، وَأَضْرَعَ بِسَيْفِ الحَقِّ جِيبَاهَا
أَيَّسَةً وَخُدُودًا ؛ وَمَلَكَكُمْ حَقَّ أَيْبِكُمُ الذِّى أَهَانَ عَلَيْهِ الأَمْوَالُ ، وَخَاضَ مِنْ دُونِهِ
الأَهْوَالُ ، وَأَخْلَصَ فِي الضَّرَاعَةِ وَالسُّؤَالِ ؛ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ يَغْمِزُ عَطْفَ المَسْرُوعِ ، وَلَا جَهْدِ
يُكَدِّرُ صَفْوَ النِّعَمِ الثَّرَى ؛ وَلَا حَصْرِ يَنْقُضُ بِهِ المَتَجَنِّقُ دُؤَابَتَهُ ، وَيُظْهِرُ بَتَكْرُرِ
الرُّكُوعِ إِمَانَتَهُ .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الذِّى أَقَالَ العِتَارَ ، وَنَظَّمَ بَدْعَوِيَّتَكُمْ الإِنْتِشَارَ ؛ وَجَعَلَ مُلْكَكُمْ يَحْدُ
الْآثَارَ وَيَأْخُذُ النَّارَ . وَالعَبْدُ يَبْنِي مَوْلَاهُ ، بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ وَأَوْلَاهُ ؛ وَمَا أَجْدَرَهُ
بِالشُّكْرِ وَأَوْلَاهُ ! فَإِذَا أَجَالَ العَبِيدُ قَدَاحَ السُّرُورِ فَلِلْعَبْدِ المَعْلَى وَالرَّقِيبِ ، وَإِذَا اسْتَهْمُوا
حُظُوظَ الجَدَلِ فِي القِسْمِ الوَافِرَةِ وَالنَّصِيبِ ؛ وَإِذَا أَقْتَسَمُوا فَرِيضَةَ شُكْرِ اللهِ تَعَالَى
فِي الحِظِّ وَالتَّعْصِيبِ ؛ لَتَضَاعَفَ أَسْبَابُ العِبَادِيَّةِ قَبْلِي ، وَتَرَادَفَ النِّعَمُ الَّتِي عَجَزَ
عَنْهَا قَوْلِي وَعَمَلِي ، وَتَقَاصَرَ فِي أَبْغَاءِ مُكَافَاتِهَا وَجَدِي وَإِنْ تَطَاوَلَ أَمَلِي ؛ فَفَقَامَكُمْ
المَقَامُ الذِّى تَقَسَّ الكُرْبَى ، وَأَتَسَّ الغُرْبَى ، وَرَعَى الوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَى ؛ وَأَنْعَشَ
الأَرْمَاقَ ، وَفَكَّ الوَثَاقَ ، [وَأَدَّرَ الأَرْزَاقَ ، وَأَخَذَ عَلَى الدَّهْرِ بِالِاسْتِقَالَةِ بِالعَهْدِ وَالمِثَاقِ] ^(١)
وَإِنْ لَمْ يَبَاشِرِ العَبْدُ اليَدَ العَالِيَةَ بِهَذَا الهِنَاءِ ، وَيَتَمَثَّلُ بَيْنَ يَدَيِ الخِلَافَةِ العَظِيمَةِ السَّنَا
وَالسَّنَاءِ ، وَيُمَدُّ بِسَبَبِ الإِدَارِ إِلَى تِلْكَ السَّمَاءِ ؛ فَقَدْ بَاشَرَهُ اليَدُ الَّتِي يَحْنُ مَوْلَايَ
لَتَذْكُرُ تَقْيِيلَهَا ، وَيُكَلِّلُ فُرُوضَ المَجْدِ بِتَوْفِيَةِ حَقُوقِهَا الأَبْوِيَّةِ وَتَكْمِيلَهَا ؛ وَوَقَفَتْ بَيْنَ
يَدَيِ مَلِكِ المُلُوكِ الذِّى أَجَالَ عَلَيْهَا القَدَاحَ ، وَوَصَلَ فِي طَلَبِ وَصَالِهَا المَسَاءَ بِالصَّبَاحِ .

وكان فضله إياها أبا عُدرة الافتتاح ؛ وقلتُ يهنيك يامولاي رُدُّ ضائِكَ المَشْهُودِ ،
وخبرُ لَقَطَتِكَ المعروفة المشهورة ؛ [ودائلك المودودة] ^(١) فقد آسَحَقَهَا وارْتُك الأَرْضِ ،
وسيقُك الأَمْضَى ؛ وقاضى دَيْنِكَ ، وقَرَّة عَيْنِكَ ؛ مستَقْدُ دارِكَ من يَدِ غاصبها ،
ورادُّ رَتَبَتِكَ إلى مَنَاصِبها ؛ وعامِرُ المَثْوَى الكريم ، وسِرُّ الأهل والحريم .

مولاي ! هذه تلمسانُ قد أطاعت ، وأخبارُ الفتح على وَلَدِكَ الحبيب إليك
قد شاعت ، والأُممُ إلى هَناءه قد تَدَاعَتْ ؛ وعدوك وعدوه قد شَرَدَتْه الخُفافه ،
وأَنْصافُ إلى عَرَب الصحراءِ خَفَضَتْه الإِضافه ؛ وعن قريب نَحْكُمُ فيه يَدُ أَحكامه ،
وَمُسْلِمُهُ السَّلامَةُ إلى حِمَامِهِ ؛ فَلتَطِبْ يامولاي نَفْسُكَ ، وليستَهْشِرْ رَمْسُكَ ، فقد تَمَّتْ
برحمتِكَ وزَكَا غَرَسُكَ . نسالُ الله أن يورِدَ على ضَرْبِكَ من أنباءِ نَصْرِهِ ما تُفْتَحُ له
أبوابُ السماءِ قُبُولاً ، ويُرايِفُ إليك مَدداً مَوْصُولاً ، وَعَدداً آخِرُهُ خَيْرُكَ من الأولى ،
ويعْتَرِيهِ بركةُ رِضاكَ طَعْناً وحُلُولاً ، ويُضْفِي عليه منه سِتْراً مسدولاً .

ولم يَقَعِ العبدُ بِخُذْمَةِ النَّشْرِ ، حتَّى أَجهدَ القَريحَةَ التي رَكَضَها الدهرُ وأنْصَحَها ،
وَأَسْتَشْفَها الحادِثَ الجَلَلِ وتقاضَها ؛ فَلَفَّقَ من خِدمة المنظوم ما يَتَغَمَّدُ حُلُمُكَ
تَقْصِيرِهِ ، ويكونُ إغْضَاؤُكُمْ إذا لَقِيَ مَعَزَةُ العُتْبِ وَلِيَّهِ وَنَصِيرِهِ ؛ وإحالة يامولاي على
الله في نفسِ جَبَرِها ، ووسيلةِ عَرفِها مَجْدُهُ فَا أَنْكَرَها ، وحرمةِ بَصَرِجِ مولاي والده
شَكَرَها ؛ ويَطْلُعُ العبدُ منه على كِمالِ أَمَلِهِ ، ويُجِجُ عَمَلِهِ ؛ وتسوِجُ مَقَرَّحِهِ ، ونُجْمِ
مَطْمَحِهِ ، إن شاء الله تعالى :

[يا أَبَنَ الخَلائِفِ ياسَيِّدِي مُحَمَّدٍ * يامَرْبِ عَلاهِ لَيْسَ بِمَحْضَرٍ حَاصِرٍ !
أَبَشِرْ فانتَ مَجْدُّ المُلْكِ الذي * لَوْلَاكَ أَصْبَحَ وَهُوَ رَسْمٌ دائِرُ !

مَنْ ذَا يُعَايِدُ مِنْكَ وَارِثَهُ الَّذِي * بَسْعُوهُ فَلَكَ الْمَشِيئَةُ دَائِرًا!
 أَلَقْتَ إِلَيْكَ يَدَ الْخِلَافَةِ أَمْرَهَا * إِذْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا الْوَلِيُّ النَّاصِرُ!
 هَذَا وَبَيْتَكَ لِلصَّرِيحِ وَيَنْهَا * حَرْبٌ مُضَرَّسَةٌ وَبَحْرٌ زَانِحُ!
 مَنْ كَانَ هَذَا الصُّنْعُ أَوَّلَ أَمْرِهِ * حَسُنَتْ لَهُ الْعُقُوبُ وَعَزَّ الْآخِرُ!
 مَوْلَايَ عِنْدِي فِي عِلَاقِكَ مَحَبَّةٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ضُمَامُ!
 قَلْبِي بِحَدَّثِي بِأَنْسِكَ جَارٍ * كَثِيرِي وَحَقِّي مِنْكَ حَظٌّ وَافِرُ!
 بَرِيٌّ وَجُودِكَ قَدْ حَطَطْتُ قَرِيحَتِي * وَوَسِيلِي لِعِلَاقِكَ نُورٌ بَاهِرُ!
 وَبَذَلْتُ سَعْيِي وَاجْتِهَادِي مِثْلَ مَا * يُلْقَى لِمُلْكِكَ سَيْفُ أَمْرِكَ عَامِرُ!
 وَهُوَ الْمَوَالِي الَّذِي أَقْتَحَمَ الرَّدَى * وَقَضَى الْعَزِيمَةَ وَهُوَ سَيْفٌ بَازِرُ!
 وَوَلِيَّ جَدِّكَ فِي الشَّدَائِدِ عِنْدَ مَا * خَذَلَتْ عُلَاهُ قِبَائِلٌ وَعَشَائِرُ!
 فَاسْتَهْدَ مِنْهُ التَّجَجُّعَ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ * فِي كُلِّ مُغْضِلَةٍ طَيْبٌ مَاهِرُ
 إِنْ كُنْتُ قَدْ عَجَلْتُ بَعْضَ مَدَائِحِي * فَهِيَ الرِّيَاضُ وَالرِّيَاضُ بَوَاكِرُ^(١)

الطرف الرابع عشر

(فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن المملوك واليهام)

والرسم فيه أنه إن كان الجواب صادراً عن ملك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع،
 وخطابُ المكتوب إليه بالكاف . وإن كان عن بعض أتباع الملك إليه ، فالتعبير
 عن المكتوب عنه بالخادم ، أو العبد ، أو المملوك ونحو ذلك ، ومخاطبةُ الملك بما
 تليقُ به مخاطبة المملوك . ثم الجوابُ تارةً يكون الابتداء [فيه] بنفس ورود

(١) لم يذكر في الأصل ما أشار إليه من النظم وقد عثرنا عليه في "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء

المكاتبة ، وقد تقدّم في مثل ذلك في الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبة
يبدأ فيها بلفظ عَرَض . أما الأجوبة المتعلقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض :
وصل ، أو ورد ، أو نحو ذلك .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق ، وفيه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكاتبة بلفظ : « كُتِبْنَا » و « وصل كتابك »)

ويذكر تاريخ الكتاب ، ويشار إلى ما فيه ، ثم يؤتى بالحواب إلى آخره ، ويختم
بإستراحة الرأي في ذلك الأمر ، كما كتب أبو إسحاق الصبّاحي عن صمصام الدولة
إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد ، وهو مقيم بنصيبين على محاربة
بادي الكردي .

كُتِبْنَا ، ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا ، تذكر فيه ما جرى عليه أمرك في الخدمة
التي نيطت بكفائتك وغنائك ، ووكلت إلى تدبيرك ورأيك : من رد بادي الكردي
عن الأعمال التي تطرقها ، وحدث نفسه بالتغلب عليها ، وتصرفك في ذلك
على موجبات الأوقات ، والتردد بين أختنا وعدتنا أبي حرب زياد بن شهرا كويه
وبينك من المكاتبات ، وحسن بلائك في تخفيفه ، ومقاماتك في حصّ جناحه ، وأثارك

فى الاقتضاى على فريق بحد فريق من اصحابه ؛ واضطرارك لآه بذلك وبضروب
الرياضات التى استعملتها ، والسياسات التى سست أمره بها ، إلى أن نزل عن وعوده
المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن بجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع
عن السوم إلى الاقتصاد وعن السرف إلى الاعتصام ، وعن الإباء إلى الإقياد ،
وعن الإعتياى إلى الإذعان . وأن الأمر استقر على أن قىلت منه الإنايه ، وبذلت
له فيما طلب الاستجابة ؛ واستعيد إلى الطاعة ، واستضيف إلى الجماعه ، وتصرف
على أحكام الخدمه ، وجرى بجرى من تضمه الجمله ؛ وأخذت عليه بذلك العهود
المستحكمة والأيمان المغلظه ؛ وجئدت له الولاية على الأعمال التى دخلت فى تقليده ،
وضرت عليها حدوده ، وفهمناه .

وقد كانت كتب أخينا وعنتنا أبى حرب [زياد بن شهر كويه] مولى أمير المؤمنين^(١)
ترد علينا ، وتصل إلينا ؛ مشتملة على كئيبك إليه ، ومطالعائك إياه ؛ فنعرف من ذلك
حسن أثرك وحزم رأيك ؛ وسداد قولك ، وصواب اعتنايك ؛ ووقوع مضاربك
فى مقاصلها ، وإصابة مراميك أغراضها ؛ وما علوت فى مذاهبك كلها ، ومتقلباتك
بأسرها ؛ المطابقة لإيثارنا ، والموافقة لما أمرت به عا ؛ ولا خلت كتب أخينا
وعنتنا أبى حرب من شكر لسعيك ، وإحماد لأثرك ؛ وشاء جميل عليك ، وتلويح
وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالة اللازمة لك ؛ والوفاء الذى لا يستغرب
من مثلك ، ولا يستكثر من حل فى المعرفة بملك ؛ ولئن كنت قصدت فى كل نهج
استمرت عليه ، ومعدل دلت إليه ؛ مكافئة هذا الرجل ومرامته ، ومصابرته
ومنازلته ؛ والتامس الظهور عليه فى جميع ما تراجعتاه من قول ، وتنازعتاه من حد ؛

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخلية .

فقد أجمع لك إلى إحادنا إياك ، وأرضائنا ما كان منك ، المنة عليه إذ سكتت جاشه ، وأزلت آسديحاشه ؛ وأستلته من دَنَس [لباس^(١)] المخالفة ، وكسوته من حُسن شعار الطاعة ؛ وأطلت يده بالولاية ، وبسطت لسانه بالحمج ؛ وأوفيت به على مراتب نُظرائه ، ومنازل قُرْبائه ؛ حتى هابوه هيئة الولاء ، وأرتفع بينهم عن مطارج العُصاة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعدتنا أبي حرب مشكورا ، وعلى هذا الرجل مأنا وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مُثابا مأجورا ؛ وإياه نسأل أن يُجري علينا عادته الجارية في إظهار رايائنا ، ونُصرة أوليائنا ؛ والحكم لنا على أعدائنا ، وإزاهم على إرادتنا ؛ طوعا أو كرها ، وسلبا أو حربا ؛ فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعنقه رِبقة أسر ، أو مئة عفو ؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدِير . ويجب أن تُنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتوبة على بادِ الكردي إن كنت لم تُنفذها إلى أوامِر وصول هذا الكتاب : لتكون في خزانتنا محفوظة ، وفي دواويننا منسوخة ؛ وأن تُصرف في أمر رسله وفي بقية [إن كانت بقيت من أمره^(١)] على ما يرئمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب ، فرأيك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعته بأخبارك وأحوالك ؛ وما يحتاج إلى عمله من جهتك موقعا ، إن شاء الله تعالى .

الاسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر في ترتيبه على نحو ما تقدم في الأسلوب الذي قبله .

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن صمصام الدولة أيضا إلى أبي العلاء عبيد الله ابن الفضل في جواب كتابه الوارد عليه بالظفر بأهل الاقتباس ما صورته :

(١) الزيادة من " مختارات الصابي " .

وَضَلَّ كِتَابَكَ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - الْمُؤْتَرِّحُ بِوَقْتِ الظَّهْرِ مِنْ أَمْسِنَا وَهُوَ يَوْمُ كَذَا ،
تَذَكَّرْ مَا سَبَّلَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَأَجْرَاهُ عَلَى يَدِكَ ؛ وَبِئْسَ تَدْيِيرُكَ ، وَبِرَكَّةٍ خَدَمْتِكَ : مِنْ الْإِيقَاعِ
بِالْعَصَاةِ أَهْلَ الْاِقْتِبَاسِ ، وَإِذَا قِيَّتِهِمْ وَبَالَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ : مِنْ خَلْعِ الطَّاعَةِ ، وَشَنْ
الْغَاةِ وَأَسْتِبَاحَةِ الْحَارَمِ ، وَأَرْتَكِبُ الْعِظَامَ ؛ وَإِثْنَانِكَ فِيهِمْ قَتْلًا وَأَسْرًا ، وَتَشْرِيدًا
وَتَشْتِيًا ؛ وَفَهَمْنَاهُ وَحَدَّثَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَشَكْرْنَا مَا أَوْلَى فِيهِ ، وَحَسَّنَ مِنْهُ مَوْعِثُكَ ،
وَتَضَاعَفَ فِيهِ جَمِيلُ مَعْتَقَدِنَا فِيكَ وَلَكَ ؛ وَأَرْضَيْنَا فَعَلَ الْأَوْلِيَاءُ فِي الْخُفُوفِ إِلَيْهِ ،
وَالْمُنَاصِحَةِ فِيهِ ؛ وَسَبِيلُكَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَتُخَرِّجَهَا ، وَتَسْتَدْرِكَهَا
وَتُحْصِلَهَا ، وَتَكْتُبَ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا ؛ وَتُقَدِّمَ بِقَصِّ أَثَرِ الْهَارِينَ حَتَّى تُبَاحِثَهُمْ بِالْهَالِكِينَ ،
وَتُشِيعَ الرِّهْبَةَ فِي سَائِرِ شِقَى الْفُرَاتِ ، وَتُنَوِّحِي طَوَائِفَ الْأَشْرَارِ وَالْخُرَّابِ ، وَتُخَيِّنِي
السَّبِيلَ وَالسَّاعِينَ فِي الْفَسَادِ بِالتَّبَعِ لَهُمْ وَوَضَعَ الْيَدَ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ بِحَسَبِ النِّكَايَةِ فِي أَهْلِ
الْجَهْلِ وَالِدَّاعَةِ سُكُونَ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالْاِسْتِقَامَةِ ؛ فَرَأَيْكَ فِي الْعَمَلِ بِذَلِكَ وَالْمُطَالَعَةِ
بِمَا يَوْفِّقُكَ اللَّهُ لَهُ مَسْتَانًا مِنْ مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ الرَّشِيدِ ، وَالْمَقَامِ الْحَمِيدِ ؛ وَبِسَائِرِ
الْأُمُورِ الَّتِي تَرَى عَيْنَهَا وَتَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ بَحَارِيهَا ، مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّلَامُ .

الجملة الثانية

(فِي الْأَجُوبَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ مَلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ وَزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ)

الْقَائِمِينَ مَقَامَ الْمُلُوكِ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

وَالَّذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ مِنْهُ أَسْلُوبٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْاِقْتِسَاحُ بِلَفْظِ : « وَصَلَ » .

كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مُكْتَابِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ عَنْ بَعْضِ وَزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ إِلَى أَمِينِ الدَّوْلَةِ

زَنْكِي كَشَشْكِينَ مَاصُورَتَهُ :

وصل كتابك أيها الأمير الأجل الدال على مصالحته ، المُعرب عن مناصحته ؛ الشاهد له بمؤنل الخطوة والأثره ، والموضح من أفعاله وخلاله ما لم تزل قضيته مرئسمة في النفوس مَصُورَه ؛ وعرضنا ما اقترن به من مطالعة المقام المقدس النبوي الحافظي - ضاعف الله أنواره ، وشاد مناره ، وأعز أشياعه وأنصاره - وشفعناه من الثناء على الأمير الاسفَهسلار بما لم تزل عادتنا جارية به مع من نعلم طاعته ، وتحقيق مشايعته ؛ وزرى باطنه يضاهي ظاهره ، وسره يوافق علانيته ؛ ووقفنا على ما أنهاه من حال الفرَج المشركين الملعونين ، وما كان من نعم الله تعالى من الظفر بهم ، والإدالة منهم ، والخص من منارهم ، والتقويض لغمارهم ؛ والإبادة لغارسهم وراجلهم ، وإرشاد السيوف والسهام إلى مقاتلهم ؛ وتطهير الأرض منهم بدمائهم ، والإحاطة بهم عن أيمانهم وشمائلهم ، ومن أمامهم وورائهم ؛ فابتهجنا بذلك الابتهاج الذي يوجهه التوحيد ، وأتمى بنا السُرور إلى الحد الذي ماعليه مزيد . على أننا كنا نود أن يكون ذلك بصفاحتنا وأستنا ، وأن يُثبت الله لنا في صحيفتنا ؛ ولما لراجون من نعم الله عندنا ، وإحسانه إلينا كما عودنا ، أن يكون من بقي من المذكورين بنا مستأصلا ، ويكون أجرهذه الخاتمة لنا حاصلا . وقد عزم الله لنا عد وقوفنا على كتابه ، بما نخرج به أمرنا إلى جميع من بأعمال الدولة الحافظية خلد الله ملكها . بعيدا ودانها ، وقصيصا ونائيا من العساكر المظفرة المؤيده ، وقبائل العربان المستخلصه ؛ وكافة الطوائف على اختلاف أنواعها ، وتباين أجناسها ؛ وتفاوت منازلها ، وتغاير مراتبها ؛ بأن ينفروا خفافا وثقالا ، وربكنا ورجالا ؛ بقوتهم وتجدتهم ، ووفور عددهم وعدتهم ، وكثرة آلايمهم وأسلحتهم ؛ وبالعزائم الماضية ، والضمائر الخالصة ؛ والنيات المستقيمة ، والعقائد المتفق ، وقسحتنا للتطوعة أن يختلطوا بالمرتقة ؛ وأمرناهم بمسيرهم متابعين ، وتوجههم مترادفين ؛ وأن يكونوا كتاب متنصره ، وحافل متواتره ؛ وعساكر متواليه ،

لأرضي الأرض منها إلى العدو خاليه ؛ ومن الله نطلب مادة العون والإسعاد ، ونسأله توفيقاً لما يقضى بتضاعف أجراً في العاجلة والمعاد . وقد شكرنا الأمير الأسفها لاركون ما أنهاه سببا لهذه الغنيمة المتوقعة من فضل الله وإحسانه ، والنصرة لدينه التي تؤملها من جزيل كرمه وأمتنانه ؛ وأضفنا ما أقتضته مطالعته من جذلنا وغبطنا ، إلى المستقر عندنا من محبته لنا ، وإيثاره الذي لا يحتاج فيه إلى زيادة على معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالى .



وكما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى صاحب مكة المشرفة ، جواباً عن كتاب ورد منه عليه في معنى وُصُول غِلَال بَعَث بها إلى مكة ماصورته :

وصل كتابك ، أيها الشريف مغرباً عن المشايعة الشائعة أنبأؤها ، والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ؛ وحسان الخلال ، التي أقسم طرفي الحمد إعدادتها وإبدائها ، ومكرّمات الآل ، التي تساوى في اقتناء المجد أنبأؤها وآبأؤها ؛ وفضائل الإفضال ، التي لا تخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعبأؤها . ونشر كتابك من محاسنك ما أنطوى ، ووردنا منه مثلاً أروى وإردّه وأرتوى ؛ ووقفنا منه على أثر فضل أشتمل على عين الكرم وأحتوى ؛ ووقفنا وإياه من الحمد مالا تحلّفه نحن ولا هو مكاناً سوى ؛ فاقبضانا مزيداً في رفع قدره ، واختصاصه من الإنعام بكلّ غريب الموقع ندره ، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الودّ وصنّده ؛ وكيف لا يكون ذلك وقد أشمخرت لبيته الأنساب ، ونحرت الأنصاب ، وسجدت الرقاب ، وزدّت له بعد ماتوارت بالحجاب ، وشهد بفضل توقيعه الحرب وبفضل ليلهم المحراب .

فأما ما أشار إليه من الشكر على ما سير من الغلات التي كان الوعد بها علينا نذراً ، وروّحنا بإرسالها قلباً وشرّحنا بتسييرها صدراً ؛ وأنها حلت ربة الحنّوب وفككتها ،

وَجَلَّتْ هَبْوَةُ الْقَحْطِ وَكَفَّتْهَا ؛ وَهَوَّنَتْ مَصَابِعَ الْمَسَاغِبِ ، وَخَلَقَتْ مَسَاحِبَ
السَّحَابِ ، وَأَطْفَأَتْ - وَفِي الْحَدِّ - بَوَارِ النَّوَابِ ^(١) ؛ فَقَدْ سُرِّرْنَا بِجَسْتِنَا جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ
نَسْرَةِ الْحَسَنَةِ ، وَقَدْ نَبَّهْنَا مِنْ سَنَتِنَا لِأَنَّ نَسْتَقِيلَ بِالْحَمْدِ لَوْلَى السَّنَةِ ؛ وَقَدْ قَوَّى النِّيَّةُ
وَقَوْمَهَا ، وَأَسْتَرَادَ لَمْ يَلْسَانَ الشُّكْرِ الْفَصِيحِ ، وَتَنَاوَلَ لَمْ يَبَاعِ التَّلَطُّفِ الْفَسِيحِ ، وَالْقَحَّ
لَمْ يَسْحَابَ عَمَلُهُ مِنْهَا مَحَلُّ مُلَفِّحِهَا مِنَ الرِّيحِ ؛ وَأَقْتَضَى مَا يَبْعُرُضُهُ أَنْ نَخْرُجَ الْأَمْرُ بِأَنْ
يَضَاعَفَ الْحَمُولُ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَا يُحْصَى بِهِ خَاصُّ دُونَ عَامٍ ؛ وَأَمَرْنَا أَنْ يَوْفَرَ جَلْبُ
الْجَلَابِ ، وَتُوقَرُ ظُهُورُ الرِّكَابِ ، لِيُجْمَعَ لِلْحَرَمِ الشَّرِيفِ بَيْنَ رِبِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَبَيْنَ حَمَلِ
الْبَطْنِ وَالظَّهْرِ ؛ فَتَظُلَّ السَّنَةُ دُودًا وَلُودًا ، وَيُشَاهَدُ الْمَحَلُّ الشَّرِيفُ وَقَدْ نَأَى عَنْهُ
الْمَحَلُّ شَرِيدًا ؛ وَتُحْطُّ الْقُلُوبُ عَمَّا يُحْطُّ عَنْهُ أَمْثَالُهَا مِنَ السَّحَابِ ، وَتُسْتَرِجُ الْأَنْفُسُ
الْوَاغِبِ ، فَمَا مَا لَقَاهُ إِلَى رَسُولِهِ ، فَقَدْ أَسْمَعَ مَا أَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ، وَأَعِيدَ بِمَا يُعِيدُهُ عَلَيْهِ ؛
وَقَدْ تَكَثَّرَتْ بَوَلَاءُ الشَّرِيفِ الْأَشْهَادِ ، فَغَنَى عَنِ الْأَسْتِشْهَادِ ، وَأَغْنَتْهُ الْحُظُوفُ بِجَمِيلِ
رَأْيَانَا عَمَّا نَأَى أَخَذَهُ لَشَفْعَةِ الْعَطَاءِ بَلْ لَشَفَاعَةِ الْأَجْتِهَادِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الجملة الثالثة

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك القرب)

وهي على النحو المتقدم ، وربما صدر بلفظ : « قد » ونحوها .
كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم في جواب كتاب ورد عليه
بطاعة بلد .

قد وصل كتابكم - وصل الله معونتكم وكلاءكم - تذكروا ما تقر عندكم
هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشروهم من أمورهم ؛ وأتم عندنا بحل الصدق ،
ويمكان الإيثار للحق . وقد رسمنا لكم أن تثبتوا في أهل تلك الجهات كلها حيد الرأي

فيهم، وحسنَ القبولَ لإنايتهم، وقصدَ الرِّفقَ بخاصَّتهم وعامَّتهم؛ وأنا قد تقبَّلنا أوَّيتهم، وأغفَرنا زِلَّتَهم؛ وأولِّكمُ المُتَشَبِّثونَ بسببِ الدَّمام، عَرَّفوهم أنكم رَغِبْتُمْ في شُمولِ الصَّفْحِ عنهم، والإقالةِ لما كانَ منهم؛ فأسَعَفْنَا رَغَبَتكم فيهم، وأدخلناهم في العَفْوِ مع غيرهم؛ وبذلَّنا لهم الأمانَ، وأغضينا عن جميع ما كان؛ فعَرَّفوهم بهذا كُلِّه، وأخبروهم عَنَّا بإعطاء التَّأمينِ لجميعهم وبذلِّه؛ وإن كانَ أطيبَ لِنفوسهم أنْ يَصْلَهم مَكْتُوبٌ بِذلك صَرَفَنا، ووجَّهنا إليكم. وأقيموا أتمَّ هُنالكم أَيَّاماً خِلالَ ما يَصِلُكم من مُتَنَاقِلِ الأحوالِ ما تُطالَعُون به، وتَحاطَبُون بما تَعْتَمِدُونَهُ إن شاء الله تعالى. أدام الله كرامتكم.

أُشِرْتُ في خطابكم إلى أنَّ عندكم من تلك الأحوالِ ما تَدْكُرُونَهُ مشافهةً، وربما يكون ذلك أمدًا يَبْنِي عليه نظر، أو يَتَوَجَّه بحسبه عَمَلٌ؛ فمن الجيِّد أن تَكْتُبُوا بشرحه، إن شاء الله تعالى والسلام.

الضرب الثاني

(الأجوبة الواردة على الملوك)

وهي على نحو ما تقدَّم في الأجوبة الصادرة عن الملوك من الابتداء بلفظ: «وصل» إلا في الخطاب، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ «الخادم أو المملوك أو العبد». ويخاطبُ المَلِكُ المكتوب إليه بـ «مولانا أو مولانا المَلِكِ» أو نحو ذلك؛ وربما كتب بَدَل وصل: ورد.

كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» في جواب كتاب ورد عليه مخبراً فيه بالحركة للقاء العدو ماصوره:

وردَ على المملوك - أدام الله أيامَ المجلسِ العالِي المَلِكِي الناصري - ونصره على أعدائه، ومَلِكُه أرضه بَدَل حكم سَمائِه، ولا أخلى من نَعْمَتِي خيره ونَفَرَه قلوبَ وعيونَ

أولياته، وأعرّج الإسلام ورفع عن أهله البُلُوْىَ يلوانه . الكتُبُ القديمة التي تسرّ الناظرين من شعارها الأصفر، وتبشّر الأولياء إن كانوا غائبين مع الغيب بأق حظهم حاضر مع الحُضْر؛ وقد كانت الفترة قد طالَت أيامها، واستطالت آلامها، والطُرقات قد سبق إلى الأنفُس إيهامها .

فالحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وأولى من النعمة ما أشتري الحمد بلا ثمن؛ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ووعد [الله] سبحانه منتظر، إذ يقول فى كتابه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وصَدَقَ صلّى الله عليه وسلم فى قوله : ”إِنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ لِلْأَمْرِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِهِ، وَإِنَّ مَوَاضِعَ الْأَمَلِ لِلْعَبْدِ خَيْرٌ مِنْهَا مَوَاقِعُ أَقْضِيَةِ اللَّهِ وَأَقْدَارِهِ“ . فقد كانت حركة أحتاجت إليها البلاد التى انفصل عنها، والبلاد التى قديم عليها . أما المصرية منها فبكونها على عِدّة من تجمّده آجلا، وأما الشامية فبكونها على ثقة من نصره عاجلا ؛ فقد تماسكت من المسامين الأرماق، وقد أقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البلادُ تُحسَلُ فيها * ولولا الليثُ ماهيبُ العرين!

وعرض المملوك ماوصل إليه من مكاتبات المولى على العلم العادلى وأدركها تحصيلا، وأحاط بها جملة وتفصيلا؛ والمولى - خلد الله ملكه - فكلُّ ما أشار إليه من غزيرة أبدائها، ونية أمضاها، فهو الصواب الذى أوضح الله له مسالكه، والتوفيق الذى قرب الله عليه مداركه؛ ومن أطاع الله أطاعه كلُّ شئ، ومن استخاره بين له الرشد من التّقى؛ والله تعالى يجعل له من كلِّ حادثة ^(١) نَجْوَه، ويكتب أجره فى كلِّ حركة ونفس وخطوه . إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

(المكتبات الصادرة عنهم إلى ملوك الكُفر، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الابتداءات، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في المكتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بويه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفتَح المكتبة بلفظ ”كُتِبَ أَوْ كُتِبْنَا إِلَى فُلَانٍ“ ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك ، ويختم بقوله : فَإِنْ رَأَى ذَلِكَ فَعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى القوارس ختور التركى المعزى ، إلى وردس بن قُتْبَر المعروف بعسقلاروس .

[كُتِبَ إِلَى] ملك الروم الفاضل ، الجليل ، النبيل ، الخطير ، أدام الله كفايته وسلامته ، ونعمته وسعاده ، وطاقته وحراسته . من الحضرة الجليلة بمدينة السلام ثمان ليالٍ خَلَوْنَ من ذى الحجة سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وهو اليوم التاسع من آذار ، عن شمول السلامه ، وعموم الاستقامه ؛ وصلاح حالى فى ظل الدولة المنصوره . والحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتاب مولانا ملك الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمرج لارضة بتاريخ التاسع من حَزِيرَانَ ، وفهمته وجل عندى مَوْقِعُهُ ، وعظم فى نفسى خَطَرُهُ ؛

وَحَدَّثَ اللهُ عَلَى مَا شَهِدَ بِهِ مِنْ أَنْتِظَامِ أَحْوَالِهِ ، وَأَطْرَادِ أُمُورِهِ ، وَسَائِلِهِ أَنْ يَتِمَّ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ ، وَيَزِيدَ فِيهَا لَدَيْهِ ، وَيُؤَاصِلَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ ، وَيُطِيلَ مَدَّتَهُ ، فِي أَمْرِ رُشْدٍ وَهَدَايَةٍ ، وَأَرْفَعَ قَدَمَ وَمَنْزِلَةَ ، وَأَعْلَى خَطِيرِ وَرَبَّةَ ، بِمَنْهُ وَطَوَّلَهُ ، وَجُودَهُ وَبِحَمْدِهِ .

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ : مِنْ مُقَامِهِ عَلَى الْعَهْدِ ، وَأَقْفَارِهِ إِلَى الْمِيلِ وَالْوُدِّ ، فَذَلِكَ يُوجِبُ فَضْلَهُ الْبَارِعَ ، وَكِرَمَهُ الشَّامِعَ ، وَخِلَالَ الْخَيْرِ الَّتِي أَهْلَهُ اللهُ لَهَا ، وَخَصَّهُ اللهُ بِهَا ، وَبِاللهِ أَحْلَفُ إِنِّي مَا خَلَوْتُ مِنْذُ أَقْرَقْنَا مِنْ مِطَالَعَةِ أَخْبَارِهِ ، وَتُبَّعِ آثارِهِ ، وَأَسْتَعْلَامِ مَجَارِي شُؤْنِهِ ، وَالسُّرُورِ بِكُلِّ مَا تَمَّ لَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى كَأَنِّي حَاضِرٌ لَهُ ، وَضَارِبٌ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ فِيهِ ، بَلْ مَخْصُوصٌ بِجَمِيعِهِ . وَاللهُ يُجْرِيهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا أَوْلَاهُ وَعَوَّدَهُ ، وَلَا يُخْلِيهِ مِنَ الصَّنْعِ الْجَلِيلِ فِيمَا أَعْطَاهُ وَقَلَّدَهُ ، بِرَحْمَتِهِ .

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَ وُرُودِ رَسُولِي فِي الدَّفْعَةِ الْأُولَى عَلَى غَايَةِ التَّمَّ وَشُقْلِ الْقَلْبِ بِسَبَبِ الْعَدْرِ الَّذِي لَحِقَهُ مِنْ عَدُوِّهِ الَّذِي أَظْفَرَهُ اللهُ بِهِ ؛ وَأَنْهَيْتُ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ إِلَى الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْمَاضِي ، شَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَزِينِ الْمُلْهِ ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فَاسْتَغْلَى قَلْبُهُ - رَحِمَهُ اللهُ - بِهِ ، وَعَمِلَ عَلَى إِنْقَاضِ الْعَسَاكِرِ لِنُصْرَتِهِ ؛ ثُمَّ أَتَى مِنْ قَضَاءِ اللهِ فِي أَمْرِهِ مَا قَدَّ عَرَفَهُ .

وَلَمَّا أَنْتَصَبَ فِي الْمَمْلَكَةِ مَوْلَانَا السَّيِّدُ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ ، وَضِيَاءُ الْمُلْهِ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ - شَرَحْتُ لَهُ مَا جَرَى قَدِيمًا عَلَى سِيَاقَتِهِ ، وَمَهَّدْتُ الْحَالَ عِنْدَهُ ، وَوَجَدْتُهُ - أَدَامَ اللهُ سُلْطَانَهُ - مَعْتَقِدًا لِسَيِّدَانَا مَلِكِ الرُّومِ الْجَلِيلِ - أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ - أَفْضَلَ اعْتِقَادٍ ، وَسُرَّ بِمَا أَتَتْهُ إِلَيْهِ أُمُورُهُ ، وَتَجَرَّتْ الْكُتُبُ إِلَى مُوَصِّلِهَا الرُّسُولَ حِفْظَهُ اللهُ ؛ وَسَمِعَتْ مِنْهُ مَا كَانَ تَحْمَلُهُ عَنْ سَيِّدَانَا مَلِكِ الرُّومِ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ ، وَأَنْجَرَتْ مَعَهُ صَاحِبِي أَبَا الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، وَحَمَّاتُهُمَا جَمِيعًا مَا يُنْبِئَانِهِ إِلَيْهِ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَرَى عَرَضُهَا وَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل - أدام الله بركته - تعجيل رده إلى ، فانه تقي ، ومن أسكنُ إليه في أموري ؛ وأن يتفضل ويكلفني حوائجه ومهماتِه ، وأمره ونهيه لأقوم في ذلك بالحق الواجب له ، فان رأى سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ، الخطير النبيل ؛ أن يعتمدني من ذلك بما يتضاعف عليه شُكْرِي ، وتجلُّ النعمة فيه عندي ، ويشاكل الحال بينه وبينِي ، فعل إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفتُ عليه من ذلك أسلوب واحد : وهو الابتداء بـ «أما بعد» والخطابُ فيه بالملك ، والاختتامُ بالبهاء .

كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بردويل أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستولٍ على بيت المقدس وما معه ، معزيًا له في أبيه ومهتئًا له بجلوسه في الملك بعده ، ماضوته :

أما بعد — خصَّ الله الملك المعظم حافظَ بيت المقدس بالجِدِّ الصاعد ، والسَّعد الساعد ؛ والحظَّ الزائد ، والتوفيق الوارد ؛ وهنَّاه من ملك قومه مأورته ، وأحسن من هدها فيما أتى به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصا^(١)دق ، والنعى الذى ودِّدنا أنْ قاتله غير صادق ؛ بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خيرَ مآلٍ مثله ، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ؛ معز بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفٌ لفقدته الذى عظمت به الأرزاء ؛ إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولدَهُ الوارث ؛ وأنسى المصاب ، بأن حفظَ به النصاب ، ووهبه

(١) جمع جمع لصدق مفردة أصدقا .

النعمتين : المُلْكَ والسَّبَابَ ؛ فهنيئاً له ما حاز، وسَقياً لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء
 لو جاز ؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العزاء
 من لسانه ، ووصفٍ مانالنا من الوحشة لِفراق ذلك الصديق وتخلُّو مكانه ؛ وكيف
 لا يَسْتَوْحِشُ ربُّ الدار لفُرقة جيرانه . وقد آسفتُحنا الملك بكاتبنا وارتبادنا ، وودَّنا
 الذى هو ميراثُهُ عن والده من ودادنا ؛ فليلقِ التحيةَ بمثلها ، وليأتِ الحسنةَ ليكون
 من أهلها ؛ وليعلم أنَّه كما كنا لأبيه : مودَّةٌ صافية ، وعقيدةٌ وافية ؛ ومحبَّةٌ ثبت
 عَقْدُها فى الحياة والوفاة ، وسريَّةٌ حَكَتْ فى الدنيا بالمُوافاة ؛ مع مافى الدِّين من
 المخالقات . فليسترسِلْ إلينا أسترسَالَ الوائِقِ الذى لا يَحْجَلْ ، وليعتمدْ علينا أعمادَ
 الولد الذى لا يَحْجَلْ عن والده ما تَحَلَّلْ ؛ والله يديم تعميره ، ويحرُسُ تأميره ؛ ويقضى له
 بموافقة التوفيق ، ويُلهمه تصديق ظنِّ الصديق .

الجملة الثالثة

(فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب)

والرسم فيه أن تفتَحَ المكتابَةُ بلفظ : « كتابنا » والمخاطبةُ بنونِ الجمع عن المکتوب
 عنه وميم الجمع عن المکتوب إليه ، والاختتام بالسلام مع الدماء بما يليق .
 كما كتب أبو المطرف بن حميرة عن أبي جَمِيل زِيَّان ، إلى ملك قشتالة من بلاد
 الأندلس فى مُراوِدة الصُّلح :

كُتِبْنَا إِلَيْكُمْ - أسعدكم الله برضاه ، وأدام عِزَّتكم وكرامَتكم بتقواه - من مُرسِيَّة ، ونحن
 نَحْمَدُ الله الذى لا شىءَ كَمِثْلِهِ ، ونُلجأُ إليه فى أمرِنا كُلِّهِ ، ونسأله أن يُورِضَنَا شُكْرَ إِحْسَانِهِ
 وفضلِهِ - وعندنا لجنابكم المُرقَّع تَكْرِمةٌ نُسْتَوْفِيها ، ومبرَّةٌ نَنْتَهِي إلى الغاية فيها ، وطَلَبُنا

بِحَلِّكُمْ الشَّهِير، وَكِتَابِكُمُ الْخَطِير، يَسْتَدْعِي الزِّيَادَةَ مِنْ ذَلِكُمْ وَيَقْتَضِيهَا؛ وَقَدْ كَانَتْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْمُعْتَادِ، وَجَمِيلِ صُنْعِهِ فِي أَنْتِظَامِ الْكَلِمَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، مَا أَكْتَنَفْتَهُ الْعِصْمَةُ، وَكُلَّتْ بِهِ النُّعْمَةُ وَالْمِنَّةُ؛ وَتَيْسَّرَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فَتَحَ أَفْزَ الْعِيُونِ، وَرَضِيَهِ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ، وَكَانَتْ مَطَالَعُكُمْ بِهِ مِمَّا أَثَرْنَا تَقْدِيمَهُ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَحْفَظَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَرْغَبَةِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْجَمَلَةِ [حَدِيثُهُ وَقَدِيمُهُ] وَحِينَ تَرْجَحُ غَاطِبُكُمْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَمُفَاوَضَتُكُمْ فِي هَذَا الشَّانِ؛ رَأَيْنَا مِنْ تَكَلُّفِ الْمَبْرَةِ، وَتَوْفِيَةِ الْعَنَاءِ الْبَرِّ؛ أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْكُمْ مِنْ يُشَافِهَكُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَيَذَكِّرُكُمْ مِنْ قَصْدِنَا مَا نُولَعُ بِهِ وَنُعْنَى؛ وَهُوَ فُلَانٌ فِي ذِكْرِ السَّلَامِ وَمَحَاوَلَتِهَا، مَا يَتَأَدَّى مِنْ قِبَلِهِ عَلَى الْكَمَالِ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنْ رَأَيْتُمْ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِكُمْ، أَنْ تَوْجَّهُوا زِيَادَةً إِلَى مَا تُلْقُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ رِجَالِكُمْ وَخَاصَّتِكُمْ؛ فِي مَعْنَى هَذَا الْعَهْدِ وَإِحْكَامِهِ، وَمَحَاوَلَتِهِ وَإِبْرَامِهِ؛ فَعَلِمْتُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا نَرْغَبُ أَثَرَهُ، وَنَصْرِفُ إِلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ أَوْفَاهُ وَأَوْفَرَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَهُوَ الْمَوْفُوقُ لِأَرْبٍ سِوَاهُ، وَالسَّلَامُ الْأَتْمُّ عَلَيْكُمْ كَثِيرًا.

الطَّرْفُ الْخَامِسُ عَشَرَ

(الْمَكْتُبَاتُ الْبَادِرَةُ إِلَى الْمُلُوكِ الْكَافِرِ فِي الْأَجُوبَةِ [وَهِيَ] إِمَّا أَنْ تَصْدُرَ بِمَا يَصْدُرُ
بِهِ الْإِبْتِدَاءُ وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَإِمَّا أَنْ تَصْدُرَ بِلَفْظِ وَصَلٍ أَوْ وَرْدٍ).

سَمَا كَتَبَ بَعْضُ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْجَوَادِ: أَحَدُ مَلُوكِهِمْ، فِي أَيَّامِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، جَوَابَ كِتَابٍ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ فِرَانَك: أَحَدُ مَلُوكِ الْقَرْمَنَجِ فِي شُعْبَانَ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَسِتَّمِائَةٍ:

وَرَدَتِ الْمَكَاتِبُ الْكَرِيمَةُ الصَّادِرَةُ عَنِ الْمَجْلِسِ الْعَالِي، الْمَوْلَى، الْمَلِكِ، الْأَجَلِ، الْأَعَزِّ
 الْكَبِيرِ، الْمُؤَيَّدِ، الْخَطِيرِ، الْعَالِمِ الْعَامِلِ، الظَّهِيرِ، الْعَادِلِ، الْأَوْحِدِ، الْمُجْتَبَى، شَمْسُ الْمِلَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ، جَلَالِ الطَّائِفَةِ الصَّلَيبِيَّةِ؛ عَضِدِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْجِيَّةِ؛ فَخْرِ آبَاءِ الْعَمُودِيَّةِ؛
 عِمْدَةِ الْمَمَالِكِ ضَابِطِ الْعَسَاكِرِ الْمَسِيحِيَّةِ، قَيْصَرَ الْمُعْظَمِ فَلَانِ مَعَزِّ إِمَامِ رُومِيَّةِ؛ ثَبَّتَ
 اللَّهُ لَدَيْهِ نَعْمَهُ، وَعَزَّزَ مَوَارِدَ جُودِهِ وَدَيْمَهُ، وَأَمْضَى صَوَارِمَ عِزِّ أَمْرِهِ وَأَعْلَى هِمَمِهِ،
 وَلَا بَرَحَتْ أَنْوَارُ سَعْدِهِ، نَتَلَلَا، وَأَخْبَارُ مَجْدِهِ، تَبَسَّطَ وَتَتَعَالَى، وَتَحَابَّبَ الْأَلْسِنَةُ
 النَّاطِقَةُ بِمَجْدِهِ تَسْتَهْلُ^(١) وَتَتَوَالَى؛ إِلَى أَنْ يَقْتُلِي جَيْدُ الضُّحَى بِعُقُودِ اللَّيْلِ، وَتَطْلُعَ
 الشَّعْرَى مِنْ مَطَالَعِ سُهَيْلٍ - فَيُخَدِّدَ الثَّنَاءَ عَلَى جَلَالِهِ، وَأَكْثِدَ الْمَدِيحَ لِإِحْسَانِهِ وَإِفْضَالِهِ؛
 وَأَنْفَسَ أَسْبَابَ الْمُوَدَّةِ وَالْحَصَافَةِ، وَشَدَّدَ أَوَانِيحَ الْإِخْلَاصِ وَالْمُوَافَاةِ فَاسْتَبْشَرَتْ
 النُّفُوسُ بُرُودَهُ، وَبَسُرَتْ الْقُلُوبُ بِوُقُودِهِ؛ وَوَقِفَ مِنْهُ عَلَى الْإِحْسَانِ الَّذِي نَعْرِفُهُ،
 وَوُجِدَ عَقْدُهُ مُشْتَمِلًا عَلَى جَوَاهِرِ الْوُدَادِ الَّذِي تَأَلَّفَهُ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُلْفَةِ
 الْمُنْتَظَمَةِ، وَالْحُبَّةِ الصَّادِقَةِ الْمَكْرُومَةِ. وَالْمَجْلِسِ الْعَالِي الْمَلِكُ الْأَجَلُ أَعْلَى اللَّهِ قَدْرَهُ،
 وَنَشَرَ بِالْخَيْرِ ذِكْرَهُ، أَوْلَى مِنْ أَهْدَى الْمَسَرَّاتِ، بُرُودِ الْمَرَّاسِمِ وَالْحَاجَاتِ، وَوَصَلَ
 الْأَنْسَ بِكَرِيمِ الْمَكَاتِبَاتِ، مَضْمَنَةَ السَّوَانِحِ وَالْمُهَيَّمَاتِ.

فَإِمَّا مَا ذَكَرَهُ الْمَقَامُ الْعَالِي السُّلْطَانِي الْمَلَكِي الْكَامِلِي النَّاصِرِي - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا
 وَعُلُوقًا - مِنْ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَمْلُكَتَيْنِ، فَهَذَا هُوَ الْمُعْتَقَدُ فِي صِدْقِ عَهْدِهِ، وَخَالَصَ
 وَدَّهُ؛ وَلَا زَالَ مَلِكُهُ عَالِيًا، وَشَرْفُهُ نَامِيًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الفصل الرابع

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، على ما استقر عليه الحال)
من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره
مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية التي هي أصل
الدولة التركية ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفاء من بنى العباس)

قد تقدم في الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بنى العباس أنها
على أساليب في ابتداء المكاتبات : منها ما يفتتح بآية من القرآن الكريم ثم بالسلام ؛
ومنها ما يفتتح بالسلام ابتداءً ؛ ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة على مذهب
من يرى جواز إفراغ غير الأئمة بالصلاة ؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذي ذكره المقرئ الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف بالمصطلح
الشريف " مما الحال مستقر به أن المكتبة إلى ديوان الخلافة الشريفة : «أدام الله
أيام الديوان العزيز ، المولوى ، السيدى ، النبوى ، الإمامى ، الفلافى» ثم الدعاء
المعطوف ، والصدور بالتعظيم المألوف ؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : «أدام
الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أو غير ذلك مما يقتضى العز والديموم .
وأن الصدور نحو : «العبد ، أو المملوك ، أو الخادم ، يقبل الأرض والعقبات أو مواطن
المواقف» أو غير ذلك . وأن ختم الكتاب يكون تارة بالدعاء ، وتارة ب«طالع أو أنهى»

أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء . ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز ، وبالله أقف المقدسة أو المشرفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى أو الشريف . وبأمر المؤمنين مجزدة عن سيدنا ومولانا ، ومرة غير مجزدة ، مع مراعاة المناسبة ، والتسديد والمقاربة . وأن خطاب المكاتب عنه بحسب من كتب عنه : فكتب بعض ملوك بني أيوب بالديار الشامية « الخادم » . وبعضهم « المملوك » وبعضهم « العبد » وبعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . وأن علاء الدين خوارزم شاه : صاحب بلاد خوارزم وما معها ، وأبنة جلال الدين كانا يكتبان « الخادم المطواع » ، وأن أم جلال الدين كانت تكتب « الأئمة الداعية » . قال : في « التتيف » : وعنوانه « الديوان العزيز » إلى آخر الألقاب ؛ ثم الدعاء يعنى من نسبة الصدر ، نحو « أدام الله أيامه وخلد الله سلطانه » وما أشبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه « الخادم » أو « المملوك » أو « العبد » . وكتب بعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . يريد أن العلامة تكون مطابقة لما يقع في أثناء المكتبة عن المكتوب إليه من الخادم وغيره مما تقدم ذكره ، بحسب ما يؤثر الملك المكتوب عنه الخطاب به عن نفسه .

وهذه عدة صدور مختلفات الابتداءات منقولة من التعريف وغيره .

أما قطع الورق الذى يكتب فيه إلى الخليفة ، فقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق في المقالة الثالثة ، نقلا عن ابن عمر المدائني في « كتاب القلم والدواة » أنه يكتب للخصاء في قرطاس من ثلثي طومار ، وأن المراد بالطومار القرخة الكاملة ، وأن المراد الورق البغدادي ؛ وحيث أن فينبغي أن يجري الأمر على ذلك تعظيما للخلافة .

صدر : أدام الله أيام الديوان العزيز، ولا زالت سيوف أوليائه في رقاب أعدائه
مُحْكَمَةً، وصُنُوفُ الكُفَّارِ، في أيدي عسكره الجرارِ، بالنَّهَابِ مَقْسَمَةً، وصفوفُ أهل
الشرك مُزَلْزَلَةٌ بخوافِ أعلامه المطهرة وسَنَابِكِ جياده المطهَّمة؛ ولا بِرِحَتْ ملائكة
النصر من أمداده، وملوكُ العصر يَبِضُّ الوجوه بتعظيمِ شعارِ سَوَادِهِ .

الخدام ينتهبُ ترى العتبات، الشريفة بالثقليل، وينتهي في قصارى الطلبات، على
الوقوف في تلك الرُبع، ويكَلِّلُ رَبِّي تلك الساحات، هو كُلُّ أَرْبِ سَبِيلِ بِلَالٍ
الدُّمُوعُ ؛ خضوعاً في ذلك المَوْقِفِ الذي تُشْكِرُ القلوبُ فيه الصُّدُورُ، وتَلْصِقُ منه
الترايبُ بالثُّجُورِ؛ ويُظهِرُ سِيمَا الْجَلَالَةِ في الوجود، ويُفِدِقُ على الأولياء فيُعرفُونَ
بِسِيَّامِهِمْ من أثر السُّجُودِ . ويُنبِئُ أن وِلَاءَهُ القديم، وبَلَاءَهُ العظيم؛ وأَيَّامَهُ السَّالِفَةَ،
وأَهْمَالَهُ التَّالِفَةَ والطَّارِفَةَ ؛ وسَوَاقِ خِدْمَتِهِ في أمثال الأوامرِ الشَّرِيفَةِ التي لم يَزَلْ
يتسارع إليها، ويُقَارِعُ عليها، ويُصَارِعُ قُلُوبَ الأَسُودِ على تَفْهِيدِ مَرَّاسِمِهَا، وإقامة
مَوَاسِمِهَا ؛ وإطارة صِبْتِهَا، ودوام ثَبَاتِهَا، تحمِلُ الخدام على الاسترسال، وتُجَمِّلُ له
السُّؤَالُ، والذي ينهيه كَذَا وكَذَا .



صدر آخر من " التعريف " : أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت
الخلائِقُ بِكَرَمِهِ مُضَيِّفَةً [والكَائِبُ في هَجِيرِ وَطَيْسِهِ مَضَيِّفَةٌ^(١)] . والأبصار في نَصْرِ
أنصاره مُصَنِّفَةٌ، والمواضئ بأوامره في قَبْضَاتِ عساكره مُصَرِّفَةٌ، والنقودُ إِلَّا مَا تَشَرَّفَ
باسمه مُزَيِّفَةٌ، والقلوبُ في صُدُورِ الأعداءِ بِجَوَاطِفِ رُغْبِهِ مُسَيِّفَةٌ، والوعودُ إِلَّا بِمَا
يُخَيَّرُهُ مَوَاهِبُهُ مُسَوِّفَةٌ، والوغى لِأَثَرِي إِلَّا بِرَمَاحِهِ مَتَّقَةٌ، والسَّهَاءُ وَإِنْ عَلَتْ لَا تَكُونُ

(١) الزيادة من "التعريف" .

إلا لأذْيَالِ سُوْفِهِ مَسَّجِفِهِ ، وَأَمَاهُ بِسَطَاهُ إِمَّا لِلْعَاقِلِ فَاتِحَةً وَإِمَّا عَمَّا يُطْمَعُ أَنْ تَنَالَهُ
الْأَيْدَى مِنْهَا مُجْجِفِهِ ، وَالْأَثْمُ عَلَى اخْتِلَافِهَا تَحْتِ رَايَاتِهِ الْمَنْصُورَةِ مَقَاتِلَةً وَأُخْرَى لَهُ
مُخَالِفَةً ، وَالْأَعْلَامُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ بِهِ جَوَارِ الْجُوزَاءِ مَخْلَفَةً ، وَالْأَبْطَالُ لِقِتَالِ
الْكَفْرِ بِبَوَارِقِ سُوْفِهِ ، قَبْلَ مَضَاقِ صُفُوفِهِ ، وَمَحَاقِ زُخُوفِهِ مُحُوفِهِ .

الْخَادِمُ يُقْبِلُ بَوَلَانِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجَنَابِ ، وَيَقْبِلُ الْأَرْضَ وَكُتَابَهُ يُحْسِنُ الْمَنَاقِبَ ؛
وَيُقْبِلُ عِثْرَاتِهِ إِذَا كَانَ بِهِ قَدْ لَازَ ، وَيُقِيمُ مَعَاذِيرَهُ إِذَا كَانَ بِهِ قَدْ تَأَذَّ ؛ وَيَسْتَرْبِلُ
بِطَاعَتِهِ سَرَايِلَ تَقِيهِ إِذَا خَافَ مِنْ سِهَامِ الدَّهْرِ إِلَى مُهْجَتِهِ التَّفَاقُذِ ، وَيُصُولُ بِانضِمَامِهِ
إِلَى تِلْكَ الْعَصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ لَا بِمَا يُطْمَعُ مِنَ الْقَوْلَازِ ؛ وَيُجِلُّ تِلْكَ الْمَوَاقِفَ الْمُقَدَّسَةَ
أَنْ يُسَلَّ مَوَاطِنُهَا بِدَمْعِهِ ، وَأَنْ يُحُلَّ مَوَاطِنُهَا بِقَلْبِهِ قَبْلَ أَنْ يُعَاجِلَ كُلَّ عَدُوِّ بَقْمَعِهِ ؛
وَيَعُدُّ مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنَ الْإِعْتَصَامِ بِسَبَبِهَا سَبَبًا لِقَوْزِهِ ، وَمُوجِبًا لِمَلِكِ رَقِّ عُنُقِ كُلِّ
عَاصٍ وَحَوْزِهِ ؛ وَيَنْهَى كَذَا وَكَذَا .



صَلَّى آخِرُ : خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ ! وَلَا زَالَتْ أَيَّامُهُ شَاخِخَةَ الدَّوَابِّ ،
شَارِخَةَ الصَّبَا [حَتَّى] حَيْثُ يَأْخُذُ الشَّيْبُ الشَّوَابَّ ، رَاسِخَةَ الْفَخَّارِ فِي الظُّهُورِ
بِالْعَجَابِ ، نَاشِخَةَ فِي نَفْسِ اللَّيْلِ جَمْرَ الْكَثَائِبِ ، صَارِخَةَ وَازِعِدُ تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ بَيْنَ
السَّحَابِ ، نَاشِخَةَ دَوْلَةَ كُلِّ عَلِيَاءَ بِمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْغَرَائِبِ ، وَتَبْذُلُهُ مِنَ الرِّغَائِبِ ، فَاسِخَةَ
عَقْدِ كُلِّ خَالِعٍ يُرْدهُ اللَّهُ إِلَيْهَا رَدَّةً خَائِبَ ، بِأَذْخَةٍ عَلَى مَاضِي كُلِّ زَمَانٍ ذَاهِبٍ مِنْ عُصُورِ
الْخُلَفَاءِ الشَّرَفَاءِ وَأَيِّبَ ، سَانِخَةَ لِحُلْدَةِ كُلِّ أَيْمٍ ظَنَّ أَنَّ فِي أَنْيَابِ رُحْمِهِ النَّوَابِ .

الْخَادِمُ يَقْبِلُ الْعَتَبَاتِ الشَّرِيفَةَ سَاجِدًا يَجِدِّيهِ ، وَشَاهِدًا يَسْتَأْذِيهِ لَهُ عَلَى يَمِينِهِ ،
وَجَاحِدًا كُلَّ وَلَاءٍ سِوَى وَلَائِهِ الْمَعْقُودِ بِيَمِينِهِ ، وَعَاقِدًا بِشَرَفِ الْإِسْتِسَابِ إِلَيْهِ عَقْدَ دِينِهِ ،

وحامداً الله الذى جعله [من] طاعة أمير المؤمنين عند حسن يقينه؛ وعائداً بأمله إلى كرم ثمر به الآمال، وتقمير به اللبالي لأنها شعاره الذى تضرب به الأمثال، وتخطر به السحب الجهام فتضحى بها آية الإحمال . وينهى ورود المثل الشريف الذى طلع نيره فانار، وسطح متضاده فالف بين الليل والنهار؛ وأقبل فما رآه إلا كتابة الذى أوتيه باليمن، وسجابه الذى أعطيه يندى منه الجبين؛ ونصره أكثر من الألوف، وأنصفه أعجل من السيوف، وزاحم به الدهر فضلاً عن الصفوف، وزار به الوغى لايتهاها وخطيات القنا وقوف؛ فتشرف به وطار بغير جناح، وقاتل بغير سلاح، وقرأه وبات قروى له فى السباح، وتسلمه كأنما تسلم به المعاقل وتسلم منه المفتاح .



صدر آخر : خلد الله أيام الديوان العزيز! ولا زالت سطواته تجمد برعها الأبطال المدبجة ، وتحمّد بقيضها النيران المؤججه، وتحمّل بركري نفاذها إلى القلوب الرماح المزججه، وتبذل معها بعوائد كرمها السحب المتججه، وتخف لديها أوقار الجبال المفججه، وتخز بل تحور خوفاً أن تترقى إليها الأصوات المضججه ، وتحص بالفرق من خاطر فى يحارها الملججه ، وتحلف بسلطانها للموت أشهى من البقاء إلى طرائد سيوفها المهججه، وتحلّد النصر بحججه القائمة على الحصماء المتججه .

الخدام يقلب وجهه فى سماء القنار بتقيل الأرض التى طالت السماء، فاطالت النعماء، وفضلت النجوم اللوامع، وأوتيت بالكها - أعز الله سلطانه - كلم الفضل الجوامع، وأحلت شوايح التجد من حلها ، وأجلت قدر من جد فاجلها ، وأعطت مفاتيح الكنوز كنوز الشرف لمن قبلها كما يقبل الجميع الحجر ، أو أملها كما يؤمل السارى طلوع القمر، وينهى كذا وكذا .

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنى .

(٢) فى التعريف "رنطار" وكل صحيح .



صدر آخر : قال في "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام الله أيام العدل والإحسان، والنعم الحسان، والفضل المشكور بكل لسان ؛
الأيام التي أشرق صباحها السافر، وعمّ ستماحها الوافر، وآمنَ بيمنها كلُّ مسلم ضُرب
عليه سِرادقُ الليل الكافر؛ وعلتْ شمسها وقد جنحتِ العصور الذواهب، وقُدِحتْ
أشعتها فأضاءتْ بين لآتي الفياهب ؛ أيام الديوان [العزير المولوى، السيدى،
النبوى، الإمامى، الحاكى] ^(١) لا برحتْ أيامه مَفَنَّة ، وأحكامه مَقَنَّة ، ومُحِبُّه
على الظلاء مَحَنَّة ، وقُرْبُه بفقد ماحوته مَحَنَّة ، وحقائقه غير مَظَنَّة ، وطرائقه للخير
مَسَنَّة ، والخلائق تحت جناح رافته ورُحماه مَكَنَّة ؛ ولا زال ولاؤه ضمير من
أعتقد، ومُير من أخذ من الدهر مائق، ومُير الأسود المتضائلة لديه كالتقد، وسُير
من تَبَّه وصَحَّيج مَنْ رَقْد ، ومُير البرق ندى كَرَمه وقد وَقْد ، ومُغير متعالى الصُّباح
من راياته العالية بما عَقْد ، ومُجِير مَنْ لاذَ به حتى لا يضره من قَقْد ، ومُير عَداه برداه
الذى إن تأخر إلى حين فَقْد .

الخدائم يُحْدَم تلك العتبات الشريفة التي إن تاهت على السماء قبا ، وإن دنت
للتقيل فإن الثريا تود أن تكون قبا ؛ وينهب تراب تلك الأرض التي هي مَساجِد ،
ويُقَبِّل ذلك الإساط الذي لا موضع فيه إلا مكان لايم أوساجد ؛ ويتزها
عن سواكب دمعته : لأن ذلك الحرم [الآمن] ^(١) لا تُطْل فيه الدماء، ويُجْلها عن مواقع
لحمه لأنها لا تلثم السماء ؛ ويرفع صالح الدعاء وإنما إلى سماءها يرُفَعه ، ويُنبئ صادق
الولاء وما تم من يدفعه ، ويتنير من صحيح الجودية ما يرجو أنه ينفعه ؛ ويطالع العلوم
الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .



صدر آخر : أدام الله النعمة على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نعمة
فالتئم في ضمنها ، وملأ الآمال منها وأفاض من أنوارها التي علم قرن الشمس أنه
غير قرنها ، وأدال دولته التي نزل الخلق من جنات حد لها جنات عذنها ؛ وأمضى
سيوفها التي تعرب فيعرف ضمير النصر في لحنها ، وأعلى آراءها التي تلى العداة بدروع
يقينها ، وتلقى الغيوب بسهم ظننها ؛ ولا زالت البشائر تنبأرى إليه بردها ، ويضفؤ
على أعطاف الإسلام بردها ؛ ولا برحت راياته سويدات قلوب العساكر ، وأجنته
الدعاء المحقق إلى أفق السماء من أفق المنابر ، ولولاها السر المبهم الذي هو مما تبلى
به السرائر . الخادم



صدر آخر : أعلى الله الموحدين على الملحين ، وثبت كلمة المتقين على اليقين ؛
بدوام أيام الديوان العزيز وروض بولاته كل ديوان ، وسم بولاته كل أوان ؛ وأنطق
بجده كل لسان ، وألم الخلق أن يعنوا بطاعته صحائف الإيمان ، وأسعدهم
بما يتناولونه في الدين من كتب المن وفي الآخرة من كتب الأمان ؛ فكلها طائر
في العنق يكون بالطاعة فلائد ير في الأطواق ، وبالمعصية جوامع أسير في الأعناق .

ورد على المملوك كتاب إن لم يكن أنزل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم
كتاب من السماء ، وإن لم تنزل أفاضه بالماء ، فهو من الذين أنزلت أفاض دعواتهم
الماء ؛ وإن لم يكن كتاب العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قط تجل له قبل يوم
الحساب ؛ ولولا أن أم الكتاب أعقمت لكان ابن أم الكتاب ، وإن هو إلا طائر
ألزم في عنقه وما وكر طائره إلا المخراب .



صدر آخر : أتم الله ما أنعم به على الديوان العزيز وعلى الخلق ، وأشرك في هذه النعمة أهل الغرب والشرق ، وميز الحظوظ فيها بحسب درجات السبق . فإنه (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى) والله لا يخلف موعده ، والديوان العزيز لا يكثر موريده ، ولا رفع عن أيدي الخلق يده ؛ بل يجرى عليها ما ضمنه ، ويمكنها بما بسط لها في الأرض ومكنه ؛ ويرسل عليها سحاب رحمة ، وينشيئ منها ناشئة نعمته ؛ ويوجه إلى قلبها وجه كل أمل ، ويفيض طوافها فلا يكون به للغيل قيل ، ولا يأوى إلى حصاة قلب فيعصمها ولو أنه جبل .

قلت : ولم أقف على مكتبة عن أحد من ملوك الديار المصرية إلى أبواب الخلافة مذكورة دار الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تجر مكتبة عن السلطان إلى الخليفة ، لأن الخليفة لا يكاد يفارق السلطان سقراً ولا حضراً مفارقة توجب المكتبة إليه ، كما أشار إليه صاحب "التثيف" . وقد لوح في "التعريف" إلى ذلك فقال : وأول ما نبداً بما يكتب به إلى الأبواب الشريفة الخليفية (كذا) زادها الله شرفاً ، جرياً على قديم العادة ، ورجاءً لملاحظة السعادة .

وهذه نسخة مكتبة من هذا النوع مما كتب به القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد في أيام الناصر لدين الله بجناب ملك الألمان من الفريجة والقتال معه ، في جواب كتاب ورد عليه ، يوضح في هذا الموضع بيان هذا الأسلوب ، ويغني عن مراجعة [كثير] من الأمثلة المذكورة في المكتبات إلى الخلفاء على ما تقدم ، وهو :

أدام الله ظلَّ الديوان العزيز النبوي، الإمامي، الشريف الناصري؛ ومَدَّه على الأمة ظليلاً، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلاً؛ وحاطَهُ بَطْفُهُ وتقبَّلَ أعمالَهُ بقبولِ حسين وأنبهتْها، وأزغَمَ أعداءه وكَبَّتْها، ومَسَّها بعذابٍ من عنده وبَحَّتْها؛ ولا زالتْ رأيته السوداءً بيضاءَ الحرب، محمَّرةً المخبر في العُدَّةِ مسوَّدةِ الأثر.

ورد على الخادم ما كُتِبَ به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه، مُبرِّهنا عن اختصاصه؛ مُطْلِقاً في الشُّكْرِ لِلِسَانِهِ، وفي الحربِ لِعَنَانِهِ؛ ومُقْتَضِياً لِأَمْنِيَّةِ كَانَ يَتَبَيَّهًا، ومُفِيضاً لِمَكْرَمَةِ لَوْ سَمَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا كَانَ يَتَمَهَّا؛ فَتَّهْ هُوَ! من كُتِبَ كَأَنَّهُ سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجْدَةٌ، قابِلَةٌ بِالْخُشُوعِ كَأَنَّمَا قَلَمُ الْكِتَابِ الْقَضِيبُ وَطَرُسُهُ الْبُرْدَةُ؛ وتَلَّاهُ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ مَسْتَرْهِقاً بِهِ لِعَزَائِمِهِمْ، مَسْتَجْزِلاً بِهِ لِمَقَامِهِمْ؛ مَسْتَبْتَباً بِهِ لِلْإِزْمِمْ، مَسْتَدْعِياً بِهِ الْخِدْمَةَ لِلْوِازِمِهِمْ؛ مُرْهِقاً بِهِ طَبَائِمَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَاصِحاً بِهِ خُطَاهِمَ يَوْمَ التَّرَالِ؛ فَأَثَرُ فِيهِمْ كَالْإِقْتِدَاحِ فِي الزُّنْدِ، وَكَالْإِنْبِجَاسِ مِنَ الصُّلْدِ، وَكَالْإِسْتِيلِ مِنَ الْغَمْدِ؛ فَشَعْرٌ مَنْ كَانَ قَدْ أَسْبَلَ، وَأَتَمَّى مَنْ كَانَ قَدْ أَجْبَلَ؛ وَكَأَنَّمَا أُعْطُوا كِتَاباً مِنَ الدَّهْرِ بِالْأَمَانِ، أَوْ سَمِعُوا مَنَادِيّاً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ؛ وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَطَلَبْنَا مِنَ الْخِدْمَةِ مَا أَسْتَطَعْنَا؛ هَذَا مَعَ كَوْنِهِمْ أَنْضَاءَ زُخُوفٍ، وَأَشْلَاءَ خُتُوفٍ، وَضُرَائِبَ سُيُوفٍ؛ قَدْ وَصَلَتْ وَجُوهُهُمْ عِلَامَاتُ الْكِفَاحِ، وَأَحَالَتْ عَرَضُهُمْ أَقْلَامُ الرِّمَاحِ؛ صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ، مُكَابِرِينَ مُكَابِرِينَ، مُنَاطِلِينَ مُنَاطِرِينَ؛ قَدْ قَامُوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا قَدَّ عَنْهُ سَائِرُهُمْ، وَزَلُّوا بِقَارِعَةِ الْقِرَاعِ فَلَا يَسِيرُ عَنْهَا سَائِرُهُمْ؛ وَسَدَّتْ كَعُوبُ الرِّيحِ أَعْمَلَهُمْ، وَأَتَبَّتْ فِي مَعْرَكِ الْمَوْتِ أَرْجُلَهُمْ؛ كُلُّ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَخُلَافَتِهِمَا، وَإِذَا رَمَوْا فَاصْبُؤَا قَالُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ.

ومن خَبَرِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ إِلَى الْآنَ عَلَى عَكَا يَمْدُهُم الْبَحْرُ بِمَا كَبَّ أَكْثَرُ مَدَّةٍ مِنْ أَمَوَاجِهِ، وَيُخْرِجُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ أَمْرٌ مِنْ أَجَاجِهِ؛ قَدْ تَعَاظَدَتْ مَلُوكُ الْكُفْرِ

على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة منهم طائفة، ويقلدوا لهم من كل قرن يعجز بالكوة
واصفه ؛ فإذا قتل المسامون واحداً في البرّ بحث البحر عوضه ألفاً، وإذا ذهب
بالقتل صنف منهم أخلف ببله صنفا ؛ فالزرع أكثر من الحداد، والثمره أئمن
من الحصاد . وهذا العدو المقاتل - قاتله الله - قد زر عليه من الخنادق أدراعا
متينة، وأستجنّ من الجتويات بحصون حصينه ؛ مصحراً وممنعاً، وحاسراً ومتدرباً
ومواصلًا ومقطعاً؛ وكلما أخرج رأساً قد قطعت منه رؤوس، وكلما كشف وجها
كشفت من غطاء أجسادها نفوس؛ فكم من يوم أرسلوا أعنة السوابق فذموا عقي
إرسالها، وكم من ساعة فضوا فيها أفعال الخنادق فافضى إليهم البلاء عند فض
أفعالها؛ إلا أن عددهم الجم قد كثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل
لشدة ماقطعها النصل . ومن قبل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة ،
والكلف الثقيلة ؛ في استطاعتهم لا في طاعتهم ، وفي أجوالهم لا في تنبجاعتهم ؛
فالبرك قد أنصه ، والسلاح قد أحفوه ، والدرهم قد أفنوه ؛ وكل من يعرفهم
من أهل المعرفة، ويأهم بالعين فاهم مثل من يراهم بالصفه ؛ يناشد الله المناشدة
النبيه ، في الصيحة البندرية ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدماء
ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة . وهذا الساحل قد تماسك ، وما تهالك ؛
وتجلّد ، وما تبدّل ؛ وشجعت مواعيد التّجدة الخارجة ، وأسلته عن مصارع العدة
الدارجة ؛ فكيف به إذا نرج داعية الألمان، وملوك الصّلبان؛ وجموع ماوراء
البحر، وحشود أجناس الكفر؟ وقد حرّم بإياهم - لعنة الله عليهم وعليه - كلّ مباح
وأستخرج منهم كلّ مذخور، وأغلق دوتهم الكناس ، وآيس وألبسهم الحداد،
وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أويستخلصوا المقبرة، ويعيدوا القمامة . (وإذ زين
لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) .

أَللّهُمَّ أَخْفِرْ جَوَارِهِ، وَأَصْرِفْ جَوْرَهُ، وَأَخْلِفْ وَعْدَهُ، وَأَكْسِرْ ضَمَانَهُ، وَأَنْكِصْهُ عَلَى عَقِبِهِ، وَتَجَلَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْهُمْ تَبَاهٍ . وَمَا بَدَأْتَنَا بِهِ مِنْ نِعْمَتِكَ فَلَا تَقْطَعْهُ، وَمَا وَهَبْتَنَا مِنْ نَصْرِكَ فَلَا تَسْلُبْهُ، وَمَا سَتَرْتَهُ مِنْ عَجْزِنَا فَلَا تَهْتِكْهُ . [وَأَيُّ دُونِ مَا الدِّينُ مُسْتَقْبَلُهُ ، وَعَدُوُّهُ خَذَلَهُ اللَّهُ يُؤْمَلُهُ ؛ مَا يَسْتَفْرِغُ عِزَاتِمُ الرِّجَالِ ، وَيَسْتَفِدُّ نَحَائِنَ الْأُمُودِ ؛ وَيُوجِبُ لِإِمَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهَا قِيْلَتَهَا ، وَيُزِيحَ فِي قَتْلِ عَدُوِّهَا عِلَّتَهَا ؛ وَلَوْلَا أَنَّ فِي التَّصْرِيحِ ، مَا يَعُودُ عَلَى عَدَالَتِهِ بِالتَّجْرِيعِ ، لَقَالَ مَا يُبْكِي الْعَيْنَ وَيُبْكِي الْقُلُوبَ ، وَتَنْشَقُّ لَهُ الْمَرَاتِرُ وَتُسْقُ لَهُ الْحَيُوبُ ؛ وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُتَنَظِّرٌ لِنَصْرِ اللَّهِ مُرْتَقِبٌ ، قَائِمٌ مِنْ نَفْسِهِ بِمَا يَجِبُ ؛ رَبِّ إِنِّي لَا أُمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنْحَى ، وَهَاهُوَ قَدْ هَاجَرَ إِلَيْكَ هَجْرَةً يَرْجُوهَا عِنْدَكَ مَقْبُولَةً ، وَوُلِدِي وَقَدْ أَرْزَتْ لَعْدُوكَ صَفَحَاتٍ وَجُوهَهُمْ ، وَهَانَ عَلَى مَحْبُوبِكَ بِمَكْرُوهِي فِيهِمْ وَمَكْرُوهِهِمْ . وَتَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ ؛ وَإِنْ لَمْ يَشْكُ الدِّينُ إِلَى «نَاصِرِهِ» وَالْحَقُّ إِلَى مَنْ قَامَ بِأَقْوَلِهِ وَإِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ يَقُومُ بِأَنْحَرِهِ ؛ فَلِئْلِ مَنْ يُشْكِي الْبَثَّ ، وَعِنْدَ مَنْ يَتَفَرِّجُ بِالنَّقْثِ ؟ ، وَمَنْعَةُ النَّوْثِ قَبْلَ الْعَطَبِ ، وَالنَّجَاءُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْحِزَامُ الطُّبَّيِّينَ ، وَالْبَلَاغُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ السَّيْلُ الزُّبْنَ .

فِيَا عَصْبَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْلَفْهُ فِي أَمْتِهِ بِمَا تَطْمَئِنُّ بِهِ مَضَاجِعُهُ ، وَوَقِّهِ الْحَقُّ فِينَا ؛ فَإِنَّا وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكَ وَدَائِعُهُ، وَمَا مِثْلُ انْخِلَادِمِ نَفْسِهِ فِي هَذَا الْقَوْلِ إِلَّا بِجَهْلَةٍ مَنْ وَقَفَ بِالْبَابِ ضَارِعًا ، وَنَاجِيَ بِالْقَوْلِ صَادِمًا ؛ وَلَوْ رُفِعَتْ عَنْهُ الْعَوَائِقُ لَهَاجَرَ ، وَشَافَهُ طَيْبُ الْإِسْلَامِ بِلِ مَسِيحِهِ بِالْدَاءِ الَّذِي خَامَرَ ؛ وَلَوْ أَمِنَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ يَقُولَ قَرَّ لِسَافِرٍ ، وَبَعْدُ فَيَقِيهِ وَإِنْ حَصَّ الزَّمَانُ بَقِيَهُ ، وَقَبْلَهُ وَإِنْ تَدَارَأَتِ الشَّهَادَاتُ دَرِيَّهُ ؛ فَلَا يَزَالُ قَائِمًا حَتَّى يُنْصَرَ أَوْ يُعَدَّرَ ، فَلَا يَصِلُ إِلَى حُرْمِ ذُرِّيَةِ أَحْمَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ ذُرِّيَةِ أَيُّوبَ وَاحِدٌ يُذَكَّرُ .

أنجز الله لأمر المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْرِهِ ! وتَمِّمَ مَسَاعِدَ دَهْرِهِ ! وَأَصْفَى مَوَارِدَ إِحْسَانِهِ !
وَأَرَسَى قَوَاعِدَ سُلْطَانِهِ ! وَحَقَّقَ ظُهُورَ حِفْظِهِ بِهِ فَهُوَ خَيْرُ حَافِظٍ ، وَنَصْرُهُ وَنَصْرُ عَلَى يَدَيْهِ
فَهُوَ أَقْوَى نَاصِرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثم أعلم أن المَقَرَّ الشَّهَابِيَّ بنَ فَضْلِ اللَّهِ قد ذَكَرَ في "تَعْرِيفِهِ" أَيْضًا أَنَّ الْمَكْتَابَةَ
إِلَى أَبْوَابِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوْقَةِ لَا تَخْتَفِ ، بَلْ تَكُونُ عَلَى الْأَتَمُّوْدَجِ الْمُقْتَدِمِ
ذَكَرَهُ ، وَاسْتَلْزَمَ ذَلِكَ : جَفْرِيَّ عَلَى هَذَا الْمَصْطَلَحِ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ
الْحَاكِمِيَّ ، أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ : أَحَدِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ بِالْأَيْمَانِ الْمِصْرِيَّةِ ، عَنْ
رُمَّةِ الْبُنْدُقِ بِالشَّامِ ، جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِمْ ، وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ عَلَى رُمَّةِ الْبُنْدُقِ
يَوْمَئِذٍ فِي أَمْرِ نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ الْجَمْعِيِّ وَهُوَ أَحَدُ الرُّمَّةِ .

أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَ الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ ، الْمَوْلُويَّ ، السَّيْدِيَّ ، النَّبَوِيَّ ، الْإِمَامِيَّ ،
الْحَاكِمِيَّ ؛ وَنَصْرَهُ بِجَمْعِ الْإِيمَانِ ، وَبَشَّرَ بِأَيَّامِهِ الزَّمَانَ ، وَمَتَّعَهُ بِالْمُلْكِ الَّذِي
لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ بِمَا وَرِثَهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ؛ وَلَا زَالَ يَخْضَعُ لِمَقَامِهِ كُلُّ جَلِيلٍ ،
وَيُعْرِفُ لِأَيَّامِهِ كُلُّ وَجْهٍ جَمِيلٍ ؛ وَيُعْتَرِفُ لَشَرَفِهِ كُلُّ مُعْتَرِفٍ بِالْتَفْضِيلِ ، وَيَشْهَدُ
بِنَقَازِ أَوَامِرِهِ مِنْ قَوِيَّ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ كُلِّ أَيْخٍ وَخَلِيلٍ ؛ وَلَا كَانَ إِلَّا كَرَمُهُ الْمَأْمُولِ ،
وَدَعَاةُ الْمَقْبُولِ ، وَمُطَوِّهِ الْمَصْرُوعِ وَوَلِيِّهِ الْمَحْمُولِ ؛ وَلَا بَرِحَتْ طَاعَتُهُ يُعْقَدُ عَلَيْهَا
كُلُّ جَمْعٍ ، وَمَرَامُهُ يُنْصَبُ إِلَيْهَا كُلُّ سَمْعٍ ، وَطَوَائِفُ الَّذِينَ كَدَّبُوا عَلَيْهِ لَا تُنْثَلِ عَلَيْهِمْ
أَيَّامُهُ إِلَّا تَوَلَّوْا وَأَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ .

الْمَالِكُ يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بِالْأَبْوَابِ الْعَالِيَةِ الَّتِي هِيَ خُطَّةُ شَرَفِهِمْ ، وَمَكَانُ تَعْبُدِ
الْقَدَمَاءَ مِنْهُمْ وَمِنْ سَلَفِهِمْ ؛ وَيُلَوِّذُونَ بِذَلِكَ الْمَقَامِ ، وَيَعُوذُونَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي

لا يبعد نسبه من البيت الحرام؛ ويؤمنون ذلك الكرم الذى ما منهم إلا من سعد به طائره، وجاءته به فى وجه الصباح أشأثره؛ وفى وجه العشاء بشارته؛ فقالوا به أقضى المرام، وقضوا به من العمر ما إذا قالوا : ياسعد ! لا يعنون به إلا ذلك الإمام، ويتنمون إلى ما ورد به المرسوم الشريف الذى ما من المالك إلا من مات لديه بتقديم عبوديته ورقه، وسارع إلى طائره الميمون وحمله بسقيه؛ وفتح له عينه وظن أنه حاكم، وأمتلوا أمره وكيف لا تمتل الرماة أمر الحاكم؟، ولا سيما ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الامام الحاكم؛ وأجلوه عن رفته على العين إذ كانت تلك بمنزلة الحاجب، وقدموا إليه حقوق قلوبهم الطائرة وما علموا أن كانوا قاموا بالواجب؛ ووقفوا على أحكام حاكمه فما شكوا أن زمان هذا الفن بحياة ناصره فى بغداد قد عاد، وأن مثاله المتمثل فى سواد الخلق مما حكته أيامه العباسية من شعار السواد؛ وعلموا مارسم به فى معنى محمد بن الحنفى الذى ما نورت الليلة أكاريجته، ولا بعدت فى الإقصاد له تواريجته؛ بل أنحدت دموع ندمه نيرانه المشتعلة، وأصبح به لا يحمل القوس فى يده إلا أنه مشغله؛ وما كان أنهاه الديوان العزيز مما لم تذكر الخواطر الشريفة بأنه قبة المفتري، وأنه صاحب القوس إلا أن ماله سعادة المشتري؛ وأنه مؤه تمويه الجاحد، وتلون مثل قوس قزح وإلا فقوس البندق لون واحد؛ وأدلى بفروره، وعرض المحضر الذى حمله على تنويره؛ وذلك فى غيبة الأمير بهاء الدين أرسلان البندقدار الحاكمى، الذى لو كان حاضرا لكان محبة عليه، ومؤكدا لإبطال رميه وقوسه وبندقفه فى يديه؛ لما تضرعته الخطأ الشريف المقيد اللفظ المكتتب على المصطلح، الساحب ذيل نغاره على المقترح؛ الذى هدى إلى الخير، وبدا به مأوّه من الملك السليمانى الذى أوتي من كل شيء وطم منطق الطير؛ فإنه لم يكتب له إلا بأن يرمى على الوجه المرضي واستيفاء شروط البندق،

والخروج من جميع الأشكال عملاً بقواعده ؛ ويُعلم بأنه ما رعى حقَّ قُدْمتِه ، ولا فعل في البابِ العزيزِ ما يجبُ من التحلِّي بشعار الصِّدْق في خِدْمته ؛ وأنه خالف عادةَ الأدبِ ، وأخطأ في الكلِّ لكنه نَدَب ؛ وذلك بعد أن عَمِلَ له جميعُ رُمَاةِ البندق ، وسئل فأجاب : بأنه سألَم من كل إشكال يُشْكِل ، وأنه بعد أن أقعد رميَّ وحلَّ وحلَّ ؛ فشهد عليه السادةُ الأمراءُ ولأه العهد إخوة أمير المؤمنين ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهُم في المحضر ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة الممالك بالمواقف المقدَّسه ، ووضوح قضيتِه المدَّنسه : من التعجُّب من اعتراف الممالك ، لكونهم رموا معه بعد أن رأوا الخطَّ الشريف وهو لفظ مقيّد ، وأمرٌ أيّد به رأى الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيّد ؛ وكلُّ ما أمر به أمير المؤمنين لامتدّل عن طُرقه ، ولا جدالَ إلا به إذا ألْزِم كلُّ أحد طائرَه في عُقْبِه ، وأمير المؤمنين بحر لا يرد إلا من عليه ، وهو الحاكم ولا رادَّ لحُكْمِه . ولما آبن الحصى المذكور عديم السداد ، وخالف جاريَ العادة في الحِمص فإنه هو الذي سُلِق في الاقتراء باللسنة حداد ؛ ولم يُوقِف الممالك من الخطَّ الشريف إلا على بعضه ، ولا أراهم من برِّقه المتملّل غير ومضه ؛ والذي أوقفهم عليه منه أن يرعى محمد بن الحصى ويرعى معه ، وكلمة أمير المؤمنين مستمعه ، ومراسمُه متبّعه ؛ وإذا تقدّم كان الناس تبعه . غير أن المذكور بدت منه أمورٌ قطع بها الأمير صارم الدين صاروجا الحاكم البندقدار في حقه ، وأقعدَه عن قُدْمتِه التي كان يمتُّ فيها بسبقه ؛ وانتقل عنه غلبانُه ، وثقل عليه زمانُه ؛ وتوَدّى عليه في جمع كبير يزيد على تسعين قوسا ، وجُرح بخطا بُندقه جرحا لا يُوسى ؛ ثم بعد مدّة سنين توسّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين بتكر إلى أبيه ، وتوصّل به إلى مرّاميه ؛ فأمر أن يرعى معه وهُدِّد المخالف بالضرب ، ولم يرع معه أحد برضاه إلا خَوْف أن تُوقد نارُ الحرب ؛ فلما مضت تلك الأيام ، وانقضت

تلك الأعلام ، جمع مملوك الأبواب العالية الأمير علاء الدين بن الأيو بكرى الحاكم فى البندق الآن من رماة البندق جمعا كبيرا ، وأهتم به اهتماما كثيرا ؛ وذكر أمر المذكور ، وأحضر محضره المسطور ؛ ولم يكن عليه تعويل ، ولا فى حكم الحاكم المتقدم تمليل ، ولا عند هذا الحاكم الذى ادعى له وأدعى عنده تجوز الأباطيل ؛ وتحقق أن الحق فيما حكم به عليه قُبِعَ ، وترجح أن لأيقام منه من أقيد ولا يوصل منه ما قطع ، فنفذ حكم الحاكم المتقدم ، واستمر بقعوده المتحتم ، ووافقه على هذا سائر الرماة بالبلاد الشامية وحكامها ، ومن يرجع إليه فى الرماة وإحكامها ؛ وبطلت قُدْمة المذكور التى ذهب فيها عمره ضائعا ، وزمانه الذى لو اشترت منه ساعة بالعمُر لم يكن نافعاً .

ولما ورد الآن هذا المرسوم الشريف زاده الله شرفا قبلوا الأرض لديه ، وأوقفوا عليه حاكمهم المسئى فوقف له وعليه ؛ وجمع له جمعا لم يدع فيه من الرماة معتبرا ، ولا من يلقي القوس وترا ؛ ولا من إذا قعد كالعين جرى ماجرى ؛ ثم قرأ عليهم ما تضمن ، ودعوا لأمر المؤمنين ولم يبق منهم إلا من دعا أو أمن ؛ وتضاعف سرورهم بحكمه الذى رفع الخلل ، وقطع الجدل ، وقالوا : لا عذمتنا أيام هذا الحاكم الذى أنصف والإمام الذى عدل ؛ وبقى ابن الحمصى مثله ، ونودى عليه إنه من رعى معه كان مخطئا مثله ؛ ووقرت هذه المناداة فى كل مسمع ، وقرت استقرار الفضل عليه المجتمع ؛ وذلك بما فهم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضى الله به على لسان خليفته الحاكم والله أحكم الحاكمين ؛ وطالعوا بها وأنها صورة الحال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالت سعادة أمير المؤمنين منزلة عن الشبه ، آخذة من خير الدارين كل اثنين فى وجه ، حتى تحصل كل رمية من كذب ، ولا يرعى فى كل

أمنية إلا كل مصطحب ، ماغب في السماء المرزوم ، ووقع العقاب على ثنية يقرع
سنه ويتندم ، وعلا النسر الطائر والواقع على آفاره وسائر طيور النجوم والحوم ؛
إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد أعترض في " التثيف " كلام المقر الشهابي بن فضل الله
في " التعريف " فقال : وفيما ذكره في " التعريف " من التسوية في المكتبة بين
الملوك والسوقة نظرو . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذي تجب مكاتبتهم به
ما يكتب به المرعوس رئيسه بحسب ما تقتضيه الحال في ابتداء المكاتبات من يقبل
الأرض ، كما تكتب الملوك ، بل هم بذلك أحق وأجدر . ويكون الخطاب لهم
في أثناء المكتبة بما أشار إليه في " التعريف " بالديوان العزيز ، والمواقف المقدسة
أو المشرفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى ،
ومولانا أمير المؤمنين ، ونحو ذلك بحسب ما تقتضيه الحال على ما تقدم ذكره .

الطرف الثاني

(في المكتبة إلى ولادة العهد بالخلافة)

أما على المصطلح القديم حين كانت المكتبة إلى الخلفاء « لفلان من فلان »
فقال في " صناعة الكتاب " : ويكون التصدير في المكتبة إلى ولي العهد على
ما هتمم في المكتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء ، غير أنه جعل الفرق بين الإمام
وغيره من يكتب بالتصدير أن يقال للإمام في التصدير مع السلام : وبركاته ،
في أول الكتاب وآخره . ومن سوى الإمام تحلف وبركاته من التصدير وثبتت
في آخر الكتاب .

وقد تقدم أن التصدير إلى الخليفة حينئذ كان "لعبد الله أبي فلان فلان أمير المؤمنين ، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله . أما بعد ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين إلى آخره ، ويختتم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وحينئذ فتكون المكاتب إلى ولّى العهد على ما أشار إليه فى "صناعة الكتاب" من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : "لعبد الله أبي فلان فلان ولّى عهد المسلمين ، سلام على ولّى عهد المسلمين ؛ فإنى أحمد إلى الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : أطال الله بقاء ولّى العهد ، ويختتمه بقوله : والسلام على ولّى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته" أو نحو ذلك .

وأما على المصطلح الذى حدث بعد ذلك ، فقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكاتب إلى ولّى العهد بالخلافة : ضاعف الله تعالى جلال الجانب الشريف ، المولوى ، السيدى ، النبوى ، الفلانى ؛ ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى "التثقيف" لفظ الجانب بالجانب . والخطاب له بولانا وسيدنا ولّى العهد ونحو ذلك . والتعير عن المكتوب عنه بـ «الخادم يقبل العتبات الشريفة أو اليد الشريفة» أو نحو ذلك . قال فى "التثقيف" : والعلامة إليه «الخادم» والعنوان «الجانب الشريف» وبقية الألقاب المذكورة إلى آخرها .

قال : وهو أحسن من الجانب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجانب . قال : وهذا أيضا على عادة من تقدم من الملوك ، أما فى زماننا وقبله بمدة فنديدة ،

فلم يتفق وجودُ وليّ عهدٍ للخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكن الخليفة يُكاتبُ في هذه الأيام فكيف بوليّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردتها في "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالى جلالَ الجانب وأطلع مع وجود الشمس بذرَه التمام ، وأحوجَ مع زاهر البحر منه إلى مدد الغمام ، وقدمه إماماً على الناس وأطال بقاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عِدَمَ منه مع نظر والده الشريف جميلَ النظر ، ولا بَرَجَ صدرَ دَسْتِه العلى إذا غابَ وثانيه إذا حضر ، ولا زال الزمانُ مختلفاً من جُود وجودهما لاعرف الله الأنام قدره إلا بالزهر والتمر ، ولا زاد فيضُ كرم إلا وهو من كَفَّ أبيه فاض أو مِن وَبَلِه العميم أَنهمَر .

الخدام يخدم تلك العتباتِ الباذخة الشرف ، الناصخة بما وجده من الخير في تقبيلها قول من قال : لا خير في السرف . وينهى ولأَمَّ ما عُقد على مثله ضمير ، ولا آنقد شبيهه لولئ عهد ولا أمير ؛ وإخلاصه في أنماء أشرق منه على الجبين ، وأشرف فراه فرضاً عليه فيما نطق به القرءانُ ورُقِمَ في الكتاب المُبين .



صدر آخر : أعز الله أنصارَ الجانب الشريف ، ولا حجبَ منه سرّ ذلك الجلال ، ولا معنى ذلك البدر المشرق منه في صورة الهلال ، ولا فيضَ ذلك السحاب المشرع منه هذا الموردُ الزلال ، ولا تلك المآثر التي دلّ عليها منه كرمُ الخلال ، ولا تلك الشجرة المفترعة ولما امتدّ منها به من الفُضن الممتدّ الظلال ، ولا ذلك الإمام الذي هو وليّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

لخادم يقبّل تلك اليد مؤفياً لها بعهدہ [ومُضْفِياً منها لورده] ^(١) ومُضْفِياً منها
جَلَّابِ الشرف على عطفه، وحسبه نغارا أن يدعى في ذلك المقام بعبدہ؛ وبراہی
على تلك الأبواب، ويلئم ذلك الثرى ويرجو الثواب.



صدر آخر: ولا زالت عهود ولايته منصوبه، وإلآئه بعموم المصالح
مُحْصُوبه؛ وصفوف جُوشه كالْبُنيان مَرْصُوبه، وقوادم أعدائه بالحوالق
مُحْصُوبه، وبدائع أنبائه فيما حَلَقَتْ إليه دعوته الشريفة مَقْصُوبه [والوُفُود في أبوابه
أجنتها بالندى مَبْلُوءة مَقْصُوبَة] ^(١).

الخادم يحد بتلك الأعصاب خدمه، ويُرَاحِمُ في تلك الرّحاب خدمه، ويقف
في تلك الصفوف لاثقل عن الطاعة قَدَمُه، ويمثل بين تلك الوقوف ويميز عليهم
إذا ذُكر في السوابق قَدَمُه؛ ويُدلي بِجُجَج سبوفه [التي أشهرها، وصورفه التي لاقى
أشهرها، ومواقفه] ^(١) التي ما أنكرها الديوان العزيز مُدْ أُنْبَتَهَا، ولا حَطَّ رِمَاحَهَا
مذ أُنْبَتَهَا، ولا حَا سطورها، مذ كَتَبَهَا، لِيَغِظَ الأعداء ولا يَشْفِي صدورها، منذ كَتَبَهَا؛
وينهى كذا وكذا.



صدر آخر: ولا زالت مواعيد الظفر له منصوبه، ورؤوس من كفر بطوارقه
مَرْصُوبه، وصحائف الأيام عما يُسرُّ به الزمان فيه مَقْصُوبه، وجُفُونُ عِدَاه ولو
أتصلت بِمَقَلِ النجوم مَقْصُوبه، وطوارقُ الأعداء التي يُجْهِمُ منه بِسُوفِه مَعْصُوبه.
الخادم يخدم أرضه المقدسة بترامى قُبَلَه، وتقليب وجهه إلى قُبَلَه؛ ويتطوّف
بذلك الحرم، ويتطوّل من فَوَاضِل ذلك الكرم؛ ويتطوّق بِسَلَاتِدِ تلك المَنَنِ،

وفرائد تلك المواهب التي إن لم تكن له وإلا فنّ ؛ فإنه والله يشهد له لا يعتد بعد ولاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيم بأمور الدنيا والدين ؛ عليه الصلاة والسلام إلا ولآءها ، ولا يؤمل بعد تلك الآلاء إلا آلاءها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركة لأمله إثمارة ، ولا ليله إقمارا ؛ ولا لأيامه حافضا ، ولا لحال إقدامه في قدم صديق ولأمله لا فظا ؛ قائما في خدم هذه الدولة القاهرة يجهّد في منافعها [ويجهد في كبت مدافعها^(١)] ويذخر شفاعتها العظمى إذا جاءت كل أمة بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطرف الثالث

(من المصطلح المستقر عليه الحال ، في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إلى أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصود الأول

(في المكاتبات المقررة ، وفيه مسلكان)

المسلك الأول

(في بيان رتب المكاتبات ورتب أهلها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(المكاتبات إلى الملوك على ما كان عليه الحال في الزمن المتقدم

مما تعله يعود مثله ، وهي الدعاء للقائم ، وفيه مكاتبتان)

الأولى — المكتابة إلى ولي العهد بالسلطنة [وهي] على ما ذكره في "التنقيف" :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالي ، الملكتي ، الفلاني ، الأخوي ، أو الولدي ، إن كان أختا أو ولدا . ثم الدعاء اللائق به ، ثم يقال : « أصدرناها إلى المقام العالي

(١) الزيادة من "الترغيف" .

ويطالع علمه الشريف « والعلامة «أخوه» سواء كان أخًا أو غير أخ، و « والده » إن كان والدًا . ولم يذكر تعريفه ، والذي يظهر أنه يكتب له « ولى العهد بالسلطنة الشريفة » . ولم يذكر قطع الورق لهذه المكتبة ، والذي يظهر أنه فى قطع العادة على قاعدة المكتبات إلى أهل المملكة . قال فى « التنقيف » : ولعل هذه المكتبة نظير ما كتب به إلى الملك الصالح علاء الدين على ولد المنصور قلاوون : فإنه كان ولى عهد أبيه المذكور ، توفى فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلة كثيرة صدرت عنه بخلاص الحقوق ، وعلامته عليها « على بن قلاوون » .

الثانية — المكتبة إلى صاحب حماة من بقايا الملوك الأيوبية قبل مصيرها نيابة ، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، لما صارت إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره فى « التنقيف » فى قطع العادة : « أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف ، العالى ، السلطانى ، الملكى ، الأفضل ، الناصرى ، ونحوهما » . ثم الدعاء ، وبعده « أصدرناها إلى المقام الشريف » والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب حماة » . قال فى « التنقيف » : ولم يزل الحال على ذلك إلى أن عُزل عنها الأفضل المشار إليه بعد الأيام الشهيديّة الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستقر بها بعده نائباً الأمير طغاي الحموى أمير مجلس كان ، فبقيت نيابة بعده إلى الآن .

الضرب الثاني

(المكتبات إلى مَنْ عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم
من جرت العادة بمكاتبته، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(في رُتَب المكتبات، وهي على عشر درجات ^(١))

الدرجة الأولى

(الدعاء للمَقَرَّ)

وصورته على ما ذكره في "التثقيف": «أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقَرِّ الكريم،
العالِي، المُولَوِي، الأَمِيرِي، الكَبِيرِي، العَالِيِي، العَادِلِي، المُوَيَّدِي، الزَّعِيمِي،
العَوْنِي، الفَيَّاسِي، المُتَنَافِسي، المُرَاطِي، المَهْدِي، المَشِيدِي، الظَّهِيرِي، العَايِدِي،
النَّاسِكِي، الأَتَايِكِي، الكَفِيلِي، الفَلَانِي، مُعِزُّ الإِسْلَام والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ أُمَرَاءِ
العَالَمِينَ، نَاصِرُ الفُرَاة والمُجَاهِدِينَ، مَلِجُ الفُقَرَاء والمَسَاكِين، زَعِيمُ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ،
أَتَايَكِ العَسَاكِر، مَهْدُ الدُّوَل، مَشِيدُ المَمَالِك، عِمَادُ المِلَّة، عَوْنُ الأُمَّة، ظَهِيرُ المُلُوكِ
وَالسَّلَاطِين، عَضُدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ». ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب: مثل أن
يقال: «ولا زال عَزْمُهُ مُؤَيَّدًا، وَعِزُّهُ مُؤَيَّدًا، وَسَعْدُهُ عَلَى مِزْجِ الحَدِيدِينَ مُجَدَّدًا،
أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ أَمَّةٌ، وَمِنَ الثَّنَاءِ أَمَّةٌ». ثم يقال:
«وَتُبْدَى لِعَلَمِهِ الكَرِيمِ كَذَا وَكَذَا، وَمَرْسُومُنَا لِلْقَرِّ الكَرِيمِ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَمْرُهُ الكَرِيمُ بِكَذَا
وَكَذَا، فَيَحِيطُ لِعَلَمِهِ الكَرِيمِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ».

(١) لم يذكر غير ثمان درجات.

الدرجة الثانية

(الدعاء للجناب الكريم)

وصورته على ما أورده في "التثقيف" عما استقر عليه الحال «أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم، العالى، الأميرى، الكبيرى، العالى، العادى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغياثى، المتأخرى، المرابطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عز الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نصرة الفزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، سيف أمير المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل أن يقال: «ولا زالت عزائم مؤيده، وأوامره السعيدة مسنده؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه سلاماً طيباً، وثناءً مطنّباً؛ وتوضح لعلمه الكريم كذا. ومرسوماً للجناب الكريم أن يتقدم أمره الكريم بكذا وكذا؛ فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

قلت: والذى في "التعريف": «أعز الله تعالى أنصار الجناب الكريم، بإبدال نصرة بأنصار؛ واختلاف بعض الألقاب المتقدمة».

الدرجة الثالثة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعفة النعمة)

وصورته على ما في "التثقيف": «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى الأميرى، الكبيرى، العالى، العادى، المؤيدى، العونى، الزعيمى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عز الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نصرة الفزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، مقدم العساكر، مهد الدول، بشيد

الممالك ، عمادِ الملة ، عونِ الأئمة ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، سيفِ أمير المؤمنين » .
ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : « ولا زال قدره عاليا ، ومدحه متواليا ، وجيدُ
الدَّهرِ بحاسنه حاليا ؛ وتوضَّحَ لعلمه الكريم كذا ؛ ومرسومنا للجناب العالى أن يتقدَّم
أمره الكريم بكذا ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه » .

الدرجة الرابعة

(الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة)

وصورتها على ما أورده في " التتقيف " : « أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ،
الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الأوحدي ، النصيرى ، العونى ،
الحماى ، المقدمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ عزَّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء
في العالمين ، نُصرة الفُزاة والمجاهدين ، مقدِّمِ العساكر ، كهفِ الملة ، دُخرِ الدَّولة ؛
عمادِ المملكة ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، حُسامِ أمير المؤمنين » والدعاء والتصدير^(١)

المناسب ، مثل أن يقال : « ولا زال قدره رَفيعا ، وعِزُّه مَنيعا ، و
مرِيعا . صدرت هذه المكتوبة إلى الجناب العالى تهدي إليه سلاما طيبا ، وثناء
صليبا » ثم يقال : « وتوضَّحَ لعلمه المبارك كذا ، فيحيط علمه الكريم بذلك ؛ والله
تعالى يؤيده بمنه وكرمه » .

(١) يبايخ بالأصل ولعله وجنابه مرِيعا .

الدرجة الخامسة

(الدعاء للجلس بدوام النعمة)

ورسمها : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ، الأوحدي ، النصيرى ، الهماى ، المقدمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ، كهف الملة ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : « ولا زال عاليا قدره ، نافذا أمره ، جاريا على الألسنة حمده وشكره . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى تهدي له سلاما ، وثنا بسماء » ثم يقال : « وتوضع لعلمه المبارك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدم أمره المبارك بكذا ، فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه » .

الدرجة السادسة

(صدرت والعالى ، ويعبر عنها بالسامى بالياء)

وصورتها على ما فى " التثقيف " : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العزضى ، النخري ، النصيرى ، الأوحدي ، العونى ، الهماى ، المقدمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء المقدمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ، دُخر الدولة ، كهف الملة ؛ ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب ، مثل : « أدام الله سعادته ، وأجزل من خير بره وإفادته ، موصحة لعلمه المبارك كذا ؛ ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدم بكذا ، فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه » .

الدرجة السابعة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الأجلّى ،
الكبرى ، العضدى ، الذئرى ، النصيرى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ،
بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضد الملوك والسلطين » ثم الدعاء
مثل : «أدام الله سعادته ، وأجل من الخير عادته ؛ تتضمن إعلامه كذا ، ومرسومنا
للجلس السامى أن يتقدم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه» .

الدرجة الثامنة

«يعلم مجلس الأمير ، الأجل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، فلان الدين ،
مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضد الملوك والسلطين »
والدعاء ، مثل : « أدام الله سعده ، وأمنح قصده ؛ أن الأمر كذا ؛ ومرسومنا له
أن يتقدم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه» .

قلت : وقد تقدم فى أول المكاتب أنه يتعين أن يكون الدعاء للكتاب إليه
مناسبا للحال ، مثل أن يكون موافقا لاسم المكتوب إليه أو لقبه أو وظيفته ، أو محل
نبايته ، أو الأمر المكتوب بسببه : من أمستطلاع أمر ، واستهداف عزم ،
وقبح وظفر وبشارة وغيرها وما يجرى تجرى ذلك ، وتقدم هناك ذكر جملة من
الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نبذة من الأدعية والتصديرات اللائقة المتقدمة ، مما يدعى به
للنواب ومن فى معانهم ؛ ليقرب تناولها باقتراانه بصور المكاتبات .

الأدعية والصدور لتواب السلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالت كَفَائَتُهُ تَبْسُطُ الْمَعْدِلَةَ ، وعزائمه على الإنصاف والإسعاف مُشْتَمِلَةٌ ،
وتقدماته تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي قَصْدٍ أمله . أصدرناها إلى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إليه من السلام
أَكْمَلَهُ ، ومن الثناء الْحَسَنَ أَجْزَلَهُ ، وتُبْدِي .

آخر : ولا زالتِ الْمَالِكُ كُلُّهَا فِي كَفَائَتِهِ ، وَالْمَسَالِكُ عَلَى اخْتِلَافِ طُرُقِهَا آمِنَةٌ
إِلَى إِيَالَتِهِ ، وَالْمَلَالِكُ مَحْمُومَةٌ عَلَى بَنُوهِ مُحَقَّقَةٌ بِهَالَتِهِ ، وَالْأَرَائِكُ لَأَمْنٌ إِلَّا عَلَى دَسْتِ
نِفَارِهِ وَلَا تُعَدُّ إِلَّا بِلَجْلَالَتِهِ . أصدرناها إلى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ نَحْضُهُ بِأَفْضَلِ السَّلَامِ ،
وَأَطْيَبِ الثَّنَاءِ الْمَرْقُومِ عَلَى أَعْلَى الْأَعْلَامِ ؛ وَتُبْدِي .

آخر : ولا زالتِ كِفَايَةُ كَفَائَتِهِ تَزِيدُ عَلَى الْأَمَالِ ، وَتَقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِصَلَاحِ
الْأَعْمَالِ ، وَتَكْفُلُ مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَأَقْصَى الشَّمَالِ . أصدرناها إلى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
وَصَدْرُهَا بِذِكْرِ مَنْشَرِ ، وَبَيَرِهِ فَرِحَ ، وَبُعُولُ قَدْرِهِ أَيَامُنَا الزَّاهِرَةِ يُسَرُّ وَيُؤْمَلُ
مِنْهُ مَا يَزِيدُ عَلَى أَمَلِ الْمُقْتَرِحِ ، وَتُبْدِي .

أدعية تصلح لنائب الشام المحروس

و[لا زالت] ^(١) الْمَالِكُ [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدول [تسدّد] ^(١) بكفائته تسديدا
و[تسديد] ^(١) تسليدا . أصدرناها إلى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَضَاعَفُ أَجْزَاؤُهُ ،
وثناءً يَبْهِجُ الْخَوَاطِرَ سَنَاؤُهُ ، وَتُبْدِي لَعْلَمَهُ .

آخر : ولا زالتِ النُّفُوسُ يُثَبِّنُ كَفَائَتَهُ فَائِقَهُ ، وَالْخَوَاطِرُ فِي حُبَّتِهِ مُتَوَافِقَهُ ،
وَالْأَلْسُنُ بِشُكْرِ حِمَاسَتِهِ نَاطِقَهُ ، وَقُلُوبُ الْأَعْدَاءِ مِنْ بَاسِهِ وَمَهَابَتِهِ خَافِقَهُ . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيا المقام تمام الكلام .

إلى المقرِّ الكريم تُهْدَى إليه أنواعُ السلامِ المتناسبةِ وأجناسه المتناسِقة ، وتُنْتَبِى على أوصافه التي أَصْبَحَتِ الأَفْوَءُ في ذكرها صادِقة ، وتَبْدَى لعلمه .

آخر : ولا زالت عزائمُه مُرْهَفةَ الحَدِّ ، وَكَفَّاتُه كَفِيلَةُ بَنَاجِ القَصْدِ ، وَمَغَائِمُه في سبيلِ الله تُعْرِبُ عن الاجْتِهَادِ في قَهْرِ الأَعْدَاءِ وَالْحَدِّ . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المقرِّ الكريمِ تُهْدَى إليه سَلامًا يَفُوقُ شَدَاهُ العَبْرَ والنَّدَّ ، وَثَنَاءً مَجَاوِزًا أَبَدًا الحَصْرَ وَأَمَدًا العَدَّ ، وتَبْدَى لعلمه .

(١١) آخر : ولا زالت قلوبُ أهلِ الإيمانِ من كَفَّاتِه مؤتَلِفَة ، وَفَرَّقَ أَهْلَ من بَاسِه وَخَوْفِه مَخْتَلِفَة ، وَأَحْوَالَ أَهْلِ العِنَادِ بِجَمَلِ تَدْبِيرِه في أَسْتَطْلَاعِهَا وإِضْحَاقِهَا مُنْكَشَفَة . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المقرِّ الكريمِ تُنْتَبِى على هِمَّتِه التي لم تَزَلْ على المَصَالِحِ مَعْتَكِفَة ، وَتُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ شَمُوسُهَا مُشْرِقةٌ غَيْرُ نَكْسِفَةٍ ؛ وتَبْدَى لعلمه .

آخر : ولا زالت سعادَتُه بِحُكْمِ الأَقْدَارِ دَائِمَة ، وَالْمَعْدِلَةُ بِجَمَلِ حِلْمِه وَصَابِ رَأْيِه قَائِمَة ، وَالْعِيُونُ يُبَيِّنُ كَفَّاتِه في مِهَادِ أَمْنِه نَائِمَة . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المقرِّ الكريمِ تُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ طَيِّبَةُ المَسْرَى ، وَثَنَاءٌ حَسَنٌ وَصَفًا وَطَابَ ذِكْرًا ، وتَبْدَى لعلمه .

آخر : ولا زال النَصْرُ حُلِيَّةَ أَيَّامِه ، وَشَامَةُ شَامِه ؛ وَعِمَامَةُ مَا يَخْلُقُ على بِلَدِه المَخْضَرِّ من غَمَامِه . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المقرِّ الكريمِ بِسَلامٍ لَا يَرْضَى حَافِرُ جَوَادِهِ الهَلَالِ نَمْلًا ، وَلَا يَحْطِىُّ بِهِ إِلَّا بِلَدُهُ وَنَخَصَ مِنْهُ الشَّرَفَ الأَعْلَى ؛ وتَبْدَى لعلمه .

آخر : وَسَقَى عَهْدُهُ العِمَادَ ، وَشَفَى بَعْدْلَهُ العِبَادَ ، وَزَانَ بِهِ حُسْنَ بِلَدِه التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البِلَادِ ، وَهِيَ إِرْمُ ذَاتُ العِمَادِ . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى المقرِّ الكريمِ بِسَلامٍ تُسَرِّبُهُ النَفُوسُ ، وَيَطُوقُ بِهِ فَضْلُهُ الجَامِعُ وَتَحْتَلِي بِهِ العُرُوسُ ؛ وتَبْدَى لعلمه .

آخر : ووقى بسور جيوشه المتنعة ضرر الضراء ، وكبر بأسود جنوده ذئاب
الأعداء الضراء ، وسبق دهماء الليل وشبهاء النهار [وحمراء الشفق^(١)] وصقراء الأصيل
وشقراء البرق بسابقته الخضراء . أصدرناها إلى المقر الكريم بسلام بلا حلق
حدائقه ثورا ، وقلب عساكره سرورا .

أدعية وصدور

(تصلح لكل من النائب الكافل ، ونائب الشام ،

ومن في معناهما كالأمانيك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووصل المسار يعلمه الذي لا ينكر ، وحلمه الذي يشكر ،
وحكمه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أصدرناها إلى المقر الكريم بسلام
يسرع إليه ، وثناء يرد منا عليه ؛ وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الدول برأيه مقيلة السعود ؛ مترقية في الصعود ، مملوءة
الرحاب : تارة تبعث البعوث وتارة تغد عليه الوفود . أصدرناها إلى المقر الكريم
تهدي إليه من السلام أشرفه نجوما ، ومن الثناء أغدقه غيوما ؛ وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الممالك بأرائه مئيرة ، وبراياته لأعدائها وأعداء الله مئيرة ،
وبرؤياه لتضاءل الشمس المشرقة وتمجّل السحب المطيرة . أصدرناها إلى المقر
الكريم تهدي إليه من السلام دُرره ، ومن الثناء غُرره ، وتبدي لعلمه .

آخر : ولا برحت آرائه كالنجوم بعيدة المدى ، قريّة الهدى ، متبللة
كالغمام : للأعداء منها الصواعق وللأولياء منها الندى . أصدرناها إلى المقر الكريم
بسلام حسن الاقتراح ، وثناء كما نظم الوشاح ؛ وتبدي لعلمه الكريم .

(١) الزيادة من "التريف"

آخر : ولا بَرِحَتْ أَرَاؤُهُ تُنِيرُ غَيَاطِيبَ الْخُطُوبِ ، وَعِزَّائِمُهُ تُبَيِّرُ سَنَابِكَ الْجِيَادِ
لِلْجِهَادِ فَتُظْفَرُ مِنَ التَّائِيدِ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ ، وَصَوَارِيمُهُ تَفْتِكُ بِالْأَعْدَاءِ قَتْنَتِكَ مِنْهُمْ كُلَّ
سِتْرِ مَحْجُوبٍ . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا أَزْهَى مِنَ الزَّهْرِ ، وَأَبْهَى
مِنْ رَوْضٍ وَاقٍ نَضَارَتُهُ النَّظَرُ ، وَتَبْدَى لَعْلَمُهُ .

آخر : وَلَا بَرِحَ التَّائِيدُ يَصْحَبُ رَايَتَهُ ، وَالْعِزْمُ يَحْدُمُ عَزَمَتَهُ ، وَالرُّعْبُ يَوْمُ
طَلِيعَتِهِ ، وَالظُّفَرُ يَحْكُمُ فِي الْمَدْقِ سَيْفُهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ عَاصِي الْحُصُونِ عِصْمَتَهُ . أَصْدَرْنَاهَا
إِلَى الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ تُكَافِي بِمَزِيدِ الشُّكْرِ هِمَّتَهُ ، وَتُوَافِي إِلَيْهِ بِنَاءً وَاقٍ يَحْسُدُ الْمَسْكُ
نَفْتَتَهُ ، وَتَنْهَى لَعْلَمُهُ .

آخر : وَلَا بَرِحَتْ سَيُوفُهُ تَسِيلُ يَوْمَ الرُّوْعِ جَدَاوِلَهَا ، وَعِزَّائِمُهُ تُنْصَرُ
كُتَابُهَا وَجَاهِلُهَا ، وَمَنْزِلَتُهُ عَلَى مِزَازِ الزَّمَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ كَيْنِ مَنْزِلَتِهَا . أَصْدَرْنَاهَا إِلَى الْمُقْتَرِّ
الْكَرِيمِ تُثْنِي عَلَى عَاسَتِهِ الَّتِي بَهَرَتْ أَوْصَافُهَا ، وَأَخْتَالَتْ فِي مَلَابِسِ الْحَمْدِ أَعْطَافُهَا ،
وَتَبْدَى لَعْلَمُهُ .

أدعية وصـدور

(تصلح لثائب حلب المحروسة)

دعاء من ذلك : وَلَا زَالَ يُعَدُّ لِيَوْمِ تَشْيِيبِ مِنْهُ الْوِلْدَانِ ، وَيُعَدُّ دُونَهُ
[كُلُّ مُحَارِبٍ ^(١)] يَتَنَّهُ وَبَيْنَ الشَّهَاءِ وَالْمَيْدَانِ ، وَيُعْمُ حَلَبَ مَنْ حَلَى أَيَّامَهُ مَا لَا يُفْقَدُ
مَعَهُ إِلَّا أَسْمُ آبْنِ حَمْدَانَ .

فَإِنْ كَانَ لِقَبِّهِ سَيْفُ الدِّينِ ، قِيلَ « وَيُعْمُ حَلَبَ مَنْ حَلَى أَيَّامَهُ مَا لَا يُفْقَدُ مَعَهُ
سَيْفُ الدِّينِ إِنْ قُدِّدَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْإِجْتِهَادِ

(١) الزيادة من "التصريف" .

الكریم تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا مَامَرَةً عَلَى رَوْضٍ إِلَّا أَتَهَبَ طَيْبَةً نَهْبًا، وَثَنَاءً تُعَقِّدُ لَهُ أَعْلَامُهُ
عَلَى كَتِيبَتِهِ الشُّهْبَا؛ وَتَوْضُّعٍ لِعَلَمِهِ .

آخِرُ : وَفَتَحَ بِسُيُوفِهِ الْفَتْحَ الْوَجِيزَ، وَأَحْلَلَ عَقَائِلَ الْمَعَاقِلِ مِنْهُ فِي الْكَتَفِ
الْحَرِيرِ، وَأَعَادَ بِهِ رَوْنَاقَ بِلَدٍ مَاجِفَتْ بِهَا زُبْدَةُ حَلَبٍ وَهُوَ فِيهَا الْعَزِيزُ . صَدَرَتْ هَذِهِ
الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ بِسَلَامٍ ذَهَبُهُ لَا يَلْتَهَبُ، وَثَنَاءٍ لَا تَنْصُلِحُ لِفَرِيقَةِ الشُّهْبَاءِ
قَلَادَةُ عَنَبِهِ الْأَشْهَبِ، وَتَوْضُّعٍ لِعَلَمِهِ الْكَرِيمِ .

آخِرُ : وَلَا زَالَتْ هِمَّتُهُ مُطَلَّةً عَلَى النُّجُومِ فِي مَنَازِلِهَا، مُطَاوِلَةً لِلْبُرُوقِ بِمَنَاصِلِهَا،
قَائِمَةً فِي مَصَالِحِ الدُّوَلِ مَقَامَ بَحَافِلِهَا . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ
تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا كَالدُّرَرِ، وَثَنَاءً طَوِيلَ الْأَوْضَاحِ وَالْفُرَرِ؛ وَتَبْدَى لِعَلَمِهِ .

آخِرُ : وَأَمَدَهُ بَعُونُهُ، وَجَمَلَهُ بَصُونُهُ، وَلَا زَالَ رَأْيُهُ فِي التَّقْيِضِينَ؛ لِهَذَا سَبَبَ
فَنَائِهِ وَلِهَذَا عَلَّةُ كَوْنِهِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
رَطِيًّا، وَشُكْرًا يَكُونُ عَلَى مَا تُخْفِي الصُّدُورُ رَقِيًّا؛ وَتَوْضُّعٍ لِعَلَمِهِ .

آخِرُ : وَأَعْلَى لَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ قَدْرًا ، وَضَاعِفٌ لَدَيْهِ مِنْ لَدُنْهُ سُرُورًا
وَبِشْرًا، وَلَا أَعْدَمَ الْمَمَالِكَ مِنْ عِزَائِهِ تَأْيِيدًا وَنَصْرًا . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى
الْبَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا يُفَوِّقُ الزَّهَرَ، وَيَسَاقِي فِي سَيْرِهِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؛
وَتَبْدَى لِعَلَمِهِ .

آخِرُ : وَخَصَّهُ بِجَمِيلِ الْمَنَاقِبِ، وَمَنَحَهُ مِنَ الْمَزِيدِ عَلَوَّ الْمَرَاتِبِ، وَضَاعَفَ لَدَيْهِ
مِنَ الْإِيثَارِ شَرِيفَ الْمَوَاهِبِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا كَرَمٌ وَقُوْدُهُ، وَثَنَاءً حَسَنٌ وَصَفُهُ وَعَذَبٌ وَرُودُهُ؛ وَتَوْضُّعٍ لِعَلَمِهِ .

آخر : ولا زالت الخواطرُ تشهدُ منه صدقَ المحبة ، والنفوسُ تتحققُ أنه قد جعل
النصيحةَ لأيماننا الشريفةَ دأبه . صدرت هذه المكتبةُ إلى الجنبِ الكريمِ تُهدى إليه
سلاماً زاكيةً أقسامه ، وثناءً كُلَّ عَقْدِهِ وَأَتَسْقِ نِظَامُهُ ؛ وتوضيحَ لعلمه الكريم .

آخر : وزاد عَزَمَهُ المَبَارَكُ تأييداً ، وَمَنَحَ نِعَمَهُ على مِمَّا تَمَرَّ الأوقاتِ مَرِيداً ، وجعل
حَظَّهُ من كُلِّ خيرٍ سَعِيداً ، وسعده بتجديد الأيامِ جَدِيداً . صدرت هذه المكتبةُ إلى
الجنبِ الكريمِ تُهدى إليه تحيةً حَسَنَ إهداؤها إليه ، وثناءً يُنبِجُ الخواطرَ ورُودُهُ
عليه ؛ وتوضيحَ لعلمه .

آخر : وجعل السعدَ المؤبَّدَ من مَنَامِهِ ، وأقامه لإبقاء الخيرِ في معادِنِهِ وإثباتِ
العزِّ في معلمه . صدرت هذه المكتبةُ إلى البابِ الكريمِ تُهدى إليه تحيةً طابَ نَشْرُها
العاطر ، وثناءً أبهجَ ذِكْرُهُ الخاطر ؛ وتوضيحَ لعلمه .

آخر : ولا زال بالملائكة منصُوراً ، وبمَزِيدِ النعمِ مَسْروراً ، وبكُلِّ لسانٍ
موصوفاً مشكوراً . صدرت هذه المكتبةُ إلى البابِ الكريمِ تُهدى إليه سلاماً يَضُوعُ
نَشْرُهُ ، وثناءً يَفُوحُ عِطْرُهُ ، وتوضيحَ لعلمه .

دعاء وصدور

(يصلح لنائب السلطنة بطرابلس^(١))

[وهو من هذه النسبة وما لا يعد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيامه التي مارقت على مثلها أشجار ، وعدت في مناقبه
العُقول التي تَحَار ، وأخذ بنواصي الأعداء بيده لا تتأى بهم البرارى المُقفرة
ولا تحصنهم الجوار .

(١) ظهر من لحوى المقام أن هنا سقطاً من قلم الناصح . وقد تداركناه من "التعريف" وضمنناه بين قوسين
هكذا [] تيمناً للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسهمه التى يدرأ بها
العدا فى نحرها، وشاء مطرب ترقص به الخيل فى أعتها والسفن فى بحرها .

دعاء آخر وصدر

ولا زالت صفوفه تشد بنان الحرب، وسيوفه تعد للقتل وإن قيل للضرب،
ويجوفه تجر على بلد مامله فى شرق ولا حصل على غير المسعى منه غرب .
صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تهدي إليه سلاما يزيد أفقه تزيينا، وشاء
يأتيه من فائق الدر بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصدر

(يصلح لنائب السلطنة بحمة)

وإنم يخنمه كل مبه، ويهمه كل مسره، وصان ماويله أن يكون به غير النهر
«العاصى» أو ينسب إليه سوى البلد المعروف « معزه » .
صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تهدي إليه سلاما تمسح أنديته بالسحاب،
وشاء يأتى به حماة وقرونها المنشورة بالويته معقودة الذوائب .

(١) دعاء آخر وصدر

وحى حماه، وزان موكبه بأحسن حماه، وحسن كائن سهامه التى لا يصلح لها
غير بلده حماه (١) .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تهدي إليه سلاما تحمله إليه الركائب
السائرة، وشاء تشرق منه الكواكب أضعاف ما تزيه أفلاك الدواليب الدائرة،
وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [تداركاه من التعريف لينظم به الكلام فليأمل .

دعاء وصدر

(يصلح لنائب صفد)

وَشَكَرَ هِمَمَهُ الَّتِي وَفَتْ ، وَعَزَّائِمَهُ الَّتِي كَفَتْ ، وَأَعْلَىٰ بِهِ بَلَدًا مَّدُّ وَلَيْهِ قِيلَ :
صَفْدٌ قَدْ صَفَّتْ . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالی تُهْدَىٰ إِلَيْهِ سَلَامًا
لَا تَزَالُ شَعَائِرُهُ تُقَامُ ، وَثَنَاءٌ مَّدُّ هَبَّ عَلَىٰ بَلَدِهِ قِيلَ : إِنَّ هَوَاءَهَا يَشْفِي الْأَسْقَامَ ،
وَتَوْضِعُ لِعَالِمِهِ .

آخر : وَلَا زَالَتْ مَسَاعِيهِ تَسَوَّقُ إِلَيْهِ الْحُطُوطُ ^(١) [البطية] وَتَقَدَّمُ لَهُ الْعَلِيَاءُ مِثْلَ
الْمَطِيَّةِ ، وَتَهْتَبُهُ بِمَا خُصَّ بِهِ مِنْ صَفْدٍ وَهِيَ الْعَطِيَّةُ ؛ [صدرت هذه المكتبة
إلى الجنب العالی تُهْدَىٰ إِلَيْهِ سَلَامًا يَحْيِيهِ فِي مَحَلَّةٍ ، وَثَنَاءٌ يُوَدِّعُ فِي مَعْقِلِهِ الَّذِي لَا تَصِلُ
أَعْلَى الشَّوَاغِحِ إِلَّا إِلَى مَا سَفَلَ مِنْ ظِلِّهِ ^(١)] وَتَوْضِعُ لِعَالِمِهِ .

ادعية وصدر

(تصلح لكل من ثواب طرابلس وحماة وصفد ومن في معانهم)

دعاء وصدر من ذلك : وَلَا يَرِحُ مَنْصُورَ الْعَزَمَاتِ ، مَسَدًّا فِي الْأَرَاءِ
وَالْحَرَكَاتِ ، مَشِيدًا قَوَاعِدَ الْمَالِكِ بِمَالِهِ مِنْ جَمِيلِ التَّقْدِمَاتِ . صدرت هذه المكتبة
إلى الباب العالی تُهْدَىٰ إِلَيْهِ سَلَامًا أَرْجَا ، وَثَنَاءً يَهْبِجَا ؛ وَتَوْضِعُ لِعَالِمِهِ .

آخر : وَلَا زَالُ سَيْفُهُ مَاضِيًا ، وَجَيْدُهُ حَالِيًا ، وَضِدُّهُ خَاسِيًا . صدرت هذه
المكتبة إلى الجنب العالی تُهْدَىٰ إِلَيْهِ سَلَامًا ، وَتَسَدَّدُ لِأَرِيهِ الصَّائِبِ سِهَامًا ،
وَتَوْضِعُ لِعَالِمِهِ .

آخر : ولا زالت آراؤه سعيده ، وتأثيراته حميده ، ومُيوّفه لرقاب العدا .
مُبيده . صدرت هذه المكاتبه إلى الجنب العالى تُهدى إليه سلاماً يتأرجح ، وثناءً
نشره نشر الثوب المديح ؛ وتوضع لعلمه .

آخر : ولا زالت آراؤه عالياً ، وأجياده حاليه ، ونعم الله عليه متواليه . صدرت
هذه المكاتبه إلى الجنب العالى تُهدى إليه السلام التام ، والثناء الوافر الأقسام ؛
وتوضع لعلمه .

أدعية وصـدور

(تصلح لثائب الكرك ومن في معناه من رتبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيد عزمه ، وأبد حزمه ، وفوق إلى نحر العدا سهمه .
صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاماً ، وتُسند رأيه الصائب
سهماً ، وتوضع لعلمه .

آخر : ولا زال عالياً قدره ، نافذاً أمره ، جارياً على الألسنة حمده وشكره .
صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاماً ، وثناءً بسماء ، وتوضع لعلمه .

المهيّـع الثاني

(في بيان مرّاتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه
كلّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أرباب السيوف ، وهم على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصناف)

الصنف الأول

(تُوّاب السلطنة الشريفة ، وهم أربعة تُوّاب)

الأول — النائب الكافل : وهو نائب السلطنة الشريفة بالحضرة . وقد تقدّم
في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه أعلى تُوّاب السلطان رتبةً .
قال في "التتيف" : "وقلّ أن يُكاتب إلا إذا كان السلطان مسافراً في غزاةٍ أو سرّحة
للصيد .

ورسم المكاتبـة إليه على ما ذكره في "التعريف" : أعزّ الله تعالى أنصار الجناح
الكريم على ما تقدّم في الدرجة الثانية من الدرجات العشر^(١) . قال في "التعريف" :
وقد رأيت بعض الكُتّاب قد كتب في ألقابه بعد الأُميرى « الأمرى » . قال :
والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ في المعرفة وليس بحجّة ، وكاتبته الأمرى ليست بشيء ،
ولأنما حمله عليها كثرة الملق . وقد نقل في "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

في تعريفه « نائب السلطنة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذي أراه أن يُجَمَّع ذكر النيابة والكفالة في تقليده ، فيقال : « أن يُقَلَّدَ نيابة السلطنة المعظمة ، وكفالة الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مصرًا وشامًا وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما في تعريف الكتب ، فقد جرت عادة ثواب الشام أن تقتصر في كتبها إليه على « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعمري في ذلك مَقْتَعٌ وإن في الاقتصاد عليها ما هو أكثرُ نفعًا . وعليه عمل أكثر الكُتَّاب بديوان مصر أيضًا ، ويؤيِّده أنهم مقتضون فيما يكتب بإشارته على هذا التعريف ، فأعلم ذلك .

ورسمُ المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال ، على ما ذكره في « التثقيف » : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقَرِّ الكريم ، كما في الدرجة الأولى من الدرجات العشر ، والعلامة إليه « أخوه » . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . قال في « التثقيف » : وإنما كُتِبَ له أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقَرِّ ، وزيدت ألقابه على ما كانت عليه لما كُتِبَ بذلك لنائب الشام في ولاية بيدمر الخوارزمي ، وكافلُ المملكة يومئذ الأمير مَتَجَك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكون نائبُ الشام مميزًا على كافل السلطنة ، على ما سيأتي في الكلام على مكتبة نائب الشام .

قال في « التعريف » : أما نائبُ الغيبة ، وهو الذي يُتْرَك إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلا لإيحاء النوائر وخلاص الحقوق ، فخُجِّجَ حكمه في المكتبة إليه .

الثاني — نائب بئر الإسكندرية المحروس : وهو ممن أَسْتُحْدِثَتْ نِيَابَتُهُ في الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» عند طُرُوق العدو المَخْذُول، في سنة سبع وستين وسبعائة من الفَرَج المَخْذُولين .

ورسم المكتبة إليه : ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي، على ما تَقَدَّمَ ذكره، إلا أنه لَا يُقَالُ في ألقابه «الكافلي» والعلامةُ الشريفةُ له «والده» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة ببئر الإسكندرية المحروس» .

وَأَعْلَمُ أن بالإسكندرية حاجباً يَكْتَبُ عن الأبواب السلطانية . قال في «التتقيف» : ورسمُ المكتبةِ إليه : «هذه المكتبةُ إلى المجلس السامي» إن كان طبلخناه، و«يَعْلَمُ مجلس الأمير» إن كان عشرةً، والعلامةُ الشريفةُ له الأسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ ببئر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجه القبلي : وقد تَقَدَّمَ أن مَقَرَّ ولايته مدينةُ أَسْبُوَطَ ، وأنَّ أَسْتُحْدَاتِ نِيَابَتِهِ كان في الدولة الظاهرية «برقوق» في سنة ثمانين وسبعائة .

ورسم المكتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي على ما تَقَدَّمَ ذكره . ولا يُقالُ فيه «الكافلي» أيضاً ، والعلامةُ الشريفةُ «والده» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلي» .

الرابع — نائب الوجه البحري : وقد تَقَدَّمَ أن مَقَرَّ ولايته مدينةُ دَمَنْهَوْرِ الوَحْش من أعمال البحيرة ، وأن نِيَابَتَهُ أَسْتُحْدِثَتْ بعد نيابة نائب الوجه القبلي، ولذلك لم يَتَعَرَّضْ له في «التتقيف» .

ورسم المكتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي كما في نائب الوجه القبلي . والعلامةُ الشريفةُ له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه البحري» .

الصنف الثاني (الكشاف)

وقد تقدم أنه كان قبل استقرار نيابتي الوجهين : القبلي والبحري كاشفان بالوجهين المذكورين : كاشف بالوجه القبلي ، وكاشف بالوجه البحري . فلما استقرت نيابتان ، استقر بالقيوم والبهنساوية كاشف ، وبالشرقية وما قاربها كاشف ؛ وكل منهما أمير طبليخاناه .

ورسم المكتبة إلى كل منهما : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي والعلامة لكل منهما الاسم الشريف ، وتعريف كاشف القيوم » الكاشف بالقيوم والبهنساوية « وتعريف الآخر » الكاشف بالوجه البحري » .

الصنف الثالث

(الولاية بالوجهين : القبلي والبحري)

وكل من ولاية الوجهين لا يخرج عن طبليخاناه أو عشرة وما في معناها كالعشرين ونحوها .

فأما الوجه القبلي ، ففيه ستة ولاة ، منهم ثلاثة طبليخاناه : وهم والى قوص وإنعيم . ووالى الأشموني . ووالى البهنسا .

ومنهم ثلاثة عشرات : وهم والى الحيزية ، وكان قبل ذلك طبليخاناه . ووالى إطفح . ووالى منقوط . وكان قبل ذلك طبليخاناه ، وهو اليوم إمارة عشرين .

وأما الوجه البحري ، ففيه سبعة ولاة : منهم ثلاثة طبليخاناه . وهم والى الغربية . ووالى المنوفية . ووالى الشرقية . وكان بدمهور والى طبليخاناه قبل استقرارها نيابة .

ومنهم أربعة عشر، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أَشْمُوم : وهى الدَقَهْلِيَّة
والْمُرْتاحِيَّة . ووالى دِمِياط . ووالى قَطِيَّا .

ورسم المكتبة إلى كلٍّ من ولاية الطبلخانا منهم : « هذه المكتبة إلى المجلس
السامى » وإلى كلٍّ من ولاية العشرات منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة لكل
من الطبلخانا والعشرات الاسم الشريف ، وتعريف كل منهم « والى فلانة » .

الصنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدمة الذكر:

لَكَشَفَ الجسور وعمارها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغلال)

قال فى "التعريف" : فمن كان منهم طبلخانا ، فرسم المكتبة إليه السامى بالياء .
ومن كان منهم عشرة ، فرسم المكتبة إليه السامى بغير ياء . والعلامة للجميع الاسم
الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجه بسببها ، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المِصْرِيَّة)

وقد رتبهم فى "التعريف" على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — مقدّموا الألوْف ، وقد ذكر أنّ لُجَارهم أسوة بكَار التَّوَاب بالمالك
الشامية ، كالشام وحلب . ولأوسطهم [أسوة أوسطهم] كحماة وطرابلس وصفد .
(١)

(١) الزيادة من "التعريف" ، وهى ساقطة من قلم الناصح .

ولأصغرهم أسوة أصغرهم، كغزة وخص. ثم قال: فاعلم ذلك وقس عليه. ثم قال بعد ذلك: والذي تقوله أن لكبار المقدمين بالأبواب السلطانية «الجناب الكريم» [ثم الجناب العالى] ثم «المجلس العالى». وهذا على ما كان في زمانه؛ أما على ما استقر عليه الحال آخرًا، فإنه يكون لكبارهم «المقر الكريم» كما يكتب للأتابك الآن، ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى».

المرتبة الثانية — الطليخانات. قد ذكر أن منهم من يكتب له «المجلس العالى» كن يكون معينًا للتقدمة، وله عدة ثمانين فارسًا أو سبعين فارسًا أو نحو ذلك، وكالمقرين من الخاصية، أو من له عرافة تسب كبقايا الملوك، أو أبواب وظائف جلية: كحاجب كبير، أو استدار جليل، أو مدبر دولة لم يصرخ له بالوزارة، أو وادار متصرف. ثم قال: وهؤلاء وإن كتب لهم بالمجلس العالى، فإنه يكتب لهم بغير افتتاح بالداء، والكتابة لهم بالعالى على سبيل العرض لا الاستحقاق، وإلا فاجل رسم مكتبة أمراء الطليخاناه «السامى» بالياء والجمهورهم «السامى» بغير ياء.

المرتبة الثالثة — العشرات. وذكر أن لكل منهم «مجلس الأمير»، ثم قال: فإن زيد قدر أحد لسبب ما، كتب له «المجلس السامى» بغير ياء.

المرتبة الرابعة — مقدمو الجند. وقد ذكر أن لهم أسوة أمراء العشرات في المكتبة. ثم قال: وأما الجند، فالأمير الأجل. وأما جند الأمراء فالطواشى. وكأنه يريد ما إذا كتب بسببهم مكتبة أو كتب لأحد منهم توقيع، وإلا فالجند لا يكتب أحد منهم عن الأبواب السلطانية حتى ولا ثواب القلاع بالشام، كما سياتى ذكره هناك إن شاء الله تعالى.

الصنف السادس

(العُربان بالديار المصرية وبرقة)

وقد تقدّم الكلام عليه مستوفى في الكلام على أنساب العرب ، فيما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى . وقد ذكر في " التعريف " أن العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري جماعات كثيرة وشعوب وقبائل . ثم قال : ولكنهم على كثرة أموالهم وآساع نطق جماعاتهم ، ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من يُنجد ولا يُثبم ، ولا يُعرق ولا يُثبم ، ولا يخرجون عن حدود الجدران ، وعلى كل حال * فالمندل الرطب في أرجائه حطب * .

ثم قد قسم منازلهم إلى الوجه القبلي والوجه البحري ، وذكر أن بكل من الوجهين من يكتب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البحري فعلى ضربين :

الضرب الأول

(عرب البحيرة)

قال في " التعريف " : وأما وهم عرب الديار المصرية . قال : وهم أشبه القوم بالتخلف بجلائق العرب في الحلّ والترحال ، يُغريون إلى القيروان وقابس ، ويفدون على الحضرة السلطانية وقود أمثالهم من أمراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم في زمانه ، كانت في محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم . وقال : إن رسم المكتبة إلى كل منهما : « هذه المكتبة إلى المجلس السامي ، الأمير ، والعلامة السلطانية » أخوه . ولم يتعرض لتعريفهما ، والذي يظهر أن تعريف كل منهما اسمه .

(١) في الاصل : أبدالهم ، وهو تصحيح والتصحيح من " التعريف " .

أما بعده ، فقد تغيّرت تلك الأحوال ، وتناقصت رتبةُ عرب البُحيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمَّة ، كان منهم في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رَحَاب ، وموسى^(١) بن خَضِر ، وأولاد بَدْران الغَريبي ، ومن جرى مجراهم ، ثم صار اليوم بها بن رَحَاب ، وخضر بن موسى .

الضرب الثاني

(عربُ الشَّرقية)

وقد ذكر في «التعريف» : أنه كان في زمانه منهم نَجْم بن هِجَل شيخ عائد . وذكر أنه دون محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم : أميرُ عرب البُحيرة . ثم قال : ورسم المكتبة إليه : «هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيّرت الأحوال بعد ذلك وصارت رئاسةُ عرب الشرقية متداولةً^(١) في جماعة ، إلى أن كان منهم في الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسى أمير^(١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أولاً في^(٢) ثم قُتل بسيف السلطان في الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وأستقر مكانه

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .



وأما عرب الوجه القبلي ، فقد ذكر في " التعريف " أنه كان منهم في زمانه
تفران : أحدهما ناصر الدين عمر بن فضل . وذكر أن رسم المكتبة إليه « هذه المكتبة
إلى المجلس السامي » أيضا . وثانيهما سئمة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَم ، وشوكة
مُنِيكية ، يغزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتي بالتهاب والسبايا ، وله أثر محمود ، وفعل
مأمور . وفد على السلطان وأكرم مثواه ، وعُقد له لواء وشُرف بالتشريف ، وقُلد ذلك ،
وكتب إلى ولاة الوجه القبلي عن آحرهم وسائر العربان به بمساعدته ومُعاضدته ،
والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشور بما يفتح من البلاد ، وتقليد بإمرة
العربان القبلية مما يلي قُوص إلى حيث تصل غايته . ثم قال : ورسم المكتبة إليه
" السامي الأمير " كمن تقدم .

قلت : ثم كان بعد ذلك عدد من أمراء العربان ، كان آحرهم أبو بكر بن
الأحذب . ثم لما انتقلت هَوَارة إلى الوجه القبلي ، صارت الإمرة فيهم في الصعيد
الأدنى ، في بني غريب ، وأميرهم الآن ^(١) وفي الصعيد الأعلى في بني عمر ،
وأمرهم محمد بن عمر ، ورسم المكتبة إلى كل منهما ^(٢)

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بياض لهذا كما بياض لما قبله آنتظارا لوضع مثال المكتبة
الجارية في زمانه فأخبرته النية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقَةٍ ، فقد ذكر في "التعريف" أنه لم يبقَ منهم في زمانه مَنْ يَكْتَابُ إلا جَعْفَرُ بْنُ عَمْرٍ ، وأنه كان لا يزال بين طاعةٍ وعِصْيَانٍ ، وعِشَانَةٍ وَلِيَانٍ ؛ وأن أمراءَ عربِ البُحيرة كانت تُقَرِّى به ، وتغيّرُ خاطرُ السلطان عليه ، وأن الجيوشَ كانت تمتدُّ إليه ، وقُلَّ أن ظَفِرَتْ منه بطائل ، أو رجعت بِمَغْنَمٍ إن أصابته نوبَةٌ من الدهر . وكان آخر أمره أنه ركب طريقَ ألواحٍ حتى نرج من الفيوم ، وطرقَ بابَ السلطان لائذاً بالعفو ، ولم يُسَبِّقْ به خَبَرٌ ، ولم يعلم السلطانُ به حتى استأذن المستأذنُ عليه وهو في جملة الوقوف بالباب ؛ فأكرم أتمَّ الكرامة ، وشُرفَ بأجل التشاريف ، وأقام مئةً في قِريِّ الإحسان وإحسان القِريِّ . وأهلُه لا يعلمون بما جرى ، ولا يعرفون أينَ يَتِمُّ ، ولا أىَّ جهةٍ نَحَا ، حتى أتتهم وافدات البشائر . وقال له السلطان : لأىَّ شىءٍ ما علمتَ أهلك بقصدك إلينا؟ قال : خِفتُ أن يقولوا : يَفْتِكُ بك السلطان ، فاتَّبط . فاستحسن قوله ، وأفاض عليه طَوَّله ؛ ثم أعيد إلى أهلِه ، فاقبل بنعمة من الله وفضل لم يحسسه سوء ، ولا رَوَى له صاحب ، ولا شَمِتَ به عدُو .

النوع الثانى

(من يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقاليم ،

وهم على ضربين :)

الضرب الأول

(أرباب الدواوين من الوزراء ومن في معانهم)

قال في "التعريف" ولم تزل مكتبةُ أجداء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية «الجناب العالى» . وكُتِبَ بالشام للصاحب عز الدين

أبي يعلى، حمزة بن القلاقي^(١) رحمه الله، بلالة قدره، وسابقة خدمه، وعناية من كتب إليه بها. ثم قال: والذي أستقر عليه الحال للوزير بمصر «الجناب». أما من يجرى مجرى الوزراء ولا صريح له بها: مثل ناظر الخالص، وكتاب السر، وناظر الجليش، وناظر الدولة، وكتاب الدست، و«السامي» بالياء، ومن دون هؤلاء فغير ياء؛ ثم «مجلس القاضي أو الصنر».

قلت: وكأنه يريد ألقاب هؤلاء في الجملة، إما في مكتبة تكتب بسبب أحد منهم، وإما في توقيع ونحوه يكتب لأحدهم؛ وإلا فنذكره من الأصاغر لا يكتب عن الأبواب السلطانية عادة. والذي صرح في «التتيف» بذكر المكتبة إليه من هذا الضرب نفران:

الأول — كاتب السر إذا تحلف عن ألقاب السلطاني لعارض. وذكر أن رسم المكتبة إليه: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة».

الثاني — ناظر الخالص الشريف. وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال في أيام ابن تقي «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «الاسم» وتعريفه «ناظر الخواص الشريفة».

قلت: ولم يتعرض لمكتبة الوزير، إنما ذكر ألقابه في الألقاب العامة مما يكتب في الولايات وغيرها، ولا يستغنى عن ذكر المكتبة إليه؛ وقد تقدم في كلام صاحب «التعريف» أن الذي استقر عليه الحال في المكتبة إليه «الجناب العالي» ولم يعين صورة الدعاء له. والذي ذكره في «التتيف» في ألقابه أن الدعاء له «ضعف الله

(١) في «التعريف» القلاقي.

تعالى نعمته » وحينئذ فتكون المكتابة إليه إن كتب إليه « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي » بالألقاب السابقة .

الضرب الثاني

(أرباب الوظائف الدينية والعلماء)

قد ذكر في " التعريف " أن كلاً من قضاة القضاة بمصر يكتب له « المجلس العالي » والمختص بها يكتب له « السامى » بالياء ، ومن دونهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم « السامى » بغير ياء ، ومن دونهم « مجلس القاضى » أو « الشيخ » بحسب ما يليق به . وكأنه يريد مطلق الألقاب كما تقم في غيره ، وإلا فهؤلاء لا يكتبون عن الأبواب السلطانية . ولم يذكر في " التنقيف " مكتبة لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوى قاضى القضاة تاج الدين الإخنائى المالكى ، وقد حجّ في سنة سبع وستين وسبعائة في الدولة الناصرية « حسن » ، جواباً عما ورد منه ، وكتب له الدعاء و « المجلس العالي » . والعلامة الأسم . قال : وأما قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فإنه كان يُحج ويحاور كثيراً ، ولكنى لم أره كتب له قط ، وأنا شاك في أمره .

قلت : رأيت في " إيقاظ المتغفل " لابن المتوج ، أنه كتب إليه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالى أحكام المجلس العالي » ولم يتعرض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاة الشافعية أو المالكية بالديار المصرية » .

النوع الثالث

(من يَكْتَبُ عن الأبواب السلطانية ممن بالديار المصرية الخوئدات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تدعو الضرورة إلى مكاتبته لسفره أو لسفر السلطان)

وقد ذكر في "التتيف" منهن جماعة، نذكرهن ليكن أمودجا لمن يكون في معناهن .

الأولى — ابنة المقام الشريف الشهيد الناصري « محمد بن قلاوون » لما كانت بحلب مع زوجها أبي بكر بن أرغون ، كتب إليها ما صورته : « الذي يحيط به علم الحرمة الشريفة ، العالمة ، المصونة ، الولدية ، عصمة الدين ، جلال النساء ، شرف الخواتين ، سليلة الملوك والسلاطين ، ضاعف الله تعالى جلالها ، والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيئة بحلب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانية — طغاي زوجة المقام الشريف الناصري المشار إليه ، المعروفة بأم أنوك ، كتب إليها لما توجهت إلى الحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة ، العالمة ، المعظمة ، المحجبة ، المصونة الكبرى خوند خاتون ، جلال النساء في العالمين ، سيدة الخواتين ، قرينة الملوك والسلاطين » . ثم الدعاء ، والعلامة الاسم الشريف ، وتعريفها «والدة المقر الكريم الولدي السيئ أنوك» : والأسطر على ما تقدم في المكاتب السابقة .

الثالثة — أخت المقام الشريف الناصر حسن جهة الامير طاز ، كتب لها لما كانت بالحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة العالمة الكريمة المحجبة المصونة الكبرى الخاتون ، جلال النساء في العالمين ، جميلة المحجبات ، جليلة المصونات ، كريمة الملوك والسلاطين ، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجة الست حَقَق . كُتِبَ لها وهى بالحجاز الشريف عن الناصر حسن : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبرى المحجبة المصنوية الحاجة الوالدية ، جلال النساء فى العالمين ، بركة الدولة ، والدّة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء والعلامة الأسم الشريف ؛ وتعريفها « الحاجة ست حَقَق » .

الخامسة — والدّة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجُّهها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالب ، فكان يمكن أن يُكْتَبَ لها بتقيل اليد .

قلت : وصورة المكتبة على ما رأيته فى بعض الدساتير : « ضاعف الله تعالى جلالَ حجاب الجهة الشريفة العالية الكبرى ، المعظمة المحجبة العصى الخاتونى ، جلال النساء فى العالمين ، سيدة الخواتين ، جميلة المحجبات ، جليلة المصنونات ، والدّة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء ، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقَى فى قطع الفرخة بالطول كاملة بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القسم الثاني

(مَنْ يَكْتُبُ بِالْمَلَائِكَةِ الشَّامِيَّةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ)

النوع الأول

(أَرْبَابُ السُّيُوفِ مِنَ النَّوَابِ الْكُفَّالِ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَهِيَ ثَمَانُ نِيَابَاتٍ)

النِّيَابَةُ الْأُولَى

(نِيَابَةُ دِمَشْقَ، الْمَعْبُورُ عَنْهَا فِي عُرْفِ الزَّمَانِ بِالْمَمْلَكَةِ الشَّامِيَّةِ)

وَالْمَكْتُوبُونَ بِهَا عَنْ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ضَرْبَانِ :

الضرب الأول

(مَنْ بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ)

الأول — كَافِلُ السُّلْطَانَةِ بِهَا، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مُقَدِّمِي الْأُلُوفِ . وَكَانَ رَسْمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ الْمَقَرُّ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التَّعْرِيفِ" : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ» . قَالَ فِي "التَّحْقِيفِ" : وَلَمْ تَزَلِ الْمَكْتُوبَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الدَّوْلَةِ الشَّيْخِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ إِلَى آخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمِيرُ بِيَدِهِمُ الْخَوَارِزْمِيُّ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ بِهَا فِي وَلايَتِهِ الثَّالِثَةِ، فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ «شُعْبَانَ بْنِ حُسَيْنٍ» فَاسْتَقَرَّ رَسْمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ» عَلَى الرَّسْمِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ إِلَيْهِ «أَخُوهُ» وَتَعْرِيفُهُ «نَائِبُ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْمُحْرُوسِ» . قَالَ فِي "التَّحْقِيفِ" : «أَوْ كَافِلُ الْمَمْلَكَةِ الشَّامِيَّةِ الْمُحْرُوسَةِ» وَلَا يُقَالُ فِي نَعْوَتِهِ : كَافِلُ السُّلْطَانَةِ .

الثانى — نائب قلعة دِمَشْق . ورسمُ المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى » على ماتقدم رسمه . والعلامة « والده » . قال فى « التثقيف » :
ثم أستقرت المكتبة إليه « السامى » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له
الاسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث — حاجب المُجَّاب بها . ورسمُ المكتبة إليه : « أدام الله تعالى
نعمة المجلس العالى » على ماتقدم رسمه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه
« أمير حاجب بالشام المحروس » .

الضرب الثانى

(مَنْ بأعمال دمشق من ثواب المُدْن والقلاع، وهم خمسة ثواب)

الأول — نائب خِص ، قال فى « التثقيف » : كان يكتبُ إليه نظير نائب
الكَرْك ، يعنى « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » والعلامة الشريفة له « والده »
مَّا كان من مقدّمى الألوف بالشام ، ثم أستقر من أمراء الطبلخاناه ، وأستقرت
مكاتبتة « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » فيما أظن ؛ وقد تقدّم رسمها .
والعلامة الشريفة له الاسم الشريف ، وتعريفه « النائب بحص المحروسة » .

الثانى — نائب الرِّجبة . وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنه كان
من حقّها أن تكون من مضافات حلب . ورسمُ المكتبة إليه « صدرت هذه
المكتبة إلى المجلس العالى » على ماتقدم رسمه . والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه
« النائب بالرِّجبة » .

الثالث — نائب بعلبك . قال في "التتيف" : إن كان من أمراء الطبلخاناة فكاتبته « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » والعلامة له الاسم الشريف . وإن كان من العشرات ، فالمكتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » والعلامة له الاسم الشريف وتعريفه « النائب بعلبك المحروسة » .

الرابع — نائب مصياف . وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها كانت مضافة إلى طرابلس في جملة قلاع الدعوة ، ثم استقرت في مضافات الشام . ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامى » والعلامة الشريفة له الاسم الشريف .

الخامس — نائب القدس الشريف . وهو من استحدثت نيابته في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وكانت قبل ذلك ولاية وهو طبلخاناة ، وربما أضيف إليه نظر الحرمين : حرم القدس ، وحرم الخليل عليه السلام . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بالقدس الشريف » .

قال في "التتيف" : وكان قد استقر بأماكن تُذكر من البلاد الشامية ثواب ، واستقرت مكتبة كل منهم : إن كان مقدما « صدرت » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناة « السامى » بالياء والعلامة الاسم الشريف . وهى تدمر ، والسحنة ، والقرينان ، وسليمة . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن الثواب بالقلع الشامية جماعة لم تجر لهم عادة بمكتبة عن المواقف الشريفة ، ولا تصدر ولايتهم من الأبواب الشريفة ، بل نائب الشام مستقل بذلك . وهم نائب عجلون ، ونائب صرخد ، ونائب الصبيبة ، ونائب شقيف أرثون .

قال : ومن كُتِبَ إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمال الدين يوسف شاه الأتابك بمِصْياف في سنة أربع وسبعين وسبعائة على يد نافع بن بدران . ورسم ما كتب به إليه « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » وكُتِبَ فى ألقابه « الأتابكى » . وكتب تعريفه « يوسف شاه الأتابك » . قال : والظاهر أن العلامة « والده » .

النيابة الثانية

(نيابة حلب)

والمكتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة حلب ، وهم ثلاثة)

الأول — النائب بها . وهو من أكابر مقدمى الألوף . ورسم المكتبة إليه « أعز الله تعالى نصره الجناح الكريم » على ما تقدم رسمه . والعلامة الشريفة له « أخوه » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة » .

الثانى — نائب القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » على ما تقدم رسمه . والعلامة له الأسم الشريف . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بحلب المحروسة » .

الثالث — حاجب الحجاب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه « أمير حاجب بحلب المحروسة » .

الضرب الثاني

(مَنْ بِأَعْمَالِ حَبَّ مِنَ التَّوَابِ ، وَهُمْ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ نَائِبًا)

الأول — نائب البيرة . ورسم المكاتبه إليه « المجلس العالى » . والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه « النائب بالبيرة المحروسة » .

الثانى — نائب قلعة المسلمين المعروفة بقلعة الروم . ورسم المكاتبه إليه والعلامة كذلك^(١) . وتعريفه « النائب بقلعة المسلمين المحروسة » .

الثالث — نائب ملطية^(٢) . ورسم المكاتبه إليه والعلامة الشريفة كذلك ، وتعريفه « النائب بملطية المحروسة » .

الرابع — نائب طرسوس . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بطرسوس » .

الخامس — نائب آذنة . ورسم المكاتبه إليه والعلامة له كذلك ، وتعريفه « النائب بأذنة المحروسة » .

السادس — نائب الأبلستين . ورسم المكاتبه إليه والعلامة الشريفة له كذلك ، وتعريفه « النائب بالأبلستين المحروسة » .

السابع — نائب بهسنى . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب ببهسنى المحروسة » .

قال فى « التثقيف » : ولم يعلم لأحد من أرباب السيوف قديماً « والده » مع « السامى » بإياه غيره .

(١) أى « المجلس العالى » و « والده » مثل الذى قبله .

(٢) سواه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامه تقول به بتشديد الراء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس « وتشديده لجن » .

الثامن — نائب آيأس^(١) . وهو المعبر عنه بنائب الفتوحات الجاهليّة . قال في "التثقيف" : إن كان مقدّمًا فالمكتبةُ إليه بنسبة مكتبة نائب البيرة ، فيكون رسم المكتبة إليه «صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس العالى» والعلامة «والله» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الاسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآيأس^(١)» أو «النائب بالفتوحات الجاهليّة المحروسة» .

التاسع — نائب جعبر . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" «هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الاسم ، وتعريفه «النائب بقلعة جعبر المحروسة» .

العاشر — نائب عيتاب . ورسم المكتبة إليه على ما في "التثقيف" «يُعلم مجلس الأمير» والعلامة الاسم ، وتعريفه «النائب بعيتاب المحروسة» .

قال في "التثقيف" : ورأيت بخط القاضي ناصر الدين بن الشائى أن مكتبة الاسم و«السامى» بغيرياء . ثم قال : وما تقدّم هو ما استقر عليه الحال آخرًا . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أميرُ طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعيتاب» .

الحادى عشر — نائب درندة . قال في "التثقيف" : إن كان طبلخاناه ف«السامى» بغيرياء ، وإن كان عشرة ف«مجلس الأمير» والعلامة الاسم بكل حال ، وتعريفه «النائب بدرندة» .

الثانى عشر — نائب القصير . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه «يُعلم مجلس الأمير» والعلامة الاسم ، وتعريفه «النائب بالقصير» .

(١) تقدم للوف في ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهزّة المدودة . وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثالث عشر — نائب الرّأوئدان . ورسم المكاتبه إليه كمثل نائب القصير ،
وتعريفه « النائب بالرّأوئدان » .

الرابع عشر — نائب الرّها . قال في «التتيف» : جرت العادة أن يكون نائبها
طليخاناه ، فتكون مكاتبته « السامى » بغير ياء ، والعلامة الاسم . ثم قال : وقد
استقرّ في الأيام المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعائة مقدّم ألف ، فقد
يكتب إليه نظير نائب البيرة وقلعة المسلمين ، يعنى فتكون مكاتبته « صدرت »
و « العالى » . والعلامة « والدّه » وتعريفه بكل حال « النائب بالرّها » .

الخامس عشر — نائب سَيْر . قد ذكر في «التتيف» أن مكاتبته «هذه المكاتبه
الى المجلس السامى» فتكون العلامة الاسم ، وتعريفه « النائب بسَيْر » .

السادس عشر — نائب كُرْكُر . ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في «التتيف»
« يعلم مجلس الأمير » فتكون العلامة الاسم ، وتعريفه « النائب بكُرْكُر » .

السابع عشر — نائب الكَحْتَا . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
بالكَحْتَا » .

الثامن عشر — نائب بقراس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببقراس » .

التاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالدَّرْبَسَاك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفندكار . ذكر فى "التتيف" أن رسم المكاتبه إليه كذلك . ثم قال فى "التتيف" لكنى رأيت بخط القاضى ناصر الدين بن النشائى أن مكاتبته الأسم و «السامى» بغير ياء، يعنى « هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » . قال : وما يعدُّ أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقر عليه الحال ما تقدم .

قلت : وقد ذكر فى "التتيف" ست قلاع استجذت مكاتبه نوابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم : وهم نائب حجر شغلان ، ونائب كوى ، ونائب قلعة كولاك ، ونائب قلعة بارى كروك ، استجذت مكاتبته فى سنة ستين وسبعائة ، ونائب قلعة كاورا ، استجذت مكاتبته فى سنة تسع وستين وسبعائة ، ونائب كرزال ، استجذت مكاتبته فى سنة سبع وسبعين وسبعائة . ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم . والذى يظهر أن رسم المكاتبه إلى كل منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الأسم ، والتعريف «النائب بفُلانة» . وحينئذ فيكون المكاتبون من نواب أعمال حلب سبعة وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابُلُس)

والمكاتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة طرابُلُس ، وهم اثنا)

الأول — نائب السلطنة بها ، ورسمُ المكاتبه إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجنتاب العالى » على الرسم المتقدم . والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة » .

الثانى — الحاجب بطرأبلس . ورسم المكاتبه إليه « صدرت » و « العالى » .
والعلامة « والده » وتعريفه « امير حاجب بطرأبلس المحروسة » . وليس بطرأبلس
قلعة فيكتب إلى نائبا .

الضرب الثانى

(مَنْ بأعمال طرأبلس من التواب ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(تَوَابِ قِلاعِ نفس طرأبلس ، وهم سبعة تَوَابِ)

الأول — نائب الألاذقية . ورسم المكاتبه إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة
الاسم ، وتعريفه « النائب بالأذقية » .

الثانى — نائب صهيون . ورسم المكاتبه إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة
الاسم ، وتعريفه « النائب بصهيون » .

الثالث — نائب حصن الأكراد . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن الأكراد » .

الرابع — نائب بلاطس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببلاطس » .

الخامس — نائب المرقب . ورسم المكاتبه إليه كذلك .

السادس — نائب حصن عكار . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن عكار » .

الصنف الثانى (نواب قلاع الدعوة المضافة إلى طرابلس)

وهى : قلاع الإسماعيلية الذين يُسمون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهادية . وكانت سبع قلاع فأضيفت مضاف منها إلى دمشق على ما تقدم فى الكلام على المسالك والممالك ؛ وبقي من مضافات طرابلس ست قلاع ، وهى الكهف ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والحوانى ، والرصافة . ومكتبة كل منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الاسم . وتعريف كل منهم « النائب بقلانة » .

النيابة الرابعة (نيابة حماة)

والمكاتبون بها ضرب واحد بمدينة حماة خاصة ، وهما اثنان :
الاول — نائب السلطنة بها . وقد تقدم فى أوائل هذا الطرف أنها كانت بيد بقايا بنى أيوب ، يطلق عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولونها من ملوك مصر إلى أن كان آخرهم الأفضل محمد بن المؤيد عماد الدين إسماعيل فى الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون ، ثم صارت نيابة بعد ذلك يتداولها النواب نائباً بعد نائب . ورسم المكتبة إلى نائبها « ضاعف الله تعالى نعمة الجتاب العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » . والعلامة الاسم ، وتعريفه « الحاجب بحماة المحروسة » .

قال في "التتيف" : ولم يكن بها قلعة فيكتب إلى نائبا . قلت : وليس بأعمالها ثواب فيكتب إليهم إنما بها ولادة يكتبون عن ثوابها .

النيابة الخامسة

(نيابة صفد)

والمكتبون بها ضرب واحد أيضا ، وهم من المدينة خاصة وهم ثلاثة :

الأول — نائب السلطنة بها . ورسم المكتبة إليه « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي » . والعلامة « والله » . وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بصفد المحروسة » .

الثاني — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم . وتعريفه « الحاجب بصفد المحروسة » .

الثالث — نائب القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بصفد المحروسة » .

قلت : ولم يكن بأعمالها ثواب فيكتبون عن الأبواب السلطانية ، بل بها ولادة يكتبون عن نائبا خاصة كما تقدم في حماة .

النيابة السادسة

(نيابة غزّة)

والمكتّوبون بها أيضا ضرب واحد، وهم من المدينة خاصّة، وهما اثنان :

الأول — النائب بها . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنه إن اجتمع له البلاد الساحليّة والجلبيّة ، عبّ عنه بنائب السلطنة ؛ وإن قصّر أمره على البلاد الساحليّة فقط ، عبّ عنه بمقدّم العسكر وكان تحت أمر نائب دمشق . وبكل حال فإن رسم المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالى » والعلامة « والده » . ثم إن أضيف له الجهتان قيل في تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزّة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الاسم ، وتعريفه « الحاجب بغزّة المحروسة » .

قلت : وليس بعملها ثواب ، بل ولأه يكاتبون عن نائبها أو مقدّم العسكر بها . إلا أنه قد استُحدث في أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكتبة كاشف الرّملة ، واستقرّت مكاتبته « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » . والعلامة الاسم ، وتعريفه « الكاشف بالرّملة » .

النيابة السابعة

(نيابة الكرك)

والمكتّوبون بها من المدينة خاصّة، وهما اثنان :

الأول — نائب السلطنة بها . ورسم المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . والعلامة والده » ، وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بالكرك » .

الثاني — وإلى القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « وإلى القلعة المنصورة بالكرك المحروس » . قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكتبُ ولا بأعمالها ثواب ، بل ولادةٌ يكتبون عن النائب بها خاصةً .

النيابة الثامنة

(نيابة سيس)

وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنها مما استجّدت فتحه في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » . وقد ذكر في « التتقيف » أن مكتبة النائب بها كانت « ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالي » كخائب طرائلُس ومن في معناه . ثم قال : وقد صحّ لي بعد هذا أنه استقرّت مكاتبته نظير غزّة . وهي « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالي » . والعلامة حينئذ « والدّه » ، وتعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزة »^(١) وما ذكره آخرًا هو المستقرّ عليه الحال إلى آخر وقت . قال في « التتقيف » : ولم أطلع على مكتبة الحاجب بها . ثم قال : وما يبعد أن يكون « مجلس الأمير » لأنه فيما أظن أمير عشرة . قال : وإن كان طبلخاناه ، فالأسم و« السامي » بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائب قلعة كما ذكره في الكلام على ثواب القلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما في « التتقيف » يبنى التنبّه لهما .

(١) لعلها سيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدة فيمن هذا أكار التواب : كنواب القلاع والحجاب ونحوهم أن المكتوب إليه إن كان مقدما ف«والده» و«صدرت» و«العالى» . وإن كان طبلخاناه فالأسم و«السامى» بغير ياء . وإن كان عشرة ، فالأسم و«مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكتبات السابقة ، بل يُنظر من هو مستقر في ذلك الوقت ويكتب إليه بما تقتضيه رتبته ، فإنه تارة تكون عادة تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقر عشرة وبالعكس ، وتارة تكون طبلخاناه يستقر فيها مقدم ألف وبالعكس . والعبرة في ذلك بحال من هو مستقر حال الكتابة ، خلا ما هو مستقر من قديم الزمان لا يتغير مثل مكتبة نائب بهسنى ونحوه .

وثانيتها — أن نائب السلطنة بدمشق ، ونائب السلطنة بحلب ، ونائب السلطنة بطرابلس ، ونائب السلطنة بحماة ، ونائب السلطنة بصفد ، ونائب السلطنة أو مقدم العسكر بغزة ، ونائب السلطنة بالكرك ، ونائب السلطنة بالقُدس الشريف يكتب إليهم في جليل كل أمر وحقيقه من المهمات السلطانية وخلّاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نواب القلاع والتواب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحجاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا في المهمات والأمور السلطانية : إما في مثال شريف مفرد لأحدهم ، أو في مطلق شريف عام لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك في الهدى بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلى كل واحد منهم مثال بمفرده ، خلا الحجاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النوع الثاني

(مَنْ يَكْتَبُ بِالْمَالِكِ الشَّامِيَّةِ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ، وَهُمْ صَفَنان)

الصنف الأول

(أَرْبَابُ الْوُظَائِفِ الدِّيَوَانِيَّةِ)

والذي يَكْتَبُ مِنْهُمْ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ الْوَزِيرُ بِمَشَقٍّ، أَوْ نَاطِرُ النَّظَارِ الْقَائِمُ مَقَامَهُ،
حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ لَهُ بِالْوِزَارَةِ .

أَمَّا الْوَزِيرُ بِمَشَقٍّ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّهُ كُتِبَ لِلصَّاحِبِ عِزُّ الدِّينِ
أَبِي يَعْلَى حِمَازَةُ بْنُ الْقَلَاقِسِيِّ ^(١) « الْجَنَابِ » لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ، وَسَابِقَةِ خِدْمَتِهِ، وَعِنَايَةِ
مَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَأَنَّ الَّذِي آسَتْقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ لِلْوَزِيرِ بِالشَّامِ « الْمَجْلِسُ الْعَالِي »
بِالدَّعَاءِ . كَمَا كُتِبَ لِلصَّاحِبِ « أَمِينُ الدِّينِ » أَمِينُ الْمَلِكِ فِي وَزَارَتِهِ فِي الْأَيَّامِ
النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » « ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ، الْقَاضِي،
الْوَزِيرِ، الْأَجَلِّيَّ، الْكَبِيرِيَّ، الْعَالِيَّ، الْعَادِلِيَّ، الْمُؤَيَّدِيَّ، الْأَوْحَدِيَّ، الْقَوَائِمِيَّ،
النِّظَامِيَّ، الْمُدَبَّرِيَّ، الْمَاجِدِيَّ، الْأَثِيرِيَّ، الْمَشِيرِيَّ، الْفَلَائِيَّ، صَلَاحُ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الْوُزَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ، رَئِيسُ الْأَمْرَاءِ، كَبِيرُ الرُّؤَسَاءِ، بَقِيَّةُ الْأَصْحَابِ،
مَلَاذِ الْكُتُبِ، عِمَادُ الْمَلِكِ، خَالِصَةُ الدَّوْلَةِ، مُشِيرُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، وَلِيُّ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ » . وَالدَّعَاءُ، ثُمَّ « صَدَرَتْ » . وَالْعَلَامَةُ « أَخُوهُ » . وَتَعْرِيفُهُ « مُدَبِّرُ
الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ » .

قَالَ : وَلَمْ يَكْتُبْ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ . ثُمَّ قَالَ : وَاسْتَقَرَّ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ
حَسَنِي، الصَّاحِبُ نَغْرُ الدِّينِ بْنِ قَرْوِينَةَ وَزِيرًا بِالشَّامِ أَيْضًا عَلَى قَاعَةِ جَدِّهِ لِأَمِّهِ،
أَمِينُ الدِّينِ الْمَذْكُورِ . وَلَمْ أَعْلَمْ مَا كُتِبَ بِهِ : هَلْ كَمَا كُتِبَ لِحَدِّهِ الْمَذْكُورِ أَوْ دُونَهُ ؟ .

(١) فِي "التعريف" الْفَلَائِيَّ . (٢) سَاقَطَ مِنْ "التعريف" وَلَعَلَّهُ مِنَ النَّاسِخِ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر في "التتيف" أن المكتبة إليه «حرس الله تعالى
مجد المجلس العالى، القضائى، الكبيرى، العالمى، الفاضلى، الكاملى، الأوحدي،
الرئيسى، الأثيرى، القوامى، النظامى، المنقذى، المنصرفى، العلماى، مجد الإسلام
والمسلمين، سيد الرؤساء فى العالمين، أوحده الفضلاء، جلال الكبراء، حجة الكتاب،
صفوة الملوك والسلطين، خالصة أمير المؤمنين». والدعاء ثم «صدرت». والعلامة
الاسم، وتعريفه «ناظر النظار بالشام المحروس» .

قال في "التتيف" : وهذا هو الذى استقر عليه الحال إلى آخر وقت .

الصنف الثانى

(القضاة والعلماء) .

قد ذكر في "التعريف" : أن المكتبة لقاضى القضاة الشافعى بالشام بـ«المجلس
العالى» ولم يذكر صورتها . قال في "التتيف" : والذى كُتِبَ به الشيخُ تقي الدين
السبكي رحمه الله، وهو قاضى القضاة بالشام : «أعز الله تعالى أحكام المجلس العالى،
القاضوى، الكبيرى، العالمى، العالمى، الأفضلى، الأكلى، الأوحدي، البليغى،
الفريدى، المفيدي، النجيدى، القدوى، الحجى، المحققى، الإمامى، الأصيلى،
الموفقى، الحاكى، الفلانى، جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين،
أوحده الفضلاء المفيدين، قدوة البلغاء، حجة الأمة، عمدة المحققين، نفع المدرسين،
مفتي المسلمين، جلال الحكام، حكم الملوك والسلطين، ولّى أمير المؤمنين» .
والدعاء ثم «صدرت هذه المكتبة». والعلامة «أخوه» . وتعريفه «قاضى القضاة
بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعد أنه كان يُكْتَب في نُعُوتِهِ : « صَبْرُ الشَّام ، مِعْزُ السَّنَةِ ، مُؤَيِّدُ الْمِلَّةِ »
قال في « التَّنْقِيفِ » وكانت مَكَاتِبُهُ « شَمْسُ الشَّرِيعَةِ ، رَئِيسُ الْأَصْحَابِ ، لِسَانُ
الْمُتَكَلِّمِينَ » ، ولم يَمِيزْ مَكَانَهَا . قال : وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى وَلَدِهِ قَاضِي الْقَضَاءِ
تَاجُ الدِّينِ السَّبْكِ ، وَهُوَ قَاضِي الْقَضَاءِ بِالشَّامِ غَيْرَ مَرَّةٍ . ثم زِيدَ فِي أَلْقَابِ أَخِيهِ
الشَّيْخِ بَهَاءِ الدِّينِ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ فِي الْقَضَاءِ بِالشَّامِ مَكَانُهُ بَعْدَ الْقَاضِي « الشَّيْخِي »
وَبَعْدَ الْحَقَّقِيِّ « الْوَرَعِيِّ » ، الْخَاشِعِيِّ ، النَّاسِكِيِّ ، الْإِمَامِيِّ ، الْعَلَامِيِّ ، الْأَصِيلِيِّ ،
الْعَرِيقِيِّ » . وَزِيدَ فِي تَعْرِيفِهِ بَعْدَ جَلَالِ الْحُكَامِ « بَرَكَةُ الدَّوْلَةِ » .

النوع الثالث

(مَنْ يَكْتُبُ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَةِ الْعُرْبَانَ)

فَدَقِّقْ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَنْسَابِ الْعَرَبِ فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى ، فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ
أَنْ عَرَفَ الشَّامَ عِدَّةً بَطُونٍ مِنْ عِدَّةِ قَبَائِلٍ . وَقَدْ قَالَ فِي « التَّعْرِيفِ » : لِنَهْمِ جُلِّ
الْقَوْمِ وَعَيْنِ النَّاسِ ، لِاعْتِنَاءِ لِّلْوَلَدِ إِلَّا بِهِمْ ، وَلَا مُبَالَاهُ بغيرِهِمْ .
وَمَنْ نَذَرَ هُنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالمَكَاتِبَاتِ إِلَى أُمَرَائِهِمْ وَمَشَائِيخِهِمْ خَاصَّةً .

البطن الأول

(أَلْ فَضْلُ مِنْ آلِ رَيْعَةَ)

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ مِنْ طَيْئٍ ، مِنْ كَهْلَانَ ، مِنَ الْعَارِبَةِ . قَالَ فِي « التَّعْرِيفِ » :
وَأَلْ فَضْلُ مِنْهُمْ هُمُ الَّذِينَ فِي تَحْرِ الْعَدُوِّ ، وَلَهُمُ الْعَدِيدُ الْأَكْثَرُ ، وَالْمَالُ الْأَوْفَرُ . قَالَ :
وَقَدْ صَارُوا الْآنَ أَهْلَ بَيْتَيْنِ : بَيْتِ مُهْتَأَ بْنِ عَيْسَى ، وَبَيْتِ فَضْلِ بْنِ عَيْسَى .

قال : وهم في جِوَارِ القُرَات . ولذلك يُضَاعَفُ إِكْرَامُهُمْ ، وتُوفَّرُ لَهُمُ الإِقْطَاعَاتُ وتُسْنَى . والإمرأة الآن منهم في بيت مُهَنَّا بن عيسى . وهو المعبر عنه بأمير آل فضل . وقد ذكر في "التتيف" أنه كان في زمانه قارا بن مهنا ، ثم كان في الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن حيار بن مهنا بن [عيسى بن مهنا بن مائع بن حديثة ابن عُقْبَةَ بن فَضْل بن ربيعة] ، ثم استقر بعده في الدولة الناصرية «فرج» ابنه العجل ، وهو المستقر إلى الآن .

قال في "التعريف" : ورسمُ المكتبة إلى الأمير منهم «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري» بألقاب جلييلة معظمة منضمة . وذكر في "التتيف" أن رسم المكتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري، الكييري، العالي، المجاهدي، المؤيدي، الأوحدي، النصيري، العوني، الهمامي، المقدمي، الظهيري، الأصيلي، الفلاني، عز الإسلام والمسلمين، شرف أمراء العربان في العالمين، نصرة الغزاة والمجاهدين، مقدم العساكر، كهف الملّة، ذخرة الدولة، عماد العرب، ظهير الملوك والسلطين، حسام أمير المؤمنين» . ثم الدعاء و«صدرت هذه المكتبة» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

قال في "التعريف" أما من هو نظيره أو مدانيه وعدته الإمرأة ، فرسم المكتبة إليه : «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي» ومن دونه «السامي الأميري» . قال : ولكل هؤلاء العلامة الشريفة «أخوه» ولعن دون هؤلاء «السامي الأمير» والعلامة الشريفة الاسم الشريف .

وقد ذكر في "التتيف" أسماء جماعة من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسى ، وبيت فَضْل بن عيسى وذكر لكل منهم رسم مكتبة .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأول منهم — عَسَّافُ بْنُ مُهْنًا . ورسم المكتبة إليه : « هذه المكتبة إلى المجلس السامي ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، الغازي ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحده ، الأصيل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، نقر القبائل ، زين العشائر ، عماد الملوك والصلطين » والدعاء ثم « صدرت » والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الثاني — عَتَقَاءُ بْنُ مُهْنًا أَخُو عَسَّاف . مثله في المكتبة على السواء .

الثالث — زَائِلُ بْنُ مُوسَى بْنِ مُهْنًا ، « صدرت » و « السامي » . والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْرٌ ، مثل عَمِيهِ عَسَّاف وعتقاء .

الخامس — عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ مُهْنًا . ذكر أنه كان يكتب بـ « السامي » بالياء . والعلامة الاسم . وذكر أن أخاه عوادا لم يعلم أنه كُوتِبَ عن الأبواب السلطانية .



وأما بيت فضل ، فذكر منهم مُعْقِلُ بْنُ فَضْلٍ ، وقال : إن رسم المكتبة إليه « السامي » بالياء . والعلامة « والده » . ثم قال : ولم يكتب الآن من بني فضل غيره ، فإن أخويه : سَيْفًا وَأَبَا بَكْرًا يُكَاتِبَانِ عَنِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، ثم تَوَفَّيَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، ولم يبقَ من أكابر بني فضل غيره هو وأولاد أخويه ، لكنهم لم يكتبوا بشيء . فإن اتفق أن يكتب أحدٌ من أولاد أخويه المذكورين أو من أولاد مُهْنًا ، مثل أولاد فَيَاضٍ ، وبقية أولاد حيار ورُمَيْثَةَ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُوسَى ونحوهم ، فاعلامهم الاسم و « السامي » بغير ياء ، وأدناهم الاسم و « مجلس الأمير » .

البطن الثاني

(آل مِرا)

قد تقدّم في الكلام على أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، في المقالة الأولى،
 أن مِراً وفضلاً أخوان . قال في "التعريف" : ومنازلهم بلاد حوران . وقد ذكر
 في "التثقيف" أن الإمرة في زمانه كانت مقسومة نصفين بين عتقاء بن شطى
 ابن عمرو بن نونة ، وعمه فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبه كل منهما
 «صدرت» و«السامى» . والعلامة «والده» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث

(آل على)

وقد تقدّم في الكلام على الأنساب أنهم من آل فضل . قال في "التعريف" :
 وإنما نزّلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقي عيسى
 جارا الفرات في تلابيب التار . قال في "التعريف" : ورسم المكاتبه إلى أميرهم
 «صدرت» هذه المكاتبه إلى المجلس السامى الأميرى . والعلامة الشريفة
 «أخوه» . وقد ذكر في "التثقيف" أن أميرهم في زمانه كان عيسى بن رملة بن
 جهماز . وقال : إن رسم المكاتبه إليه كما ذكر في "التعريف" وهى : «صدرت»
 و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابع (بنو مهدي)

وقد هُدمَ في الكلام على الأَنساب أنَّ منازلهم البقاء من مضافات دِمَشقَ . قال في "التعريف" : والإمرأةُ فيهم في أربعة، رسمُ المكتبةِ إلى كلِّ منهم «مجلس الأمير» . وذكر في "التتقيف" أنها كانت في زمانه باسم بَرو بن ذؤيب بن سعيد ابن محفوظ العقيسي، وسعيد بن نجمري بن حسن العقيسي، وزامل بن عبيد بن محفوظ العقيسي، ومحمد بن عباس بن قاسم بن محمد بن راشد العسري . وأن مكتبة كلِّ منهم «مجلس الأمير» كما تقدَّم في "التعريف" . ثم قال : ومن كان معه نصفُ الإمرأة منهم، كانتْ مكتبتهُ الأسم و«السامى» بغيرياء، وتعريفُ كلِّ منهم «فلان بن فلان» .

البطن الخامس (بنو عقبَة)

وقد تقدَّم في الكلام على الأَنساب أنَّ مرجعهم إلى جُذام، وأنَّ منازلهم الكرك والشوبك . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إلى أميرهم مثلُ أميرِ آلِ مِرا . وكذلك رسم المكتبة إلى أقاربه كرَّسَم المكتبة إلى أقارب أميرِ آلِ مِرا أيضاً؛ فتكونُ مكتبةُ أميرهم «صدرت» و«السامى» . ومكتبة أعيان أقاربه «السامى الأمير» ولَمَن دُونَهُمْ «مجلس الأمير» . وقد ذكر في "التتقيف" أن إمرتهم في زمانه كانت باسم خاطر بن أحمد بن شَططى بن عبيد . وذكر أن رسم المكتبة إليه الأسم و«السامى» بالياء، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعزَّض لأقربائه .

(١) في ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع «ابن ذئب بن محفوظ العنيسى» ويظهر أنها هي الصواب .

(٢) الذى تقدَّم هناك «بحرى» بالياء والحاء .

البطن السادس (جزم)

وقد تقدّم في الأنساب أن مرّجهم إلى طيّ، وأن منازلهم ببلاد غزّة .
وقد ذكر في "التعريف" أن إمّرتهم في زمانه كانت بأبسم فضل بن حمّى . وذكر
أن رسم المكتبة إليه « مجلس الأمير » . والذي ذكره في "التتيف" أن لم مقدّمًا
لا أميرًا ، وأنه كان في زمانه على بن فضل . وذكر أن رسم المكتبة إليه الاسم
و « السامى » بنيرياء . وهذا عجّب فإنه إذا كان أميراً ورسم المكتبة إليه « مجلس
الأمير » فكيف يكون رسم المكتبة إليه « السامى » بنيرياء وهو مقدّم ، والإمارة
فوق التقدمة بلا ريب .

قال في "التعريف" : وأما بقية عرب الشام ، نحو زبيد المريج ، وزبيد حوران ،
وخالد حصص ، والمشاركة ، وغزيرة إذا أطاعوا ، وزبيد الأحلاف ، فأجل كبارهم
وأشياخهم من يكتب له « مجلس الأمير » . وذكر في "التتيف" نحوه ، ثم قال :
هذا إن انفرد أحد منهم بالمكتبة ، وإلا فالعادة أن يكتب لكل طائفة من هؤلاء
مطلق شريف . ثم قال : على أنه لم تجر العادة بمكتبة أحد من هؤلاء القبائل ،
لأعلى الأفراد ولا على الاجتماع . وهذا كلام متناقض ؛ حيث يقول : إن العادة
أن يكتب لكل طائفة منهم مطلق شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تجر بمكتبة
أحد منهم لأعلى الأفراد ولا على الاجتماع .

قلت : وقد تقدّم الكلام على أنساب جميع هذه البطون وأما كتبها مستوفى
في الكلام على الأنساب في المقالة الأولى . ووقع بسط الكلام على ذلك وغبيره
في كتابنا المسمى "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" .

(١) الذى فى التعريف "حمى" ولكنها وردت فى نسختنا فى مواضع كثيرة "حمى" كما هنا . انظر ج ٤
ص ٢١١ ، وكذلك وردت فى الضوء لأؤلف أنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم فى ج ٤ من هذا المطبوع .

النوع الثالث

(من يكتأب بالمالك الشامية، التُّرْجَان)

قد تقدم ذكر تَسْبِ التُّرْجَان في الكلام على أنساب الأئمة في المقالة الأولى .
وقد ذكر في "التتيف" أن التُّرْجَان بهذه المملكة طوائف كثيرة، وجماعة كبيرة .
ثم قال : وغالبهم لا يكتب إليه إلا إذا ضمهم مطلق شريف . فإن كتب إلى أحد من
أعيانهم ، كتب إليه الاسم و«السامى» بغير ياء إن كان طبلخاناه ، وإن كان عشرة
أو عشرين ، كتب إليه الاسم و«مجلس الأمير» لا غير ، ثم أخل بياضا متسعا
ولم يصرح باسم أحد منهم . ثم ذكر في الكلام على تُّرْجَان البلاد الشرقية عِدَّة
طوائف ، عد منهم الأوسرية ، وقال : هم تُّرْجَان سَلَب ، والورسقى . وقال : وهم
تُّرْجَان طَرَسُوس ، ولم يتعرض لمواضع غيرهم . وسيأتى كلامه مستوفى عند الكلام
على تُّرْجَان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(من يكتأب بالمالك الشامية الأكراد)

وقد تقدم ذكر تَسْبِهم في الكلام على أنساب الأئمة في المقالة الأولى . وقد ذكر
في "التتيف" أن بهذه المملكة منهم طوائف كثيرة كالتُّرْجَان ، وأن غالبهم لا يكتب
إليه إلا إذا ضمهم مطلق شريف ، وأنه إن كتب لأحد من أعيانهم ، كتبت له الاسم
و«السامى» بغير ياء ، إن كان طبلخاناه . وإن كان أمير عشرة أو عشرين ، كتب
إليه الاسم و«مجلس الأمير» كما تقدم في التُّرْجَان من غير فرق .

القسم الثالث

(من يكتأب بالبلاد الحجازية ، والمعتبر في المكاتب منهم ثلاثة)

الأول — أمير مكة المعظمة .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك ذكر أمراءها من ابتداء الإمرة وهلم
جراً إلى زماننا ، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد^(١) بن عجلان .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : «أدام الله تعالى نعمة المجلس
العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، العُصدى ، النصيرى ،
الذخرى ، القوتى ، المفيدى ، الأوحدى ، الظهيرى ، الزعيمى ، الكافى ،
الشرفى ، الحسبى ، النسبى ، الأصلى ، الفلانى ؛ عز الإسلام والمسلمين ،
سيد الأمراء فى العالمين ، جلال العترة الطاهره ، كوكب الأسرة الزاهره ؛ فرع
الشجرة الزكية ، طراز العصاية العلوية ؛ ظهير الملوك والسلطين ، نسيب أمير
المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى
بالسلام والثناء وتوضع لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التتيف" : «أدام الله تعالى نعمة المجلس
العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الشرفى ، الحسبى ، النسبى ، العالى ، المجاهدى ،
المفيدى ، الأوحدى ، النصيرى ، القوتى ، الهامى ، المقدمى ، الظهيرى ، الأصلى ،
العريق ، الفلانى ؛ عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الأشراف فى العالمين ،
نصرة الفزاة والمجاهدين ، كهف الملله ، عون الأمم ، فخر السلالة الزاهره ، زين البقرة

(١) . يياض بالاصل والصحيح مما تقدم للؤلأف (أنظر ج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بهاء العصابة العلوية، جمال الطائفة الهاشمية، ظهير الملوك والسلاطين،
نسيب أمير المؤمنين» ثم الدعاء و«صدرت» .

وهذا دعاء وصدر يليق به ذكره في «التعريف» : « ولا زال حرمه أمينا،
ومكانه مكيئا، وشرفه يبيض له ^(١) بمجاورة الحجر الأسود عند الله وجها ويضيء جبهتنا .
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي تحمّل إليه سلاما يميل به الركائب، وثناء
تنتهي على مسك الحقائق ، وشوقا أوسق قلبه لمن نُسك مع الحائب ، وتوضّح
لعلمه الكريم» ،



صدر آخر : ومتمه بجوار بيته الكريم ، وزاد بجميل مساعيه شرف نسبه
الصميم ، وآتسه بقرب الحجر الأسود والركن والحطيم . صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالي تُهدى إليه سلاما، وثناء تطيب به الصبا قبل أن تحمّل شيئا أو تحزأ،
وتوضح لعلمه الكريم .



صدر آخر : وأراه مناسكه ، وأنس بالتقوى مسالكه ، وأشهد على عمله
الصالح بطعاه وما يترله [من] الملائكه . صدرت هذه المكتبة بتحياتها المباركة،
وأثنيها التي لا تزال إليه بها أفئدة من الناس سالكة، وتوضّح لعلمه الكريم .

الثاني — أمير المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقدّم في الكلام على أمرائها في المسالك والممالك من المقالة الثالثة أن
إمارتها مستقرة في بني الحسين، وأنها الآن في بني جمّاز بن شيعة ، وأن جدّهم كان

(١) في التعريف "ينير" .

فقيهاً بالعراق، قدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله ، فولاه المدينة فاستقرت فيها قدمه ثم قدم بنيه ، وأن القائم بها الآن ^(١) ثابت بن حمّاز ابن هبة بن حمّاز بن منصور بن حمّاز بن شيعة بن نعيم ^(١) .

ورسم المكتبة إليه كرسم المكتبة إلى أمير مكة على الاختلاف السابق في النقل عن «التعريف، والتخفيف» . فقد ذكر كل رسم منها رسم المكتبة إلى أمير مكة . ثم قال : ورسم المكتبة إلى أمير المدينة كذلك .

وهذا صدر مكتبة يليق به ، وهو : ولا زال في جوار الله ورسوله ، ومهيّط الوحي ونزوله ، ومكان يرد فيه من أبويه الطاهرين بين حيدره وبتوله . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي بسلام يحدو ركابها ، وثناء يزين في قبا قباها ، وشوق إلى رؤيته في الروضة التي طالما آستسقى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سحائبها ، وتوضع لعلمه الكريم كذا وكذا .



صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قرباً ، وأكّده بحماية حرمة حُبا ، وأبهجه كُلماً رأى جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلا وجالس صحبا . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي مطربةً بالسلام ، مُطْنية في ثنائهِ المَفْصَل النظام، وتوضع لعلمه الكريم .

الثالث — النائب باليَبُوع

(١) يياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدم في ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المتترة .

وقد تهتم في الكلام على المسالك والممالك أنها في بني حسن أيضا . قال
في "التتيف" : ورسم المكتبة إليه «هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأمير» .
والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بالينعم» .

أما سائر العربان بالحجاز فقد ذكر في "التتيف" أن لبني حسن القوام بمكة
«بجالس الأمراء» . والعلامة الأسم . ومن عدا بني حسن فقد ذكر في "التتيف"
أنهم على ضرين :

الضرب الأول — أهل الدرين : المصري والشامي . قال : وليس فيهم من
هو في غير ولا تغير ، ولا يحل في ذروة ولا غارب ؛ وأجل من فيهم إذا كُتِبَ له
«مجلس الأمير» كان كمن سؤر وطوق ، لابل طيلس وتوج .

الضرب الثاني — شيوخ لام ، وخالد ، والمنيف ، وعائد الحجاز . قال : وهؤلاء
من كان منهم المشار إليه كُتِبَ إليه «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي
الأميري» والعلامة «أخوه» . ثم من يليهم بالسامي بغيراء . ثم الأعيان من بقيتهم
«مجلس الأمير» .

المسلك الثاني

(في معرفة ترتيب المكتبات المقدمة الذكر ، وكيفية أوضاعها . وفيه مأخذان)
المأخذ الأول — في ترتيب متون المكتبات ، ولا يكون إلا ابتداء . أما الجواب
فإنه لا يتأثر فيها .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول — ما يكتب في خلاص الحقوق .

وهو ما يكتب فيه ثواب الإسكندرية ، ونائج الوجهين : القبلى والبحرى من الديار المصرية ، وولائهما ، وثواب الشام ، وحلب ، وطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرک ، ومقدم العسكر بغزة ، من الممالك الشامية على ما تقدم ذكره في الكلام على مكتبة أهل المملكة .

والرسم في ذلك إذا كانت المكتبة إلى نائب الشام مثلاً ، بسبب قضية تتعلق بالأمير السوادار أن يكتب : « أعز الله تعالى المقر الكريم » إلى آخر الألقاب والصدور ، ثم يكتب : « وتبدي لعلهم الكريم أن الجانب العالى » ويذكر ألقابه إلى آخرها « ضاعف الله تعالى نعمته عرفنا كذا وكذا » . ويذكر ما في قصته برمته . ثم يكتب : « ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بكذا كذا » ويأتى بما رُسم له به إلى آخره ، ثم يقول : « فيحيط علمه بذلك » ويكمل على ما تقدم .

وإن كان المكتوب بسببه أمير عشرة مثلاً ، كتب بدل « عرفنا » : « ذكر » . وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : « إن فلانا أنهى » ويكمل على ما تقدم .

وهذه نسخة مكتبة إلى نائب الشام بسبب خلاص حق :

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، العالى ، الأمير ، الكبير ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، العونى ، المناغرى ، المرايطى ، المهدى ، المشيدى ، الزعيمى ، الظهيرى ، العايدى ، الناسكى ، الأتابكى ، الكفلى ، الفلافى ، معز الإسلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، ملجأ الفقراء والمساكين ، أتابك العساكر ، زعيم الموحدين ، مهدي الدول ، مشيد الممالك ، عون الأمة ، كهف

المَلِكُ ، عماد الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ عَضُد أمير المؤمنين ؛ ولا زال عالياً قَدْرُهُ ، نافذا أَمْرُهُ ، جارياً على الألسنة حمده وشكره .

أصدرناها إلى المقتزى العالى تُهْدَى إليه من السلام أتمه ، ومن الثناء أعمه ؛ وتُبدى لعلمه الكريم أَنَّ الجَنَابَ العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، القَوِّى ، النَبائى ، المِرابِطى ، المَهْدَى ، المشيدى ، الظَّهيرى ، الرِّعْبى ، المقدسى ، الفلانى ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ فلان رأس توبة الظاهرى ضاعف الله تعالى نعمته عَرَّفْنَا أَنَّ له دَعْوَى شرعية على أقوام بدمشق المحروسة ، وهم فلان وفلان . ومرسومنا للمقتزى الكريم أن يتقدم أمره العالى بمجملهم نُحْبِطُ فلان قاصد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفة ، محتفظاً بهم ، قولاً واحداً ، وأمرًا جازماً ، ليصل كُلُّ ذى حَقٍّ إلى حقه ، فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .



آخِر : وتبدى لعلمه الكريم أَنَّ المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، العَضُدَى ، الذُّخْرَى ، الأَوْحَدَى ، الفلانى ؛ عمدة الملوك والسلاطين : فلان أدام الله سعادته ، ذكر لنا أَنَّ الصَّدَقَاتِ الشريفة شَمِلَتْهُ بِخَلَّاصِ حَقِّهِ من فلان . وقد وَكَّلَ فى ذلك المجلس السامى القضاى الأَجَلِّىَّ فلان الدين . ومرسومنا للمقتزى الكريم أن يتقدم أمره العالى بطلَبِ الغريم المذكور ، وَخَلَّاصِ الحَقِّ منه بِتَمَامِهِ وَكُلِّهِ . وإن أمتنع عن ذلك يُحْمَلُ للأبواب الشريفة مع الوصية بوكيله فى ذلك ، فيُحِيط علمه بذلك .



آخر : وتبدى لعلمه الكريم أن الأمير ، الأجل ، الكبير ، فلان الدين ، فلان الفلاني ؛ أنهى أن بيده إقطاعاً بالحلقة الشامية ، وأن الوزير بالشام المحروس في كل وقت يتعرّض إلى إقطاعه ، ويأخذ الموجب المقرّر له بغير طريق . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدّم أمره العالى بطلب المباشرين ، والارتجاع عليهم بما آتسوه من إقطاعه ، على ما يشهد به الديوان المعمور ، بتمامه وكاله ، ويستقرّ هذا المثال الشريف بيده بعد العمل به ، فيحيط علمه الكريم بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .



آخر : وتبدى لعلمه الكريم أن فلانا الفلاني أنهى أن شخصاً يسمى فلانا تزوج بأخته ، وهو مقيم بالشام المحروس ، وتوفيت أخته إلى رحمة الله تعالى ، ووضع الزوج المذكور يده على جميع مالها . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدّم أمره العالى بخلاص الحق على حكم الشرع الشريف مع الوصية به ، فيحيط علمه بذلك .



آخر : وتبدى لعلمه الكريم أن قصة رفعت إلى أبوابنا الشريفة باسم مجار الفرنج ، أنهم فيها أنهم يبيعون ويتاعون البضائع ، ويقومون بما عليهم من الموجب السلطاني . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدّم أمره بخلاص حقوقهم من تغيب في جهته على حكم الحق ، وكف أسباب الضرر عنهم ، ومنع من يتعرّض إليهم بغير حق ولا مستند شرعى ، والوصية بهم ورعايتهم وملاحظتهم ، فيحيط علمه بذلك .

الضرب الثاني

(ما يكتب من متعلقات البريد في الأمور السلطانية، وهي صفتان)

الصنف الأول

(ما يكتب به ابتداءً)

ويختلف الحال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمر السلطان بفعل شيء أو تركه أو الحركة في شيء، كتب : « إن المراسيم الشريفة أقتضت كذا وكذا » . أو « إن مراسيمنا الشريفة أقتضت كذا » . أو « إن المرسوم الشريف أقتضى كذا » . أو « إن مرسومنا الشريف أقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمر مما يحتاج إلى إدارة الرأي فيه ، كُتِبَ : « إن الرأي الشريف أقتضى كذا » . أو « إن آراءنا الشريفة أقتضت كذا » ، وما يحري هذا المحرر . وإن كان مقتضيه بلوغ خير من حركة عدو أو اطلاع على أمر خفي ، كتب : « إنه أتصل بالمسامع الشريفة كذا وكذا » . أو « إنه أتصل بمسامعنا الشريفة كذا وكذا » . وإن كان بسبب طلب مال أو جباية نرايح ونحو ذلك ، كتب : « إن لديوان خاصنا الشريف في الجهة الفلانية كذا » . أو « إن لنا في الجهة الفلانية كذا » . ونحو ذلك مما يفرض في هذا السلك ، ثم يكتب : « ومرسومنا للفقير الكريم ، أو للجناب الكريم ، أو للجناب العالي » على حسب المكتبة « أن يتقدم أمره بكذا وكذا » على ما تبرز به المراسيم السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلى نائب الشام ، يُنسخ على منوالها .

مكاتبة — باستقرار نائب في نيابة بعض القلاع : وتبدي لعلمه الكريم أن المراسيم الشريفة أقتضت أمستقرار الأمير فلان الدين فلان في النيابة الشريفة

وجهزنا مرسومة ^(١) الشريفين على يد المتوجه بهذا المثال الشريف الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزّه الله تعالى . فيتقدم المقرّ الكريم بتجهيزه إلى جهة قصده بما على يده من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلى الأبواب الشريفة مكرّماً مرعياً على عوائد همته العلية ، فيُحيط علمه بذلك .



مكتوبة — بنقل نائب سلطنة من نيابة إلى نيابة : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى نقل الجناح الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، العوثى ، الغياثى ، المقدمى ، الكافى ، الفلافى ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ فلان الظاهرى ، أعزّه الله نصرته — من نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة . والجناح العالى الأميرى الكبيرى الفلافى ، ظهير الملوك والسلاطين فلان الظاهرى من نيابة السلطنة بصفد المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة . والجناح العالى الفلافى الظاهرى من مقدمة العسكر المنصور بغزة المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة . وكتبنا لهم تقاليد شريفة بذلك ، وجهزنا إليهم تشاريقهم وهى واصله عقيها على يد متسّرينهم ؛ وجهزنا الأمير الأجل الأعز فلان الدين ، مؤتمن الملوك والسلاطين ؛ فلان الخاصكى الظاهرى أعزّه الله تعالى للبشارة للشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظهم من هذه البشارة ، وتضاعف أديعتهم بدوام أيماننا الشريفة ، وآثرنا إعلام المقرّ الكريم بذلك : ليكون على خاطره ؛ والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهزنا مرسومه وتشرّفه الشريفين" الخ .



مكتابة — بجل شخص للأبواب السلطانية : وتبدي لعله الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'تقدم' المقر الكريم حال وقوفه عليها، وقبل وضعها من يده بطلب فلان الفلاني وفلان الفلاني، وتجهيزهما إلى الأبواب الشريفة في أسرع وقت وأقربه، من غير قرة ولا توائ. ونحن نؤكد عليه غاية التأكيد في سرعة تجهيزهما إلى الأبواب الشريفة صحبة الأمير الأجل، فلان الدين فلان، إلى الأبواب الشريفة محفظًا بهما، محترزا عليهما؛ ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بأعتاد ما أقتضاه مرسومنا الشريف، والاهتمام بذلك، والاحتفال به، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .



مكتابة — باستقرار بعض الأمراء بالقدس الشريف بطالا : وتبدي لعله الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'استقرار' الأمير فلان أحسن الله تعالى عاقبته بالقدس الشريف مقيمًا بها، وشملت الصدقات الشريفة أن ^(١) فلانة وفلانة باسمه، بمقتضى مرسوم شريف مجهز صحبة متسفره الأمير الأجل الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البريدي بالأبواب الشريفة، أعزّه الله تعالى، المتوجه بهذا المثال الشريف . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بإثبات المرسوم الشريف المذكور بديوان الجيوش المنصورة بالشام المحروس على العادة؛ وتجهيز البريدي المذكور إلى حدود الديار المصرية، مكرمًا مرعيًا على العادة؛ فيحيط علمه الكريم بذلك .

(١) بياض بالاصل ولعله "أن قطع جهة فلانة" الخ .



مكاتبة — بيع غلّة للديوان السلطاني : وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة أقتضت تجهيز كذا وكذا إردباً من القمح من ديواننا المفرد مُحبة فلان . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالی بطلّب فلان الحاجب بالشام المحروس : ليتولّى بيع ذلك بسِعْر الله تعالى بما فيه الغنطة والمصلحة ؛ وتجهيز الثمن إلى الأبواب الشريفة برسالة دالّة على ذلك في أسرع وقت وأقربه ، مع مُضاعفة الوصية بذلك والاحتفال به ، فيُحيط علمه بذلك .



مكاتبة — وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة أقتضت توجه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ؛ إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب استخراج الأموال وبيع الغلال والأصناف الديوانية المتحصّلة من القرى المستأجرة ، المرتجعة للورثة عن المشار إليه بمقتضى التذكرة المسطرة على يده . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمره بمساعدة المذكور وتقوية يده على ما تضمنته فصول التذكرة ومراعاة أحواله، وإزالة ضروراته، وخلّاص الحق منه ممن يتعيّن في جهته، ويشمله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التذكرة . فإنّ تعلّقات الورثة المذكورين تحت نظرنا الشريف . فيبادر المقرّ الشريف إلى ذلك وسرعة عوده بعد قضاء شُغله ، وتجهيز المتخصّث والمباشرين للأبواب الشريفة ، ومُحبّتهم حسابهم عند نهاية فصول التذكرة المذكورة . وقيمُهم من يعوضهم إلى حين عودهم من الأبواب الشريفة على ما هو المعهود من همّة الكريمة واحتفاله ، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بسبب طلب عيسى الجواكين والكراييج والأكر : وتبدي لعله الكريم أن المرسوم الشريف أقتضى 'تجهيز عيسى الجواكين والكراييج والأكر إلى السلاح خاناه من الشام المحروس، على العادة في كل سنة سرعاً، وآثرنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك كله على' جارى العادة في كل سنة ، والاهتمام بذلك ، والاحتفال به، بحيث لا يتأخر ذلك غير مسافة الطريق ؛ فإن الانتظار واقعٌ لذلك، وفي هيمته الكريمة ما يغني عن بسط القول في ذلك، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بسبب استقرار قاض يدمشق عوض من كان بها : وتبدي لعله الكريم أن الصدقات الشريفة شملت المجلس العالى، القضائى، الكبيرى، العالمى، العلمى، الإمامى، الفلانى، القريدى، المقيدى، المحيدى، الأصلى، العريقى، الأئبلى، الأثيرى، الأوحدي، الخطيبى، الشيخى، الحاكى، الفلانى؛ جلال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين، إمام البلاء، خطيب الخطباء، شيخ مشايخ العارفين، ملاذ المريدين، مفتي الفرق، موضح الطرق، لسان المتكلمين، مفيد الطالبين، حكم الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين، فلان الفلانى الشافعى . أعز الله تعالى أحكامه — بتفويض قضاء قضاة الشافعية بالشام المحروس إليه ؛ عوضاً عن به، بحكم عزله مضافاً إلى خطابة الجامع الأموى ، ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس . وكتبنا توقيعاً شريفاً له بذلك ، وجهزناه إليه قرين شريف شريف على يد فلان المتوجه بهذا المثال الشريف . وآثرنا علمه الكريم بذلك ، ليكون ذلك على خاطره الكريم . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلانى فيما شِئْتَهُ به الصدقاتُ الشريفةُ من ذلك كله ، وهويّة
يده فى مباشرة ذلك والشّدّ منه ، وتأييد أحكامه الشرعية ، وتنفيذ كلمته ، وزعامة
جانبه ، وإكرامه واحترامه ، على عادة هممه الكريمة ، وتقديّماته السعيدة ، فيُحيط
علمه بذلك .



مكتبة — بسببِ حملِ الثلجِ إلى الأبواب السلطانية : وتبدى لعلمه الكريم
أنّ المرسومَ الشريفَ اقتضى تجهيزَ قلاتِ الثلجِ إلى الشّرابِ خاناه الشريفة على
العادة . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بسُرعة تجهيزِ النّقلة الأولى ،
بحيث لا تتأخر أكثر من مسافة الطريق على ماهو المعهود من همته العالية ، وتقديّماته
السعيدة . وقد جهّزنا هذا المثلّ الشريف على يد الأمير الأجلّ فلان الدين فلان
الفلانى ، أعزه الله تعالى ، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكتبة — بتكئين شخص من الحُضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم
أنّ فلانا كان قصّد الاجتماع بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسومنا للقرّ الكريم
أن يتقدّم أمره العالى بتكئينه من الحُضور إلى القاهرة المحروسة على خيله : ليجمع
بأهله وأقاربه . وقد جهّزنا بهذا المثلّ الشريف فلانا البريدى بالأبواب الشريفة ،
فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكتبة — بمنع العُربان من الدُخول إلى البلاد قبل فراغ الزّرع . وتبدى لعلمه
الكريم أنّ المراسيمَ الشريفةَ اقتضت أنه لا يدخُل أحدٌ من العُربان إلى البلاد الشامية.

المحروسة: كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقييرهم، إلى أن يُشال الزرع على العادة .
ومنى - والعياذ بالله - حَضَل منهم مخالفةً لذلك، حل بهم من الانتقام الشريف
ملا مزِيد عليه . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضته
المراسيم الشريفة من ذلك، مع الاهتمام به، والاحتفال والاجتهاد فيه، قولاً واحداً،
وأمرًا جازماً، على عادة همته العالية، وتقدّماته المرضية، فيحيط علمه بذلك .



مكاتبة - بحفظ السواحل: وتبدي لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضى
الاجتهاد في حفظ السواحل والموانئ، والاهتمام بأمرها، وإقامة الأيثار والأبدال
في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها، وكذلك المتورون بالديبانات
والمناظر والمناور، في الأماكن المعروفة، وتسهّد أحوالها: بحيث تقوم أحوالها على
أحسن العوائد وأكملها؛ ولا يقع على أحد دركٌ بسببها . ومرسومنا للقر الكريم أن
يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك، مع مضاعفة
الاحتفال بذلك والمبادرة إليه، حسب ما اقتضته المراسيم الشريفة. وقد جهّزنا بهذا
المثال الشريف مجلس الأمير الأجل: فلان الدين فلان البريدى، المقدم بالأبواب
الشريفة؛ فيتقدّم أمر الملق العالى بتجهيزه إلى جهة قصده بما على يده، وإعادته عند
عوده إلى الأبواب الشريفة، على ما هو المعهود من همته، فيحيط علمه الكريم بذلك.



مكاتبة - باستعمال قماش . وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة اقتضت
استعمال القماش الجارى به العادة برسم الركائجات، والإصطبلات الشريفة، على
ما استنقز عليه الحال إلى آخر السنة الحالية والتي قبلها . وقد كُتبت تذكرة شريفة

من ديوان استيفاء الصُّحبة الشريفة مَقْصَلَة بذلك ، وجهَّزناها قرينَ هذه المفاوضة
لِنُقْرَأَ عَلَى مَسَامِعِهِ الْكَرِيمَةِ . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدَّم أمره العالى بتأملها ،
وبُرُوز أمره بطلب وزير المملكة الشريفة ، وناظر المهمات الشريفة ، وأستعمال
القماش الذى تضمَّنته التذكرة الشريفة ، والاهتمام بذلك ، والاحتفال بِمُرعته .
وقد آكتفينا بهمة المقر الكريم عن تجهيز أمير اخورية وأوجاقية من إصطبلاتنا
الشريفة لاستعمال ذلك ، لأنَّ المهمات الشريفة تحت نظره الكريم ، فيصرف همته
العالية إلى الإسراع فى ذلك ، والاحتفال به والاهتمام . وفى أهتمامه وتنفيذه لمراسمنا
الشريفة ما يُغْنِي عن التاكيد فى ذلك ، فيُحيط علمه بذلك .



مكاتبة — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مرسومنا الشريف أقتضى تجهيز
فلان البريدى بالأبواب الشريفة ، أعزَّه الله تعالى ، إلى جهة فلان بما على يده
وما مُحِبَّتِهِ . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدَّم أمره العالى بإزاحة أعذاره ، وتجهيزه
إلى المشار إليه فى أسرع وقتٍ وأقرِّبه . وإذا عاد يتقدَّم بتجهيزه إلى خدمة الأبواب
الشريفة على العادة فى ذلك ، على عادة همته العلية ، وشيمه المَرْضِيَّة ، فيُحيط علمه بذلك .



مكاتبة — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف أقتضى أن لا يُمكن
أحد من تَقْل سلاح ولا عُدَّة حربي إلى جهة البلاد الرومية . ومرسومنا للقر الكريم
أن يتقدَّم أمره العالى بأن لا يُمكن أحد من تَقْل سلاح ولا عُدَّة إلى جهة البلاد
المذكورة ، والاحتراز على ذلك كلِّ الاحتراز ، فيُحيط علمه بذلك .



مكتبة — وتبدي لعلمه الكريم أنه اتصل بالمسّامع الشريفة أن غالب البلاد بالصفقة الفلانية محمية متجاهية على الكُشّاف والرّاياء، ويؤوون المفسدين . وأنّ يد الكُشّاف لاتصل إلى هذه البلاد، ولا إلى النّصفه ممن بها من المفسدين . وحصل بذلك الضرر للبلاد والعباد . وأقتضى الرّأى الشريف الكُشّاف عن هذه البلاد وسائر الأعمال ، والمناداة في البلاد بإبطال الحماية والرّعاية ، والمساواة بين العباد في سائر البلاد بالعدل والإنصاف ، وكفّ أكفّ الظلم والعُدوان . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمره الكريم بالمناداة في سائر البلاد بإبطال الحماية والرّعاية ، والمساواة بين الخاصّ والعامّ، وتطهير الأرض من المفسدين، وأن لا يُمنح أحدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحماية أو إيواء مفسدٍ ببلد من البلاد، حلّ ماله وروحه . والتأكيّد على أهل البلاد في ذلك ، والتشديد والفحص عنّ يتجاهر بذلك وردعه ونشر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والاهتمام في ذلك كلّهُ، على عادة هممه الكريمة، وتقدّماته السعيدة، فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيّده بالملائك .



مكتبة — وتبدي لعلمه الكريم أنه اتصل بمسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّض للجهة الفلانية الجارية في ديوان خاصّتنا الشريف، وأخذ منها مبلغ كذا وكذا . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بطلّب التّريم المذكور، وتجهيزه إلى الأبواب الشريفة، وإلزامه بما أسأداه من ذلك، محترّزا عليه مع مضاعفة الوصية بمباشرى الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثانى

(ما يكتب فى الجواب عما يرد من التواب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبتك الكريمة » أو « مكاتبتك » على قدر رتبته من ذلك « وردت على يد فلان فوقتنا عليها وعلما ماتضمنته على الصورة التى شرحها » ثم يذكر مايناسب الجواب فى ذلك من شكر الاهتمام أو غيره . ثم إن أشتملت على مقصد واحد، أجب عنه .

وهذه مكاتبة يُنسخ على منوالها ، وهى : وتبدي لعلك الكريم أن مكاتبتك الكريمة وردت على يد فلان فوقتنا عليها ، وعلما ما أصدرته من تجهيزه إلى خدمة أبوابنا الشريفة بما على يده من كتاب مخدومه . وقد وصل ، وأحاطت طوئنا الشريفة بما تضمنته ، وأعدناه الآن بجوابه وبهذا الجواب الشريف ، فيحيط علمك الكريم بذلك .

وإن أشتملت المكاتبة المجاب عنها على عدة فصول ، أتى على فصولها فصلا فصلا ، وربما قال : « فاما ما أشار إليه من كذا » إذا كان على الرتبة ، كاتب الشام ونحوه ، « فقد علمناه » وصار على خاطرنا الشريف أو « فقد رسمنا به » أو « فلم نرسم به » . ونحو ذلك على مايقع به الجواب السلطاني فى الملخص المكتوب عن مكاتبة المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبة من هذا النمط يُنسخ على منوالها ، وهى : وتبدي لعلك الكريم ، أن مكاتبتك الكريمة وردت على يد مملوكه الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزّه الله تعالى ، فوقتنا عليها ، وعلما ماتضمنته على الصورة التى شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وتقدماته السعيدة ، ورأيه السعيد ، واعتاده الحميد .

فأما ما أشار إليه من وصوله ومن مُحِبَّتِهِ ، ونائب السلطنة الشريفة بطرابلس وصَقَدَ المحروستين ، إلى مَاطِيَةِ المحروسة في التاريخ الفلاني ، وتلقَّى نائب السلطنة الشريفة بحلب وحماة المحروستين ، المَقَرَّ الكَرِيمَ ، ومن معه على ظاهر المدينة المذكورة ، واستمرار إقامتهم جميعاً بالمتزلة المذكورة إلى تسطير مكاتبته المشار إليها في انتظار من رُسم له بالحضور إليهم من عساكر القلاع المنصورة وغيرهم ، من أمراء التُركِمان والأكراد ومن معهم من أتباعهم وأُزَماهم ، حسب ما أقتضته المراسيم الشريفة في المهم الشريف وما كُتِبَ به إلى نائب طرابلس ، وإلى قرايوسف النائب بالرُّها المحروسة : من الحضور إلى المهم الشريف ، وإجابتها إلى ذلك ؛ وكذلك ما كُتِبَ به إلى الحاكم بسبواس ، وإلى أحمد بن طرغلي ، وما أجابا به من الحضور إلى المهم الشريف ، والمتفق في المكان الذي عيَّنه حاكم سبواس ، إلى غير ذلك مما بَسَطَ القول فيه [فقد علمناه ^(١)] على الصورة التي شرحها ، وتضاعف شكرنا لهُمَّته العلية وتقدماته السعيدة .

وأما ما أشار إليه من اعتماد ما برزت به المراسيم الشريفة في الجواز الشريف الوارد إليه على يد مجلس الأمير الأجل فلان الدين فلان ، والمطلق الشريف المجهز على يده ، وأمثال ما تجلَّه من المشافهة الشريفة ، وتقديمه بجميع ثواب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم ، وعقد المَشُورة معهم على اعتماد ما أقتضته المراسيم الشريفة ؛ وتعيين جاليس العساكر المنصورة ونائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة ومن معه من الأمراء المتقدمين وأتباعهم من دمشق وحلب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة ، ومن معه من العساكر المنصورة ، وسيرهم في التاريخ الفلاني ، وسيره في أثرهم بن بَقِيَّ معه من العساكر المنصورة الشامية الحلبية ؛

(١) الزيادة يقتضيا تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم النسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصورة التي شرحها لما قصده من ذلك من المصلحة ؛ فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحسن فكرته الصحيحة .

وأما ما أشار إليه من أن نائب مَلْطِيَّةَ جهَّز الكتاب الوارد عليه من ابن تمرلنك ، على يد قاصدٍ من جهة تلمان باللسان الأعجمي^(١) ، وأنه عربيّ وفهم مضمونه وجهره ليُحيط العلوم الشريفة بمضمونه ، وهى على الخواطر الشريفة ، فيكون ذلك على الخاطر الكريم ، وشكرنا همته العلية .

وأما ما أشار إليه من ورود كتاب تلمان عليه ، وهديته على يد قاصده ، وأنه لم يقبل هديته وأعاد جوابه ، فإنه إن كان مناصحاً في الخدمة الشريفة وهو صادق في كلامه ، فيحضر إلى المهم الشريف ، وما شرح في هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وشكرنا جميل أعتاده وسعيه رأيه . وكذلك أحاطت العلوم الشريفة بما ذكره من أمر حاكم عرب ركبر^(٢) وما شرحه في ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها .

وأما ما أشار إليه من أمر مَلْطِيَّةَ المحروسة ، وأنها تحتاج إلى الفكر الشريف ، والنظر في أحوالها وترتيب مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يحونها من طوارق الأعداء المخلولين : إلى غير ذلك مما شرحه في هذا المعنى ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وبقي ذلك على خواطرنَا الشريفة . وعقبيها إن شاء الله تعالى تبرز المراسيم الشريفة بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكل ما يكون .

وقد استصوبوا رأى المقر الكريم في هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورى . وقد شكرنا المقر الكريم جميل أعتاده ، وحسن رأيه ، وبذل همته وأجتهاده في هذا

(١) كذا في الأصل غير واضح .

المهم الشريف . والقصد منه الاستمرار على ما هو فيه من بذل الاجتهاد في المهمات الشريفة بقلبه وقالبه ، والعمل على بياض وجهه عند الله تعالى ، من الذب عن عباده وبلاده ، وبذل المال والروح في رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، واستقرار خواطرننا الشريفة بذلك . فإن المقر الكريم يعلم ما نحن متأبرون عليه ، ومتقادون إليه ، من محبة رضا الله تعالى في النصيحة بصالح العباد ، وعمارة البلاد ، وتسطير ذلك في صحائف حسنات الدهر بين يدي الله تعالى . والمقر الكريم يعلم أن جل اعتمادنا عليه في أكابر دولتنا الشريفة . ونحن وانقون برأيه السيد في حركاته وسكناته في المهمات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قربناه ، ورضينا به لنا وطينا ، وكلما بلغنا عنه اعتماد حسن تضاعف منزلته عندنا . والآن فإن ثواب السلطنة الشريفة وأمرأ دولتنا كبيرهم وصغيرهم تحت أمره ومشورته ، وما بقي مثل هذه الأيام المباركة والأوقات السعيدة ، ولم يبق سوى آتهاز الفرص ، وأغتنام أوقات السعادة ، وهو الحاضر والنائب عنا في كل ما يحصل من المصالح العائد نفعها على البلاد والعباد . والمبادرة إلى عملها من غير معاودة الآراء الشريفة في كل قضية تتفق له ، فإن المسافة بيننا وبينه بعيدة ، وتضيق المصلحة في وصول الخطاب وعود الجواب . وقد فوضنا إليه الرأي في ذلك ، والعمل بما تقتضيه المصلحة الحاضرة ، في جليل الأمور وديقها ، فيكون ذلك على خاطره الكريم ، ويعمل بمقتضاه . وقد أعدنا مملوكه بهذا الجواب ، فيحيط علمه بذلك .



وهذه نسخة مكتوبة في معنى الرضا عن ابن دلغادر التركمانى وغير ذلك :

وتبدي لعلمه الكريم أن مكاتبة الكريمة وردت على يد فلان الدين فلان مملوكه ، فوقفنا عليها وعلينا ماتضمنته .

فأما ما ذكره في معنى 'أبن دلغادر، وتكرار كُتِبَ بالتصريح والتراخي عليه في سؤال الصدقات الشريفة في الرضا والعفو عنه ، فقد علمنا ذلك ؛ والذي نعرف به المقر الكريم أنا كنا رسمنا بأن لا يُكْتَبَ له جواب ورد كتابه وقاصده ؛ ولما تكرر استشفاعه بالمقر الكريم ، ودخل دخول الحریم ، وعرفنا أنه ضاقت عليه الأرض برُحْبها وأخلص في الندم ، عطف على الصدقات الشريفة بالخُتُو والعفو كرامةً للمقر الكريم ، وإعلاءً لشانه ، ورفعاً لمكانته ومكانه . ورسمنا للمقر الكريم أن يكتب المذکور بهذا المعنى ، ويلتم على نفسه العفو الشريف ، والصفح المُنيف ، ولإصالة أنواع الخير وفوق مافي خاطره من الأمان على نفسه وماله ، وغير ذلك . والذي نعرفه أنه كان جرى على اللسان الشريف الحلف أنه لا بد من حضوره إلى الأبواب الشريفة ودخول الساط الشریف ، ولا بد من تحقيق ذلك لحصول البر والخلاص من الحلف الشريف ، وقيام الناموس عند القريب والبعيد : ليعلموا أن سلطانتنا غالب على من تمز ، ومراحمتنا شاملة لمن يلتجئ إلى حرم عفونا الشريف ، وأنه قريب منه .

وأما ما ذكره في معنى 'اكتشف الصفة الفلانية ، ووقوع الاختيار على فلان الدين فلان ، وما عرضه على الآراء الشريفة من تقريره في ذلك ، وبروز المراسيم الشريفة بكتابة مرسومه وتقريره ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بتقريره ، وكتبنا مرسومه الشريف ، وجهزناه على يد فلان العائد بهذا الجواب الشريف .

وأما ما ذكره من جهة الزاوية المستجدة بسحب وتجهيز قائمة متضمنة بما تدعو الضرورة إليه من تقرير الساط وأرباب الوظائف ، وما عرضه على الآراء الشريفة من كتابة مرسوم شريف مريع على حكمها ، أو بما تقتضيه الآراء الشريفة من زيادة أو نقص ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به حسب ما اقتضته الآراء الشريفة : من استقرار

(١) لعله وتقريره (٢) يظهر أن في الكلام سقطا ولعله « وما عرضه على الآراء الشريفة من الخ » .

فلان الدين فلان في الولاية في الثغر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به ، وكتبنا مرسوميه الشريف ، وجهزه على يد العائد بهذا الجواب الشريف . فالمقر الكريم يوصيه بحسن السيرة وترك ما كان عليه .

وأما ما ذكره من جهة خفارة الجهة الفلانية ، وما عرضه على الآراء الشريفة : من إمضاء القائمة المجهزة بأسماء من قرره في الخفر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بإمضائه حسب ما قصده المقر الكريم .

وأما ما ذكره من جهة فلان المعتقل بقلعة دمشق ، ووقوف أولاده وعياله وشكواهم حالهم بعد كشف ما نُقِلَ عنه وعدم صحته وما عرضه على الآراء الشريفة من الإفراج عنه ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به فيتقدم أمر المقر الكريم بالإفراج عنه .
وأما ما ذكره في معنى ما ورد به كتاب النائب بالرحبة المحروسة : من الأخبار والمتجددات ، فقد علمناه وصار على خواطينا الشريفة .

وأما ما ذكره من وصول قاصدتي حاكم الدربند وحاكم القنيطرة بما على أيديهما وتجهيز ما ورد معهما من الكتب وأستئذان الآراء الشريفة على ما نعتمده في أمرهما وفيمن يحضر بعدهما ، فقد علمنا ذلك ، وكتبنا الجواب عن ذلك ، وجهزه قرين هذا الجواب الشريف ، فيتقدم باعادتهما إلى مرسلهما . وكذلك يفعل في كل من حضر من تلك النواحي إلا في مهم شريف على عوائد هممه . وقد أعدنا مملوكه إليه بهذا الجواب الشريف ، فيحيط علم المقر الكريم بذلك .



مكاتبة أخرى — من هذا النمط في معنى أمور مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبة الكريم وردت على يد المجلس السامي الأميري فلان . فوقفنا عليها وعلما ما تضمنته على الصورة التي شرحها .

فأما ما أشار إليه : من وصوله إلى دمشق المحروسة عائداً من الأغوار السعيدة ، وأنه وجدها وسائر أعمالها وضواحيها والسواحل والموانئ في حِرز الأَمْن والسلامة ، فقد علمنا ذلك وحمدنا الله تعالى وشكراه على ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهّز من متحصّل دار الضرب السعيدة بدمشق المحروسة كذا وكذا مثقالاً بمقتضى رسالة وما قصّد من إعادة رَجْعَةِ شَريفة بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور ، وكُتِبَ به رَجْعَةُ شَريفة على العادة في مثل ذلك ، وُجهِّزَت على يد فلان المشار إليه ، فيكون ذلك على خاطرِه الكريم .

وأما ما ذكره : من أمر الثّحاس وقيلته من عدم وصول شيء منه ، وأنه لم يوجد منه بعد الجُهد سوى مبلغ عشرين قِنطاراً عند القَرْنَج ، وأمر الفلّوس العتق وبقائها ، وكثرة الفلوس الجُدّد ، وقلة وجود الدرهم والدينار ، وتوقّف المعاش بسبب ذلك ، وما عرضه على الآراء الشريفة إن أقتضت الآراء الشريفة إبطال دار الضرب نحو شهرين إلى أن يحضّر نحاس يستعمل ، وتخيّف الفلّوس ويستصرف ما في أيدي الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبنا سؤاله فيه . ومرسومنا أن يعمل فيه بما تكون [به] المصلحة عامة للرعية ، وتبطل دار الضرب مدّة يراها المقرّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصده من حُسن النظر الشريف في حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وصار ذلك على الخواطر الشريفة .

وأما ما أشار إليه : من أمر فلان ، وما اتّفق من الكشف عليه حسب ما أقتضته المراسيم الشريفة ، وما ادّعى عليه من كذا وكذا ، وما كُتِبَ عليه من المحاضر وتجهيزها إلى الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلى الأبواب الشريفة محبة البريدي المجهّز

في طلبه في أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وأحاطت العلوم الشريفة به جملةً وتفصيلاً ، وبما أشتملت عليه المحاضر المذكورة ، وبق ذلك على الخواطر الشريفة ، وأقتضت الآراء الشريفة إعادته ومن معه للخلاص من شكاته عند المقتر الكريم ، وقد أعدناهم حُجبةً من يحضُّرهم إلى المقتر الكريم ليُكشف عليه ويتَّظَّم المحاضر وتجهِّز .

(١) وتعريف الحِسبة بالأسعار عن البرّ
والفلاحي على العادة في ذلك إلى الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ما جهَّزه من ذلك ، وأحاطت العلوم الشريفة بما أشتمل عليه ، وشكَّنا همة المقتر الكريم وسعيد تقدُّماته ، وجميل أعتاداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيُحيط علمه بذلك .

قلت : وعلى ذلك يُقاس ما يكتَب به إلى سائر الثواب بالشام والديار المصرية فمن دُونهم ممن جرت العادة بمكاتبتهم من الأبواب السلطانية في الابتداء والجواب .

المأخذ الثاني

(في معرفة أوضاع هذه المكاتبات)

أول ما يجب من ذلك معرفة قَطْع الورق الذي يُكتَب فيه . وقد سبق في المقالة الثالثة في الكلام على قَطْع الورق بيانُ مقادير قَطْعِهِ ، وأنَّ من جملة ما قَطْع العادة : وهو القَطْع البصير . وفي هذا القَطْع تُكتَب عامة المكاتبات المتقدمة ، مما يكتب به لأرباب السيوف والأفلام بمصر والشام على اختلاف مقاديرهم ، وتباين مرَّاتهم

في الرَّفْعَةِ وَالضَّمْعَةِ؛ خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِبَ إلى والدة السلطان الأشرف « شعبان بن حسين » في قطع الشاحى الكامل . وقد تقدّم هناك أنَّ الكتابة في قطع العادة جملة تكون بقلم الرِّقَاع . فتكون كتابةُ جميع هذه المکتوبات به .

ثم أول ما يكتُبُ الكاتب في المکتابة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكتُبَ في رأس الدَّرَج ، من وجه الوصل ، من أوله ، من الجانب الأيمن « إلى فلان » . ويكتب على سَمْتِهِ في الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب في وسطهما على سَمْتَيْهما التعريفَ بالعلامة التي تُكتَبُ . فإن كانت العلامة الأسم ، كتب « الاسم الشريف » . وإن كانت بالأخوة ، كُتِبَ « أخوه » . وإن كانت بالوالدية ، كتب « والده » . ثم يقلب الدَّرَجَ فيكتب على ظاهره عنوانَ المکتابة في أسفل ما كتب عليه في رأس الورق باطنا من أول عرض الدَّرَج إلى آخر ألقاب المكتوب إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به في المکتابة ، فيدعوه به في آخر الألقاب ، ثم يخلو بياضاً ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نيابة سلطنة أو ولاية أو أسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربة متلاصقة .

فإن كان المكتوب إليه النائب الكافل مثلاً ، كتب في العنوان : « المقتر ، الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى » إلى آخر ألقابه . فإذا آتته إلى آخر الألقاب ، كتب « أعز الله تعالى أنصاره » . ثم يترك بياضاً ويكتب : « كافل المالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » بحيث ينتهى آخر كتابة ذلك إلى آخر السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافل السلطنة بالشام ، كتب : « المقتر الكريم » إلى آخر الألقاب « أعز الله تعالى أنصاره » ثم يترك البياض المذكور ، ثم يكتب : « كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائب السلطنة بجلب، كتب : « الجَنَابُ الكريم »
إلى آخر القاب « أعز الله تعالى نُصرتَه » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ
السلطنة الشريفة بجلب المحروسة » .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابلس ، أو نائب
حمّة ، أو نائب صَقد ، كتب : « الجَنَابُ العالى » إلى آخر القابهم « ضاعف
الله تعالى نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بشعر
الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ،
أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصَقد
المحروسة » . وكذا في البواقى بحسب تعريف كلٍّ من المكتوب إليهم على ما مر
ذكره في مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له « المَقَرَّ الكريم » ،
أو « الجَنَابُ العالى » ، أو « المجلس العالى » مع الدعاء ، ترك من أعلى الدرج
ثلاثة أوصالٍ بياضا بالوصل المكتوب في ظاهره العُنوان ، ثم تكتب البسملة
في رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَبُ له « المجلس العالى » مع « صدرت » فما دُونَ
ذلك ، تُرك في أعلى الدرج وصلانٍ بياضا فقط . وتكتبُ البسملة في رأس الوصل
الثالث ؛ ثم يكتبُ سطران من أول المكتبة تحت البسملة على سَمَتِها ملاصقا لها ،
ثم يُحلى بِتِ العلامة بياضا ويكتب السطر الثاني على رأس إصبع ^(١) أو نحوه من أسفل
ذلك الوصل ؛ ثم يكتب السطر الثالث في الوصل الذى يليه على بُعد ثلاثة أصابع
معتزلات من السطر الثاني ، ويؤتى على ذلك إلى آخر المكتبة .

(١) المراد على قدر أصبع .

وقد كانت أوصال الورق في الزمن المتقدم طويلة : فكان يكتب في كل وصل ثلاثة أسطر ، وبين كل سطرين أكثر من عرض ثلاثة أصابع . أما الآن ، فقُصرت الأوصال ، وصار كل وصل لا يتسع في الغالب أكثر من سطرين . فإذا انتهى إلى آخر المكتبة ، أخلى بياضاً يسيراً ، ثم كتب في وسط الوصل : « إن شاء الله تعالى » ثم يكتب : « كتب في كذا من شهر كذا » في سطر ، وتحت سنة كذا وكذا في سطر تحته ، بينهما قدر إصبعين ؛ ثم يكتب المستند بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلقى كاتب السر كتب « حسب المرسوم الشريف » . وعلى ذلك يجري الحكم في جميع ما يكتب في البريد ، وهو المختص بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلقى كاتب السر أو أحد من كتاب الدست ، كتب : « حسب المرسوم الشريف » في سطر ، وتحت « من دار العدل الشريف » في سطر آخر . وإن كان بقصة مشموله بخط السلطان ، كتب : « حسب الخط الشريف » بمقتضى أعلى ذلك . وإن كان بخط النائب الكافل ، كتب : « بالإشارة العالية الأميرية العالمية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الوزيرية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « مدبر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزيرية صاحبة الفلانية ، مدبر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى » سطرين على نحو ما تقدم . وإن كان برسالة الدوادار : فإن كان مقدم ألف ، كتب « برسالة الجناب العالي الأمير الكبير الفلاني » في سطر ، وفي سطر آخر تحته « الدوادار الناصري أو الظاهري » ونحو ذلك « ضاعف الله تعالى نعمته » . وإن كان طبعاً ، كتب بدل الجناب « المجلس » ويدعوله « أدام الله تعالى »

نعمته . وإن كان بأمر الإستاذار ، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الفلانية إستاذار الفلانية أهلها الله تعالى » . وإن كان من ديوان الجيوش المنصورة ، كتب « حسب المرسوم الشريف » في سطر ، وتحت « من ديوان الجيوش المنصورة » في سطر آخر . وإن كان من ديوان الخواص الشريفة ، كتب « حسب المرسوم الشريف من ديوان الخواص الشريفة » على ما تقدم . وإن كان من الدولة الشريفة : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليل ، كتب « حسب المرسوم الشريف من الدولة الشريفة » على نحو ما تقدم . وقد تقدم الكلام على المستندات في الجملة ، في مقدمة الكتاب عند الكلام على ديوان الإنشاء .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(في المكتبات العامة إلى أهل هذه المملكة : وهي المَطْلَقَات)

قال في " التعريف " : وأقسامها لا تخرج عن ثمانية أقسام : إلى الوجه القبلي ، وإلى الوجه البحري ، وإلى حافة الديار المصرية ، وإلى بعض البلاد الشامية ، وإلى البلاد المصرية والشامية ، وإلى الممالك الإسلامية وما جاورها ، وإلى بعض أولياء الدولة ، كالأمراء بدمشق أو حلب ، وإلى قبائل العرب ، أو التركمان ، أو الأكراد أو بعضهم .

قلت : والقاعدة في المطلقات أنه إذا اجتمع في المطلق كبار وصغار ، يغلب حكم الأكبر منهم على الأصغر : تعظيماً لأمر الأكبر . فإن كان في المطلق من الألقاب ما يختص به الأكبر دون غيره ، استوفى للكبير ما يختص به من الألقاب وأتى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها ما يُجْتَمَع . قال في "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان في سِرِّيَّتِكُمْ ولا يُرَادُ إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، فيُجْتَمَعُ على عادة الكتُب . وهذا يكون عنوانه بظاهره كما في غيره من المكتبات المفردة .

ومنها ما لا يُجْتَمَعُ ، وهو سائر المطلقات . قال في "التعريف" : وعنوانها (مخالف لعنوان) ^(١) الكتُب المفردة للأحاد : فإنَّ تلك في ظاهر الورق ، وهذه في باطن الورق ، فوق وصلين أو ثلاثة ، فوق البسملة . ويقال فيها : مثلاً شريف مطلق إلى الولاية والثواب ، أو غير ذلك من نحو مافي الصدر ، فيضمَّن العنوان ملخص ما فيه . ثم يقال : على ما شرح فيه ، أو حسب ما شرح فيه . ومن قاعدتها أن يصرَّح بذكر المكتوب إليهم في المطلق ، بخلاف غيرها من المكتبات المفردة . قال في "التعريف" : ثم بعد التعريف في المطلقات الدعاء ، ثم الإفضاء إلى الكلام ، وفي آخرها يتعين أن يقال : «فليعالموا ذلك ويعتمدوه» .

وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(المطلقات المكبرة)

قال في "التعريف" : وهي ما يكتب إلى سائر الثواب بالممالك الشريفة ، خلا سبب فإنها مستجدة ، غير أنه إن رُسِمَ بإضافته إليهم ، فيحتاج إلى تحرير الحال في أمره : هل يكتب له بعد نائب طرابلس أو بعد نائب صفد ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدم العسكرية ، ولا نائب الكرك ، لأن رتبته في المكتبة أعلى منهما . فإنها نظير مكتبة نائب طرابلس وحماة وصفد .

(١) في الأصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا على ما كان الامر استقر عليه من كونها نيابة في أول الامر ، أما بعد استقرارها تقدمة عسكر ، فإنه يكون بعد مقدم العسكر بغزة : لأن كلا منهما مقدم عسكر ، ومقدم العسكر بغزة أقدم من مقدم العسكر بسيس . وأيضا فإن غزوة مضافة إلى دمشق وسيس مضافة إلى حلب ، ودمشق أكبر من حلب .

قال في "التتيف" : وصورة هذا المطلق أن يكتب في الطرة : «مثال شريف مطلق إلى الجنائين الكريمين ، العالين ، الأميريين ، الكافليين ، الفلانيين ، نائجي السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين ، أعز الله تعالى نصرتهما ، وإلى الجنابات العالية الأميرية الفلانية أو الفلاني والفلاني» على الترتيب . ثم يقال : «تؤاب السلطنة الشريفة بطرابلس وصفد وحمّة المحروسات . وإلى الجناب العالي والمجلس العالي الأميريين الفلانيين أو الفلاني والفلاني ، مقدم العسكر المنصور بغزة المحروسة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس ، أدام الله تعالى نعمتهما ، بما رسم لهم به أن يتقدم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلى آخره . ثم يُحلى بياضا يسيرا . ثم يكتب «على ماشرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضا بالوصل الذي تُكتب فيه الطرة . ثم تكتب البسملة في أعلى الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره بإصبعين ماصورته : «أعز الله تعالى نصرة الجنائين الكريمين ! وضاعف وأدام نعمة الجناب العالي ، والمجلس العالي ، الأميرية ، الكيرية ، العالية ، العادلية ، المؤيدية ، الزعيمية ، القوثية ، الغياثية ، المتأغرية ، المرباطية ، المشيدية ، الظهيرية ، الكافلية ، الفلانية أو الفلاني والفلاني» إلى آخرهم : «أعزاء الإسلام والمسلمين ، سادات الأمراء في العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، زعماء الجيوش ، مقدّمى العساكر ، مهدي الدول ، مشيدى الممالك ، عمادات الملة ، أعوان الأمة ، ظهيري الملوك والسلاطين ، سيوف أمير المؤمنين ، تؤاب السلطنة الشريفة بالشام وحلب

وطرابلس وحمّة وصَفَد المحروسات ، ومقدّم العسكر المنصور بغزة المحروسة ،
ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس « ثم الداء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال :
« صدرت هذه المكاتبُ إلى الجنّابين الكريمين والجنّابات العاليتين ، والمجلس العالين ،
تهدي إليهم من السلام كذا ، وتُوضّح لعلهم الكريم كذا وكذا ، فيُحيط عليهم الكريم
بذلك ، والله تعالى يؤيدهم بمنّه وكرمه » . وتُكَلِّ بالمشيئة وما بعدها . والعلامة
« أخوهم » . قال : في « التثقيف » : وإن أضيف إليهم نائب سيسى ... (١)
في الطرة والصدور حسب ما تقدّم ذكره .

قال في « التثقيف » : وما ينبغي عليه أنه قد يُكتب تارة إلى بعض هؤلاء النواب
ويُختصر البعض ، بحسب ما تدعو الحاجة إليه ، فيُكتب كذلك ويختصر منه من
رُسم باختصاره ، ويُذكر كل واحد منهم في محله ومرتبته على الصورة المتقدمة من
غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذي لم يزل الحال
مستقرّاً عليه حين كانت مكتبة نائب الشام « الجنّاب الكريم » نظير نائب حلب .
أما الآن حيث استقرت مكاتبته « المقرّ الكريم » . فإنه لا يليق أن يكتب لغيره بألقابه
الخاصة به . وإن أُختِصرت الألقاب الخاصة به كان فيه نقص لمرتبه ، فيلزم من
ذلك أن يكتب إليه على أنفراده ، ويُكتب المطلق لمن رُسم به بمنّ عداه من
النواب المذكورين .

قلت : وقد رأيت في بعض الدساتير كتابة المطلق الشامل لكافة الشام وغيره من
النواب بعد استقرار مكتبة نائب الشام بالمقرّ الكريم على صورتين :

(١) يبايع بالأمن ولله يضاف ، أو أضيف في الطرة الخ .

الصورة الأولى — أن تُستوفى ألقابُ المقتر الكريم بدعائه، ويؤتى بألقابه الخاصة به، ثم يُعطَف عليه الجَناب الكريم، والجَنابات العالية، والمجالس العالی، بالألقاب المشتركة؛ ويميّز ما يمكن تمييزه منها، ويكَمَّل على نحو ما تقدّم: وذلك بأن يكتب في الطرة «مثالٌ شريفٌ مطلقٌ إلى كافله السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعز الله تعالى أنصاره؛ وتُواب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابلس، وحماة، وصَفَد، ضاعف الله تعالى نعمتهم؛ ومقدّم العسكر المنصور بغزةً وسيّس المحروستين، أدام الله تعالى نعمتهما بما رسم لهم به» إلى آخره. ثم يُحَلِّي ثلاثة أوصال، على ما تقدّم؛ ويكتب تَلو البسملة في أوّل الوصل الرابع: «أعز الله تعالى أنصار المقتر الكريم العالی، المولوی، الأمیری، الکیریی، العایدی، الناسیکی، الأتابکی؛ ونُصرة الجَناب الكريم، وضاعف وأدام نعمة الجَنابات، والمجالس العالیة، الأمیریة، الکیرییة، العالیة، العادلیة، المناغیریة، المرابطیة، العونیة، الذُخریة، الغیائیة، الممهّدیة، المشیدیة، المقدّمیة، الظهیریة، الکافلیة، الفلانی والفلانی» إلى آخرهم: «معز وعز الإسلام والمسلمین، سیّدی الأُمراء فی العالمین، ناصر ونُصرة الغزاة والمجاهدین، زُعماء الجیوش أتاک ومقدّمی العساكر، مَهْمْدی الدول، مشیدی المالك، أعوان الأمة، كُهوْف الملة، ظُهراء الملوك والسلاطین، عَضُد وسیوف أمير المؤمنین، كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، وتُواب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابلس، وحماة؛ ومقدّم العسكر بغزةً وسيّس؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس» ولا زال إلى آخره. «أصدرناها إلى المقتر والجَناب الكريم والجَنابات والمجالس العالیة، تُهدی اليهم من السلام كذا، ومن الثناء كذا، وتُبْدی لعلمهم الكريم كذا وكذا. ومرسومنا للمقر والجَناب الكريم والجَنابات والمجالس العالیة أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيحيط علمهم بذلك».

الصورة الثانية — أن تُكتب الطرة على ماتقدم؛ ثم تكتب ألقاب المقر إلى آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعله الكريم وعلم الجنب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرة » إلى آخر الألقاب « أن الأمر كذا وكذا . ومرسومنا للقز والجنب الكريمين والجنابات العالية والمجلس العالى أن يتقدموا بكذا وكذا ، فيحيط علمهم بذلك » والعلامة في هذا المطلق « أخوهم » اعتبارا بالعلامة إلى كافل الشام ونائب السلطنة بحلب .

الضرب الثانى

(المطلقات المصغرة)

وقد ذكر لها في "التعريف" قواعد كلية، وأشار إلى اختلاف مقاصدها في ضمن الكلام الجمل، فقال : وفي كلها يكتب : « مثالنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، الفزاة ، الأنجاد ، الأجداد ، أجداد الإسلام ، أشراف الأمراء ، أعوان الدولة ، عند الملوك والسلاطين : الولاة ، والنواب ، والشادين ، والمتصرفين ، بالوجه القلائى ، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد القلاية ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية] وسائر الممالك الاسلامية » . قال : وقد يزداد في هذا المقتضيه : « والثغور والحصون والأطراف المحروسة » . قال : فإذا كان إلى الممالك الاسلامية ، قيل « بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، وسائر الممالك المحروسة ، وما جاورها من البلاد الشرقية ، والممالك القانية » . وقد تكون إلى جهة الروم . فيقال : « وما جاورها من البلاد الرومية وما يليها » . ثم عقب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلى بعض أولياء

الدولة نظر : فإن كان إلى عامة أمراء دمشق ، قيل : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالية الأمراء » . وبقية الألقاب من نسبة ما يكتب للجلس العالي . فإذا انتهى إلى أعضاء الملوك والسلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويموز إطلاق هذا الأفراد على الجمع ^(١)] قال : جماعة الأمراء مقدمى الألوْف ، وأمراء الطليخناه ، وسائر [مجالس الأمراء] أمراء العشرات ، ومقدمى الحلقة المنصورة . وإن كان يكتب إلى حلب أو غيرها من الممالك فبالسامية . وإن كان لأمراء العربان أو التركان أو الأكراد ؛ كتب على عادة المطلقات بالسامية ، وكتب بعد عدد الملوك والسلاطين « الجماعة الفلانية » أو غير ذلك مما يقتضى التعريف بمن كتب إليه .

أما فى "التتيف" فقد رتب المطلقات المصغرة على ستة أصناف :

الصف الأول — المطلقات إلى جميع ثواب القلاع بالملكة الشامية ، أو بالملكة الحليّة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرة : « مثاَل شريف مطلق إلى المجالس العالية والسامية الأميرية ، ومجالس الأمراء الثواب بالقلاع الفلانية المحروسة ، أدام الله تعالى نعمتهم بما رُسِم لهم به من كذا وكذا » إلى آخره . ثم يقال : على ما شِرح فيه ؛ ثم يُحلى وصلان بياضا بوصل الطرة ؛ ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعد البسملة : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالية والسامية الأميرية » وبقية ألقابهم . « ومجالس الأمراء الأجلاء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، أجداد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، مقدمى العساكر ، كهوف الملّة ، أعوان الأمة ، ظهري الملوك

والسلاطين، التّواب بالقِلاع المنصورة بالملكة الفلانية المحروسة». والدعاء إلى آخره «موضحة لعالمهم كذا وكذا. ومرسومنا للمجالس العالية والسامية، ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا، فيُحيطُ علمهم بذلك. والله تعالى يُؤيِّدُهم بمَنِّه وكرمه» والعلامة «والدهم».

الصنف الثاني — المطلقات إلى أصاغر تواب القِلاع، ممن يكتب إليه بالسامية بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير.

وصورة ما يكتب إليهم في الطّرة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى المجالس السامية، ومجالس الأمراء التّواب بالقلاع الفلانية، أو بولاية فلانة وفلانة، أدام الله تعالى صلّوهم» بمأرّسٍ لهم به نظير ما تقدّم. وبعد البسملة : «مثالنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية، ومجالس الأمراء، الأجلّاء، الأكابر، الغزاة، المجاهدين، المؤيِّدين، الأنصار، أجماد الإسلام، أشراف الأمراء، زُيُون المجاهدين، عُمد الملوك والسلاطين، أو مُدّد الملوك والسلاطين، التّواب بالقلاع الفلانية المحروسة» حَسَب ما كتب في الطّرة، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا للمجالس السامية ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا، فليعلموا ذلك ويعتدّوه ويعملوا بحسبه، والله الموفق بمَنِّه وكرمه» والعلامة الأمم الشريف.

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُربان الطاعة بالملك الشامية.

والأمر فيه كما في الصنف الذي قبله. قال في «التثقيف» : فإن كان المطلق إلى طائفة من العُربان ممن له عادة بمكاتبة جلييلة : بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك : كآل مُهنّا، وآل فضل، وآل عليّ، وآل مِرا، ونحوهم، فإنه تكون صورة ما يكتب في الطّرة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُربان، آل فلان»

إلى آخره . وفى الصدر بعد البسملة : « مثأنا هذا إلى كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء » وبقية الألقاب « الكُشَّاف^(١) والوَلَاة والتَّوَاب بالوجهين القبلي والبحرى » . ثم الدعاء . ثم يقال : « يتضمَّن إعلامهم كذا وكذا » . ثم البقية من نسبة ما تقدم .

قال فى «التتقيف» : وغالبا يُفرد الوجه القبلى بمطلق شريف ، والوجه البحرى بمطلق شريف . قال : وقد تضاف إلى الوجه البحرى الثُّغُور . فيقال : « الكُشَّاف والوَلَاة والتَّوَاب بالوجه البحرى والثُّغُور المحروسة » . قال : وإضافة الثُّغُور لا تقع إلا نادرا ، لا سيما وقد صار ثغر الإسكندرية نيابة لا ولاية . ثم قال : وفى هذا الوقت قد يتعدَّر إضافة نائب الوجه القبلى مع الوَلَاة فى المطلق لارتفاع مكانته عنهم بدرجات ؛ فيفرد بمثال شريف ، ويكتَب المطلق إلى بقية الكُشَّاف والوَلَاة . ثم قال : هذا الذى يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم ، بأن يكتب : « أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى » إلى آخره . ثم يقال : « صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى » إلى آخره « وتوضَّح لعلهم الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء » إلى آخر ألقابهم « الوَلَاة بالوجه القبلى » أن الأمر كذا وكذا : ويكمل على ما تقدم .

قال فى «التتقيف» : وبما جرت العادة به أن يكتب مطلق شريف إلى الأمراء بالملكة الطرابلسية ، أو الحموية ، أو الصفدية وغيرها ، عند ولاية نائب السلطنة

(١) من هنا إلى قوله بعد قال فى التتقيف وما جرت العادة به الخ لا يتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالممالك الشامية الذى هو موضوع الصنف الثالث كما لا يخفى ، ولعله مقدم مما يأتى بعد فى الكلام على المطلقات بالديار المصرية فتنه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ؛ فيكتب على هذا الحكم ، ولكنه بعنوانٍ بغير طُرّة . قال : وصورته في الصدر بعد البسملة : « مثالثنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس السامية ، ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر » إلى آخر الألقاب ، والدعاء « يتضمن إعلامهم كذا وكذا » إلى آخره كما تقدم ، ولكنه لا يصرح بذكر الولاية والتّوابع كما يصرح بذكر من يُكتب إليه المطلق في غير هذه الحالة . والعنوان : « المجالس السامية ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر » إلى آخر الألقاب والتّعنوت جميعها ، والدعاء ، والتعريف « أمراء الطبّخانات والعشّرات بطرابلس المحروسة ، أو بحماة ، أو بصفد ، أو بقزّة . قال : أما مملكتنا الشام وحب ، فإنه لم تَجِر العادة بكتابة مطلق بولاية نائبهما ، بل يكتب إلى أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكرك : فإنه يكتب إلى وإلى القلعة به بمثل ذلك . وكذلك يكتب إلى الحاجب بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيان يجب التنبه لهما .

(١)

أحدهما كل ما كان من ألقاب المطلّقات بصيغة الجمع وهو كأعضاء ، فإنه يجوز فيه الأفراد فيقال : فيه عضد ، وهذا مما نبّه عليه في « التعريف » في الكلام على المطلّقات .

الثاني . قال في « التتقيف » : فإن قلت : لأى شيء تُذكر أسماء الولاية والتّوابع والعُرّبان وغيرهم في الصّدر بعد تمام التّعنوت وقبل الدعاء ، ولا تُكتب في صدر المطلّقات إلى الأمراء بالمالك المتقدمة الذكر عند ولاية النائب بها أو غيره ؟

(١) يبايض بالأصل . ولعله وهو في الأصل مصدر كأعضاء الخ كما تقدم مثله للوف في الألقاب مرارا ، فتنه .

فالجواب أن ذلك في صدر المثال الشريف هو التعريف الذي من عادته أن يكون في العنوان ولا يُستغنى عنه فهو قائم مقامه ، حيث لأُعنوان لذلك المطلق ، إنما هو بطرّة لا غير ، ولها عُنوانات ، والتعريف مذكور فيها فلا حاجة إلى ذكره في الصدر . ثم قال : ومن الجماعة من يُنازع في ذلك ، ويدّعي أن ذلك في الطرّة كافٍ ومنه عن ذكره في الصدر ، وقائم مقام التعريف في العنوان . ثم قال : وهو خطأ ، وليس بشيء . والأصح ما قلناه .

[الصفحة^(١) الرابع — قال في "التثقيف" : إذا كان المطلق في أمر يتعلق بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تكون صورته « إلى الكُشَّاف والوَلَاة والنواب والشّادّين والمتصرفين بالطُّرقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة ، اختُصر منه ذكر الطرقات المصرية » .

[الصفحة^(١) الخامس — ذكر في "التعريف" أنه يقال في آخر المطلقات بعدَ فليعلموا ذلك ويعتمدوه : « بعد الخط الشريف » . قال في "التثقيف" ولعل هذا كان في الزمن الذي كان هو مباشرا فيه ، أما الآن فإنه لم تجر بذلك عادة ، ولم يكتب ذلك في مطلق شريف مكبر ولا غيره أصلا .

[الصفحة^(١) السادس — ذكر في "التثقيف" أنه رأى بخط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب مطلقا إلى المجاهدين بمصياف ؛ يعني الفداوية صورته : « يعلم كل واقف على مثالنا هذا من المتقدمين الأجلاء الغزاة المجاهدين المؤيدين الأنصار ، الأتايك فلان والأتايك فلان جماعة المجاهدين » ثم الدواة .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للقام وتبينا لقسم الكلام .

الضرب الثاني

(من المطلقات، التبرّغ)

^(١) بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع برّغ، وهي لفظة تركية معناها المرسوم، وعليها جرى عُرف كُتاب بلاد الشرق، وقيل أن تُكْتَب بالديار المصرية، ولذلك لم يتعرّض لها في "التعريف" ولا في "التتقيف": وهذه صورة برّغ شريف رأيها في تذكرة المقرّ الشهابي بن فضل الله في الجزء السادس والأربعين منها، بخط أخيه المقرّ العلائي بن فضل الله رحمهما الله تعالى؛ كتب في النولة الناصرية «محمد بن قلاوون». في عاشر شهر رجب القرد سنة تسع وعشرين وسبعمائة لتبرّغاً، الرسول الواصل إلى الديار المصرية، عن القان أبي سعيد صاحب مملكة إيران بالإكرام والمساحة بما يلزمه. وصورته في أقل الدرج.

مثال شريف مطلق إلى كافّة من يصل إليه، ويقف عليه، للجلس السامي الأميري السيفي تبرّغ الرسول، بالطرخانية، وتمكين أصحابه من التردّد إلى الملك الشريفة الإسلامية، وإكرام حاشيتهم وتسهيل مطلّهم، ومساحتهم في البيع والشراء بما طُلب من الحقوق على اختلافها، وتحذير من سميع هذه المراسيم المطاعة ثم أقدم على خلافها. وبعد البسملة:

الحمد لله الذي بسط أيدينا الشريفة بالجود، ونصب أبوابنا الشريفة كهبة تهوى إليها أفئدة الوُفود، وأطاب متاهلها لكافّة الأمم لتتأبها في الصدور والورود.

نحمده على نعمه التي كَمّ بلغت راجياً ما يرجوه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفيض بها الوجوه، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي تدب

(١) كتب بهامش الأصل ما فيه «لولا قيده بالباء الموحدة لكان أولى على ما لا يخفى» ومراده أنه بالنتاة التحية كما تقدم.

إلى مكارم الاخلاق بقوله : « إذا أناكم كريم قوم فأكرمهم » صلى الله عليه صلاة
تزيد من يقرب الثناء بهاتركيا ، ثم على آله وصحبه وسلم تسليما .

وبعد : فإنه لما حضر المجلس السامى الأثيرى ، الأسفّهسلارى ، السّينى ،
مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء المقدّمين ، ناصح الدولتين ، ثقة المملكتين ،
نفر الخواصّ المقرّين ، عضدّ الملوك والسلاطين ، ترميزا الرسول - أنجح الله تعالى
مساعيه ، وأوجب الرّاية لمن يرّاعيه - إلى أبوابنا الشريفة ونور ولائه يسعّى بين يديه ،
وإخلاص نيته يظهر عليه ، بلغ إلينا ما أرسل فيه عن الحضرة الشريفة العالاية ،
السلطانية ، العالاية ، العادليّة ، الشاهنشاهية ، القانيّة ، الأوحديّة ، الولديّة ، العزيزيّة ،
المعظميّة ، الملكيّة ، العلانيّة ، أبى سعيد بهادر خان - زيدت عظمته - وظهر
لنا من كمال صفاته ماري البدر التمام بتقصه ، ومن حسن تأتبه فى خدمة من
أرسله ما يعرف به أنه أرسل حكما ولم يؤصّه ، وعرض على نظرا الشريف البرغ
الشريف المكتتب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظم ،
الملك بوسعيد ، أعز الله تعالى شأنه بالطرخانيّة ، وما نبّه عليه من مكانته العلية ،
ورقّه مطالبه من تأكيد الوصيه ، ثم رغب إلينا فى الكتابة على حكمه إلى كافة الممالك ،
وأن يسطر له منها صحائف حسّسات تقضى بها الملوك وترضى بها الملائك ، فأجرتّه
مراحمتا الشريفة على كرمها المعتاد ، وأجارتّه نعمنا الجزيلة وجاورته حيث سار
من الأرض أو أقام من البلاد ، وأجابت صدقاتنا الشريفة بتحقيق المامول ، وأكرمت
كتابه بما يستحق أن يكرم به كتاب الرسول . ومرسومنا إلى كل واقف عليه من
الثواب والولاء والشادين والمتصرفين والمباشرين والمتحدّثين وبقية الحكام أجمعين
إلى كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرقا وغربا ، وبعدا وقربا ، أيدهم الله بالتوفيق ،
ويسرّ لهم الطريق ، وجعل حسن تلقّيهم الوفود يأتى بهم من كل فج عميق ، أن يُجرى

الأمير الكبير المقرب تريناً الرسول على ما ألقه في أبوابنا الشريفة من كرم إكرامه، وفارقنا عليه من توفير جانبه وتوفير احترامه؛ ويُفَسِّح لكل من يصل من جهته في التردد إلى هذه الممالك الشريفة، والتردى بلباس النعم المطيفة؛ وأن تضاعف له الإحانة والعناية، والمراعاة والرعاية؛ ولا يُطَلَب أحد منهم في البيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ بشيء من المقررات الديوانية، والموجبات السلطانية؛ ولا يؤخذ منهم عليها شيء سواء كان قليلاً أو كثيراً، جليلاً أو حقيراً؛ ولا يتناول عليهم أحد في هذا المرسوم الشريف، ولا يتعدى حكمه في تصرف ولا تصرف؛ بل يقف كل واقف عليه عنده، ويعمل به في اليوم وما بعده، ويلحظ منه على من خالفه سيفاً مسلواً وعلى من تجاوز حده؛ فتنحدر وتُنذر من سطواتنا الشريفة من سمعه ثم زاغ قلبه عنه، أو من بلغه من لا يفهم مضمونه ثم لا يسأل عما هو قريب حامل كلام إلى من هو أوعى منه؛ فتكن عيونهم له مُراعِيه، وسماعهم منصتة إلى سماعه بأذن وإعیه؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه .

المقصد الثالث

(من المكاتبات، في أوراق الجواز وبطاقات الحمام، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أوراق الجواز)

وهي المعبر عنه في زماننا بأوراق الطريق . قال في "التثقيف" : تكون ورقة الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة، يُكْتَب في أعلاها سطر واحد، صورته : « ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني » لاخير . ثم يُجْلَى بيت العلامة بتقدير شبر، ويكتب في بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثاني بأربعة أصابع مطبوعة بغير

بسملة : « رُسم بالامر الشريف العالى المولوى السلطانى الملىكى الفلانى - أعلاه الله تعالى وشرّفه ، وأنفذه وصرفه - أن يَمَكِّن فلان الفلانى » . وتذكر ألقابه إن كان أميرا ، أو متعماً كبيراً ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال « من التوجه إلى جهة قصده والعود . ويعمل على فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور من مركزي إلى مركزي على العادة متوجّهاً وعاثداً » فإن كان متميزاً المقصد ارتُكِب : « ويعامل بالأكرام والاحترام ، والرعاية الوافرة الأقسام ، فيعتمد ذلك ويعمل بحسبه ، من غير عدول عنه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه » . قال : وما تقدّم من كتابة أنه يَمَكِّن من التوجه والعود ، هو فيما إذا كان عاثداً ورُسم بتمكينه من العود ، وإلا فيكتب « أن يَمَكِّن من التوجه إلى جهة قصده » . فإن كان قد حضر إلى الأبواب وهو عاثداً ، فالأحسن أن يكتب فيه « أن يَمَكِّن من العود إلى جهة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لا يكتب إلا للأمير ، أو ذى قدر كبير . فإن كان غيره ، كتب [بدلاً] له « مع الوصية به ورعايته » ونحو ذلك . وإن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : « ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهماً » خلا الأماكن المرسوم باطلها . وذلك أن بالطرق أمان لا يصرف فيها شيء الآن ، فيحتاج إلى أن تُستثنى ، وكانت قبل ذلك تُعَيَّن ، وهى : بليس ، وطفيس ، وأربد وغيرها . ثم كثرت عن التعداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وما ينبّه عليه أن صاحب ورقة الطريق إن كان من ممالك التواب أو رُسل أحد من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر ما يليق به من الألقاب : « فلان مملوك فلان أو رسول فلان » . وتذكر ألقاب مخدومه التى كوتب بها اختصاراً . ^(١) ولا تذكر نعوته على يد من رسم بنفيه ،

(١) كذا في الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلى يد من ، وإن رسم بنفيه كتب الخ تامل .

كتب : « أن يمكن الأمير فلان الدين فلان من التوجه حُجبة فلان البريدى بالأبواب الشريفة ، أو أحد القباء بالبواب الشريف ليوصله إلى المكان الفلاني ، ويحمل على كذا وكذا فرساً من خيل البريد المنصور » إن كان قد رُسم له بشيء من خيل البريد « ويحمل البريدى على كذا من خيل البريد المنصور » أو « ويحمل النقيب على فرس واحد من خيل الكراء من ولاية إلى ولاية على العادة في ذلك ، ويمكن البريدى إن كان بريدياً أو النقيب إن كان قتيماً من العود إلى الباب الشريف » . ثم يكمل بنسبة ما تقدم . وإذا فرغ من صورته ، كتب بعد ذلك « إن شاء الله تعالى » ، ثم التاريخ والمستند على العادة .

قال : في « التتقيف » : والمستند في أوراق الطريق أحد ثلاثة أمور : إما خط كاتب السر ، وهو الغالب . أو رسالة الدوادار ، وهو كثير أيضاً . أو إشارة نائب السلطان إن كان ثم نائب ، وهو نادر . فإن كان بخط كاتب السر ، كُتب على الهامش من الجانب الأيمن سطر واحد يكون آخره يقابل السطر الأول الذي هو رُسم بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرسوم الشريف » . وكذا إن كان بإشارة النائب ، كُتب سطران على الهامش المذكور آخرهما أيضاً يقابل أول السطر الأول ^(١) « بالإشارة العالية » كما تقدم في الكلام على المستندات في المقالة الثانية . قال : وفي هاتين لا يُكتب في ذيلهما بعد التاريخ سوى الحسبة لا غير . وإن كان برسالة الدوادار ، كتب على الهامش « حَسَبَ المرسوم الشريف » فقط ، وكُتب تحت التاريخ سطران هما « رسالة المجلس العالي الأميري الفلاني فلان الدوادار المنصوري أدام الله تعالى نعمته » ، ثم الحسبة .

(١) صوابه الثالثة . والذي تقدم في ج ٦ ص ٢٦٤ « فيكتب » — بالإشارة العالية الأميرية الكبيرة الكاظية ، كآل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى — سطرين ويكون آخر السطر الأول الكاظية الفلانية .

الجملة الثانية

(في نُسخ البطائق ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(أن تكون البطاقة بعلامة شريفة)

قال في "التتقيف" : وتكونُ نحوَ ثُلثي وَصَل من ورق البطائق . قال : وصورتها أن يكتب في رأس الورق المذكور في الوسط سواء « الاسم الشريف » وتحتَه مُلصَقاً به من غير بياض سطرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتي ذكره . ثم يُحْطَى بِثُتِ العلامة تقدير أربعة أصابع مطبوعة ، ثم تُكْتَبُ ثَمَّةُ الكلام أسطراً متلاصقة بنسبة الأول ، بغير هامش أصلاً إلى آخره . والذي يكتب من يمين الورق . « الله الهادي . سُرَّح الطائر الميمونُ ورفيقه ، هداهما الله تعالى في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من سنة كذا وكذا ، إلى المجلس الكريم ، أو السامي ، الأمير فلان وإلى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعْلَمُ أَنَّ الأمر كذا وكذا . ومرسومنا له أن يتقدم بكذا وكذا ، فليعلم ذلك ويعتد به ، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ، حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل » . والمستند لها « حَسَبَ المرسوم الشريف » .

الضرب الثاني

(أن تكون بغير علامة)

وصورتها أن يكتب في رأس الورقة في الوسط موضع الاسم : « الله الهادي بكرمه » ، والاسطر متلاصقة بغير هامش ، ولا يُحْطَى فِيهَا بِثُتِ علامة . وصورة

ما يكتب فيها : « المرسوم بالأمر الشريف ، العالى ، المولى ، السلطان ، الملكى ،
 الفلانى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى وصرفه - أن يُسرح هذا الطائر الميمون ورفيقه ،
 هداها الله تعالى فى وقت كذا وكذا » . ويكفل على حسب ما تقدم « والله الموفق ،
 حسب المرسوم الشريف ، إن شاء الله تعالى » . قال فى « التتقيف » : وقد يقتضى
 الحال نقلها من مكان إلى مكان آخر ، مثل أن تنقل من بلبس إلى قنطيا ، فيكتب بعد
 ذكر المرسوم به : « ويتقدم بنقل هذه البطاقة إلى فلان الفلانى ليعتمد مضمونها
 ويعمل بحسبها » . فإن كانت منقولة إلى مكان ثالث ، كتب بعد ذلك : « ثم ينقلها
 إلى فلان ليعتمد مضمونها أيضا ويعمل بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمده » . والتمة
 حسب ما تقدم .

الطرف الثالث

(فى المكتبات إلى عظماء ملوك الإسلام ، ومن أنطوت عليه ممالكهم من دونهم
 من الملوك والحكام المنفردين ببعض البلدان ، والأمراء والوزراء وسائر
 من صمم نطاق كل مملكة من تلك الممالك ، ممن جرت العادة بمكاتبته
 عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو مستمير المكتبة
 أو زالت مكاتبته بزواله : ليقاس عليه من لعله يظهر مظهره)

وَأعلم أن مكاتب الديار المصرية يُراعون فى المكتبة إلى كل مملكة صورة المكتبة
 الواردة عن تلك المملكة فى غالب حالها : فى الابتداء والخطاب والاختتام وغير ذلك .
 وفيه أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في المكتبات إلى عظماء ملوك الشرق، ومن أنطوت عليه كل مملكة من ممالكهم، من جرت العادة بمكتبته، وفيه أربعة مهاييع)

المهييع الأول

(في المكتبة إلى الملوك والحكام، ومن جرى تجراهم بمملكة إيران، وهي مملكة الأكاسرة الصائرة إلى بيت هولأكو من بني جنكرخان)

وقد تقدم في المقالة الثالثة في الكلام على المسالك والممالك ذكر حدود هذه المملكة وقواعدها ومثلها، وإلى من تنسب، ومن ملكها جاهلية وإسلاماً إلى زماننا . والمقصود هنا ذكر المكتبات فقط؛ ويشتمل المقصود منها على ثلاث مجمل .

الجملة الأولى

(في رسم المكتبة إلى قايها الأعظم الجامع لحُدودها، على ما كان الأمر عليه من مبدأ ملك بيت هولأكو وإلى آخر دولة أبي سعيد، وله حالتان)

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه في رسم المكتبة في أوائل الدولة التركية، والعداوة بعد قائم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوكها . وفيه أسلوبان .
الأسلوب الأول — أن يكتب تحت البسملة من الجانب الأيمن « بقوة الله تعالى » ويكون « بقوة الله » سطرا و « تعالى » سطرا؛ ثم يكتب من الجانب الأيسر : « بإقبال دولة السلطان الملك الفلاني » . ويكون « بإقبال دولة » سطرا، وباقي الكلام سطرا ثانيا . ثم يكتب تحت ذلك « كلام فلان » سطرا ثانيا « إلى السلطان فلان » سطرا ثالثا . ثم يؤتى ببعديّة وخطبة، ويؤتى بالمقصود .

وطريقهم فيه على التكلم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطاب لسلطان إيران بجم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم في جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِبَ به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحب الديار المصرية ، في جواب كتاب ورد عن السلطان أحمد القان بإيران في زمانه . يذكر فيه أنه أسلم ، إذ كان أول من أسلم من ملوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبير كان قد عزم على دخول ممالك الديار المصرية قبل موته ، وأنه منع ذلك ؛ وأنه لا يجب المسارعة إلى القتال ، وأن المشير بذلك الشيخ عبد الرحمن : أحد صلحاء بلاده ، وأنه حرم على عساكره الغارات على البلاد ، وتعرض فيه إلى أمر الجواسيس ، وأشار إلى أن الاتفاق فيه صلاح العالم ، وأشار إلى أشياء حملها لرسله يذكرونها مُسَاهِفَةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك على ما سيأتى ذكره في الكتب الواردة على الديار المصرية .

وكتب بخط ناصر الدين شافع بن علي بن عباس : أحد كتّاب الإنشاء ، في رمضان سنة إحدى وثمانين وستمائة . والتكلم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدم في الأسلوب الأول ، وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باقبال دولة
السلطان الملك المنصور

بقوة الله
تعالى

كلام قلاوون

إلى السلطان أحمد

أما بعد حمد الله الذي أَوْصَحَ بنا ولنا الحقَّ منهاجا ، وجاءَ بغاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبيِّنا محمد الذي فضله الله

على كلِّ نبيٍّ نجيٌّ به أمته وعلى كلِّ نبيٍّ ناجا، صلاةٌ تُبَرِّمُ مَادَجًا ؛ فقد وصل الكتابُ الكريم، المتلقى بالكریم، المشتغلُ على النَّبِیِّ العظیم ؛ من دُخُولِهِ في الدِّین، وتُخْرُوجِهِ عمن سلف من العشيرةِ الأقربین ؛ ولما فُتِحَ هذا الكتاب بهذا الخبر العلمُ المُعَرِّم، والحديثُ الذي صحَّح عند أهل الإسلام إسلامه وأصحَّ الحديثَ ما رُوِيَ عن مسلم، توجَّهت الوجوهُ بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يُثَبِّتَهُ على ذلك بالقول الثابت، وأن يُنْبِتَ حَبَّ حُبِّ هذا الدين في قلبه كما أثبت أحسن النَّبَتِ من أخشن النَّاتِبِ ؛ وحصل التأملُ للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه في أوَّل عُتُقُونِ الصَّبا إلى الإقرار بالوحدانيه، ودُخُولِهِ في المِلَّةِ المحمديه، بالقول والعمل والنية ؛ فالحمدُ لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام ؛ فحَمِدْنَا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المَقَالِ والمقام، وثبَّت أقدامنا في كلِّ موقِفٍ اجتِهَادٍ وجِهَادٍ تَرْلُزُ دُونَهُ الأقدام .

وأما إفضاءُ النَّوْبَةِ في المُلْكِ وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضةُ جَلَّادِيْبِ هذه النعمةِ العظيمة عليه ؛ وتَوَقُّلُهُ لِأَسْرَةِ التي طَهَّرَهَا اللهُ بِإِيْمَانِهِ، وأظهرها بِسُلْطَانِهِ ؛ ففقد أورثها اللهُ مَنْ أصْطَفَاهُ من عباده، وصَدَّقَ المَبَشِّرَاتِ من كرامةِ أوليائِ الله وعبَّاده .

وأما حكاية الإخوان والأمرء الكبارِ ومقدِّمِي العساكرِ وزُعماءِ البلاد في مجمع فوريليساي الذي ينقدح فيه زَنْدُ الآراء، وأن كلمتهم آنَفَقَتْ على ما سبقتُ به كلمة أخيه الكبير في إفاذا العساكر إلى هذا الجانب، وأنه قد فُكِّرَ فِيا أَجْتَمَعَتْ عليه آراؤهم، وآتَهَتْ إليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفا لما في ضميره : إذ قَصَدُهُ الصَّلاح، ورأيهُ الإِصْلاح ؛ وأنه أطفأ تلك النَّائِرَةَ، وسكَّن تلك النَّائِرَةَ ؛ فهذا فعل المَلِكِ المُتَّقِی، المُشْفِقِ من قومه على مَنْ بَقِيَ، المُفَكِّرِ في العواقب، بالرأى الثاقب ؛ وإلا فلوترِكُوا

وَأَرَأَيْتُمْ حَتَّى تَحْلَهُمُ الْغَزَى ، لَكَانَتْ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الْكَوْهَ ؛ لَكِنْ هُوَ كَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَلَمْ يُوَافِقْ قَوْلَ مَنْ ضَلَّ وَلَا فَعَلَ مَنْ غَوَى .

وَأَمَّا الْقَوْلُ مِنْهُ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَسَارِعَ ، إِلَى الْمُقَارَعَةِ ؛ إِلَّا بَعْدَ إِضْلَاحِ الْحَجَّةِ ، وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ؛ فَبِانْتِظَامِهِ فِي سَلَكِ الْإِيمَانِ صَارَتْ مُجْتَنَّا وَحِجَّتُهُ مَرْكَبُهُ ، عَلَى مَنْ قَدَّتْ طَوَافِيقُهُ عَنْ سُلُوكِ هَذِهِ الْحَجَّةِ مُتَنَكِّبُهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى وَالنَّاسَ كَافَّةً قَدْ عَلِمُوا أَنَّ قِيَامَنَا إِنَّمَا هُوَ لِنُصْرَةِ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَجِهَادِنَا وَأَجْتِهَادِنَا إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ ؛ وَحَيْثُ قَدْ دَخَلَ مَعْنَى فِي الدِّينِ هَذَا الدُّخُولُ ، فَقَدْ ذَهَبَ الْأَحْقَادُ وَزَالَتِ الدُّخُولُ ؛ وَبَارْتِفَاعِ الْمُتَنَافَرِ ، تَحْصُلُ الْمُظَافَرِ ؛ فَالْإِيمَانُ كَالْبُنْيَانِ يُسَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَمَنْ أَقَامَ مَنَارَهُ فَلَهُ أَهْلٌ بِأَهْلٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَجِيرَانٌ بِجِيرَانٍ بِكُلِّ أَرْضٍ .

وَأَمَّا تَرْتِيبُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ عَلَى إِذْكَارِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ قُدْوَةِ الْعَارِفِينَ كَيْلَ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ ، فَلَمْ يُرْلَوْهُ قَبْلَهُ كَرَامَةُ كَهَذِهِ الْكَرَامَةِ ، وَالرَّجَاءُ بِبِرْكَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ الصَّالِحِينَ أَنْ تُصْبِحَ كُلُّ دَارٍ إِسْلَامَ دَارٍ إِقَامَهُ ؛ حَتَّى تَمَّ شَرَائِطُ الْإِيمَانِ ، وَيَعُودَ يَتِمُّ الْإِسْلَامُ بِجَمْعِهِمَا كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ؛ وَلَا يُنْكَرُ لَنْ بَرَكَاتِهِ أَبْنَاءُ هَذَا التَّمَكُّنِ فِي الْوُجُودِ ، أَنْ كُلُّ حَقٍّ بِبِرْكَتِهِ إِلَى نَصَابِهِ يَعُودُ .

وَأَمَّا إِنْقَادُ أَقْصَى الْقَضَايَا قُطْبِ الْمِلَّةِ وَالْدِينِ ، وَالْإِثْمَانُ بِهَاءِ الدِّينِ ؛ الْمَوْثُوقِ بِتَقْلِيمِهِمَا فِي إِبْلَاحِ رِسَائِلِ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ ، فَقَدْ حَضَرَ وَأَعَادَا كُلَّ قَوْلٍ حَسَنٍ مِنْ أَحْوَالِ أَحْوَالِهِ ، وَخَطَرَاتِ خَاطِرِهِ ، وَمَسْطَرَاتِ نَاطِقِهِ ؛ وَمَنْ كُلُّ مَا يُسْكِرُ وَيُجِدُّ ، وَيُغْنِي عَنْهُمَا فِيهِ عَنْ مُسْنَدِ أَحْمَدَ .

وَأَمَّا الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَكُنْ تَتَطَّلَعُ فِي إِقَامَةِ دَلِيلٍ ، تَسْتَحْكِمُ [بِهِ] دَوَاعِيَ الْوَدِّ الْجَمِيلِ ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ مَآثِرِهِ ، فِي مَوَارِدِ الْأَمْرِ وَمَصَادِرِهِ : مِنَ الْعَدْلِ

والإحسان، بالقَلْب واللسان، والتقدُّم بإصلاح الأوقات، فهذه صفاتٌ من يُريد
لُملكه الدوام؛ فلما مَلَكَ عدل، ولم يَلْتَفِتْ إلى لُؤْم مَنْ عدا ولا لُؤْم من عَدَل. على
أنها وإن كانت من الأفعال الحسنه، والمثُوبات التي تستنطق بالدعاء الأُلسنه؛
فهى واجبات تُؤدى، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر، أوله يذخر؛
إنما يفتخر الملك العظيم بأن يُعطى بمالك وأقاليم وحُصُون، أو يَسُدُّ في تشييد
لُملكه أعزَّ مصُون.

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرُّض إلى أحد
بالأذى، و[تَحْيِم] إصفاء مَوارد الواردين والصادرين من القَدَى؛ فن حين بلغنا تقدُّمه
بذلك تقدُّمنا أيضا بمثله إلى سائر الثواب، بالرجبة وحَلَب وعَيْتاب؛ وتقدُّمنا إلى
مقدم العساكر بأطراف تلك الممالك، بمثل ذلك؛ وإذا اتحد الإيمان، وانعقدت
الإيمان؛ تحمَّ إحكام هذه الأحكام، وترتب عليه جميع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذى أُنْسِكَ وأُطْلِق وأنَّ بسبب من ترأَّ من الجواسيس
بزى الفقراء قُتِل جماعة من الفقراء الصُلحاء رجًا بالظن، فهذا باب من ذلك
الجانب ستره، وإلى الإطلاع على الأمور صَوْره؛ فظفر الثواب منهم بجماعة فرغ
عنهم السيف، ولم يكشف ما غَطَّتْه خرقه الفقر ولا كيف.

وأما الإشارة إلى أن فى اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم، وينظم شمل بنى آدم؛
فلا رادَّ لمن طرَّق بابَ الاتحاد، ومن جَنَحَ للسُّلَم فما جَارَ ولا حد؛ ومن ثغى عِناته
عن المكافه، كمن يُريد المصالحه للصالحه؛ والصُّلح وإن كان سيد الأحكام فلا بد
من أمور تُبْنَى عليها قواعده، وتُعلَّم من مدلولها فوائده؛ فإن الأمور المسطورة فى كتابه
عن كَلِمَات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم إن تها صلح أولم، وثمَّ أمورٌ لا بدَّ أن تُحْكَم،
وفى سلكها عقود المهود تُنظَّم؛ قد تجلَّ لها لسانُ المشافهة التى إذا أُورِدَتْ أقبلت

من معنى دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ؛ وما بسطه من عدل وإحسان ، وسيرة مشهورة بكل لسان ، فالمنة لله في ذلك فلا يشيها منه بأمتان ؛ وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في حق من آمن بإسلامه : ﴿ قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمُ الْإِيمَانِ 》 .

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يده من أرض ومال ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل ؛ فالجواب أن تم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، تمت المصاحبة والمصادقة ؛ ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا ، وإعزاز مصافينا ؛ فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر الدين الحمدي واستحكم في صدر الإسلام إلا بمظاهرة الصحابة ؛ فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد ، وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتد به الأزر عند الاستناد ، فقد فهم المراد .

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض ومال ، فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغیر فائدة تعود ؛ فالجواب أنه لو كُفَّ كف العدوان من هنالك ، وحلّ الملوك المسلمين ما لهم من ممالك ؛ سكنت الدماء ، وحقت الدماء ؛ وما أحقه بأن لا ينهى عن خلق وياق مثله ، ولا يأمر بشيء وينسى فعله ؛ وقنفر طاب بالروم الآن ، وبين بلاد في أيديكم نراجها ينجي إليكم ، قد سقك فيها وقتك ، وسبي وهتك ؛ وباع الأحرار ، وأبى إلا التناذى على ذلك والإصرار .

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الإغارات ، ولا يقتصر عن هذه الإثارات ؛ فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتَّفَقَ فيها ملئى الجمعين مرَّةً ومرَّةً ومرةً قد عافَ مواردُها من سلفٍ من أولئك القوم ، وخافَ أن يُعاودها فيعاودُه مضرُّعُ ذلك اليوم ؛ ووقَّتُ اللقاءَ علمه عند الله لا يُقدَّرُ ، وما النصرُ إلا من عند الله لمن أقدرَ لامن قدره ؛ وما نحن ممن ينتظرُ فُتْنَه ، ولا مَن له إلى غير ذلك لَفْتَه ، وما أمرُ ساعةِ النصرِ إلا كالساعةِ التي لا تأتي إلا بَقْتَه ؛ والله تعالى الموفقُ لما فيه صلاحُ هذه الأُمَمِ ، والقادرُ على إتمامِ كلِّ خيرٍ ونعمه ؛ إن شاء الله تعالى . مُسْتَهْلٌ شهر رمضان المعظم قدره ، سنة إحدى وثمانين وسبعمائة . الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونعم الوكيل .

الأسلوب الثاني

(أن يُكْتَبَ تحتَ البسملةِ على حَيْالٍ وَسَطِها « بِقُوَّةِ الله تعالى

وَمِائِينَ المِلةِ المحمدية »)

ويكون « بِقُوَّةِ الله تعالى » سطرا . و « مِائِينَ المِلةِ المحمدية » سطرا ثانيا . ثم يُؤتى ببعديةٍ وخُطْبَةٍ مختصرةٍ ؛ ثم يُكْتَبَ سطران بياض من الجانبين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملكِ الفلانى ، كلام فلان بن فلان » . ويكون السطر الأول « بإقبال دولةِ السلطان الملكِ » وبقى الكلام فى السطر الثانى . ثم يقال : « فليعلم السلطان فلان » . ويؤتى على المقصود إلى آخره .

وهذه نسخةُ كُتابٍ من إنشاء القاضى علاء الدين على بن فتح الدين محمد بن محيى الدين بن عبد الظاهر ، صاحبِ ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى جواب كتابٍ وردَّ عن السلطان محمود غازان ، القان بمملكة إيران ، يذكر فيه أنَّ جماعةً من عساكر البلاد الشامية أغاروا على ماردین ، وأن الحمية أقتضت الرُكوبَ فى مُقابلة

ذلك . وذكر أنه قدّم الرُّسل بالإنذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا على تماديهم في غيِّهم ؛
ويذكر فيه نُصْرَتَهُ على العساكر الإسلامية في المرّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام
بأطراف البلاد ، ولم يدخلها خوف التخريب والفساد . ويذكر فيه جمع العساكر
وتهيئة المجانيق وغير ذلك من آلة القتال . ويذكر أنه إذا لم تجرِ موجبات الصلح
كانت دماء المسلمين مطلولّة ؛ ويذكر لإرسال رُسله بكتابه ويتمسّ التحف والهدايا ،
مما كُتِبَ به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في المحرم سنة إحدى
وسبعائة وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينِ الْمَلَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ

أما بعد حمد الله الذي جعلنا من السابقين الأولين ، الهادين المهتدين ، التابعين
لِسُنَّةِ سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلى يوم الدين ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه الذين فضّل الله مَنْ سبق منهم إلى الإيمان في كتابه المكنون . فقال
سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

بإقبال دولة السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فَلْيَعْلَمِ السلطانُ المعظّمُ محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثلّه
من الإكرام ، ورعينا له حقّ القصد فتلقيناه منا بسلام ، وتأملناه تأمل المتفهم
لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه ؛ فالفينا قد تضمن مؤاخذاتٍ بأمويرهم بالمواخذة

عليها أخرى، معتردا في التعدي بما جعله دُئوبا لبعض طالب بها الكل، والله تعالى يقول : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

أما حديث مَنْ أغار على مَارِدِينَ من رِجَالِ بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة، والآثام الشنيعة ؛ وقولهم : لنهم أَنْفُوا من تهجمهم، وغاروا من تَقَحُّمِهِمْ ؛ وأقضت الحمية رُكُوبَهُمْ في مقابلة ذلك، فقد تلمحنا هذه الصورة التي أقاموها عُذرا في العُدوان، وجعلوها سببا إلى ما آرتكبوه من طُغْيَان ؛ والجواب عن ذلك أَنَّ الغاراتِ من الطرفين [و] لم يحصل من المُهادنة والموَادة ما يكف يدنا الممتدة، ولا يُقْتَرِهمها المستعته ؛ وقد كان آبائكم وأجدادكم على ما علمتم من الكُفْر والشقاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق ؛ ولم يزل ملك مَارِدِينَ ورعيته متفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم ، متولين كِبَرُتُكْرَهُمْ ؛ والله تعالى يقول : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) . وحيث جعلتم هذا ذنبا للحمية الجاهلية، وحاملا على الانتصار الذي زعمتم أَنَّ هَتَمَكُمْ به مِليَّة ؛ فقد كان هذا القصد الذي ادَّعَيْتُمُوهُ يَتِمُّ بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ الثار من نار، اتباعا لقوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) لا أن تَقْصِدُوا الإسلام بالجموع الملققة على أختلاف الأذيان ، وتطشوا القاع الطاهرة ببدة الصلبان ؛ وتتهكروا حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ وإن أحتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعذيبهم من سُنتنا ؛ فقد أوضحنا الجواب عن ذلك ، وأن عدم الصلح والموَادة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما أدَّعَوْهُ من سلوك سَنَنِ المرسلين ، واقتفاء آثار المتقدمين ، في إنفاذ الرُّسُلِ أولا، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المستطوره؛ والجواب

عن ذلك أنَّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دَنَتِ الخِلَامُ من الخِلَامِ ، وناضَلَتِ السَّهَامُ السَّهَامَ ، وشارَفَ القَوْمُ القَوْمَ ، ولم يَبْقَ للقاء إلا يَوْمٌ أو بَعْضُ يَوْمٍ ، وأُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ من الجَانَيْنِ ، ورَأَى كُلُّ خَصْمِهِ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وما نحنُ مِن لَاحَتٍ لَهُ رَغْبَةٌ رَاغِبٍ قَتَشَاغَلَ عَنْهَا ، ولا مِن يُسَالِمُ فَيَقَابِلُ ذَلِكَ بِجَفْوَةِ النَّقَارِ ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَإِنْ جَحَّوْا لِلْسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ . كَيْفَ وَالْكَتَابُ بَعُوثَانَهُ ! ، وأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : « مَا أَضْمَرَ إِنْسَانٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ » . ولو كانَ حُضُورُ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَالسُّيُوفِ وَادِمَةً فِي أَعْمَادِهَا ، وَالْأَسِنَّةُ مُسْتَكِنَةً فِي أَعْوَادِهَا ، وَالسَّهَامُ غَيْرُ مَفَوَّهٍ ، وَالْأَعْنَةُ غَيْرُ مُطْلَقَةٍ ، لَسَمِعْنَا خِطَابَهُمْ ، وَأَعَدْنَا جَوَابَهُمْ .

وَأَمَّا مَا أَطْلَقُوا بِهِ لِسَانَ قَلْبِهِمْ ، وَأَبْدَوْهُ مِنْ غَلِيظِ كَلِمَتِهِمْ ؛ فِي قَوْلِهِمْ : فَصَبَرْنَا عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي عَيْمِكُمْ ، وَإِخْلَادِكُمْ إِلَى بَيْعِكُمْ ؛ فَأَيُّ صَبْرٍ مِنْ أُرْسِلَ عَيْنَانَهُ إِلَى الْمَكَالِفَةِ ، قَبْلَ إِرسَالِ رُسُلِ الْمَصَالِحَةِ ؛ وَجَاسَ خِلَالَ الدِّيَارِ ، قَبْلَ مَا زَعَمَهُ مِنَ الإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ ؟ وَإِذَا فَكَّرُوا فِي هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَنَظَرُوا مَا صَبَّرَ عَنْهُمْ مِنْ خِطَابٍ ؛ عَلِمُوا الْعُدْرَ فِي تَأْخِيرِ الْجَوَابِ ، وَهَذَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أَوَّلُوا الْأَلْبَابَ .

وَأَمَّا مَا تَبَجَّحُوا بِهِ مِمَّا أَعْتَقَدُوهُ مِنْ نُصْرِهِ وَظَنُّوهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَهُمْ عَلَى حَزْبِهِ الْغَالِبَ فِي كُلِّ كَرَّةٍ الْكَرَّةِ ؛ فَلَوْ تَأَمَّلُوا مَا ظَنُّوهُ رَبِّحًا لَوْجَدُوهُ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ ، وَلَوْ أُنْعَمُوا النَّظَرَ فِي ذَلِكَ لَمَا كَانُوا بِهِ مُفْتَحِرِينَ ؛ وَلَتَحَقَّقُوا أَنَّ الَّذِي أَتَّفَقَ لَهُمْ كَانَ غُرْمًا لِأَغْنَاءَ ، وَتَدَبَّرُوا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا تُنْمَلِي لَهُمْ لِيُزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ . وَلَمْ يَخَفْ عَنْهُمْ مَا نَالَتْهُ السُّيُوفُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْهُمْ ، وَقَدْ رَأَوْا عَزَمَ مَنْ حَضَرَ مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي لَوْ كَانَتْ مُجْتَمِعَةً عِنْدَ الْإِقْلَاءِ مَاظْهَرَ خَبْرَ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّا كُنَّا فِي مُفْتَتَحِ مُلْكِنَا ، وَمَبْتَدَأِ أَمْرِنَا ؛ حَلَلْنَا بِالشَّامِ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ . فَلَمَّا تَحَقَّقْنَا خَبْرَكُمْ ، وَقَفَّوْنَا أَرْكَمَ ؛

بَادَرْنَا قُدَّ أَدِيمَ الْأَرْضِ سَيَرَا ، وَأَسْرَعْنَا لِنُدْفَعِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرَا وَضَيَرَا ؛ وَتَوَدَّى
 مِنَ الْجِهَادِ السَّنَةِ وَالْقَرَضِ ، وَنَعْمَلْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ . فَاتَّفَقَ اللَّقَاءُ بَيْنَ حَضَرَ مِنْ عَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ ،
 وَتَوَقَّافِهِ تَعَالَى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ . وَإِلَّا فَكَابَرُكُمْ يَعْلَمُونَ
 وَقَائِعَ الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَمْ وَطِئَتْ مَوْطِنًا يَنْغِظُ الْكُفَّارَ فَكُتِبَ لَهَا عَمَلٌ
 صَالِحٌ ، وَسَارَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَفَتَحَ عَلَيْهَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ ، وَتَعَدَّدَتْ أَيَّامُ نُصْرَتِهَا الَّتِي
 لَوْ دَقَّقْتُمْ الْفِكَرَ فِيهَا لَا زَالَتْ مَحْصَلٌ عِنْدَكُمْ مِنْ لَيْسَ ، وَلَكَّا قَدَّرْتُمْ أَنْ تُشْكِرُوهَا
 وَفِي تَعْيٍ مِنْ يُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ ، وَمَا زَالَ اللَّهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَإِذَا
 زَاجَعْتُمُوهُمْ قَصَبُوا عَلَيْكُمْ نَبَأَ الْأَسْتَظْهَارِ وَلَا يَبْهَتُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ ؛ وَمَا زَالَتْ تَنْفِقُ الْوَقَائِعُ
 بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْحُرُوبِ ، وَتَجْرِي الْمَوَاقِفُ الَّتِي هِيَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ فَلَا فَخْرَ فِيهَا لِلْغَالِبِ
 وَلَا عَارَ عَلَى الْمَغْلُوبِ ؛ وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ أَسْتَظْهَرَ عَلَيْهِ ثُمَّ نُصِرَ ، وَطَوَّدَهُ التَّائِيدُ فَجَبُرَ بَعْدَ
 مَا كُسِرَ ؛ خُصُوصًا مَلُوكَ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفَلُ لَهُمْ بِحُسْنِ الْعُقْبَى فَقَالَ
 تَعَالَى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيْنَ ﴾ .

وَأَمَّا إِقَامَتُهُمْ الْحِجَّةَ عَلَيْنَا ، وَنِسْبَتُهُمُ التَّضَرُّعَ إِلَيْنَا ؛ فِي كَوْنِنَا لَمْ تُسَيِّرْ إِلَيْهِمْ رَسُولًا
 عِنْدَ مَا حَلُّوا بِدِمَشْقَ ، فَخَرَجْنَا عِنْدَ مَا وَصَلْنَا إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لَمْ تَزِدْ عَلَيَّ أَنْ أَعْتَدِينَا
 وَجَمْعَنَا جُيُوشَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَبَذَلْنَا فِي الْأَسْتِعْدَادِ غَايَةَ الْجُهْدِ وَالْإِمْكَانِ ؛
 وَأَتَقْنَا جَزِيلَ الْأَمْوَالِ فِي الْعَسَاكِرِ وَالْجَحَافِلِ ، وَوَقَفْنَا بِحُسْنِ الْخَلْفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :
 ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ﴾ . وَلَكَّا
 خَرَجْنَا مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، بَلَّغْنَا خُرُوجَ الْمَلِكِ مِنَ الْبِلَادِ ، لِأَمْرِ حَالِ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الْمُرَادِ ؛
 فَتَوَقَّفْنَا عَنِ الْمَسِيرِ تَوَقُّفًا مِنْ أَغْنَى رُجْعِهِ عَنْ حَثِّ الرِّكَابِ ، وَتَبَيَّنَتْ تَهْتُّ الرَّاسِيَّاتِ
 ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ . وَبَعَثْنَا طَائِفَةً مِنَ الْعَسَاكِرِ

لمقاتلة من أقام بالبلاد فإلاح لنا منهم بارق ولا ظهر، وتقدمت فتخطقت من حملة على التآثر الغر، ووصلت إلى الفرات فإ وقتت للقوم على أثر.

وأما قولهم : إنا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يتلقونا على حلب أو الفرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقين، فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، ونرجنا ونخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب الطاعة على كل مسلم، المفترض المباينة والمتابعة على كل منازع ومسلم، طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد، عاملين بأنه لا يتيم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايسته، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أنذله الله، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل، ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها، ولا جسر أن يمدح حتى ولا الطرف إليها، فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء والله لا يخلف الميعاد، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تتدفع في طاعتنا أندفاع السيل، عاملين بقوله تعالى ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ .

وأما ما جعلوه عذرا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا يبيحوشهم ربما أخرج البلاد مرورها، وبإقامتهم فسدت أمورها، فقد فهم هذا المقصود. ومتى ألفت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق؟ ومتى أتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟ وهاتأثرهم موجودة على ملك آل سلجوق وما تعرضوا

لدارٍ ولا جارٍ ، ولا عَقَّوا أثراً من الآثار ؛ ولا حَصَلَ لمسلم منهم ضَرَرٌ ، ولا أُوذِيَ في وِرْدٍ ولا صَدَرٍ ؛ وكان أحدهم يشتري قُوَّتَه بِدِرْهَمٍ وديناره ، ويأبى أن تمتدَّ إلى أحدٍ من المسلمين يُدْأِرُهُ ؛ هذه سُنَّةُ أهل الإسلام ، وفعل من يُريد الملكة الدوام .

وأما ما أَرَعَدُوا به وأَبْرَقُوا ، وأرسلوا به عِنانَ قلوبهم وأطلقوا ؛ وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدماء المسلمين مَطْلُولَةٌ ، فما كَانَ أغناهم عن هذا الخِطَابِ ، وأولاهم بأن لا يصدر إليهم عن ذلك جواب ؛ ومن قَصَدَ الصِّلحَ والإصلاحَ ، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أى جُنَاح ؟ وكيف يُضْمِرُ هذه النية ، ويتججُّ بهذه الطوية ؟ ولم يخفِ مواقع زَلَالِ هذا القول وخَلَلِهِ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ” نِسَةُ الْمَرْءِ أَلْبَغُ مِنْ عَمَلِهِ ” وبأى طريق تُهْدِرُ دماء المسلمين التي من تَعَرَّضَ إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مطالبا وغيرهما ، ومؤاخذاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مَتَعَمِّدًا بِحَرْوِهِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ؟ وإذا كان الأمر كذلك فالْبُشْرَى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهممِ المصروفة إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأتجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدة ، المتكاثرة المدد ، الموعودة بالنصر الذي يُخَفِّفُها في الظنن والإقامة ، الواقعة [به] من قوله صلى الله عليه وسلم : ” لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ”

على عَدُوِّهِمْ إلى يومِ الْقِيَامَةِ . المبلّغة في نصر دين الله آمالا، المستعدة لإجابة داعي الله إذا قال : ﴿ اتَّقُوا خِيفًا وَتَقَالًا ﴾ .

وأما رُسُلُهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا؛ وأكرمنا وقادتهم، وعزّزنا لأجل مرسِلهم من الإقبال مادّتهم، وسمِعنا خطابهم، وأعدنا عليهم جوابهم؛ هذا مع كوننا لم يخف علينا أنخطأ قَدَرهم، ولا ضَعُف أمرهم؛ وأنهم مادّعوا لأنفواه الخطوب، إلا لما آرتكبوه من ذُنُوب؛ وما كان ينبغي أن يُرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُتدبّر لمثل هذا الأمر المهم إلا من يُجمع على فصل خطابه وفصله .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعرضناهم بأحسن منها، ولو اتحفونا بشحفة، لتقابلناها بأجل عوض عنها . وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد، وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد؛ وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب؛ وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدّها، وأدركت الألفّة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها؛ فنقول : إذا جنّح الملك للسلم جئنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتلأ ما أمر الله تعالى به مجتنباً ما عنه نهى؛ وأن تتظم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تملك المتشرف بدخوله فيه لا المئان؛ وتجنب التشبه بمن قال الله تعالى في حقهم : ﴿ قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ . وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحلّ له أن يتخلّص حوله؛ وأرسل إلينا رسولا من جهته يرثل آيات الصلح ترتيلا، ويروق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد عند عوده : ﴿ يَالْيَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ .

صارت حجتنا وحنته مركبة على من خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامة أهل الشرك في سائر الممالك ؛ ومظافرتنا له تُكسب الكافرين هواناً ، والشاهد لمصافاتنا مفاد قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمظافرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحالة الثانية

(ما كان عليه رسم المكاتب في الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" إلى أبي سعيد بهادرخان بن خدابندا : آخر ملوك بني هولاكو، ملك إيران)

قال في "التعريف" : وهو كتاب يكتب في قطع البغدادى الكامل ؛ يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة الغراء المكتوبة بالذهب المزك ، بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ؛ ثم تكمل الخطبة وتفتح ببغدية إلى أن تُساق الألقاب ، وهى : « الحضرة الشريفة ، العلية ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحدية ، الأخوية ، القانية ، الفلانية » من غير أن يخلط فيها « الملكية » هوانها عليهم وأخطاها لديهم ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية : من إعراز السلطان ونصر الأعوان ، وخلود الأيام ، ونشر الأعلام ، وتأييد الجنود ، وتكثير الوفود . وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى ، ثم يقال ما فيه التلويع والتصريح بدوام الوداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصف الأشواق ، وكثرة الأتواق ، وما هو من هذه

(١) في التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتى على المقاصد ، ويختم بدعاء جليل ، وتستعرض المراسيم والحلدم ،^(١)
ويُوصف التطلع إليها ، ويُظهر التهاقُ عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطره [وعنوانه] بالذهب المزك ، وكذلك
كل ما وقع في أثنائه من أسم جليل ، وكل ذى شأن نبيل : من أسم الله تعالى ،
أو لبنينا صلى الله عليه وسلم ، أو لأحد من الأنبياء ، أو الملائكة عليهم السلام ،
أو ذكر دين الإسلام ، أو ذكر سلطاننا ، أو السلطان المكتوب إليه ، أو ما هو متعلق
بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كل هذا يكتب
بالذهب ، وما سواه يُكتب بالسواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلى أن ينتهى إلى اللقب الخاص ، ثم يُدعى له
بدعوة أو اثنتين ، نحو : « أعز الله سلطانها ، وأعلى شأنها » أو نحو ذلك . ثم يسمي
أسم السلطان المكتوب إليه ، ثم يقال « خان » كما كنا نكتب ، فنقول : « بو سعيد
بهادرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطمغات عليها ألقاب سلطاننا ، تكون على
الأوصال ، يبدأ بالطمغة على اليمين في أول وصل ، ثم على اليسار في ثاني وصل ، ثم
على هذا النمط إلى أن ينتهى في الآخر إلى اليمين . ولا يطمغ على الطرة البيضاء .
والكاظم يخلو مواضع الطمغة مواضع الكتابة ، تارة يمتن ، وتارة يسره .

وأوضح ذلك في « التثقيف » وبيته ، فقال : والمكاتبه إليه في عرض البغدادى
الكامل ، والطرّة ثلاثة أوصال ، والبسملة ذهب مزك بألفات طوال بالمسطرة
بخط الذهب ، ثم الخطبة ، وأولها « الحمد لله » والسطر الذى يلي البسملة الشريفة

(١) في الصريف ص ٤٥ « الحوامج » .

(٢) الزيادة من الصريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بَقِيَّةِ السطور التي من أوَّل السطر الثالث إلى آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضعُ بيت العلامة الشريفة) طَرَّةُ ذهب بالألقاب الشريفة ؛ ثم بعد هذين السطرين الملاصقين للطَّرَّة المذكورة بَقِيَّةُ السطور بهامش جيد في يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكحلة إلى آخر الورق ، لا يخفى فيها للطَّمَعَة مكان . وبعد الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهى : « الحضرة ، الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظمية ، العالمية ، العادلية ، الأكليّة ، القانية ، الشاهنشاهية ، الولديّة ، العزيزية ، المَلِكِيّة ، الفلانية » . ثم الدعاء . وفى أثناء خطابه « الحضرة الشريفة » تارة ، وتارة « الحضرة العالية » والدعاء فى أوساطه نحو « زِيدَتْ عَظَمَتُهُ ، ودَامَتْ مَعْلَتُهُ ، وأَعْلَى اللهُ مَقَامَهُ ، وأَعَزَّ اللهُ شَانَهُ » . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمَّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو ما أضيف إليهما ، أو ما يُعْظَمُ ذكره : كالحق والعدل وأمثالهما ، أو كَلَّ لقب أو نعت ، أو كلمة مضافة إلى المكتوب عنه أو المكتوب إليه ، أو ضمير فيهما ، فإنه بالذهب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفى آخرها الدعاء له من غير توقُّف .

قال : وكان قد استقر من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثانى والثالث ، وهو مما يلى بيت العلامة « المُشْتاق لمحمد » . ثم قال : ورأيت بخط القاضى المرحوم ناصر الدين بن النّشائى أنَّ ذلك نظيرُ الكتاب الوارد منه فى رجب سنة تسع وعشرين وسبعائة . ثم قال : وقد ذكر فى " التعريف " ثلاثة أمور زائدة ^(١) التنبيه عليها .

(١) يباض بالأصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفه في العنوان . فيكتب بعد ذكر الاسم « خان » .
فيقال : « أبو سعيد بهادرخان » .

ثانيها — أنه تستعمل الطمغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لا يكتب في ألقابه « الملكية » . وذكر أنه لم يكتب لأحد بهند
المكتبة بعد السلطان أبي سعيد، خلا ما ذكر القاضي ناصر الدين بن النشائي أنه كتب
نظير ذلك بعد أبي سعيد لطفای تمرخان . قال : ولو كتب بالمغلية كتب في القطع
المذكور . أما الملطفات، ففي قطع الثالث .

وهذه نسخة مكتبة كتب بها المقر الشهابي بن فضل الله عن السلطان الملك الناصر
« محمد بن قلاوون » إلى السلطان أبي سعيد بهادرخان المقدم ذكره، وهي :

الحمد لله الذي جعلنا بنعمته إخوانا، وجمعنا على طاعته أصولا لا تتفرق أغصانا؛
تحمده على ما أولانا، ونشكره على ما أولانا، ونزغب إليه في مزيد أطافه التي شملت
أقصانا وأدنانا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة كالشمس لا تدع
في الأرض مكانا؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي شيد بنا لشريعته
أركاننا، وشدد بعضنا ببعض لتكون كما شئنا به بنانا أو بنيانا؛ صلى الله عليه وعلى
آله صلاة لا تتوانى، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا،
وسلم تسليما كثيرا .

وبعد: فإن من أعظم المنبهجات لذتنا، المنبهجات لطريق السرور إلينا، المنبهجات
بوصف أكرم وارد علينا؛ هو الكتاب الشريف، بل السحاب المطيف؛ بل البحر
الذي يهدف دُررا، ويقص عن السحاب أثرا؛ ويرفع سرا، ويطلع قرا؛ ويطول
أوصاحا وغررا، ويحدث عن العجائب خبرا؛ بل ينشر الروض خبرا، ويهب الرياح

تَحَرَّأَ، وَيُرِيقُ ذَهَبُهُ الْمَوْهُ أَصَالًا وَبُكَرًا، الصَّادِرُ عَنْ الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ السُّلْطَانِيَّةِ،
 الْأَعْظَمِيَّةِ، الْعَالَمِيَّةِ، الْعَادِلِيَّةِ، الشَّاهِنشَاهِيَّةِ، الْأَخَوِيَّةِ، الْقَانِيَّةِ، زَادَهَا اللَّهُ شَرَفًا،
 وَأَدَامَ بِهَا تَحْفًا، وَصَاغَ بِهَا لِكُلِّ سَمْعٍ شَفَا، وَأَيْدَهَا بِزَائِدٍ مَزِيدَةٍ حَتَّى يَقُولَ : حَسْبِي
 وَكَفَى؛ فَإِنَّهُ وَصَلَ صُحْبَةَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ الْأَمِيرِ، الْكَبِيرِ، الْمُقَرَّبِ، الْمُحْتَبَى، الْمُرْتَضَى،
 الْمُخْتَارِ، شَرِيفِ الدِّينِ، مُحَمَّدِ الْإِسْلَامِ، زَيْنِ الْأَنَامِ، جَمَالَ الْمُقَرَّبِينَ، مَرْتَضَى الْمُلُوكِ
 وَالسُّلَاطِينِ، الْحَاجِّ أَحْمَدَ الْأَشْقَرِ، وَالشَّوْقُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ، وَالتَّطَلُّعُ إِلَيْهِ كَثَلُ الْعِيدِ؛
 فَقَرَّبَنَاهُ إِلَيْنَا نَجْمًا، وَتَقَبَّلْنَا مِنْهُ مَهْدِيًّا؛ وَكَأَنَّ السَّمَاءَ أَلْقَتْ مِنْهُ حُلِيًّا، أَوْ أَلْقَتْ كَوْكَبًا
 دُرِّيًّا، أَوْ مَلَتْ مِنَ الْمَجَرَّةِ دَرَجًا، وَعَطَفَتْ مِنْ مُهَنَّدَاتِ الْبُرُوقِ خُلُجًا، وَقَدَّتْ
 مِنْ سَوَادِ الْقُلُوبِ شَطْرَ كُلِّ سَطْرِ فِيهَا، وَأَغَارَتْ مُقَلَّةَ كُلِّ رَيْمٍ قَامَ بِسَوَادِ نَاطِرِهِ
 يُقْتَسِيهَا، وَسَرَّحْنَا مِنْهُ الْحَدَقَ فِي حَدَاقٍ، وَنَفَّحْنَا بِهِ لِلْحَقَائِبِ حَقَائِقَ، وَأَسْتَطَلَعْنَا بِهِ
 شُمُوسَ الْاِئْتِقَادِ، وَأَطْلَعْنَا مِنْهُ عَلَى نُفُوسِ نَفَائِسِ الْوِدَادِ؛ وَصَادَفَ مِنَّا قَلْبًا صَادِيًّا
 إِلَى مَا يَرُوقُ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَشَوْقًا إِلَى مَا يَهْبُ مِنْ نَسِيمِ دِيَارِهِ، وَتَطَلَّعْنَا إِلَى مَنْ يَرِدُ
 مِنْ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، وَيَقْصُ عَلَيْنَا مَا لَا يُسْتَقْصَى مِنْ مَوَاقِعِ الْغَايَمِ، وَعَلِمْنَا مِنْهُ وَمِمَّا
 ذَكَرَهُ الْمُقَرَّبُ الْحَاجُّ شَرِيفُ الدِّينِ أَحْمَدُ مَا لِلْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ يَلْتَحِفُ
 بِمَلَابِسِهَا، وَيَقْتَطِفُ مِنْ مَفَارِسِهَا، وَتُجْرَى فِي السَّيْفِ رَوْنَقًا، وَتُزَيَّنُ بِالْكَوَاكِبِ
 أَفْقًا، وَتُجَرُّ عَلَى الْكُثْبَانِ مِنَ الشُّمُوسِ رِذَاءٌ مُخْلَقًا. وَأَحْضَرْنَا الْحَاجَّ شَرِيفَ الدِّينِ
 أَحْمَدَ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ، وَتَمَلَّنَاهُ بِحُسْنِ مُلَاحَظَتِنَا الَّتِي زَادَتْ تَشْرِيفَهُ، وَكَانَ
 حُضُورُهُ وَرَكَابُنَا الشَّرِيفِ يَهِيَّجَانِ الصَّيْدَ الْمَحْمُودَ، وَنَحْنُ نَلْهَجُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ اتِّهَازِ كُلِّ
 فُرْصَةٍ فِي الصَّبُودِ؛ وَمَا حَصَلْنَا فِيهِ عَلَى لَذَّةِ ظَفَرٍ إِلَّا وَتَمَنَّيْنَا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا مِشَارَكَةٌ
 شُهُودٌ، أَوْ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا يَرَى كَيْفَ يُسَهِّلُ اللَّهُ لَنَا بُلُوغَ كُلِّ مَقْصُودٍ؛ وَنَحْجَ مَعَنَا
 إِلَى الْمَصَائِدِ، وَتَفْتَحَ عَلَى الصَّائِدِ؛ وَرَأَى مَا حَفَّ بِمُوكِبِنَا الْمَنْصُورِ مِنْ ذَوَاتِ الْوَبَرِ

والجنّاح، وما سُخِّرَ لنا من جِياذ الخيول من الرياح؛ فشاهد مأوتينا من المَلَك السُّلَيّانيّ في سُرمَةِ السّير، واختلاف ما جُمِعَ لنا من الإِنس والوحش والطّير؛ واستغرقت أوقاُتُنا الشريفة في السّؤال عن مِزاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم؛ والتأييد الذي آتَقَلَبَ به أوليائُه بنعمة من الله وفضلٍ لم يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانُ الله والله دُوْفُضِلَ عَظِيمٌ؛ وتجددت المَسَرَّات، بهذه البشائر المُسَرَّات^(١)؛ وأضفنا هذه النعمة إلى ما مَحَمَّدُ الله عليه مما أَيْدَنَاهُ من النصر والظفر والتأييد، والنعم التي تَوَالَّتْ إلينا ونحن نَرْجُو المَزِيدَ؛ ونُضَاعِفُ الحمد والشكر لله على هذه المواهب التي أَطَافَتْ بنا بِطَاقَاتِهَا الثمينة، وَأَنارت في أَفَاقِهَا أَقْمارُهَا المِئِينَة؛ وشملت ملوك الإسلام نعمها من كل جانب، وأشرقت شمسُها حتى ملأتْ بِأنوارها المَشَارِقَ والمَغَارِبَ .

وأما ما تَحَقَّقَتْ به من البلكات الشريفة فقد وصلت، وَتَقَبَّلَتْ وَقَبِلَتْ ؛ وأُكْرِمَتْ لأن مَهْدِيهَا كريم، وأعظمت لأنها مُثَقَّةٌ من عظيم ؛ وأُثْبِنَا عليه بما طاب، وشكر بحرنا الزائر جُودَ أَخِيهِ السَّحَابِ .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزه من الملاكين والسوقات فقد رُسِمْنَا بِالْإِتِّهَاءِ إليه، لأنه لا فَرْقَ بَيْنَا وبين أَخِينَا فيما يَخْصُ مَرَامَنَا جميعاً عليه ؛ وقد جُهِّزَ من الملاكين والطين المحتوم ما أَمَكَّنَ الآن، ومنه ما مُكِّنَا رُسْمَنَا بِاسْتِمَالِهِ من البلكات بِأَسْمِهِ الشريف وتأخر ؛ فلما فَرَّغَ جُهِّزَ معه ، وبعد هذا جُهِّزَ من يتوجّه إلى حضرته العالية ليجتد عَهْدًا، ويؤدِّي إليه وَدًّا؛ وما يتأخر إلا رِثْمًا تَتَجَلَّى السُّحُبُ المتواليه، ويمكنُ التوصل سَالِمًا إلى حَضْرَتِهِ العَالِيَةِ .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أمره بمعنى أفرحه كما حكاه ابن سيده في تفسير المثل « كل مجر بالخلاء سر » انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هذا : فهو أنَّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة ، بل دُرَّةً يَئِمُّه ؛
 بخط يد الحضرة الشريفة فَأَعْجَبْنَا بِهَا ، ووجدناها في غاية الحُسْنِ التي لا يعدُّ زَهْرُ
 الرياض لها مُشْبِهاً ؛ وما رأينا مثل ما كُتِبَ فيها ، كَأَنَّ السَّيَاءَ قد نَظَّمَتْ في سَطُورِهَا
 النِّجُومَ الزُّهْرَ من دَرَارِهَا ؛ فَأَكْرَمَ يَدِي كَتَبْتُ سَطُورًا اعْتَرَفَ بِهَا الرَّيْحُ لِلْقَلَمِ ! وَأَسْتَمِدُّ
 السَّحَابُ مِنْ طُرُوسِهَا الْكَرَّمَ ! وَجَرَتْ بِحَامِدٍ ذَهَبٍ وَسَائِلِ دَمٍ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى إِنْشَائِهَا
 صَحَائِفُهُ وَأَقْلَامُهُ وَدُؤْيُهُ وَالْحَقُّ وَالْبُرُوقُ وَالذِّمُّ ؛ وَطَلَعَتْ مِنْهَا تَبَاشِيرُ النَّجَاحِ ، وَتَحَامِدُ
 عَلَيْهَا مِسْكُ اللَّيْلِ وَكَافُورُ الصَّبَاحِ ؛ وَأَتَّفَقَتْ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَقَدْ تَنَوَّعَتْ قِسْمًا ،
 وَأَشْرَقَتْ فَتَمَنَّتِ السَّمَاءُ أَنْ تَكُونَ لَهَا صَحِيفَةً وَالْبَرْقُ قَلَمًا ؛ فَأَرَخَصَتْ قَدْرَ يَاقُوتٍ
 فِي التَّقْلِيلِ ، وَحَسَنَتْ بِحَاسِنِهَا هِجْرَانَ حَبِيبٍ ؛ لَقَدْ أُوتِيَتْ مِنْ الْخَطِّ غَايَةَ الْكَمَالِ ،
 وَبَسَطَتْ يَدَ ابْنِ هَلَالٍ فِيهِ عَنْ قَمِ ابْنِ هَلَالٍ ؛ فَأَمَّا الْوَلِيُّ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهَا ، وَأَنَوَاؤُهُ
 مِمَّا فَاضَ مِنْ إِنْثَائِهَا ؛ طَالَمَا حَقَّقَ إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ فَأَخْتَطَفَ بَرْقُهُ أَبَاهُ مُقْلَهُ ، وَفَطِنَ
 ابْنُ أَسَدٍ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَهُ أَبُوهُ لَنَبَى شِبْلَهُ ؛ فَسَبَّحَانَ مَنْ صَرَفَ فِي يَمِينِهِ الْقَلَمَ بِلِ الْإِمْلَالِمْ ،
 وَوَهَبَهُ مِنْ أَفْضَلِ كُلِّ شَيْءٍ (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤَيِّبُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)
 وَقَدْ أُعِيدَ الْمُقَرَّبُ شَرَفُ الدِّينِ أَحْمَدُ ، وَحَمَلَ مِنَ الْمَشَافَهَاتِ الشَّرِيفَةِ مَا تُنْقَضُ عَلَى
 أَخِينَا عَقُودُهُ ، وَتُقَاضِ بِرُودُهُ ؛ وَالْحَضْرَةُ الشَّرِيفَةُ لَا تَقْطَعُ أَخْبَارَهَا عَنْ الْقِيَامِ
 بِأَنْبَاءِهِ ، وَتَسِيرُ بِجُيُومِ سَمَائِهِ ؛ لَا زَالَتْ مَنَاقِبُهُ مَسْمُوعَةٌ ، وَالْقُلُوبُ عَلَى مَا يَجْمَعُ كَلِمَةً
 الْإِيمَانِ بِمُجْمُوعِهِ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تنبیه — أما المُلَاطَفَاتُ الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ إِلَى هَذَا الْفَنَانِ ، فَقَدْ ذَكَرْتُ فِي "التَّحْقِيفِ"
 أَنَّهَا فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ ، وَكَذَا مَا يُكْتَبُ بِهِ بِالْمُغْلَى ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي الْقَطْعِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا .

الجملة الثانية

(في المكتبات إلى مَنْ ملك تَوْرِيْزَ وَبَغْدَادَ بعد موْتِ أَبِي سَعِيدِ)

قد تقدّم أنه ملك تَوْرِيْزَ وَبَغْدَادَ بعد السلطان أبي سعيد (موسى خان) ثم محمد بن عديجى، ثم الشيخُ حَسَنُ الكبير، ثم ابنه الشيخُ أُوَيْسُ، ثم ابنه حسن، ثم أخوه أحمد . ومنه آتَرعها تمرلنك . وذكر في "التثقيف" أنه ملك بعد أبي سعيد أرفاخان، ثم موسى خان، ثم طغاي تمرخان؛ بعد أن ذكر أنه لم يُكْتَبْ إلى أحدٍ بعد أبي سعيد بالمكتبة المتقدمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضي ناصر الدين بن الشَّائِيْ أَن مكتبة طغاي تمرخان كانت نظير مكتبة أبي سعيد . ثم قال: وهذا يدل على أنه لم يَكْتَبْ بذلك بعد أبي سعيد غير طغاي تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت على مكتبة عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » إلى موسى خان المقتدّم ذكره من إنشاء المقرّ الشهابي بن فضل الله، فيما ذكره صاحب " الدرّ الملتقط " جواباً عن كتاب ورد منه يذكر فيه النصرة على عدوّله ؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بدأ فيها بعد الافتتاح بآية من القرآن الكريم في معنى النصرة بقوله :

« إلى الحضرة الشريفة » إلى آخر الألقاب المناسبة « من أخيه وعجبه » ؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتوحة : « الحمد لله » . ثم « وبعد » ، فقد ورد الكتاب الشريف « . والخطاب بـ « الحضرة الشريفة » . والاختتام بالدعاء . ولأخفاء في أن هذه نحو المكتبة إلى أبي سعيد ؛ لكنني لم أقف على مقدار قطع الورق فيها ، ولا صورة الكتاب . وهذه نسختها :

(١) كذا في الأصل هنا وتقدم في ج ٤ ص ٢٤ (غريبى) .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) . (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

إلى الحضرة الشريفة العالية، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلة، الأوحديّة، الشاهنشاهيّة، القانيّة، الأخويّة، الأخ العزيز، الكبير، المعظم، مومني خان، أعزّ الله سلطانه، وثبتت بسعادة مُلكه أوطانه . من أخيه ومحبّه، المختلص في حبه، الصادق المودّة له في بعده وقربه .

الحمد لله الذي أيد الإسلام بنصره، وضيق على أعدائه بحال حصره، وجتد بتأييده في زمانه ما تعلّق به أعطاف عصره . نحمده عن الدين الحنيف على نصرة أضاء لها الوجود بأسره، وأوقعت كلّ خارج على الدين والمُلك في قبضة أسرّه؛ ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُخلّص قائلها غايةً اجتهداه، ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الذي جاهد في الله حقّ جهاده، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستقلّ ببشائرهما أعباء عباده؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فقد ورد الكتاب الشريف من الحضرة الشريفة العالية، السلطانية، القانيّة، أختنا وولدتنا العزيز، المؤيد بالنصر على الأعداء والفتح الوجيز؛ لا زالت دولته الشريفة دائمة الإقبال، متردّة تزيد المهلال، على يد المحلّسين الساميين، الأميرين، الكبيرين؛ عضدّى الملوك والسلطين : "دلتجى، وكراى" أدام الله تعالى عزّهما - بالبشائر بنصرة الإسلام، وتأييد أختنا على عدوّه الخارج على الدين والمُلك .^(١) وحمّدنا الله تعالى على هذه النصرة، وتضاعفت بها الممرّة؛ ونحن كُما خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلامية، لتتساعد كلُّنا على نصرة الإسلام . وما تأخّرنا

إلماً جاءت إلينا ماري (؟) الأخبار وما كنا نَحْقِّقُناها ثم نَحْقِّقُنا بحمد الله تعالى هذه الأخبار؛
 وضربتنا لها البشائر في سائر الأقطار، وعرفنا بها عناية الله تعالى بأخذ المسلمين بنواصي
 الكفَّار، وقيام الجناب الكريم العالي الأمير الكبير التَّوْنِ العادل المعظم على باشا،
 أعزَّ الله تعالى نصرته في إعادة الحقِّ إلى أهله، وصبره على ما سبق به كلُّ أحدٍ
 إلى جميل فعله، وأجتهاده في هذا الأمر الاجتهاد الذي ما كان يُطلَب إلا من مثله؛
 وكذلك الجناباتُ العاليةُ الأمراءُ التَّوْنِياتُ الأكابر، زِيدَتْ سعادتهم! فإنهم سارعوا
 إلى ما كان يجب ويتعين عليهم في خدمة سلطانه، ومن هو أحقُّ بهم وأولى من عظيم
 عظم قانهم؛ وما من الأمير التَّوْنِ العادل على باشا وبقية الأمراء الأكابر إلا مَنْ قام
 بما كان عليه من العهود، وبذل أجتهاده حتَّى حصل بحمد الله المقصود؛ وما
 قَصَّروا في قيامهم حتَّى تسلم المستحقُّ حقَّه وميراثه وما هو أحقُّ به وأولى. وهم -
 جزاهم الله الخير- قد عملوا ما يجب عليهم، وبقي ما يجب على الحضرة الشريفة من
 الإحسان إليهم.

وأما قول الحضرة الشريفة: إنه مثل ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعزُّ من الولد،
 وكلُّ أحدٍ منَّا لأخيه في الاتفاق على المصالح الإسلامية عَضْدٌ وَيَدٌ، وذخْرٌ وسندٌ؛
 وقد سبق من تألَّف القلوب ما أشتدَّت به الآنَ أو أخيه، وأضحى له منَّا شفقةُ
 الوالد على الولد وتوقيرُ الأخ لأخيه؛ وقد أعدنا رُسُلَه الكرام وحملناهم مشافهةً ووصيةً
 للحضرة الشريفة في أمور تقتضيها مصلحتُه، فإنه عندنا أعزُّ من الولد. وما القصدُ
 إلَّا الاتفاق على مصالح الإسلام، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوئام]، فيديم المواصلةَ
 بكتبه وأخباره الساو، والله تعالى يديم مسأته ويضاعف مآزاه؛ إن شاء الله تعالى.
 ولم أقف لهذه المكتبة على قطع ورق، والظاهر أنها في قطع النصف لما سياتي
 أنه الذي عليه الحال في مكتبة صاحب بغداد وتوزيز، فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وَأَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ "التَّقْيِيفِ" قَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْمَكْتَابَةَ إِلَى الشَّيْخِ أُوَيْسَ : صَاحِبَ بَغْدَادَ وَتَوْرِيْزَ ، وَأَبْنَهَ حَسَنَ بَعْدَهُ فِي وَرَقٍ قَطَعَ النِّصْفَ . وَرَسَمَهَا : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْكَبِيرِيِّ ، السُّلْطَانِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ، الْمَجَاهِدِي ، الْمُؤَيَّدِي ، الْمُرَاطِي ، الْمَنْصُورِي ، الْمَلِكِي ، الْفَلَائِي» بِلِقَبِ السُّلْطَانَةِ «الْفَلَائِي» بِلِقَبِهِ الْخَاصِ . وَالِدَعَاءُ بِمَا يَنْاسِبُهُ «أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الشَّرِيفِ تُهْنِي وَتُبْدِي» وَ«الْقَصْدُ مِنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ» . وَيَتَحَمَّ بِدَعَاءٍ يَنْاسِبُ ، مِثْلُ : «أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ» وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَمَخَاطَبَتُهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ « . وَالْعِنْوَانُ «الْمَقَامِ الشَّرِيفِ» إِلَى آخِرِ الْأَلْقَابِ الْمَذْكُورَةِ . وَالِدَعَاءُ «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَهُ» . وَتَعْرِيفُهُ "فَلَانَ بِهَادِرْخَانَ" مِثْلُ أَنْ يَقَالَ : « الشَّيْخُ حَسَنَ بِهَادِرْخَانَ » . وَالْعَلَامَةُ إِلَيْهِ «أَخُوهُ» . قَالَ فِي "التَّقْيِيفِ" : وَكَانَ الشَّيْخُ أُوَيْسَ الْمَذْكُورَ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ بِتَوْرِيْزَ وَبَغْدَادَ يَكْتُبُ لَهُ «الْمَقَامِ الْعَالِي» ، ثُمَّ كُتِبَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ «الْمَقَامِ الشَّرِيفِ» .

وَهَذِهِ نَسْخَةُ مَكْتَابَتِهِ كُتِبَ بِهَا إِلَى الشَّيْخِ أُوَيْسَ الْمَقْدَمَ ذَكَرَهُ ، جَوَابًا عَنْ كِتَابٍ وَرَدَ مِنْهُ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي تَقِيٍّ الدِّينِ ابْنِ نَازِرٍ الْجَلِيْشِ ، حِينَ كَانَ يُكْتُبُ إِلَيْهِ «الْمَقَامِ الْعَالِي» لِأَبْتِدَاءِ أَمْرِهِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَهِيَ :

أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الْعَالِي ، إِلَى آخِرِ أَلْقَابِهِ ، وَلَا زَالَ الْمُلْكُ زَاهِرًا زَاهِيًا بِشَرَفِ سُلْطَانِهِ ، وَالْقَلَمُ يُجَرِّى بِإِعْزَازِ قُدْرِهِ ، وَإِحْرَازِ نَصْرِهِ ، مَدَى زَمَانِهِ ؛ وَالْفَتْكَ مِنْهُ بِالْإِعْدَاءِ يُسَرُّ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِهِ وَإِخْوَانِهِ ، وَسِلْكَ جَوَاهِرِ عَقْدِهِ وَلَائِهِ مِنْظَمًا مِنَ الْإِخْلَاصِ مُجْمَانًا ؛ وَلَا بَرَحَ مُؤَيَّدًا بِأَنْصَارِ الْإِسْلَامِ وَأَعْوَانِهِ ، مُجَدِّدًا سَعْدَهُ الَّذِي يَبْلُغُهُ جَمِيلُ أَوْطَارِهِ فِي جَمِيعِ أَوْطَانِهِ .

أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِي تَصِفَ مَا لَدَيْنَا مِنَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي ظَهَرَ دَلِيلُهَا بِوَاضِحٍ بِرَهَانِهِ ، وَتَبَيَّنَتْ إِلَيْنَا أَنْبَاءُ مَكْنُونِ الْمَوَدَّةِ الَّتِي تَغْنِي عَنْ صَرِيحِ الْقَوْلِ وَتُبْدِي لَعَلَّهُ

الكریم أن كتابه الكرم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛ وعلمنا ماتصنعه بن محبته وموالاته، ونخالصته ومضافاته؛ وما أشتمل عليه ضميره من صحيح الوداد، وصريح الاتحاد؛ وجميل الاعتقاد، وجزيل المخالصة التي يتم بها الأمل والمُراد . وأن المقام العالی جهز رسوله المشار إليه ليُوضح إلينا ماهو عليه من ذلك، ويُنبئ إلينا أسباب الاختلاف التي عمرت أرجاء الجهتين هُنا وهُنالك؛ ويُبدى ماتجمله عنه من المشافهات، وتفهمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطنا علماً بذلك ووصل رسوله المذكور، وتمثل بمواقف سلطاننا المنصور؛ وسَمَّله إقبالنا الشريف، وإنعامنا المُطيف؛ وسمعنا جميع كلامه، وما تجمله من المشافهة الكريمة من على مقامه؛ وشكرنا حجة المقام العالی وودّه الجليل، وأثنينا على موالاته التي لا تميدُ عنها ولا تميل، وأبتهجنا بسلامة مقامه الجليل . وقد أعدنا فلانا رسوله المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالی أعزَّ الله أنصاره، فيُثخف بمكاتباته ومهماته، والله تعالى يمدّه بالتأييد في حركاته وسكناته، ويُعزِّز نصره ويزيد في حياته .



أما المنفرد بتأريز خاصّة، فقد ذكر في "التثقيف" أنَّ المكاتبة إلى الأشرف (آبن علاء الدين ترمش) الذي كان قد وثب على تيريز خاصّة فلُكها، في قطع الثلث بقلم التوقيعات «ضاعف الله تعالى نعمة الجتاب العالی الأميرى الكيرى» وبقية الألقاب والتعوت، ومنها التوثيق . ثم الداء . «صدرت هذه المكاتبة إلى الجتاب العالی وتُوضَّح» والعلامة «أخوه» . وتعريفه «الأشرف بن ترمش» .

ثم ذكر أنَّ أخى جق الذى وثب عليه وقتله وأسبلى على تيريز بعده استقرت مكاتبتة كذلك، وأنه كان يُكتب في تعريفه «أخى» لا غير . ثم قال: وقد مانا وبطل ذلك .

(أبو بكر بن خَواجَا على شاه) وزير صاحب تَيزَز «الأسْم» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخَواجَا المرحوم على شاه . قال فى «التتقيف» : ولم أَعْلَمْ وَزَرَ فى زَمَنٍ مَنْ من المتولِّين

(عَمْرُوك) أحد أمراء الأشرف بن تَمَرشاش صاحب تَيزَز فى قَطْعِ التُّلُث ، الدَّعَاءُ^(١) و «العالى» والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى «التتقيف» : وهذا ممن بطل حكمه بزوال عُدُومِهِ .

الجملة الثالثة

(فى رسم المكتبة إلى مَنْ أَنْطَوْتُ عَلَيْهِ مملكةُ إِيْرَان، مِنْ بَحْرَتِ عَادَتِهِ بِالمكتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فَنَ بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّالِ المملِكة بِحضرة القان ، وهم على ضريين)

الضرب الاول

(كُفَّالِ المملِكة بِالْحَضْرَةِ فى زمن القانات العظام كابى سعيد وَمَنْ قبله من ملوكهم حينَ كَانَتِ المملِكة على أتم الأبهة وأعلى الترتيب)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثالثة أَنَّ القائم بتدبير العسكر لهذه الدولة حينَ كَانَتْ قائِمة على نمط القانية المتقدم إلى آخر زمن أبى سعيد أربعة أمراء، يعبر عنهم بأمراء الألوُس، ويعبر عن أكبرهم بِبِكْلارى بك بمعنى أمير الأمراء . وربما أُطْلِقَ عليه أمير الألوُس أيضا . والقائم بتدبير الأمور العامة هو الوزير .

(١) يظهر قياسا على ما قبله أنه سقط هنا من قلم النسخ شيء نحو المكتبة ضاعف الله الخ . ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراء المذكورون ، فقد كان كل من الأمراء الأربعة والوزير يكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر في "التعريف" أن المكتبة إلى بكلارى بك في قطع النصف : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المقرِّ الكريم » . وإلى الثلاثة الذين دُونَهُ في قطع الثلث : « أدامَ الله تعالى نصرَ الجَنابِ الكريم » . وأنه يُقال لكلٍّ من الأربعة «النُوَيْي» . ثم قال : ومثُلُ هذا مكتبة أرتنا بالرُّوم ، وأميرُ التُّومان بديار بكر : من سُوناي وبنيه وكذلك سائرُ الأمراءِ النُوَيْيات : وهم أمراءُ التُّوامين .

والذى ذكره في "التتيف" أن المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير أمير الأُلوس كانت على ما استقرَّ عليه الحال إلى حين وفاته ببغداد في قطع الثلث بقلم التوقيعات : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ الجَنابِ الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكيبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الرعيى ، العونى ، الغيائى ، المُتَاغرى ، المُرايطى ، الممهدي ، المشيّد ، الظهيري ، النويى ، الفلانى : عونَ الإسلام والمسلمين ، سيّدِ الأمراء في العالمين ، ناصرِ الغزاة والمجاهدين ، زعيمِ جيوشِ الموحّدين ؛ مهّدِ الدُّول ، عمادِ الملّة ، عونِ الأُمّة ؛ كافى الدولة القانيّة ، كافِلِ المملكةِ الشّرقية ؛ أميرِ التُّوامين ، أميرِ الأُلوس ، ظهيرِ الملوك والسلطين ، عضيدِ أميرِ المؤمنين » . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرناها إلى الجَنابِ الكريم » و « تبدى » و « القصد من الجَنابِ الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الشَّيخ حسن الأُلوس بك » .

قال في "التتيف" : ولما تُوفّي الشَّيخُ حسنُ المذكور إلى رحمة الله تعالى لم يُقَمْ غيره مكانه فيما أُظُن ، ولا كُتِبَ أحدٌ بعده بهذه المكتبة . قال : والنويى في ألقاب هؤلاء بدل «الكافى» في ألقاب النُّواب ، يعنى بالمملكةِ المِصرية والشامية . ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمل دائماً لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعمل الكافى أصلاً .

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافلي» في الألقاب التي أوردها في المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير .

وأما الوزير بهذه الملكة فقد ذكر في «التعريف» أن رسم المكتبة إليه في قطع الثالث «ضاعف الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميرى الوزيرى» على عادة المكاتب إلى الوزراء بألقاب الوزارة . قال : فإن لم تكن له إمرة ، فيقال له «الوزيرى» ولا يقال له «الصاحبى» هوانها لديهم . ولم يتعرض في «التتيف» إلى المكتبة إلى وزير هذه الملكة ، ولا إلى الأمراء الثلاثة الباقين من أمراء الألبوس ، بل عدل عن ذلك إلى المكتبة إلى الوزير ببلاد أربك . وسيأتى ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد تحيت رسوم تلك الملكة ، وعفت آثارها بزوال ترتيب الملكة بموت السلطان أبى سعيد : آخر ملوك بنى جنكخان بهذه الملكة . وإنما ذكرنا ذلك حفظاً لما كان الأمر عليه : لاحتمال طرؤ مثل ذلك فيما بعد ، فينسج ما يأتى على منوال ماضى ، ويحترى في المستقبل على منهاج الماضى ؛ فالأمور ترتفع ثم تنخفض ، وربما انخفضت ثم ارتفعت . والله تعالى يقول : ((وَلَيْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)) .

الضرب الثانى

(كُفَال الملكة بالحضرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر في «التتيف» منهم جماعة : منهم محمد الكازرونى وزيراً وزيراً الشيخ أويس . وقد ذكر أن رسم المكتبة إلى كل منهما في قطع العادة «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأجلى ، الكبيرى ، الأوحدى ، المقدسى ، المتخفى ، الفلافى ؛ بمجد الإسلام ، بهاء الأنام ؛ شرف الرؤساء ، أوحداً الأعيان ؛ صفوة الملوك

والسلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة « الأسمُ الشريف » وتعريفه «فلان وزير الشيخ أُويس بهادرخان» .

ومنها - الطواشي مرّجان ، نائب القان أُويس ببغداد ، ولقبه أمينُ الدين بالس . ورسم المكتبة إليه «والده» و«الساحي» بالياء . وتعريفه «خَواجَا مرّجان» .

ومنها - محمدقلّتان ، نائب الشيخ أُويس أيضا . وذكر أنّ رسم المكتبة إليه مثل المكتبة إلى مرّجان . والعلامة « الأسمُ الشريف » . وتعريفه : «قلّتان نائب الشيخ أُويس» .

قلت : فإن اتفق أن أُقيم لصاحب بغداد : كأحمد بن أُويس ومن في معناه مثل هؤلاء ، كانت المكتبةُ إلى كلّ منهم نظير مثله من المذكورين بحسب ما يقتضيه الحال .

الصفحة الثاني

(مَنْ جَرَتْ العادةُ بمكاتبتِه بمملكةِ إيرانَ عن الأبوابِ السلطانية ، صَغَارَ الملوك المنفردين ببعضِ البلدان ، والحُكَّامُ بها مَنْ هو بمملكةِ إيران)

قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنّ مملكةِ إيرانَ تشتملُ على عدّة من الأقاليمِ داخليةٍ في حدودها ، منتظمةٍ في سلكها . وقد ذكر في «التعريف» جملةً من المكاتبات عن الأبوابِ السلطانية إلى بعض هؤلاء الملوك . وخالفه في «التتقيف» في بعض المواضع وزاد عليه عدّة مكاتبات . وها أنا أذكّر ما ذكره من ذلك ، وأزيد ما اتفق زيادته ميّزا لكل إقليم من أقاليم هذه المملكة بَنَ فيه من الملوك والحُكَّام ومن جرى مجراهم :

فَمَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ بِالْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ، مِمَّا بَيْنَ دِجْلَةَ
وَالْفُرَاتِ مِنْ دِيَارِ بَكْرِ وَرَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ وَغَيْرِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ

صَاحِبُ مَارِدِينَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ أَنَّهَا مَدِينَةٌ ذَاتُ قَلْعَةٍ حَصِينَةٍ
بِدِيَارِ بَكْرِ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَنَّهَا بِيدَ بَقَايَا بَنِي أَرْثُشَ الْمُسْتَقِلِّينَ بِمُلْكُهَا مِنْ قَدِيمِ
الزَّمَانِ وَإِلَى الْآنَ.

وَرِسْمُ الْمَكَاتِبَةِ إِلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التعريف": «اعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
الْعَالِي، الْكَبِيرِيِّ الْمَلِكِي الْفُلَانِي الْفُلَانِي» يَعْنِي بِاللَّغَبِ الْمُلُوكِي، وَاللَّغَبُ الْمُضَافُ إِلَى
الدِّينِ؛ مِثْلُ «الصَّالِحِي الشَّمْسِيِّ» وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ثُمَّ الدَّعَاءُ. قَالَ فِي "التَّنْقِيفِ":
ثُمَّ يَقَالُ: «أَصْدَرْنَا إِلَى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ»، وَتُبْدَى لَعَلُّهُ الْكَرِيمُ». «فِي تَقَدُّمِ أَمْرِهِ
الْكَرِيمِ». وَيُتِمُّ بِمَا صَوَّرْتَهُ «فِي حَيْطِ عَلَمِهِ الْكَرِيمِ بِذَلِكَ». وَالدَّعَاءُ. وَالْعَلَامَةُ
«أَخُوهُ». وَتَعْرِيفُهُ «صَاحِبُ مَارِدِينَ». وَوَرَقُهُ قَطْعُ الْعَادَةِ. ثُمَّ قَالَ: وَبِتَعْيِينِ أَنْ
تَكُونَ أَلْقَابُهُ إِلَى آخِرِ اللَّغَبِ الْمُلُوكِيِّ سَطْرَيْنِ سَوَاءً، وَأَنْ يَكُونَ لِقَبُّهُ الْعَادِيَّةُ
كَالْفَخْرِيِّ مِثْلًا أَوَّلِ السَّطْرِ الثَّالِثِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" ثَلَاثَةَ صُدُورٍ لِمَكَاتِبَةِ تَعَلَّقَ بِصَاحِبِهَا فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ
«الصَّالِحُ شَمْسُ الدِّينِ صَالِحٌ».

أَحَدُهَا — وَلَا زَالَ مَلِكًا تَأْجُهُ الْمَدَائِحُ، وَمِنْهَا جُهُ الْمَتَائِحُ، وَطَرِيقَتُهُ إِذَا وُصِفَتْ
قِيلَ: هَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ. أَصْدَرْنَا إِلَيْهِ وَشَكَرْهَا تَسْوِقُهُ إِلَيْهِ حُدَاةُ الرِّكَاثِ،
وَتَسْوِقُ مِنْهُ إِلَى لِقَاءِ الْحَبَائِبِ؛ وَتُنْتَقَى عَلَى مَكَارِمِهِ الَّتِي كَلَّمَا أَقْلَعْتَ مِنْهَا بِحَابِثٍ
أُحْقِيقَتْ بِسَحَابِثٍ؛ وَتُتَوَصَّلُ لِلْعِلْمِ الْكَرِيمِ.

الثاني - ولا زالت شمسُه في قُبَّةِ فَلَکْها ، وسماءُ ممالِکِه مملوءةٌ حَرَمًا شَدِيدًا
وُثْهًا بِمَلِکْها ؛ وَنِعْمَهُ نَتَعِبُ الْبَحَارَ إِذَا وَقَفَتْ فِي طَرِيقِها ، وَالغَائِمَ إِذَا جَازَتْ
فِي مَسَلْکِها . أَصْدَرْنَاها إِلَیْهِ وَالسَّلَامُ مُتَنَوِّعٌ عَلٰی کَرَمِهِ ، مُتَضَوِّعٌ بِأَطِيبِ مِنْ أَنْفَاسِ
الْمِسْکِ فِي نِعْمِهِ ، مُتَسَرِّعٌ إِلَیْهِ تَسْرِعُ مَوَاهِیْهِ إِلَى وَفُودِ حَرَمِهِ . وَتَوَضَّعَ لِلْعِلْمِ الْکَرِيمِ .
الثالث - وَلَا زَالَتِ الْعُقَاةُ تَلْتَحِفُ بِنِعْمَاتِهِ ، وَتَتَجَبَّعُ مَسَاقِطَ أَنْوَانِهِ ، وَتَسْتَضِيءُ مِنْهُ
بِأَشْرِقِ شَمْسٍ طَلَعَتْ مِنَ الْمُلْکِ فِي سَمَائِهِ ؛ أَصْدَرْنَاها وَتَنَاوُها بِسَاقِی نَجْمِها ، وَمَدَامْهَا
تُجِیدُ مَتَرَوِّیًا وَمُرْتَجِلًا ؛ وَشُکْرُها لَوْرُضٍ مَعَ الْجَوَاهِرِ لِأَقَامِ حُدُرِ الْبَاقُوْتِ إِذَا أَكْتَسَى
حَدَّهُ الْحَمْرَةَ نَجْمًا ، وَتَوَضَّعَ لِلْعِلْمِ الْکَرِيمِ .

قلت : وعلى نمط هذه الصدور يجري الكاتبُ فيما یکتبه إلى صاحبها مناسبًا
لحالهِ وَلَقَبِهِ بِحَسَبِ مَا یُقْنِضِیْهِ الْحَالُ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ .

وهذه نسخةُ کُتَابِ ، کُتِبَ بِهِ إِلَى الْمُلْکِ "الصالح شرف الدین محمود بن الصالح^(١)
صالح" ، جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ بِهِ کِتَابُهُ : مِنْ وَفَاةٍ وَالِدِهِ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ . نَقَلْتُهَا مِنْ مَجْمُوعِ
بَحْطِ الْقَاضِي تَقِي الدین أَبْنِ نَاطِرِ الْجَلِیْشِ وَهُوَ :

أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْکَرِيمِ ، إِلَى آخِرِ أَلْقَابِهِ - وَلَا زَالَ الْمُلْکُ بَاقِيًا فِي يَدَيْهِ
الْکَرِيمِ ، وَالْفَلَکُ جَارِيًا بِإِظْهَارِ شَرَفِهِ الْعَمِيمِ ؛ وَأَعْظَمَ لَهُ الْأَجْرُ فِي أَكْرَمِ مَلِکٍ أَنْتَقَلَ
إِلَى جَنَاتِ النِّعَمِ ، وَهَنَاءَ مَا أَوْثَرَهُ مِنْ ذَلِكَ الْحُلِّ الْأَسْنَى الَّذِي هُوَ الْأَوَّلَى فِيهِ بِالتَّقْدِيمِ ؛
وَضَاعَفَ لِسُلْطَانِهِ الصَّالِحِ عُلُوَّ جَدِّهِ ، بِمَا مَنَحَهُ مِنْ مُلْکِهِ الْمُوْرُوْتِ عَنِ الْمَنْصُورِ أَبِيهِ
وَالصَّالِحِ جَدِّهِ ، وَبِمَا خَصَّهُ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ وَإِحْسَانِنَا الْمُسْتَدِيمِ . أَصْدَرْنَاها مُعْرِبَةً
عَنِ الْوَدِّ الثَّابِتِ الصِّمِيمِ ؛ مَهْنَةً لَهُ بِقِيَاسِهِ بِأُمُورِ مَمْلَكَتِهِ الَّتِي تَجَمَّلَتْ بِمَحْمُودِ صِفَاتِهِ

(١) هو على ما يؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح نسبته إلى جدّه .

وَمَنْ سَلَفَ مِنْ أَسْلَافِهِ فِي الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ ، مُبْدِيَةً لِعَلِمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ مَكَاتِبَهُ الْكَرِيمَةَ ،
وَمُخَاطَبَتَهُ الَّتِي قَضَحَتْ مِنَ الدُّرِّ نَظِيمِهِ ؛ وَرَدَّتْ عَلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى يَدِ فُلَانٍ
فَأَقْبَلْنَا عَلَيْهَا ، وَأَلْفَتْنَا وَجْهَ الْكَرَامَةِ إِلَيْهَا ؛ وَعَلِمْنَا مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ اسْتِمْسَاكِ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
بِأَسْبَابِ الْوِدَادِ ، وَأَقْنَعَانَهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛ وَمَا شَرَحَهُ فِي مَعْنَى مَا قَدَّرَهُ
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَفَاةِ وَالِدِهِ طَابَ ثَرَاهُ ، مُسْتَمِرًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الطَّاعَةِ الْبَذَى لَمْ يَكُنْ
شَانُهُ شَيْئًا وَلَا اعْتَرَاهُ ؛ وَأَنَّهُ مَضَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ خَلَّفَ مِنْ
خَلْفِهِ ، وَارْتَضَى بِمَا نَالَ مِنَ الرِّضَا عَمَّا قَدَّمَهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَأَسْلَفَهُ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ :
مِنْ أَنَّهُ إِنْ اقْتَضَتْ مَرَامُتُنَا الشَّرِيفَةِ وَأَرَاؤُنَا الْعَالِيَةِ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، وَيَرْعَى فِي حَقِّهِ
وَمَصَالِحَ تِلْكَ الْمُلْكَةِ ذِمَامَهُ ؛ فَتَرْتُمُّ بِإِجْرَائِهِ عَلَى السُّنَّةِ الْمَعْتَادَةِ ، مِنْ إِحْسَانِ بَيْتِنَا
الشَّرِيفِ الَّذِي بَدَأَ بِهِ وَأَعَادَهُ ؛ وَإِلَّا فَتَبَرَّزُ الْأَوَامِرُ الشَّرِيفَةُ بِمَنْ يَسُدُّ اخْتِلَافَهَا ،
وَيُسَدُّ أَحْوَالَهَا ، وَيُسَيِّدُ مَبَانِيهَا وَيُصْلِحُ أَعْمَالَهَا ؛ لِيَقْصِدَ الْمَقَامَ الشَّرِيفَ بِأَبْوَابِنَا
الشَّرِيفَةِ سَالِكًا سَبِيلَ الطَّاعَةِ الْمُبِينِ ، مُتَطَهِّرًا فِي سِلْكِ أَوْلِيَائِنَا الْمُقَرَّرِينَ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا حَمَلَهُ لِأَسْتَادِ دَارِهِ مِنْ مَشَافَهَتِهِ ، وَجَمِيلِ مَقَاصِدِهِ وَوَافِرِ مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ ؛ وَقَدْ
أَحْطَيْنَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ وَسَمِعْنَا الْمَشَافَهَةَ الْمَذْكُورَةَ ، وَشَكَرْنَا مَحَبَّتَهُ الْمَأْثُورَةَ ؛ وَإِخْلَاصَهُ
فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَمِيلِ الْمَوْلَاةِ الَّتِي تَمْنَحُهُ تَكْرِيمَهُ وَتَشْرِيفَهُ ؛ وَأَسْتِمْسَاكَهُ
بُسْنَةِ آبَائِهِ الْكَرَامِ ، وَاجْتِهَادَهُ فِي الْمُنَاصَحَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي لَا تُسَامَى مِنْ مِثْلِهِ وَلَا تُسَامَى ؛
وَنَحْنُ نُتَوَفَّى الْمُقَرَّرَ الْكَرِيمَ أَنَّ حَمْلَهُ وَمَحَلَّ بَيْتِهِ الْكَرِيمِ لَمْ يَزَلْ لِسِنَا رَفِيعًا مِقْدَارُهُ ، عَالِيًا
مَنَارُهُ ؛ وَأَنْ مَكَاتِبَتَهُ مِنْ خَوَاطِرِنَا الشَّرِيفَةِ مَتَمِّكْنَهُ ، وَمُتَزَلِّلَتُهُ قَدْ صَحَّتْ أَحَادِيثُهَا
الْمُعْتَمَنَةُ ؛ وَهُوَ الْأَحَقُّ بِجَمَلِ مُلْكِهِ ، وَالْأَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مِنْ نِظَامِ عُقُودِ مُلُوكِهِ وَاسْطَلَةِ
سِلْكِهِ ؛ وَقَدْ اقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الْعَالِيَةِ أَنْ يَقُومَ مَقَامَ وَالِدِهِ الْمَرْحُومِ ، وَيَحْمِلَ حَمْلَ هَذِهِ
الْسلْطَنَةِ لِيَعْلَوْ قَدْرُهُ بِأَقْبَالِنَا الشَّرِيفِ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ ؛ وَلِيَجْلِسَ بِمَكَانِهِ ، وَلِيُسَيِّطَ

المَعْدِلَةُ لَتَكُونَ حَلِيَّةَ زَمَانِهِ ، وَلَيْسَتْ نَصْرَ عَلَى أَعْدَائِنَا وَأَعْدَائِهِ بِأَنْصَارِ الْمَلِكِ وَأَعْوَانِهِ ؛ وَلَيْسَتْ قَرَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَافِظَةِ عَلَى الْوِدَادِ ، وَلَيْسَتْ مَسْكُ بَعْرِى الْإِخْلَاصِ الْمَبْرَأِ مِنْ شَوَائِبِ الْإِتْقَادِ ؛ وَلَيَقْتَفِ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ سَلَفِهِ الْكَرِيمِ ، وَلْيُوَاصِلْ بِمَكَاتِبَاتِهِ وَأَخْبَارِهِ عَلَى سَنَنِ الْقَوِيمِ ؛ وَقَدْ أَعَدْنَا لِإِسْتَادِ دَارِهِ بِهَذَا الْجَوَابِ الشَّرِيفِ إِلَيْهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ فِي "التَّقْيِيفِ" أَنَّ مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ مِنْ أَتْبَاعِ صَاحِبِ مَارِدِينَ نَائِبُهُ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ أَسْمَهُ فِي زَمَنِ «بَهَادِرِ» . وَأَنْ رَسَمَ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ الْأَسْمُ وَالسَّامِ بِغَيْرِ يَاءٍ ؛ وَكَذَلِكَ نَائِبُ الصَّالِحِيَّةِ مِنْ عَمَلِ مَارِدِينَ ؛ وَأَنَّ رَسَمَ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ الْأَسْمُ وَ«مَجْلِسِ الْأَمِيرِ» . فَلْيَجْرِ الْكَاتِبُ عَلَى سَنَنِ ذَلِكَ إِنْ أَحْتَجَّ إِلَى مَكَاتِبَتِهِمَا .

صَاحِبِ حِصْنِ كَيْفَا — وَهِيَ مَدِينَةٌ مِنْ دِيَارِ بَكْرٍ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ ، بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ تَقَالِ عَنِ "التَّعْرِيفِ" أَنْ صَاحِبَهَا مِنْ بَقَايَا الْمُلُوكِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، وَمِنْ تَنْظُرِ إِلَيْهِ مَلُوكُ مَصْرَ بَعِينَ الْإِجْلَالِ : لَمْ يَكُنْ وَلَا تَتَمُّ الْقَدِيمِ لَهُمْ ، وَأَسْتَمَرَّ الْوِدَادُ الْآنَ بَيْنَهُمْ .

وَرَسَمَ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّعْرِيفِ" : «أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، الْفُلَانِيِّ بِاللَّقَبِ الْمُلُوكِيِّ «الْعَالِمِيِّ» ، الْعَادِلِيِّ ، الْمَجَاهِدِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، الْمُرَاطِيِّ ، الْمُتَأَغْرِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الْأَصِيلِيِّ ، الْفُلَانِيِّ بِاللَّقَبِ الْمُتَعَارَفِ «عِزِّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، بَقِيَّةِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، نُصْرَةِ الْغُرَاةِ وَالْمَجَاهِدِينَ ، زَعِيمِ جُيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ ، شَرَفِ الدُّوَلِ ، دُخْرِ الْمَمَالِكِ ، خَلِيلِ أُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ» . وَرُبَّمَا قِيلَ : «عَضُدِ أُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ» إِذَا صَغُرَ .

وَذَكَرَ فِي "التَّقْيِيفِ" مَا يَخَالِفُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّ مَكَاتِبَتِهِ : «أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْمَجَاهِدِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، الْمُرَاطِيِّ ،

المُتَأَمَّرِي، الأُوْحَدِي، الفَلَانِي» بِاللَّغَبِ الْمُلُوكِيِّ وَاللَّغَبِ الْمُتَعَارَفِ . «عِزُّ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ، زَعِيمُ جِيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ . ذُنُورُ الْمَلَّةِ، سَلِيلُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، عَضُدُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» . ثم الدعاء . «صَدِرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ . «وَالْعَلَامَةُ»
أَخُوهُ» وَتَعْرِيفُهُ «صَاحِبُ حِصْنٍ كَيْفًا» . قَالَ : وَالْكِتَابَةُ إِلَيْهِ فِي قِطْعِ الْعَادَةِ .
وَقَدْ ذَكَرَ فِي «التَّعْرِيفِ» صُدُورَ الْمَكَاتِبَةِ .

صَدَرَ : وَاسْتَعَادَ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ مِنْ عُهُودِ سَلَفِهِ مَا تَسَلَّفَ ؛ وَحَازَ لَهُ مِنْ مَوَارِيثِ
الْمُلُوكِ أَكْثَرَ مِمَّا خَلَّ لَهُ أَوَّلُهُ وَمَا خَلَفَ ، وَحَظَّ لِلرَّحَالِ فِي حِصْنٍ كَيْفًا بِهِ عَلَى مَلِكٍ :
أَمَّا الْمُسْتَجِيرُ بِهِ فَيَتَحَصَّنُ وَأَمَّا فَضْلُهُ فَلَا يُكَيِّفُ ؛ وَأَعَانَ السَّحَابَ الَّذِي كُلُّهُ عَنْ
مَجَارَاتِهِ وَيَجْرِي هُوَ وَلَا يَتَكَلَّفُ . أُصْدِرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَيْهِ وَنَوَّعَهَا يَصُوبُ ،
وَلَا لَأَوْهَا تُشَقُّ بِهِ الظُّلُمَاءُ الْجَبُوبُ ، وَتُنَاقِضُهَا عَلَى حُسْنِ بَلَاغَةٍ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ يَقُولُ لَهُ :
صَبْرًا صَبْرًا كَمَا تَعُودُ تَمَّ يَا آلَ أَيُّوبَ .

صَدَرَ آخِرُ : وَشَدَّ بِهِ بَقِيَّةَ الْبَيْتِ ، وَحَيَّا طَلَّهَ الْبَالِي وَأَخْبَارَ شِمَّةَ الْمَيْتِ ؛
وَذَكَرَ بِهِ مِنْ زَمَانِ سَلَفِهِ الْقَدِيمِ مَا لَا يَعْرِفُ فِيهِ هَيْتٌ ، وَأَبْقَى مِنْهُ مِلْكًا مِنْ بَنِي أَيُّوبَ
لَا يَبْقَى وَفَدَهُ الْإِلَهِ وَلَا يَقَالُ فِيهِ لَيْتٌ ؛ وَنَوَّرَ الْمُلُوكَ بِغُرَّتِهِ لَا بِمَا قَرَعَ السَّمْعَ عَنْ
السَّمْعِ وَوَرَدَ الْمَصَابِيحَ مِنَ الزَّيْتِ ، وَحَفِظَ مِنْهُ جَوَادًا لَوْ عَيْنَهُ أَخُوهُ السَّحَابُ عَلَى
السَّبْقِ ، لَقَالَ لَهُ : هَيْهَاتَ كَمْ خَلَقْتَ مِثْلَكَ خَلْفِي وَخَلَيْتَ . أُصْدِرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ
إِلَيْهِ ، أَعَزَّ اللَّهُ جَانِبَهُ وَالتَّجَايُتُ مَوْثِقَةٌ بِنُطْقِهَا ، مَصْبَحَةٌ لَسَجَايَاهُ الْكَرِيمَةِ بِمُخْلَقِهَا ،
سَاحِبَةٌ إِلَيْهِ ذَيْلَ خِيَلِهَا : لِأَنَّهُ إِذَا آخَتَلَتْ بِهِ تَحْتَلَّتْ ، وَبَسَبَبَهُ عَلَى الشُّرُورِ تَحْتَلَّتْ .
مُلُوكُ كِلَانٍ — قَالَ فِي «التَّعْرِيفِ» : وَهُمْ جَمَاعَةٌ كُلُّهُمْ مُسْتَقِيلٌ
بِنَفْسِهِ ، مُتَفَرِّدٌ بِمُلْكِهِ ، عَلَى ضَيْقِ بِلَادِهِمْ وَقُرْبِ مَجَاوِرَةِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ . وَقَدْ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَفِي التَّعْرِيفِ «عَنْهُ» وَالْأَوَّلَى عَاتِيهِ أَنْظَرَ كَتَبَ اللَّتَّةَ .

تقدّم الكلام على بلادهم في المسالك والممالك . قال في " التعريف " : ورُسُلهم قليلة ، وكُتُبهم أقل من القليل .

ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهم على ما ذكره في " التعريف " نحو ما يكتب إلى صاحب حصن كيفا . يعنى يكتب لكلٍّ منهم : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى المَلَكى القلانى » إلى آخر ما تقدم هناك . قال في " التعريف " : إلا صاحب پومن فإنه يكتب له بـ « الجنب » . وهو مثلهم في بقية الألقاب . قال في " التنقيف " : ولم أر لهم مكتبة ، ولا كُتِب لهم في مدة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شئاً ؛ غير أنى رأيت بخط المولى القاضى المرحوم زين الدين خضر ، أنه كتب أمثلة شريفة إلى جماعة ، منهم « حرم الدين » . يُوْمِن ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهاب الدين أن مكتبته أعلى مكاتبتهم ؛ وأنه يكتب إليه « الجنب » . قال : وما يبعد أن الجماعة الذين كُتِب إليهم على ما ذكر القاضى زين الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كِلان . ثم عدّد من كُتِب إليه منهم فقال : وهم نوباد شاه ، وسالوك ولده ، فى قطع العادة .

ورسم المكتبة إليهما : « خلد الله تعالى سعادة الجناين الكريمين ، العالين ، الكبريين ، العاديين ، المجاهدين ، المرابطين ، الملكيين : الشرقى والسيفى » . والدعاء . والعلامة « أخوهما » . والعنوان سطران . وتعريفهما : نوباد شاه وسالوك ولده صاحباً كوحسفا (٩) .

ناصر الدين بهلوان ، وشرف الدين شرف الدولة صاحباً لاجان مثل ذلك سواء .

فلك الدين صاحب دشت كذلك .

حُسام الدين صاحب بُومين كذلك : ثم قال نقلا عن ابن الزَيْنِي خِصْر أيضا :
وقيل إنَّ حُسام الدين هذا كان صاحب بُومين ، وصاحبها الآن أخوه على ما ذكره
محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكَلَانِي حين كَتَبَ إليهم .

قلت : وهؤلاء هم ملوك كِلَان ، وهذه مدُنهم على ما تقدّم في المسالك والممالك .
والعَجَب كيف وقع الشُّك في ذلك من صاحب "التثقيف" حتّى قال : وما يبعد .
وأما التسوية في الآخرين صاحب بُومين وغيره ، فيجوز أن قدره آنحط بعد زمن
صاحب "التعريف" أو جهل الكاتب الثاني مقداره .

صاحب هرّاة — وهي مدينة من نُرَاسَانَ . قال في "التعريف" : ولا يجرى على
الأُنْس الآن إلا صاحب هرّى . قال : وكان ملكها الملك غياث الدين . ولم أسمع
أعجمياً يقول إلا قياس الدين . وكان ملكا جليلا نبيلًا مفتحًا معظما ، له مكانة عند
الملوك الهولاكوية ، ومنزلة رفيعة عليه . وكان بينه وبين التّوئين جُوبان مودة أكيدة
وصداقة عظيمة ؛ فلما دارت به دوائر الزمان وأفضت به الحال إلى الهرّب ، لحا
إلى صاحب هرّى هذا ، على أنه يسّهل له الوصول إلى صاحب الهند ؛ أو إلى ملك
ما وراء النهر ، فأجابه وأنزله ، وبسّط أمله ؛ وأسّر له الخِدايع حتّى أطمأن إليه ،
فأصعدّه إلى قلّته ليُضيّفه ، فصعد معه ابنه جلوقان ، وهو أبنة من خوّندة بنت
السلطان خدابندا ؛ وجلّوقان هذا هو الذى أجيب إلى تزويجه ببنت السلطان الملك
الناصر ، وعلّى هذا تمتّ قواعد الصّلح . وبخى جُوبان أمره على أنه بعد التزويج
ياخذ له ملك بيت هولاكو يشبه أنه ابن بنت خدابندا ؛ وأنه لم يبق بعد أبى سعيد
من يرث المُلْك سواه . ثم يستضيف له مُلك مصر والشام يشبهه أن بنت صاحب
مصر هي التى ترث المُلْك من أبيها ؛ فالت الملتايا دون الأمانى .

وحالَ صُعودِ جُوبانَ وأبْنَه جُلُوقانَ القلعةَ أَمَسَكهما غِيَاثُ الدِّينِ وَخَقَقهما لِيُخِذَ وجهاً بِذلكَ عِنْدَ أَبِي سَعِيدٍ ، وَبَعَثَ بِذلكَ إِلَى أَبِي سَعِيدٍ ، فَشَكَرَ لَهُ إِسْأَلَهُمَا ، وَأَنكَرَ عَلَيْهِ التَّعَجُّيلَ فِي قَتْلِهِمَا ، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ لَوْ لَمْ أَقْتُلْهُمَا لَمْ أَتَمِّنْ أَسْتَعْدَادَ مَنْ مَعَهُمَا لِمَحَاصِرِي ؛ فَقَبِلَ عُذْرَهُ ، وَطَلَبَ مِنْهُ إِيهَامَ جُوبَانَ لِيَعْرِفَ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ ، وَكَانَ فِيهِ زِيَادَةُ سِلْعَةٍ ظَاهِرَةٍ يَعْرِفُ بِهَا بِجَهْزِهِ إِلَيْهِ فَأَكْرَمَ رُسُلَهُ وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالْخَلِجِ ، وَأَمَرَ بِإَصْبَاحِ جُوبَانَ فَطِيفَ بِهَا فِي الْمَالِكِ . ثُمَّ سَأَلَتْ بَغْدَادُ خَاتُونُ بِنْتُ جُوبَانَ : أَمْرَأَةُ أَبِي سَعِيدٍ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْكَفِّ بِهَا ، فِي ثَقُلِ أَجْسَادِهِمَا فَثَقُلْتُ ، فَعَقَدْتُ لَهَا الْمَاتَمَ ؛ ثُمَّ أَمَرْتُ بِمَجْلَعِهِمَا إِلَى مَكَّةَ الْمُعَظَّمَةِ ، ثُمَّ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُشْرِفَةِ لِيُدْفَنَا فِي التُّرْبَةِ الْحُوبَانِيَّةِ الَّتِي كَانَ جُوبَانُ أَحَدُهَا لَدَفْنَهُ فِي حَالِ حَيَاتِهِ ؛ فَمُكِّنْتُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنَ الدَّفْنِ فَلَمِنَهُمَا دُفِنَا بِالْبَقِيعِ . ثُمَّ حَضَرَ غِيَاثُ الدِّينِ حَضْرَةَ أَبِي سَعِيدٍ ، فَأَكْرَمَ وَأَعْطَى الْعَطَايَا السَّيِّئَةَ ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ وَوَلَّى أَبْنَهُ . قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مِمَّنْ يَكْتَابُ عَنِ السُّلْطَانِ حَتَّى كَانَتْ وَاقِعَةُ جُوبَانَ فَكُتِبَ إِلَيْهِ .

ورسم المكتوبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : «أعز الله تعالى نصر المقتدر الكريم، العالي، العالِم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرائي، المتأخرى، الأوحدي، الملك الفلاني، شرف الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين» . قال في "التشقيق" : ولم أطلع على ما يكتب إليه سوى ما ذكره القاضي شهاب الدين بعد واقعة جوبان . قال : والذي يظهر لي أنه لم يكتب بعد ذلك هو ولا من قام مقامه : لأنه لم تكن له مكتبة مشهورة متداولة بين الموالى الجماعة ، ولا كتب إليه في مدة مباشرتي شيء . على أن القاضي شهاب الدين لم يذكر تعريفه

الحكام بهذه المملكة

(مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْحُكَّامِ بِالْخَزِيرَةِ الْفَرَاتِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ)
 الحاكم بِشِمَشَاطَ — وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنها بلدةٌ من
 ديار مُضَرِّيْنَ أَمِدَ وَخَرَّتْ يَرَّتْ . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه
 «السامى» بالياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بِشِمَشَاطَ» .
 الحاكم بِمَيَّافَارِقِينَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة ديار بَكْرَ . قال :
 في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بغير ياء . والعلامة الأسم . وتعريفه
 «الحاكم بِمَيَّافَارِقِينَ» .

الحاكم بِمَيَّزَانَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها مدينة من ديار بَكْرَ . قال
 في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسم . وتعريفه
 «الحاكم بِمَيَّزَانَ» وهو معدود في "التثقيف" في جملة الأكراد .

الحاكم بِمَيَّزَةَ أَبْنِ عُمرَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها مدينةٌ صغيرةٌ على
 دجلة من غربيها . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء .
 والعلامة له الأسم . وتعريفه «الحاكم بِمَيَّزَةَ أَبْنِ عُمرَ» . وذكره في "التثقيف"
 في جملة الأكراد ، وقال : كان بها عِرُّ الدِّينِ أَحْمَدُ الْيَحْضَى . وذكر أن رسم المكتبة
 إليه الأسم و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» .
 وأستقر بعد وفاته ولده عيسى ، وورد كتابه في صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ،
 أخبر فيه بوفاة والده وأستقراره مكانه . على أنه قد ذُكِرَ معبراً عنه بصاحب الجزيرة ،
 وسماه بكلمش . وذكر أن المكتبة إليه الأسم و«السامى» بغير ياء .

الحاكم بِسِنْجَارَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة .
 قال في "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخ الحاكم بها مرسومٌ شريفٌ بأن يكون

نائباً بها حسب سؤاله في سنة ثلاث وستين وسبعائة . قال : وكانت المكتبة إليه
أولاً الاسم و « مجلس الأمير » وكتب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتل أعقر — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها قلعة بين سنجار
والموصل . قال في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة له
الاسم وتعريفه « الحاكم بتل أعقر » .

الحاكم بالموصل — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد الجزيرة كلها
في القديم حيث كانت بيد الجرامقة . قال في « التثقيف » : والمكتبة إليه في قطع
العادة الاسم ، و « صدرت » و « السامى » . وتعريفه « الحاكم بالموصل » . ورأيت
في بعض الدساتير أن العلامة استقرت له « والده » عند استقراره نائب السلطنة بها .

الحاكم بالحديثة — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها بلدة على الفرات . قال
في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه الاسم و « السامى » بالياء . وتعريفه « الحاكم
بالحديثة » . وهى غير حديثة الموصل . وهى بلدة شرق دجلة تعد في بلاد العراق .
الحاكم بعانة — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها بلدة صغيرة على جزيرة
في وسط الفرات . قال في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه الاسم و « السامى »
بالياء . وتعريفه « الحاكم بعانة » . ورأيت في بعض الدساتير أن المكتبة إليه
« السامى » بغير ياء .

الحاكم بتكرت^(١) — وفي « التثقيف » صاحب تكرت . وقد تقدم في المسالك
والممالك أنها مدينة من آخر مدن الجزيرة بين دجلة والفرات . قال في « التثقيف » :
ورسم المكتبة إليه مثل الحاكم بالموصل ، فتكون في قطع العادة . والعلامة الاسم .
وتعريفه « الحاكم بتكرت » .

(١) في معجم ياقوت بفتح التاء والعامية يكسرونها .

الحاكم بقلعة كُشَاف — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها في الجنوب عن الموصل بين الزاب والشط، وأنه عدها في "تقويم البلدان" من بلاد الجزيرة مرة، ومن عراق العجم أخرى. وأنه أوردها في "التتقيف" بإثبات الألف واللام. قال في "التتقيف": ورسم المكتبة إليه مثل حاكمي عانة والحديثة، فتكون المكتبة إليه «السامي» بالياء. ورأيت في بعض الدساتير أن المكتبة إليه «السامي» بغير ياء. وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف».

الحاكم بإسعرود — وهي سِعرُود. قد تقدم في المسالك والممالك أنها مدينة من ديار ربيعة. قال في "التتقيف": ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير». وحيلئذ فتكون في قطع العادة. والعلامة الاسم. وتعريفه «الحاكم بإسعرود».

صاحب حاني — ويقال لها حَنَا. وهي مدينة من ديار بكر. وقد ذكر في "التتقيف" أن صاحبها تاج الدين. ورسم المكتبة إليه الاسم «والسامي» بغير ياء.

من جرت العادة بالمكتبة إليه

بالجانب المختص بنى جنكرخان من بلاد الروم من مارية وما معها

أرتنا، الذي كان قائما بهذه البلاد عن بني هولاكو من التتر. ورسم المكتبة إليه في قطع الثلث: «ضاعف الله تعالى نعمة الجنتاب العالي، الأمير، الكبير، العالي، العادل، المؤيد، العوني، الزعيم، المهدي، المشيّد، الظهيري، النوني، الفلاني، عز الإسلام والمسلمين، سيّد الأمراء في العالمين، نصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، كهف الملّة، دُهر الدولة، ظهير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين». والدعاء والسلام. والعلامة «أخوه».

وذكر في "التتيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك في قطع الورق والمكتبة والسلامة . وأنه كتب إلى علي بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا في العلامة فانها استقرت له «والله» وكتب تعريفه : «علي بك ابن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد العراق

الحاكم بهيت — وعبر عنه في "التتيف" بصاحب هيت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها شمالي الفرات من أعمال بغداد . قال في "التتيف" : ورسم المكتبة إليه الاسم و«السامي» بالياء ؛ وتعريفه «الحاكم بهيت» .

الحاكم بالقنيطرة — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها بلدة بالقرب من مرسى الحلة . قال في "التتيف" : والمكتبة إليه «السامي» بالياء . والعلامة الاسم . وتعريفه «الحاكم بالقنيطرة» . ثم قال : وأحرما استقرت مكاتبته عليه «السامي» بنيرياء . وعبر عنه في موضع آخر «ابراهيم صاحب القنيطرة» . وذكر أن المكتبة إليه الاسم و«السامي» . وأن تعريفه اسمه خاصة .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد الجبل

«وهي عراق العجم»

الحاكم بإربل — وعبر عنه في "التتيف" بصاحب إربل . قال في "التتيف" : كان بها الشريف علاء الدين على الدلقندى ؛ ثم استقر بها الشريف يحيى ؛ ثم استقر بها علي ولده . قال : والمستقر بها الآن على ماتحور في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة أسد الدين أسد . ورسم المكتبة إليه الاسم و«السامي» بنيرياء . وتعريفه «الحاكم بإربل» .

صاحب قاشان — وسمّاها في "التثقيف" قَيْشَان. ورسم المكتبة إليه «السامي»
بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عند الترك بِمَرْقَابُو . وهي باب الأبواب .
قال في "التثقيف" : كان بها كأوس ، وكتب إليه جوابٌ في ثاني عشر ربيع الأول
سنة اثنتين وستين وسبعائة أويس ^(١) في قطع الثلث ، والدعاء والعالى . وتعريفه
أسمه لا غير .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فارس
الحاكم بشيراز — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد فارس . قال
في "التثقيف" : والمستقرّ بها على ما تحرّر في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ، شاه مُنْجَاع ،
أخو شاه ولي . وذكر أنه لم يُكْتَب إليه في مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء ،
ولا وقف على مكتبة إليه . ثم قال : غير أنه يمكن أن تكون المكتبة إليه نظير
المكتبة إلى الأشرف تيمور تاش المستولى على تبريز ؛ فإنه قال : إن شيراز قدر تبريز
ونظيرها . فعلى هذا يكون رسم المكتبة إليه في قطع الثلث : «ضاعف الله تعالى نعمة
الجناب العالى الأميرى ، الكبيرى» وبقيّة الألقاب والنعموت . ويكون فيها «التوثيق»
كما في مكتبة المستولى على تبريز .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كَرْمَانَ
صاحب هُرْمُز — قد تقدّم في المسالك والممالك أن قاعدة كَرْمَانَ القديمة السَّيْرَجَان
وإن هُرْمُز فُرْضة كَرْمَانَ ، وأنها تحربها التتر عند نُزُوحهم على تلك البلاد بكثرة
الغارات ، وانتقل معظم أهلها إلى جزيرة يُحْمِيْرَة يبحر فارس على القُرب منها تسمّى
وَزْرُون ^(٢) . وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" : «أبن الظاهر

(١) كذا في الأصل ولعله زائد من قلم النسخ (٢) هو بهذا الضبط في الأصل ولم تذكر في المعجم ولا في التوقيف

(١)

برقوق في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة مفاتيحة في قطع

من جرت العادة بمكاتبته من بلاد أرمينية وآران وأذربيجان

النائب بخلاط من أرمينية — قد تقدم في المسالك والممالك أنها كانت قاعدة بلاد
الكرج . قال في "التثيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، وأسمه أبو بكر بن
أحمد بن أزيك . ثم قال : ورسم المكتبة إليه الاسم و «السامى» بالياء ؛ فيكون
في قطع العادة . وتعريفه «النائب بخلاط» .

الحاكم بحضن أرزن — وهى أرزن الروم . قال في "التثيف" : وهو — على
ما أتضح آخرًا في رمضان سنة ست وسبعين وسبعمائة — علاء الدين على بن قرأ .
وردت مكاتبته أن صاحب حضن كيفًا ابن خاله . ورسم المكتبة إليه على
ما في "التثيف" مثل صاحب حضن كيفًا من غير زيادة ولا نقص . على أنه
في "التعريف" قد ذكر أن المكتبة إليه «السامى» بالياء . قال في "التثيف" :
والصحيح ما تقدم ، فإنى كتبت إليه بهذه المكتبة مرّات ، وهو المتداول بين الموالى
الجماعة إلى آخر وقت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها في آخر بلاد الروم من
جهة الشرق .

صاحب بديليس — قد ذكر في "التعريف" أنه كان في زمانه الأمير شرف الدين
أبو بكر . وقال : إنه يُتهم بمذهب النصيرية . ثم قال : وبلده صغير ، ودخله يسير ، وعمله

ضيق . وهو طريق المازة وقصّادِ الابواب السلطانية إلى الأردن وإذا لم يكن بالعراق وله خدمة مشكورة . وعنه في "التثقيف" في جملة الأكراد . قال في "التعريف" :
ورسمُ المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأميري » أسوة
الامراء . وذكر في "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفوارس الروشكي أخو
الفرس بالو؛ وأن المكتبة إليه الأسم و«السامي» بالياء . وتعريفه «صاحبِ بَدْلَيْس» .
وأنه استقر بعده ولده الرحاح ، وكوتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .
صاحبُ موقانَ - وهي مُوغانُ . وسمّاها في "التثقيف" مِبوغانَ . قال
في "التثقيف" : وكان بها محمدُ شاه بن أميرشاه ، وكتب إليه مستجداً في سنة سبع
وستين وسبعائة «السامي» بغير ياء .

النائب بِحَرَّتِ رِثَ - وهي حصنُ زياد . ذكره في "التثقيف" من جملة مُرُكَّانِ
البلاد الشرقية ، وذكر أن اسمه يومئذ باليس ، وأن رسم المكتبة إليه الأسم و«السامي»
بالياء . وتعريفه اسمه ، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلى صاحبِ نَحْرَتِ رِثَ قبله .
ثم ذكر أنه رأى بخط القاضي شهاب الدين بن الصفدي أنه استقر بها علاءُ الدين
أبْنُ خالد المليكشي بعد حُسام الدين نَحْرَبَنْدَة ، وأن مكاتبته «السامي» بالياء .

الصنف الثالث

(من يكتتب بهذه المملكة العُربان ، وهم : عبادة وخَفَاجَة)

وقد تقدّم في الكلام على أنساب العرب أن نسبهما في عامر بن صَعْبَة من
قَيْس عَيْلان . وأجلّ من يكتب إليه منهم رسمه «هذه المكتبة إلى المجلس السامي
الأمير» . على أن صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يطلع على مكتبة إليهم .

الصنف الرابع (من يكتب بهذه الملكة التركات)

قال في "التتيف": والأكابري البلاد الشرقية الذين يكتب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليل . أما بقيتهم من تركان الطاعة الشريفة، فقد يكتب إليهم عند المهمات مطلقاً شريفة، ثم ذكر جماعة ممن يكتب إليه على أفرادهم، ولم يعين لأحد منهم بلدا ولا رياسة قوم معروفين . وها أنا أذكرهم على ما ذكرهم : ليقاس عليهم لدئ تحقّق مقامهم .

منهم - مراد خواجا . ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه اسمه .

ومنهم - باكيش الكبير ابن أخى توظوغان . ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه اسمه .

ومنهم - زين الملك توظوغان . ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه «مقدم التركات بالبلاد الشرقية» .

ومنهم - على بن اينال التركاتى من الطائفة البوزقية . ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بغير ياء وتعريفه اسمه .

ومنهم - يعقوب بن على شار . ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بالياء . وتعريفه اسمه . قال في "التتيف": وقد ذكر القاضى ناصر الدين بن النشائى أنه كتب إليه كذلك في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

ومنهم - سالم الدكرى، ورسم المكاتبه إليه الاسم و « السامى » بالياء، وتعريفه اسمه .

وأعلم أنه قد تقدم في الكلام على تُرْجَانِ البلاد الشامية نقلا عن "التحقيق"
أن من طوائف التُّرْجَانِ الذين هم تحت الطاعة مَنْ لم يُكْتَبَ إليه بعدُ ؛ بل إذا
كُتِبَ في مهمٍّ شريفٍ ، كُتِبَ إلى كُلِّ طائفةٍ منهم أو إلى سائر الطوائف مطلقاً
شريف . وعدة منهم طوائف :

الأولى — البوزقية : جماعة آبن دلفادر وابن إينال المقدم ذكره .

الثانية — أولاد رمضان : الأمرية .

الثالثة — الأوسرية : تُرْجَانِ حَلَب .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرى .

الخامسة — الخربندلية : جماعة مصطفى .

السادسة — الأظارية .

السابعة — الورسقى : تُرْجَانِ طرسوس .

الثامنة — القنقية .

التاسعة — البابندرية : وهم النقيبية ^(١) .

العاشرة — البكرلية ^(٢) : أولاد طسحون .

الحادية عشرة — البياضية .

ثم قال : وثم جمائع كثيرة لا يمكن أستيعابهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شيء بهذه البلاد ، فحكه ما تقدم في الكلام
على تُرْجَانِ البلاد الشامية .

(١) في الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنقية .

(٢) في الضوء ص ٣٢٧ البولية وأولاد طسحون .

الصنف الخامس

(من يكتب بهذه المملكة الأكراد)

وقد تقدّم الكلام على طوائفهم ومنزلهم من بلاد الجبال من عراق العجم . قال في "التعريف" : "وهم خلّاق لا يَحْصُونَ ، ولولا أن سيف الفتنة بينهم يَسْتَحْصِدُ قائمهم ، وَيَبْسِ نائمهم ، لفاضوا على البلاد ، واستضافوا إليهم الطارف والتلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بِسَنَاتِ الرأى وتفرّق الكلمة ، لا يزال بينهم سيفٌ مُسُولٌ ، ودمٌ مطلول ، وعقدٌ نظائم محلول ، وطرفٌ باكية بالدماء مبلول . وهم على ضربين :

الضرب الأول

(المنسوب منهم إلى بلادٍ ومقارٍ معروفة)

قال في "التعريف" : "ولهم رأسان كلّ منهما رجل جليل ، ولكلّ منهما عدد غير قليل . أحدهما — صاحبُ جُولَمَرَك ، من جبال الأكراد من عراق العجم . قال في "التعريف" : "وهو الكبير منهما الذى تتفق طوائف الأكراد مع اختلافها على تعظيمه ، والإشارة بأنّه فيهم الملكُ المطاع والقائد المتبع . وهو صاحب مملكة متسعة ومُدُن وقلاع وحُصُون ، وله قبائلٌ وعشائرٌ وأنفار . قال : وهم يُنسَبُونَ إلى عُتْبَةِ ابنِ أبى سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف . ثم قال : وكانت الإمرة قد آتته فيهم إلى أسد الدّين موسى بن مجلى بن موسى بن منكلا . وكان رجلاً كريماً عظيماً نبأياً وهاباً ، تُجِلُّهُ ملوكُ الممالك الجليّة ، وتعظمه حُكّامُ الأردو وصاحبُ مصر . وإشارته مقبولة عند الجميع . وإذا اقتلّت طائفتان من الأكراد فتقدّم إليهما بالكفّ كفّوا ، وسمّوا له سمع [مُراعٍ لاسمع] ^(١) مطيع . وذكر أن القائم

فيهم إذ ذاك من بينه الملك عماد الدين مجلى : وهو رجل يحب أهل العلم والفضل ، ويحلل منهم عنده من أتاه أعظم حل . وقد مضى القول على ذلك مستوفى في الكلام على الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك ، من المقالة الثانية . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأسمى» والألقاب التامة الكاملة .

الثانى — صاحب عقروش من بلاد الجزيرة . قال في "التعريف" : ومملوكها الآن من أولاد المبارزك . قال : وكان مبارز الدين كك هذا رجلا شجاعا كريما تغلب عليه [غرائب من] الهوس . فيدعى أنه ولى من الأولياء يقبل الثنور . وكانت تُتدرله النذور تقربا إليه ؛ فإذا أتاه النذر أضاف إليه مثله [من ماله] وتصدق بهما جميعا . قال : وأهل هذا البيت يدعون عراقة الأصل في الإمرة وقدم السؤدد والحشمة . ويقولون إنهم عقلت لهم ألوية الإمارة وتسلموا أزيمة هذه البلاد وتستموا صهوات الصياحى بمناسير الخلفاء ؛ وأنهم كانوا لهم أهل وفاء . ولهم في هذا حكايات كثيرة ، وأخبار مأثوره ؛ وهم أهل تنعم ورفاهية ونعمة ظاهره ، وريّة فاحره ؛ وأدب منزعه ، ورياض موفّه ؛ وخيول مسومه ، وجوارح معلّبه ؛ وخديم وغلمان ، وجوارح حسان ؛ ومعازف وقيان ، وسماط ممدود وخوان . قال : وموقع بلادهم من أطراف بلادنا قريب ، والمدحوق منهم من الرحبة وماجاورها يكاد يُجيب . ثم قال : ومملوكنا تشكر لهم إخلاص نصيحه ، وصفاء سريرة صحيحه . وذكر أن القائم فيهم في زمانه شجاع الدين ابن الأمير نجم الدين خضر بن المبارزكك ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) في التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقادا فيه فيسر بذلك) .

(٣) في التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة وأخوان) .

لم يبلغ مبلغ أبيه ، بل لأقارب به ولا يدانيه ؛ على أنه قد ملك ملكه ، ونظم سلكه .
وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية .
ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" مثل صاحب جُولْمَرْك ، وهي :
«أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأميرى» . وذكر في "التتقيف" أن المكتبة
كانت إلى خِصْر بن المبارِز كُت «صدرت» و «العالى» . والعلامة «أخوه» .
وتعريفه «خِصْر بن المبارِز كُك» . مع عدم تعريجه على ما في "التعريف" بجملة .
وقد ذكر في "التتقيف" منهم جماعة سوى مَنْ تقدم من هم منهم بالجزيرة ، كالحاكم
بجزيرة ابن عمر ، والحاكم بجاني ، وصاحب عقرشوش . ولم يذكر بلاد من ذكره
منهم من يأتى ذكره منهم ومن كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحكامهم ؛ ورسم
المكتبة إليهم على ما ذكره ، وهم قسمان :

القسم الأول — من عُلمت المكتبة إليه ، وهم :

صاحب بُرْخُو — وهو يومئذ أمير حُسين بن الملك أسد . ورسم المكتبة إليه
الاسم و «السامى» بالياء .

صاحب البلهيتية — قال : وكان بها شمس الدين بن اليليق ، ثم استقر بعده أخوه
أحمد . ورسم المكتبة إليه الاسم و «السامى» بالياء أيضا .

صاحب الدربنده — وهو سيف الدين أصبر بن أزشير الحسينانى . ورسم المكتبة
إليه الاسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «أمير أزشير الحسينانى صاحب الدربنده» .

صاحب كرمليس — وهو صاحب مسعود . ورسم المكتبة إليه الاسم و «السامى»
بغير ياء .

(١) في التعريف ولا أظنه يقاربه الخ .

(٢) لعله وهو المعروف بفتح مسعود .

صاحب العِمَادِيَّة — عِمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى . ورسم المكتبة إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه «صاحب قلعة العِمَادِيَّة» . وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجُولْمَرْكِيَّة . قال في «التقيف» وكان بها أولادُ الحلاجي بن عمر، وردت مطالعته كذلك «الحاجي بن عمر صاحب العِمَادِيَّة» في سنة أربعين وسبعمائة .

صاحب مازكرد — حَسَنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ . ورسم المكتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب رندشت — بِيْجَالُ هَمْدَانَ وَشَهْرُ زُور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رَسْلَان . ورسم المكتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب بُجَرْدَقِيلَ — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهَكَارِي . ورسم المكتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب سَكَرَاك — كُرْجِي بَك . ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب فِلَس — سلطان شاه . ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .^(١)

صاحب شَكُوش — أمير أحمد . ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب بُجَرْمُوك — «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم الشريف .

(١) كذا بهذا الرسم في الأصل ولم نعرطها كما لم نعرط على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بهرامان — عبد الصمد . ورسمُ المكتبة إليه « مجلس الأمير » .
والعلامة الأسم .

صاحب حصن أران — وهو حصن الملك — شجاع الدين خضر بن عيسى
الشهرى . ورسمُ المكتبة إليه « مجلس الأمير » والعلامة الأسم .

القسم الثانى — من ذكره فى التتيف ولم يذكر مكاتبته وقال : إنه وقف عليه
كذلك ، وهم :

صاحب خفتيان — تاج الدين أخو باشاك .

صاحب سوبج — أمير عيسى بن باشاك .

صاحب أكرستا — ملك بن باشاك .

صاحب يزارد — بهاء الدين الزرزارى .

صاحب زاب — نجر الدين عثمان الزابى .

صاحب الدبند (١) — شمس الدين بن بهاء الدين .

صاحب الدربندات القرايلية — على بن كراق ، تعريفه « صاحب دربند القرايلى » .

صاحب قلعة الجبلين — حسام الدين بن تاج الدين العالمى .

صاحب سيدكان — أمير على بن حسام الدين الزرزارى .

صاحب هرورد — بهاء الدين حسن بن عماد الدين .

صاحب رمادان — أمير عبد الله الكرگانى .

صاحب الشعبانية — حسام الدين أمير مرى السيفى .

(١) كذا فى الأصل بشرق .

- صاحب نمره — بهاء الدين .
 صاحب سياح — سُقْر .
 صاحب المحمدية — الشيخ محمد .
 صاحب كركك — .

الضرب الثاني

(من لم يُصَرِّحْ له بمكان)

وقد ذكر في "التتقيف" منهم جماعة ممن كان في الزين المتقدم، وصرح بذكر
 المكتبة إليهم، فذكر منهم أبو بكر بن المبارز كَلَّ الاسم و « السامى » بغير ياء،
 وتعرفه اسمه .

مبارز الدين عبد العزيز أخوه مثله .

على وعمر ولدا ابن روى^(١) خليل بن روى^(١) ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما الأسم^(١)
 و « السامى » بغير ياء .

خالد المليكى كذلك .

أولاده : محمود وأحمد «مجلس الأمير» .

بهاء الدين بن الغرس بألو - الأسم و « السامى » بغير ياء .

عبد الله الشهرى - الأسم و « السامى » بغير ياء .

شجاع الدين خضر بن عيسى الشهرى أخو عبد الله الشهرى - الأسم و « السامى »
 بغير ياء .

(١) كذا بالأمال ولم تشرطه بعد البحث .

مبارز بن عيسى بن حسن السبلى - الأسم و « السامى » بغير ياء . قال
فى « التقيف » : ومكاتبه مسجدة فى العشر الأول من شعبان سنة ثلاث وستين
وسبعائة .

خضر بن محمد الهكاري - الأسم و « السامى » بغير ياء . قال : وهو مسجدة المكاتبه
أيضا فى العشر الآخر من صفر سنة تسع وستين وسبعائة .

قلت : فإن اتفق المكاتبه إلى أحد من هؤلاء المجهولى الكتابة أو غيرهم من
الأكراد كتب له على قدر مقداره بالنسبة إلى من علمت المكاتبه إليه .

قال فى « التعريف » هنا : وما ينبى عليه أن فى طرق المارين ، ومسالك
المسافرين ، من بلادنا إلى خراسان ومنها إلينا يظهر فى بعض الأحيان أهل فساد
يعملون إلى عميد يقدمونه عليهم فيقطعون السبل ، ويخيفون الطرق ، وتطير سمعة
عميدهم ، وتنتشر فى قريتهم ويعيدهم ؛ فيكتب ذلك العميد من أبواب الملوك ،
ويضطر إليه لفتح الطريق بالسلوك ؛ ويكون من غير بيت الإمرة ، وربما هوئى نجمه ،
فانقطع باقطاع عمره أسمه ؛ مثل الجملوك الخارج بطريق خراسان ، والغرس بالو
الخارج فيما يقارب بلاد شهر زور ، ومثل الخارجين على دربند القرابى . قال :
وهؤلاء وأمثالهم يطلعون طلوع الكآة لأصل ممتد ، ولا فرع مشتد ؛ فهؤلاء لا يعرف
لأحد منهم رتبة محفوظة ، ولا قانون فى رسم المكاتبه معروف ؛ وإنما الشأن
فما يكتب إلى هؤلاء بحسب الإحتياج وقدر ما يعرف لهم من اشتداد الساعد ، وعدد
الساعد . قال : ولقد كتبنا إلى كل من الجملوك والغرس بالو ، باليهامى بالياء ،
وجّهت إليهما الخلع وأنحفا بالثحف .

الصنف السادس

(من يكتّاب بمملكة إيران أرباب الأقاليم)

ذكر في "التتقيف" أنه كُتِبَ إلى مجد الدين أنى الوزير غياث الدين: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى، الصاحبى، الأجلّى، الكبيرى، العالمى، الكافى، الماجدى، الزينى، الأميرى، الأوحدى، المعظمى، الذخرى، المجاهدى». قال في "التتقيف": هذا ما وجدته بخط القاضي ناصر الدين بن النشأى؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه. وكُتِبَ إلى علاء الدين صاحب الديوان مثله. والعلامة إليه «أخوه». قال في "التتقيف": هكذا وجدته في خط ابن النشأى. ولم يذكر تعريفه.

الوزير شمس الدين — قال في "التتقيف": قلت من خط القاضي شهاب الدين ابن الخضر أن مكاتبة في قطع العادة الأسم و «السامى الأميرى الشرفى الحسينى النسيبى». وبقيّة الألقاب. ولم يُكْتَبَ له «الصاحبى» ولا «الوزيرى». قال: ولم يذكر شيئاً غير هذا. ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّرَ المذكور، ولا من أى بلاد الشرق.

ضياء الدين صاحب الديوان — المكاتبة إليه حسب ما نقله في "التتقيف" عن خط ابن الخضر أيضا الأسم و «السامى الأمير الأجل». وذكر أنه كُتِبَ إليه على يد سراج الدين قاضى قيسارية. قال في "التتقيف": وعلى هذا أن ضياء الدين هذا من أهل المملكة الرومية.

معين الدين صاحب الديوان — مثله.

الصف السابع

(من يكتب بمملكة إيران أكابر المشايخ والصلحاء)

قد ذكر في "التتيف" من كُتِب من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم ليقاس عليهم ، ولئلا يهمل شيء مما أورده في التتيف .

الأول — شمس الدين الطوطي . قال في "التتيف" : وهو فيما أُظُن من كان يُكْتَب إليه قديما ، ولم يُكْتَب إليه بعد ذلك . قال : ورسمُ المكتبة إليه حسب ما نقلته من خط القاضي ناصر الدين بن النشائي : «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي الشيعي ، الأجلّي ، العالِم ، العالمِي ، الكاملِي ، الفاضِلِي ، الزاهدِي ، الورعِي ، العابدِي ، الخاشعِي ، الناسِكِي ، القدوي ، الأوحدي ، الفلاني ؛ بحمد الإسلام ، صدر الأنام ، بقية السلف الكرام ، خير العلماء ، أُوحد الكبراء ، زين الزهاد ، عماد العباد ؛ قدوة المتورعين ، دُخر الدول ، ركن الملوك والسلطين . والدعاء وتصف لعلمه المبارك » . والعلامة الاسم . قال في "التتيف" : هذا صورة ما وجدته من غير زيادة . ولم يذكر تعريفه ولا محله من البلاد . قال : وقد كُتِب في نعوته : «ركن الملوك والسلطين» . وهو غريب لأنه خلاف ما جرت به العادة .

الثاني — الشيخ غياث الكنجي تبريز . ورسم المكتبة إليه فيما ذكره المشار إليه : «أعاد الله تعالى من بركة المجلس السامي الشيعي» . وبقية الألقاب «الفياني» وتكملة النعوت بما يناسب . والعلامة الاسم ، وتعريفه «محمد الكنجاني» .

الثالث — الشيخ حسن بن عبد القادر الجيلاني . وكان من المناصبين الذين يُكْتَب إليهم قديما . قال في "التتيف" : ورسمُ المكتبة إليه الاسم و«السامي» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشدُ فلان الدين» .

قلت : هذا دُھول منه ، وإلا فقتضى هذه الألقاب المجردة عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه « السامى » بغير ياء .

الصنف الثامن

(ممن يكاتب بمملكة إيران النساء)

وقد ذكر في " التثقيف " (١) الكتابةُ إلى أربع منهن :

الأولى — دل شاد زوج الشيخ حسن الكبير . كُتِبَ إليها في قطع العادة : « أدام الله تعالى صونَ الجهة المحببة ، المصونة ، العِصمية ، الخاتونية ، المعظمية ، سيدة الخواتين ، زينة نساء العالمين ، جميلة الحجب ، جليلة المصونات ، قرينة نوريين الملوك والسلاطين » . والدعاء ، والعلامة « أخوها » . وتعريفها « الخاتون المعظمة دل شاد » .

الثانية — كلبش والده بولاد مثلها ، غير أنَّ العلامة الاسم ، وتعريفها آسمها المذكور .

الثالثة — زوجة أملكان ابن الشيخ حسن الكبير على ما استقرَّ عليه الحال عند ما كُتِبَ جوابها على يد رسولها في ذى القعدة سنة أربعين وسبعائة مثل دلشاد ، والعلامة « والدها » . وتعريفها سلطان نختى .

المهيمع الثانى

من الكتابة إلى الملوك

(مملكة تُوران ، وهى مملكة الخاقانية)

قد تقيم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية نقلاً عن المقرَّ الشهابى ابن فضل الله في كتابه " التعريف " أنَّ هذه المملكة من تهر يُلج إلى مطلع الشمس

(١) لم يذكر الراجعة في الأصل .

على سَمْتِ الوَسَطِ؛ فَمَا أَخَذَ عَنْهَا جَنُوبًا كَانَ بِلَادَ السَّنْدِ، ثُمَّ الْهِنْدِ؛ وَمَا أَخَذَ عَنْهَا شِمَالًا كَانَ بِلَادَ الْخَفَّجِاجِ وَهِيَ طَائِفَةُ الْقَبْجَاقِ، وَبِلَادَ الصَّقَلْبِ، وَالْجَهَارُكْسِ، وَالرُّوسِ، وَالْمَسَاجِرِ، وَمَا جَاوَزَهُمْ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ سُكَّانَ الشِّمَالِ . فَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مَمَالِكُ كَثِيرَةٌ وَبِلَادٌ وَاسِعَةٌ، وَأَعْمَالٌ شَاسِعَةٌ، وَأُمَمٌ مُخْتَلِفَةٌ لَا تُكَادُّ تُحْصَى؛ تَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ غَزْنَةَ، وَالْبَاهْمِيَّانِ، وَالْفُورِ، وَخُوارِزْمَ، وَدَشْتِ الْقَبْجَاقِ؛ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ: نَحْوُ بُخَارَا، وَبَمَرُقَنْدَ، وَالصُّغْدَ، وَالخُوجَنْدَ . وَبِلَادِ تُرْكِسْتَانَ، وَأَشْرُوسَنَةَ، وَفَرغانَةَ . وَبِلَادِ صَاغُونِ، وَفَرَارَازَ، وَضَرْبُومَ . وَبِلَادِ الْخَطَا نَحْوَ بَشَالِقِ وَالْمَسَالِقِ إِلَى قَرَأَقُومَ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ بِلَادِ الصَّبِينِ وَصِينِ الصَّبِينِ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ بِيَدِ فَرَأْسِيَابَ، بَنِ شَنْكَ، بَنِ رُسْتَمَ، بَنِ تُرْكَ، بَنِ تُكُومَرِ، أَبْنِ يَافِثَ، بَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَهُوَ مَلِكُ التُّرْكِ فِي زَمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى خَلَائِفَ فِي نَسَبِهِ سَبَقَ هُنَاكَ . وَأَنَّهَا الْآنَ بِيَدِ بَنِي جَنْكِرْخَانَ مِنْ وَلَدِ طُوحِي خَانَ أَبْنِ جَنْكِرْخَانَ .

ثم هذه المملكةُ بِيَدِ ثَلَاثَةِ مَلُوكٍ عِظَامٍ مِنْ بَنِي جَنْكِرْخَانَ .

الأولُ — صَاحِبُ خُوارِزْمَ وَدَشْتِ الْقَبْجَاقِ . وَتُعْرَفُ فِي الْقَدِيمِ بِمَمْلَكَةِ صَاحِبِ السَّيْرِيرِ، ثُمَّ عُرِفَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْجَنْكِرْخَانِيَّةِ بِنَيْتِ بَرَكَةَ، نَسَبَةً إِلَى بَرَكَةِ أَبْنِ طُوحِي خَانَ بَنِ جَنْكِرْخَانَ . وَقَاعَدَتُهَا مَدِينَةُ السَّرَايِ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى نَهْرِ لَاتِلَ، بَنَاهَا بَرَكَةُ بْنُ طُوحِي خَانَ الْمَقْدَمُ ذَكَرَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفٍ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ .

ثم فيها جَمَلَتَانِ :

(١) هي مدينة الصراى بالصاد المهملة المتقدمة في ج ٤ ص ٤٥٧ .

الجملة الأولى

(في رسم المكتبة إلى قائمها القائم بها)

قال في "التعريف": وكان صاحبها في الأيام الناصرية، (يعني محمد بن قلاوون) «أزبك خان». وقد خطب إليه السلطان فزوجه بنتاً تَقَرُّباً إليه. قال: وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكا قديم اتحاد، وصِدْقٍ وِداد؛ من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت. ثم قال: والمملك الآن فيهم [في أولاد أزبك^(١)]: إمامتي بك، وإماماني بك، وأظنُّها في تني بك. وقد تقدّم أن المملك بعد أزبك كان جاني بك لا تني بك، على خلاف ماظنه في التعريف.

ورسم المكتبة إلى قائمها الجامع لحدودها قال في "التعريف": والأغلب أن يكتب إليه بالمغلى. وذلك مما كان يتولاه ايتمش الحمدي، وطايرقنا الناصري، وإرغداق الترمجان. ثم صار يتولاه قُوصُون الساقى. ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن القاضي علاء الدين بن فضل الله أنه كتب له مسودة على أن يكتب له بالعربي ثم بطل وكُتِبَ بالمغلى. قال: فإن كتب له بالعربي، فوسم المكتبة إليه ما يكتب إلى صاحب إيران.

وقد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب في قَطْع البَعدادى الكامل، يتبدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة المكتبة بالذهب المزمك - بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات؛ ثم تكمل الخطبة، ويفتح ببعدية إلى أن تساق الألقاب، وهى: «الحضرة الشريفة، العالمة، السلطانية، الأعظمية، الشاهنشاهية، الأوحدية، الأخوية، القانية. ولا يخلط فيها «الملكية» هوانها عليهم. ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية: من إعزاز السلطان، ونصر الأعوان، وخلود

(١) الزيادة من "التعريف".

الأيام، ورُفِعَ الأعلام، وتأييد الجُود، وتكثير البُود، وما يجري هذا المجرى .
ثم يؤتى بذكر دوام الوداد والشوق؛ ثم يذكر القصد؛ ثم يحتم بدعاء جليل وتعرض
المراسيم ويوصف التطلع إليها والتهافت عليها .

قال في "الثقيف" : « كان يُكتب إلى أربك في الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون »
في ورق عَرَضَ البَغْدَادِيُّ الكامل . وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا :

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَيَا مَنِ الْمَلَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ

ثم يخلى موضع بيت العلامة؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية، وهى : «السلطان
الأعظم» وبقية الألقاب الشريفة على العادة حسب ما يأتى ذكره . ثم بعد الحمدلة
وخطبة مختصرة جداً : « فقد صدرت هذه [المكتبة] إلى الحضرة الشريفة العالية،
حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشفيق، العالم، العادل، القان الأعظم، الأوحِد،
شاهنشاه، الملك، أربك إل خاف؛ سلطان الإسلام والمسلمين، أوحِد الملوك
والسلطين، عمدة الملوك، سلطان المُغل والقَبْچاق والتُّرك، جمال ملوك الزمان، ركن
بيت جنكوزخان، معز طغاج، صاحب التخت والتاج، عضد المتقين، دُخْر المؤمنين .
والدعاء بما يناسبه . « فإننا نخضعه بالسلام وأستعلام أخباره وتفاوض علمه الشريف » .
قال : « والكتابة بالذهب والأصود حسب ما تقدم في المكتبة إلى أبى سعيد ، وكذا
العنوان . ثم قال : ولم يكتب أحد بعده بنظير ذلك . وكان قد ورد على الأبواب
الشريفة في سنة ست وخمسين وسبعائة كتاب جانى بك أبى أربك ، وكتب إليه
الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده ، وهو فى ورق دون البغدادى
بثلاث أصابع مطبوعة، والافتتاح بخطبة مناسبة مكتوبة بالذهب جميعها، ثم أما بعد

بالأسود خلا ما تقدم ذكره في مكتبة أبي سعيد. والعنوان بالذهب. والذي كُتب إليه من الألقاب: «الحضرة الشريفة، العالمة، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلية، الأكلمية، القانية، الأخوية، العزيزية، الملكة، الشرفية زيدت عظمتها» . قال: ولما كان في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ست وسبعين وسبعمائة، رسم لي بالكتابة إلى القان محمد ييلاد أربك، وهو القائم مقام أربك على ما قيل، على يد رُسُل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودة وأستعلام الأخبار ونحو ذلك فكتبْتُ إليه في عرض البغدادى الكامل حسب ما رُسِم به، بخطبة مختصرة بالذهب، والبقية بالأسود والذهب على ما تقدم ذكره في مكتبة القان أبي سعيد. وكتب له من الألقاب بعد المراجعة: «المقام العالى، السلطاني، الكبيرى، الملكى، الأكرمى، الأعدلى، الشمسى، شمس الدنيا والدين، مؤيد الغزاة والمجاهدين، قاتل الكفرة والمشركين، ولئى أمير المؤمنين خُلت سلطته». والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له في بيت العلامة الشريفة بالمعرة العراقية «المشتاق شعبان» . وهذه نسخة ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة .

الحمد لله الذى وهبنا ملكا دانت له ملوك الأقطار، وأزدانت الأسر والبيجان بما له من عظمة وقهار، وأدعنت العظاء لعزة سلطانه الذى شمل الأولياء وقصم الأعداء ببره الجابر وقهره الجبار، وقاد الجيوش إلى أن فتح الله على يديه الشريقتين معاقل الكفار، بأمره الجارى على الرقاب ونصره الحرار، ومنحه خدمة الحرمين الشريفين اللذين لم يزل لهما منه الانتصاب وبهما له الإلتصار. نحمده على أن جعل ملكتنا الشريفة هى محل الإمامة العباسية فلا مجود ولا إنكار، ومرتبنا المنيفة بما عهد به إلينا أمير المؤمنين إلى قيام الساعة حيلة المقدار، ونشكره على أن أورتنا ملك أسلافنا الشهباء فأقر العيون وسر الأسرار، وجعل السلطنة المعظمة فى بيتنا المكرم تنتقل

تَقَلُّ البُدُورُ فِي بُرُوجِهَا إِلَّا أَنَّهُآ آمَنَةٌ مِنَ السَّرَارِ . ونشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم تزل قائمين بنصرتها، قانتين بالإخلاص في كلمتها . نُعَدُّ بذلك من الأبرار ، ونشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله المؤيد بملائكته، المخصوص بنبوته ورسالته، الذي عَظَّمَ اللهُ قدره على سائر الرُّسل كما جاءت النصوص والأخبار . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أُولَى الْفَضْلِ الدَّائِمِ، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار، وسَلَّمَ .

أما بعد ، فَإِنَّ قُلُوبَ الْأَوْلِيَاءِ وَإِنْ تَنَاعَتِ الْأَجْسَامُ مَتَاعِفَةً بِالْإِتِّلَافِ ، مُتَقَارِبَةً عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ حَيْثُ لَا تَتَاكَّرُ يَنْبِهَا وَلَا اخْتِلَافٌ ، لَا سِمًا مَلُوكِ الْإِسْلَامِ ، الَّذِينَ هُمْ مُتَّحِدُونَ بِالْمُصَافَاةِ وَالْإِسْتِسْلَامِ ؛ فَإِنْ سَرَائِرُهُمْ لَمْ تَزَلْ مُتَدَانِيَةً ، وَضَائِرُهُمْ مُتَكَافِيَةً ؛ هَذَا وَالْحُبَّةُ لِبَيْتِهِ الْكَرِيمِ قَدِيمِهِ ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الْأَسْلَافِ لَمْ تَزَلْ مُسْتَدِيمَةٍ ؛ فَلَمْ نَكُنْ وَرِثْنَا ذَلِكَ عَنْ كَلَالِهِ ، بَلْ تَبِعْنَا فِيهِ سَبِيلَ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى أَحْسَنِ حَالِهِ : لِمَا هُوَ مُحْكَمٌ مِنْ عَقُودِ الْإِتِّحَادِ وَالْوَلَاءِ ، حَيْثُ الْحُبَّةُ فِي الْآبَاءِ صَلَوةٌ فِي الْأَبْنَاءِ ؛ وَكَانَ لَنَا مَدَّةٌ مَدِيدَةٌ وَقَدْ تَأَخَّرَتْ رُسُلُنَا عَنْ حَضْرَتِهِ وَلَمْ تَصْدُرْ مِنْ جِهَتِنَا الشَّرِيفَةِ ، كَذَلِكَ وَلَا وَرَدَتْ رِسْلٌ مِنْ جِهَتِهِ ؛ وَلَمْ يَسْغُلْنَا عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَوَاقِعَةَ الْفَرْنَجِ الْمُخْذُولِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ ، وَمَقَارِعَتَهُمْ فِي سَائِرِ السَّوَاوِلِ بِشِدَّةِ الْبَاسِ وَالْتِمَاسِ ؛ إِلَى أَنْ أُمَكَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَصِيَاصِيهِمْ بِنَصْرِ مِنْ عِنْدِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَالآنَ فَقَدْ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِّ السُّلْطَانِيِّ - وَبِقِيَّةِ الْأَقْلَابِ وَالنُّعُوتِ إِلَى آخِرِهَا حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ - تُخَصُّ بِمَقَامِهِ بِسَلَامٍ أَرْقَى مِنَ السَّيِّمِ ، وَالطَّلَفِ حِزَاجًا مِنَ التَّسْنِيمِ ، وَثَنَاءٍ قَدْ أَزْرَى نَشْرُهُ بِالْعَبِيرِ ، وَسَرَى بِشْرُهُ فَغَدَتْ تَهْلُلُ بِهِ الْأَسَارِيرُ . وَتُبْدَى لِعِلْمِ الْمَقَامِ الْعَالِيِّ زَيْدَتْ مَعْدَلُهُ أَنَّهُ لِمَا يَلِغُنَا مِنْ عَدْلِ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَإِنْصَافِهِ لِلرَّايَا وَتَأْمِينِ سُبُلِ الْجَوْرِ الْحَقِيقَةِ ؛ وَسُلُوكِهِ سَنَنِ الْإِحْسَانِ ،

وتؤكد عقود المحبة على عادة من سلف في سالف الزمان ؛ قصّدا مفاتحتة بهذه المكتبة، واردنا ببدءه بهذه مخاطبة ؛ ليعلم مانحن عليه من صحيح الوداد ، وأكيد الاتحاد ؛ وجعل الاعتقاد ، وحسن الموالاة الخالصة من شوائب الإبتعاد ؛ وجهنا بها رسلنا فلان وفلان ومن معهما نستدعي وده ، ونستدني ولآء الذي أحكم عقده ؛ لتؤكد المصافاة بين هاتين الدولتين ، والمخالصة من كلتا الجهتين ، والموالاة بين الملكتين ؛ ويأمر المقام العالى لازال عاليا يتروّد التجار من تلك الديار ، والمواصلّة بالأخبار على حسب الاختيار ؛ ومتابعة الرّسل والقصاص ، على أجمل وجه معتاد .

وقد وجهنا إلى المقام العالى أعلى الله شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الأقمشة السّكندريّة وغيرها على سبيل الهدية ، والمواهب السّنية ؛ ماتضمنته الورقة المجهزة طيّها ؛ فليأمر المقام العالى دامت معدّته بتسليم ذلك ، ويتيقن وفور المحبة من سلطاننا المالك ؛ وتؤكد أسباب المودة على أجمل المسالك ، والله تعالى يجمل ببقاء سُلطانه مُلك المالك ؛ ويدعم عدله المبسوط على الأولياء ويرمي ببأسه الأعداء في مهاوى الممالك ، ويخلّد مُلكه الذى تفتخرُ بالملك من مقامه العالى السّرر والأرائك ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

وأعلم أنّ صاحب "التقيف" قد ذكر أن المکتوب إليه بهذه المكتبة هو القائم مقام أربك ، وأن اسمه محمد ، وأن المكتبة إليه كانت في سنة ستّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكر من وليّ هذه المملكة بعد أربك ولم يكن فيهم من اسمه محمد . وقد كان القائم بهذه المملكة في سنة ستّ وسبعين المذكورة اسمه "أرض" وهو الذى أترع المملكة من أليك خان المقدم ذكره ؛ وأصله من خوارزم على ما مرّ ذكره في الكلام على المسالك والممالك ، فيحتمل أن يكون اسمه محمد وأرض لقب

عليه، كما كان خَدَابَنْدَا والد أبي سعيد من ملوك إيران، أسمه محمد، ولقبه خَدَابَنْدَا. والأمر في ذلك راجع إلى النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قلت : وقد كُتِبَ في الدولة الناصرية "فرج" بن الظاهر برقوق، للقائم بها في سنة أثنى عشرة وثمانمائة في قَطْع البغدادى الكامل من الورق المِصرى المعمول على هيئة البغدادى، أبتدئ فيه بعد خمسة أوصالٍ بياض بالسملة في أعلى الوصل السادس، بياض من جانبها عرض أصبعين من كل جهة، والسطر الثانى على ستمته في آخر الوصل، بخلو بياض من الجانبين بقدر السطر الأول، والطرقة بينهما بالقباب سلطاننا على العادة، مكتوبة بالذهب بالقلم المحقق مزرك بالسواد، بأعلى الطرقة قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً، ومثل ذلك من أسفلها، وباقي السطوح يامش من الجانب الأيمن على العادة، وبين كل سطرين قدر نصف ذراع بذراع القماش القاهري، والأسماء المعظمة : من آمم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وآسم سلطاننا والسلطان المكتوب إليه، والضمير العائد على واحد منهما بالذهب المزرك كما تقدم تقريره في الكلام على مكتبة صاحب إيران في القديم.

وهذه نسخة مما أنشأه، كتيبت بإشارة المقر العالى الفتحى : صاحب ديوان الإنشاء الشريف وهى :

الحمد لله مؤيد سلطاننا «الناصر» بعز نصره، ورافع قدر مقامنا الشريف بإعلاء مناره وإعظام ذكره، ومُشيد أركان ملكنا الشاى بإسعاد جدّه العالى والله غالب على أمره. نحمده على ماجنب من مواقع الحرج، وجعل أمور رعايانا بمعدلتنا الشريفة بعد الضيق إلى فرج، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتوارثها عظماء الملوك كابرًا عن كابر، ويتناقلها منهم الخلف بعد السلف فيسندها الناصر عن

الظاهر ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي جمع بعموم دعوته مقترق الأمم، ووقف بحقيقته بين أقبال العرب وأسورة العجم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آتوا بينهم فسن المؤاخاة، ونق من نقل الضغائن صدورهم ففازوا بأكل المصافاة وأتم الموافاة؛ صلاة تسير بفضلها الركائب، وتترجم بذكرها الحداثة فتعم نفعها. المشارق والمغارب، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد، فإن الأرواح إذا تمازجت تناجت بالضامات، والقلوب إذا تآلفت آغنت بسواهد الخيال عن إبراز مافي السرائر؛ والأجساد إذا تباعدت تعللت بالمكاتبات في تلويغ الأوطار، والديار إذا تناهت اكتفت بالمراسلة عن تقارب الدار؛ والمودة إذا صفت لا يؤثر فيها البعاد، والمحبة إذا صدقت لا تزال كل يوم في ازدياد؛ (والأذن تعشق قبل العين أحياناً)، والوصف يحرك من الشوق أغصاناً وأفناناً .

هذا وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة لدواعي الإتهاج، وأهم ما أهتم به متخت بحث أو متوجج بتاج؛ إحياء مذاهب الملوك السالفة في الوداد، وأقتفاء آثارهم الجليلة في موارد المكاتب على التناهي والبعاد؛ ومن ثم صدرت هذه المكتبة إلى المقام العالي، السلطاني، الكبير، الأخوي، الفلاني؛ ركن الملة الإسلامية، عماد المملكة الحنكرخانية، ذخيرة الدين، خليل أمير المؤمنين - زيدت عظمته، ودامت معدنته - تحضه بسلام تهب به الجنوب فتؤثر به في الشمال القبول، وتحض به إلى السراي سرها ليكون لها بيت بركة أشرف قدم وأكرم وصول؛ وتمجد على خوارزم والدشت فضل رواقه المديد؛ وتنشر على مملكة السربلواء فيعم ما بين جيحون وطرنا ويشمل ما بين الخط والباب الحديد. وتناجي عالمه الشريف بأنه غير خاف عن شريف مقامه

(١) لعله طبا . أو طرلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر كما تقدم ضبطه كذلك في ج ٤ ص ٨٦ .

أَنْ مَنْ سَلَفَ مِنْ مُلُوكِ مَمْلَكَتِنَا الْعَالِيَةِ الدَّرَنِيِّ ، وَالْمَلِكَةِ الْقَانِيَةِ الْمَرْفُوعَةِ الدَّرَكْرِ رَفَعَ نَارَ
الْقِرَى ؛ لَمْ تَزَلْ مُلُوكُهُمْ جَمِيعَةً مَعَ تَنَاقِي الدِّيَارِ ، مُؤْتَلِفَةً عَلَى الْحَبَّةِ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارِ ؛
عَافِظِينَ عَلَى تَسَاجُعِ الرُّسُلِ وَإِنْ حَالَ دُونَهُمُ الصَّفَاحُ ، مَنَازِيرِينَ عَلَى تَوَارِدِ الْكُتُبِ
وَلَوْ عَلَى أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ وَمُتُونِ الرِّيَّاحِ ؛ وَقَدْ مَضَتْ مَدَّةٌ مَدِينَةٌ لَمْ يَقْدَمْ عَلَيْنَا مِنْ
الْمَقَامِ الشَّرِيفِ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - رَسُولٌ يُطْفِئُ لَوَاجِعَ الْإِسْتِثْقَاءِ ، وَلَا وَرَدَ عَنْهُ
كِتَابٌ يَتَلَلُّ الْحُبَّ بِتَلْقِيهِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّلَاقِ ؛ بَلْ سُدَّ بَابُ الْمَكْتَابَةِ حَتَّى كَأَنَّ الْمَكْتَابَةَ
لَمْ يُخْلَقْ ، وَأُغْلِقَ بَابُ الْمُرَاسَلَةِ وَإِنْ كَانَ بَابُ الْحَبَّةِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - لَمْ يُفْلَقْ ؛ فَطَمَحَ
بِخَاطِرِنَا الشَّرِيفِ طَائِعُ الشُّوقِ الْمُتَرَايِدِ ، وَحَمَلْنَا مَوْصُولُ الْحَبَّةِ الْمُسْتَعْنِي بِمَوَاصِلَتِهِ عَنْ
الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ أَنْ نَفَاتِحَ الْمَقَامِ الْعَالِيِ دَامَتْ مَعِدَلَتُهُ بِهَذِهِ الْمُفَاوِضَةِ : لْتَجِدَنَّ مِنْ
الْعُهُودِ الْقَدِيمَةِ رُسُومَهَا ، وَتُطْلَعَ مِنْ مَشَارِقِ الْخَاطِطَةِ مُجُومَهَا ؛ وَتَنْسَخَ آيَةُ الْهِجْرَانِ
وَتَمْحُوهَا ، وَتَصْقُلَ مِرَاةُ الْمُصَافَاةِ وَتَجْلُوهَا ؛ وَتَسْتَجِلِبَ الْأُسُ وَإِنْ صَحَّ السِّبْطُ ،
وَتَذْكُرَ الْخَوَاطِرَ الْوِدَادِ وَإِنْ ثَبَتَتْ مِنْهُ الْأَصُولُ وَرَسَخَتْ الْأَعْرَاقُ ؛ وَتَتَوَبَّعَ عَنْ
نَظَرِنَا الشَّرِيفِ فِي مُشَاهَدَةِ حَيَاةِ الْكَرِيمِ ، وَمُصَاحَفَةِ كَفِّهِ الَّتِي حَدِيثٌ وَدُهَا قَدِيمٌ ؛
وَتَسْتَظْلِعَ أَخْبَارَهُ ، وَتَسْتَعْرِضَ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ أَوَطَارَهُ .

وَقَدْ أَخْتَرْنَا لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهَا ، وَأَدَاءِ أَمَانَتِهَا ؛ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ الْمُقَرَّبَ الْأَمِينِ خَوَاجَا
فُلَانٍ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَحَمَلْنَاهُ مِنَ السَّلَامِ مَا يَهْتَدِي بِضَوْوِهِ السَّارَى ، وَيُقَوِّقُ بَعْرِفَهُ
الْعَبْرَ الشَّعْرَى وَالْمَسْكَ الدَّارِي : لِيُحْكَمَ بِحُسْنِ السَّفَارَةِ مِنَ الْخَالِصَةِ مَبَانِيهَا ،
وَيَقْبَدَ مِنْهَا بِتَابِعَةِ الرُّسُلِ وَالْقَصَادِ أَوَاحِيَا ؛ وَجَهِّزْنَا صَحِيَّتَهُ كَذَا وَكَذَا عَلَى سَبِيلِ
الْهَدِيَّةِ الْمُنْدُوبِ بَذَلًا وَقَبُولًا ، وَالْخَالِكِمِ بِصَحَّةِ عَقْدِ الْحَبَّةِ كَثِيرُهَا وَقَلِيلُهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يَزِيدُ فِي رَفْعِ قَدْرِهِ الْخَطِيرِ ، وَيُحِيطُ بِهِ مَنْ مَلَكَهَ الْجَنَكْرُخَانِي مَا يُحَقِّقُ أَنَّهُ
صَاحِبُ التَّاجِ وَالسَّرِيرِ .

الجملة الثالثة

(في رسم المكتبة إلى من أعطت عليه هذه المملكة من الأتباع والحكام،
وهم على^(١) أصناف)

الصنف الأول
(كفّال المملكة)

قد تقدم أن ترتيب هذه المملكة في أمراء الألوس والوزير نحو مملكة إيران ،
وإن لم يكن لأمير الألوس والوزير بهذه المملكة من نفاذ الأمر نظير ما هنالك .
ومقتضى ذلك أن يكونا منقطعين في الرتبة عن أمراء الألوس بإيران والوزير بها ،
وهذه الرسوم التي وقعت في مكاتباتهم على ما أورده في "التثقيف" .

وأمرأء الألوس أربعة ، أكبرهم يسئى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدم
في مملكة إيران . فقد ذكر في "التثقيف" أنه كان منهم في سنة اثنتين وثمانين
وسبعمائة قتلوا بئنا إيناق ، وأنه كتب إليه في عاشر جمادى الآخرة منها ما صورته :

«ضاعف الله تعالى نعمة الجتاب العالى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ،
المؤيدى ، العونى ، الرعى ، المهدي ، المشيدى ، الظهيرى ، التوثى ، السيفى ،
عز الإسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالمين ، نصرة الفزاة والمجاهدين ، زعيم
الجوش ، مقدم العساكر ، كهف الله ، دثر الدولة ، ظهير الملوك والسلطين ،
سيف أمير المؤمنين » . ثم الدطاء والعلامة « أخوه » وتعريفه « قتلونا إيناق نائب
القان جاني بك » .

(١) يباض فى الأصل ومع ذلك لم يذكر الاصفين .

ثم ذكر أنَّ الأمر كان عند القان محمد بمثابة الأمير يلغا العمرى، يعنى انخاصكى
بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وأنه استحدثت المكتبةُ إليه في سنة ثلاث
وسبعين وسبعائة، وأنه كتب إليه في قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة الجَنابِ العالى، الأميرى، الكبيرى، العالى، المجاهدى،
المؤيدى، الذخرى، النصيرى، الحمصى، المقدمى، النوفى، السيفى، عزَّ الإسلام
والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، مقدِّمُ العساكر،
ذُخر الدولة، عَضُدُ الملوك والسلاطين، حُسام أمير المؤمنين». والدعاء المناسب .
والعلامة «والده». وتعريفه «مما». وفى هذا نظر : لأنه إذا كان بمثابة ما كان
عليه يُلَبِّغا بالديار المصرية، فمقتضاه أن يكون أكبرَ أمرائه . وإذا كان كذلك،
فكيف يكتب إليه دونَ أمراءِ الأُلوس؟ فقد تقدَّم أنه يكتبُ إليهم : « ضاعف
الله تعالى نعمةَ الجَنابِ العالى» .

الوزيرُ بهذه المملَكة . قد ذكر فى "التحيف" أن الوزير بها كان أسمه
محمودا، ولقبه حُسام الدين، وكان يعرف بمحمود الديوان . وذكر أن رسم المكتبة
إليه فى قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى، الأميرى، الكبيرى، الذخرى، الأوحدي،
الاكلى، المتصرفى، العوفى، الوزيرى، الحُسامى، تجد الإسلام والمسلمين،
شرف الأمراء والوزراء فى العالمين، جمال المتصرفين، أوحَدِ الأولياء المقربين، ذُخر
الدولة، مشير الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، والعلامة «والده». وتعريفه «خوَّاجا
محمود وزير المملَكة القانية» .

قلت : وقد علمت أن المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بهذه المملكة دُونَ المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بمملكة إيران ، فقد تقدم أن المكتبة إلى بكلارى بك أكبر أمراء الألوُس بمملكة إيران : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المقوِّ الكريم » . وإلى الثلاثة الذين دُونه : « أدام الله تعالى نصرَ الجناح الكريم » ، ثم استقرَّ « أعزَّ الله تعالى أنصارَ الجناح الكريم » . وأن المكتبة إلى الوزير : « ضاعفَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى » . والمعنى في ذلك ما تقدم من أنه ليس لِأمراءِ الألوُس والوزير بهذه المملكة من التصرف بالأمراءِ الألوُس والوزير من التصرف بتلك المملكة .

فجاء على بك هذه المملكة . قال في «التثقيف» : وهو من استحدثت المكتبة إليه في سنة خمس وستين وسبعائة .

وزعم المكتبة إليه فيما ذكره في «التثقيف» الاسم و « السامى » بالياء وتعريفه اسمه .

الصفحة الثانية

(الحكام بالبلاد بهذه المملكة)

وها أنا أذكر من ذكر المكتبة إليه منهم في «التثقيف» .

الحاكم بالقرم : وهو إقليم شمالي بحر نيپطش . وقاعدته مدينة صلغات ، وهى مدينة على نصف يوم من البحر ، وقد ظَلَب عليها أنمُ القرم . وقد ذكر في «التثقيف» أن الحاكم بها في سنة خمسين وسبعائة كان اسمه زين الدين رمضان ، ثم استقر بعده على بك أبن عيسى بن تليكمتر . وقد رأيت في بعض التواريخ أن الحاكم بها في حدود سنة ست وسبعين وسبعائة كان مامأى المقصم ذكره . وقد ذكر

في "التتيف" أن رسم المكتبة إلى الحاكم بها في قطع العادة، والعلامة «أخوه» .
و «صدرت» و «العالى» . والذي رأيت في دستور يعزى في الأصل للقر العلاتى بن
فضل الله أنه يكتب إليه في قطع التلث وأن المكتبة إليه «السامى» بالياء .
وتعريفه «الحاكم بالقرم» .

الحاكم بأوزاق : وهى مدينة على بحر ما يبطش المقدم ذكره في الكلام على
المسالك والممالك . وهو المعروف الآن ببحر الأزق ، وهى عن القر في جهة الجنوب
والشرق ، وبينهما نحو خمس عشرة مرحلة . قال في "التتيف" : ورسم المكتبة
إلى الحاكم بها مثل الحاكم بالقرم على السواء . والذي رأيت في الدستور المقدم ذكره
أنه في قطع التلث «السامى» بالياء كما في الحاكم بالقرم .

الثانى

(من ملوك توران من بنى جنكركان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدة ملكه في القديم بخارا ، والآن سمرقند . ومن مضافاتها غزنة وما والاها
من متاخيم الهند . وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المسالك والممالك .
وقد ذكر في " التعريف " أن آخر ما استقرت لرماسيرين ، وكان حسن الإسلام
حادل السيرة ، طاهر الذيل ، مؤثرا للخير ، محبا لأهله ، مكرما لمن يرد عليه من العلماء
والصلحاء ، وطوائف الفقهاء والفقراء .

قال : وكتب إليه على رسم المكتبة إلى صاحب إيران . وقد تقدم في الكلام
على المكتبة إلى صاحب إيران نقلا عن " التعريف " أنه يكتب إليه في قطع

البغدادي الكامل ، يتبدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة القراء المكتوبة بالذهب المزك باللقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ؛ ثم تكمل الخطبة ويُفتح ببعية الى أن تُساق الألقاب ، وهي : «الحضرة العلية ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحدية ، الأخوية ، القانية ، الفلانية » . ولا يخلط بها «الملكية» طوائها عليهم ؛ ثم يدعى له بالأدعية المفخمة الملوكة : من اعزاز السلطان ، ونصر الأعوان ، وخلود الأيام ، ونشر الأعلام ، وتأيد الجنود ، وتكثير البُود ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى . ثم يُقال ما فيه التصريح والتلويح بدوام الوداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصف الأشواق ، وكثرة الأتواق ، وما هو من هذه النسبة ؛ ثم يُوقى على المقاصد ، ويختتم بدعاء جليل وتستعرض المراسيم والحلُم ، ويوصف التطلع إليها ، ويظهر التهاقُ عليها ؛ وأنه تكتب جميع خطبة الكتاب وطغراه بالذهب المزك ، وكذلك كل ما وقع في أشائه من أسم جليل ، وكل ذى شأن نبيل : من أسم الله تعالى أولئيه صلى الله عليه وسلم ؛ أو ذكر الإسلام ، أو ذكر سلطاننا أو السلطان المكتوب إليه ، أو ما هو متعلق بهما ، مثل لنا ولكم ، وكَلْبُنَا وكَلْبُكُمْ ، جميع ذلك يكتب بالذهب وما سواه بالسواد . وأن العنوان يكون بالألقاب إلى أن ينتهى إلى اللقب الخاص ؛ ثم يدعى له بدعوة أو اثنتين نحو أعز الله تعالى سلطاننا ، وأعلى شأننا ؛ ونحو ذلك . ثم يسمى أسم السلطان المكتوب إليه ؛ ثم «يقال» خان : مثل أن يقال : ترواشيرين خان ، ويُطَمَع بالذهب طَمَعَات عليها ألقاب سلطاننا تكون على الأوصال ، يبدأ بالطمغة على اليمين في أول وصل ، وعلى اليسار في ثاني وصل ، ثم على هذا النمط إلى أن ينتهى في الآخر إلى اليمين ؛ ولا يُطَمَع على الطرة البيضاء . والكتاب ينجلي لمواضع الطمغة مواضع الكتابة تارة يمنة ، وتارة يسرة ، إلى غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخر ما استقرت هذه المملكة لثُمَّرَلِكْ ، وُثِرَ اسمُه الذي هو عَلَمٌ عليه ، ومعناه بالتركية حديد . وَلَنَّا لَقِبُ عليه ، ومعناه بالفارسية أَعْرَجَ : لأنه كان به عرجٌ ظاهرٌ ؛ ولذلك تسميه التُّركُ ثُمَّرَ أَفْصَقَ ، إذ أَفْصَقَ عندهم بمعنى أَعْرَجَ . وهو يسمَّى في كُتُبِهِ تيمور كور كان . ومن هذه المملكة أنسابُ عليّ بلادِ إيرانَ حتَّى استولوا على جميعها ، وساروا إلى بلاد الهند فاستولوا عليها ؛ ثم طاح إلى الشام في سنة ستٍّ وثمانمائة وعاشَ فساداً ، وخربَ وأفسدَ ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » قَـجَ ابن الظاهر برقوق صاحب مصر والشام على دِمَشْقَ ؛ وجرت بينهما مراسلةٌ ؛ ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ما أوجب عَوْدَهُ إلى مصر لأمرٍ عَرَضَ له من جهة بعض أمرائه ، وبقي لثُمَّرَلِكْ نازلاً بالشام محاصراً لدِمَشْقَ ، إلى أن خَدَعَ أهلها وفتحها صُلْحاً ، ثم غَدَرَ بهم ونهبها وسبَّ حريمها ، ثم حَرَّقَهَا بعد ذلك بعد أن أسرف في القتل وأتخَنَ في الجراح ، وأَمَنَ في الأسر .

وللكاتبه إليه خاتمة :

الحالة الأولى — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج — عزَّ نصره — بالشام محارباً له ، وكُتِبَ حينئذ تَرِدُ في القطع الصغير على ما سيأتي ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ في قطع^(١)

(١) بيض المؤلف بقية الكلام ، وأستدرك بعضهم له بقية وأثبتها في النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "مما فات المؤلف" .

مما فات المؤلف رحمه الله تعالى

ما كتبت عن مولانا الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق، تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه، في جواب الأمير تمرلنك المدعو تيمور، عن الكتب الواردة منه قبل ذلك - من إنشاء المرحوم المقر البدري محمد، ابن المرحوم المقر العلائي - على ابن المرحوم المقر المحيوي يحيى، بن فضل الله العمري العدوي القرشي رحمهم الله تعالى - في سنة ست وتسعين وسبعمائة، عند سفر مولانا السلطان المشار إليه إلى حلب المحروسة للثقي المذكور، في قطع الثلث بغير علامة؛ وسعة ما بين السطور قدر عرض الإصبعين. والطرز وصلان، طولها نحو الذراع الهاشمي، وكان عنوان كتاب تمرلنك الذي ورد آخرًا وهو الذي اقتضى الحركة الشرفية والجواب المشار إليه :

سلام وإهداء السلام من البعد * دليل على حسن المودة والعهد

فكتب العنوان الشريف :

طويل حياة المرء كالיום في العد * فخيرته أن لا يزيد عن الحد!

فلا بد من نقص لكل زيادة * لأن شديداً البطش يقتض للعد!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليّ الشان، العظيم السلطان، العيم الإحسان، العليم بما كان وما يكون في كل زمان ومكان؛ تاهت في ميادين قلاوات معرفته سواقي جياذ الأفهام، وتد كدكت لهيبة جلّاله جبال العقول والأوهام؛ وصلى الله على سيدنا محمد حبيب الرحمن، وسيد الأكران، وصاحب المعجزات والبرهان، المبعوث إلى الخلق أجمعين من الإنس والجنات، والمنموت بالفضل العيم، والخلق العظيم، في التوراة والإنجيل والزبور

والفرقان ؛ وعلى آله وصحبه الغر الكرام الحسان ؛ وعلى التابعين لهم بإحسان ؛ وسلم تسليما كثيرا ما تعاقب الحداث .

وبعد ، فقد وصل إلى أبوابنا الشريفة العالية كل ما جهّزته أولا وآخرها يا أمير تيمور من كتاب ، وأحاطت علومنا الشريفة بما فيها من كلام وخطاب ؛ وقصيد وعتاب ، وإرصاد وإرغاب .

فأما ما ذكرته في أول كتبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم ، والتبجيل والتفخيم ؛ فقد علمناه وعرفناه ، ولكن وجدنا الكلمتين اللتين في الطمغات آخر الكتب وهما راسيتي رستي منافيتين لذلك التعظيم ، وهذا غير مستقيم ؛ لأنه متناقض غير متناسب ، فحجبنا من هذا التناقض الواضح ، والتخالف الفاضح ؛ وفي المثل السائر : « أصليح وقابل وأفسد وقابل » .

وأما إرسائك السيف والتركاش لنا ، فقد تعجبنا منه إلى الغاية ، وأنكرناه إلى النهاية : لأنك لم ترل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكوخان وأخباره وأحواله ، وتقتدى به في أقواله وأفعاله ؛ وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكوخان ، ولا ممن تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان ؛ أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفا ولا تركاشا ؛ ما اختلف في ذلك آثنان . فإرسالها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولا ، وإن كان تخويفا ، فنحن ما نخاف من سيفك وتركاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السيف والرمح والنشاب قد طابت * من الحروب فسلمها فهي شديكا !
إذا آلتقينا نجد هذا مشاهدة * في الحرب ، فأنبت فأمر الله آتيكا !
بخدمه الحرمين الله شرفنا * فضلا وملكا الأمصار تمليكنا !

وبالجليل وحلوا النصرة عودنا، * خذ التواريخ وأقرأها تلييكاً!
والأنبياء لنا الركن الشديد فكم * يجاهيهم من عدو راح مفلوكاً!
ومن يكن ربه الفتح ناصره، * ممن يخاف؟ وهذا القول يكفيكاً!
وقد أجنبناك عن السيف والتركاش فيما مضى قبل هذا الوقت وتقدم، فاعرف
ذلك وأعلم.

وأما ما ذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد، والصحبة
والإتحاد، لا باب الخاصية والمشاركة والعناد؛ فقد علمنا ذلك وفهمناه. والذي نمرتك
به أن الذي وقع منك بخلاف ماقلت : لأنك لو كنت صادقاً في قولك، كنت لما
حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلاحي اللذان هما من بعض مماليكنا ومن جملة
رعايانا أسكنتهما وجهزتهما إلينا بعد أن قيدتهما؛ فما فعلت ذلك بل عملت
بالضد منه لأنك أويتهم، وحميتهم وعظمتهم وأكرمتهم؛ وجعلتهم من خواصك
وأحبائك، وأولائك وأصحابك. وأيضاً توجه إليك صولة بن حيار الذي هو قطعة
هجان من هجانتنا فأكرمته، وألبسته التاج وعظمته؛ وبعثت معه خلعة إلى نعيم المذكور
وإلى غيره من عربانه، ووعدته بالتقدمة والإمارة، بالتصريح العظيم لا بالتلويح
والإشارة، وكتبت إليه كتاباً ما تركت فيه ولا خليت، وأظهرت كل ما كان عندك
وما أبقيت، فجهره إلينا وقرأ على مسامعنا الشريفة كلمة كلمه، وعرفنا واضح معناه
ومبهمه؛ وها نحن نشرحه لك لتعلم وتحقق أنه وصل إلينا، وأطلعنا عليه وما خفي
أمره علينا. وهذا نصه :

(١) هذا الضبط من الأصل برسم فيه تحجها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمال ولكن الذي سبق في الأجزاء
المقدمة جبار بالجيم والباء تهما لا صل والضوء والتعريف لحرر.

دام دولته

الأمير الكبير، المعظم أمير نعيم، أدام [الله] دولته شمساً. نعرض لعُلوِّ علومه المحروسة أنه قد اتَّصل بنا طَرْدُكَ عن الشام، ومعاملتهم معك غير الواجب. حال وقوفك على هذا المثال تُسرِّع في الوصول إلينا بحيث تُنطِّق ما أُعْطِيَ المرحوم عمك أمير سليمان طابَ ثراه، ويجعلك مقدِّم العساكر المنتصرة؛ وبهذا برز الحكم المطاع من الحضرة العالية؛ ففي عزم العساكر والجيوش المعظمة الوصول إلى أطراف البلاد شرقاً وغرباً ورومياً من سائر النواحي والأمصا، والبلاد والأقطار؛ وإن أبطأ ركابك عن الوصول، فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مصر وغيره، ولا يبقى لطاعتك مزية ولا منة، فيكون ذلك على الخاطر المبارك. فيلبي أن لا يكون جواب الكتاب، إلا قدوم الركاب؛ ففيه لكم الفوائد العظيمة، والعطايا الجسيمة؛ ومع [ذلك] إصابة الرأي منكم، تُفنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرض من المهام يقضى حسب المراد، ومنهج السداد؛ والله موفق.

وبحاشية الكتاب المذكور ما نصه :

وقد كتبنا إلى السلطان أحمد أن يصل إلينا، فانظر كيف كان عاقبة أمره ؟ فيلبي أن تتوجه أو يتوجه بعض أولادك إلينا لأجل مصالحك كافة .

فيا أمير تيمور لو كنت صادقاً، وكلامك بالحق ناطقاً، ما وقع منك مثل هذا ولا صدر، ولا اتفق بل ولا بالك خطر؛ ولكن كل ما يكون في خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذي يخرج من فيه، وكل وعاء ما ينضح إلا بما فيه .

يا فاجلاً بالضد من قوله * فعل الفتي دال على باطنه،

والمرء مجزئ بأعماله * إذا أظهرت ما كان في كمينه !

وأما طلبك منا السلطان أحمد الخلايى غير مرة، فقد علمناه. ولكن عرفنا يا أمير
 تيمور ايش عىل بك ؟ حتى حلفت له عدة مرار بأيمان الله تعالى العظيمة وأعطيته
 العهد والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا توافيه ولا تتشوش عليه،
 حتى أطمأن بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظنه فيك، ووثق بك، وأعتمد عليك،
 فحقت غدرته، وأتيته بغتة على حين غفلة وبدرته، وأخذت مملكته وبلاده،
 وأمواله وأولاده. وأعظم من ذلك أنك أخذت أيضا حريمه وهن في عقد نكاحه
 وعصمته وأعطيتهن لغيره، وقد نطق الكلب والسنة بتحريم ذلك وعظم ذنب فاعله
 وقبيح جرمه، ففى أى مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين، وإعطائهن
 لغير أزواجهن من المفسدين الظالمين ؟ وهن فى عصمة أزواجهن وعقد نكاحهن
 إن هذا لهُو البلاء المبين، وكيف تدعى أنك مسلم وتفعل هذه الفعآل ؟ عرفنا
 فى أى مذهب لك هذا حلال ؟ فاعمالك هذه كلها منافية لدعواك، بل منافية
 لدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالى :
 ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ وقد بين لنا الخير والشر،
 والحلال والحرام وأهلها فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ
 وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
 وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَغَيْرُهُ . وقال عليه السلام : " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ
وَلِسَانِهِ " . ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تَسْتَحِلُّ هذه المحرمات العظيمة ،
والمُنْكَرَاتِ الصَّيِّحَةِ الشَّيْئَةِ الجَسِيمَةِ ، التى يَهْتَزُّهَا العَرْشُ وَيَقْضِبُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ
لَهَا وَرُسُلُهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ ؟ وما كفى ما فعلت مع القان أحمد المشار
إليه حتى تطلبه منا ؟ . اعلم أَنَّ القان أحمد المشار إليه قد استجار بنا وقصدنا ، وصار
ضَيْفَنَا ، وقد ورد : مَنْ قَصَدَنَا وَجَبَ حَقُّهُ عَلَيْنَا . وقال تعالى لسيد الخلق :
أَجْمِعِينَ فى حَقِّ الكفار الذين هم أَنَحَسُ الناسِ : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ تَأْتِيَةً مَأْمَنَةً) فكيف بالمسلمين إذا استجاروا بالمسلمين ؟
وكيف بالملوك أبناء ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع ملوك الإسلام
خُدَّامُ الحرمين الشريفين مُحَبَّةٌ وَحُبَّةٌ وَأَخُوَّةٌ فى الله تعالى ؟ ولو لم يكن ذلك كيف
يجوز فى شرع الرُّوءَةِ وَالنُّخُوَةِ والوفاء أن تُسَلِّمَ ضَيْفَنَا وَنَزِيلَنَا والمستجير بنا ؟ خصوصا
وَجِنْسُنَا حَرَكْسُ جِنْسِ ملوك الإسلام السالفين ، خُدَّامُ الحرمين الشريفين الذين
اتَّفَقَ لهم مع التَّار ما تشهدُ به التَّوَارِيخُ ، ومن عادتنا وشأننا وطَبَاعِ جِنْسِنَا أننا لَا نُسَلِّمُ
ضَيْفَنَا وَلَا نَزِيلَنَا وَلَا مَنِ اسْتَجَارَنَا لِأَحَدٍ . وإن كنت مأْتَصِلٌ بِكَ فَعِنْدَكَ مَنْ هُمْ
من جِنْسِنَا ، سَلَّهْمُ يَعْرِفُوكَ ، فنحن لَا يُضَامُ لَنَا نَزِيلٌ ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ وَنَعَامُهُ
بِالْجَمَلِ ، وهذه جِيْلَتُنَا الْغَرِيزِيَّةُ وعادة أَصْلَانَا الْأَصِيلِ ، فإرسالُ القان أحمد إليك
أمرٌ مُسْتَحِيلٌ .

إِنَّا ذُوو الْفَضْلِ الْغَزِيرِ الْوَارِفِ * أَبَوَانَا هِيَ مَلْجَأُ الْكَافِ

تَقْرِى الضُّيُوفَ وَلَا يُضَامُ نَزِيلُنَا ، * شِمِّمِ وَرِثْنَا أَفْضَلَهَا عَنْ سَالِفِ

وَكَلِمَةً تُكْفَى الَّذِى هُوَ عَاقِلٌ ، * وَالرَّمْزُ تَصْرِيحًا غَدَا لِلْعَارِفِ !

وقولك : إن العادة كانت جارية بين من سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنه من هرب من جهة إلى أخرى يُمسكه الملك الذي يهرب إليه ويقيده ويجهزه إلى الملك الذي هرب من عنده ، وأن دمر داش بن جوبان لما هرب في الزمن الماضي من ملكه وجاء إلى سلطان مملكتنا المعظمة المشرفة ، أمسكه وقيدته وأرسله إليه ، فقد علمناه ، وليس هذا الذي قلته وحكيته بصحيح ، لأن الذي وقع وأتفق بخلافه : وهو أن أميراً من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسعى قراًسُنقر، هرب من عنده وراح إلى أبي سعيد فقطع رأسه ، وجهزه إلى الملك الناصر. وأما دمر داش المذكور فالملك الناصر ما أرسله إلى أبي سعيد مثل ما قلت وما مات دمر داش المذكور إلا في مصر المحروسة ، فليكن ذلك في علمك ثابتاً ؛ وعلى كل حال فكلما مك حجة عليك لا لك : لأنك قد آويت شكر أحمد وأرغون السلاحي وأكرمتها وقربتهما ، وكذلك كل من حضر إليك من ممالكنا ورعايانا وخدمننا من أهل مملكتنا، فلو أمسكتهم وقيدتهم وجهزتهم إلينا ، كنت تكون صادقاً في قولك ، وكنت إذا طلبت منا أحداً ما تلأم على طلبه ، فكيف وأنت البادي والمعتدي ؟ فهذا الكلام كله شاهد عليك لا لك .

وأما قولك : إن صاحب يكرت كان حرامياً قاطع طريق ، ففعلت معه ما فعلت مقابلة له على نجسه وحرامه وقطعه الطرقات ، فقد علمناه وسلمنا لك هذا الأمر ، بيض الله وجهك ، وما قصرت فيه ، فحبذا ما عملت ، ونعم ما فعلت في حق من إعطائه جزاءه . أنا هل بشداد كانوا حرامية قُطاع طريق حتى فعلت بهم ما فعلت ، وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب . ففى أى مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحل لمن يدعى الإسلام أن يعمل بخلق الله تعالى الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونشر العدل فيهم هذه الفعال ؟ وقد تعجبنا منك

يا أمير المؤمنين إلى الغاية ! كيف تدعى أنك عادل، وتعمل بأهل بغداد المسلمين
 الموحدین وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله
 تعظيم لأمر الله، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء، وأن الظلم حرام في جميع
 الملل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني
 حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا". وقال عليه السلام:
 "لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن".
 وورد: "إن فاتني ظلم ظالم فانا الظالم"، وحسب الظالمين رب العالمين الذي قال
 في حقهم ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقال ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. والباغي
 له مصرع. ولما جاء هؤلاء منكم ومنكوتهم وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام
 الحرمين الشريفين، الذين كانوا من جلسنا كما ذكرنا لك أعلاه، اتفق لهم ما اتفق
 مما هو مشروح في التواريخ ومعلوم عند الناس؛ فهما أخذاه أولئك تأخذ
 إذا جئت.

وأما قولك في كُتُبِكَ: إنه إن لم يجهز إليك السلطان أحمد الخلايرى مقيداً نجي
 في أول فصل الربيع إذا نزلت الشمس رَجَ الحمل، أو لمَّا تَزَلِ الميزان، وإن
 جهَّزناه إليك مقيداً، لتأكّد المحبة والصُّحبة بيننا وبينك، فقد علمناه؛ والذي
 نعرفك به هو أننا كنا نتوقع أنك نجي. قبل هذا الوقت، فقد أبطأت كثيراً، وملوك
 الإسلام خُدَّام الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هؤلاء
 وغيره إلا حتى تزاوروا وتقابلوا وأجتمَعوا، ونحن أيضاً كذلك ما نصطَلح إلا بعد
 أن تزاوَرُوا وتقابلُوا ويَجْتَمِعُوا. وأنت طلبت أحمد الخلايرى، وهانحن واصلون إليك به،
 نطلب منك أن تَسْفَعنا فيه، وتَهَبنا ذنبه الذي صدر منه، وتدخل عليك بسببه،
 ونسأل إحسانك أن تعين لنا موضعاً نلتقي معك فيه، حتى نأتيك بأحمد الخلايرى

المذكور فيه ، ونشفع فيه عندك . فعين لنا الموضع المذكور على حسب ماتختار : إما من ذلك الجانب من القرات ، أو من هذا الجانب . وأى موضع عينته وسميته لنا جئناك بالشار إليه فيه ، وندخل عليك فى أمره ، ونستوهب ذنبه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نعرفك به هو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا المحروسة ، وأطلع عليه فى ذلك جماعة من جهتنا ؛ ولما وصل إلى الرحبة المحروسة ، قال للنائب بها : يس الأرض للأمير تيمور وأقرأ الخطبة باسمه . فلو كان رسولا مصلحا ما كان كتب المنازل ، ولا أكثر فضوله ، وتحدث بما لا ينبغي له ، وتكلم فيما لا يعنيه ، وتعذى طوره : لأنه لا ينبغي للرسول أن يكون إلا أعمى أخرس غزير العقل ، ثقيل الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قصدت الملوك فالبس * من التقي والعفاف ملبس !

أدبجل إذا مادخلت أعمى ، * وأخرج إذا ماخرجت أكرس !

وكيف يمكن نائبا الذى هو من جملة ممالكنا ، وجبل لجه ودمه على أنعمنا وصدقائنا ، وغدى ورى بلبان فضلنا وجودنا [أن] يبوس الأرض لغيرنا ، أو يخطب باسم غيرنا ؟ وكيف يترك أسم خدام الحرمين الشريفين أستاذه ؛ ويذكر أسم غيره ؟ . فقد تكررت منك الفعائل القبيحة ، الموجبة لما يقدره الله تعالى ؟ ونحن نقسم بالله تعالى لولا قلت لتغير تعال حتى أعملك مقدم العساكر ، وتمشى على الشام ومصر ، وقربت ممالكنا وأوتيتهم ، وبدأت بهذا كله وحصل منك التعدى ، ما كان يتفق لرسلك ما اتفق . ولكن الجزء من جنس العمل ، والخير بالخير والباذى أكرم ، والشر بالشر والباذى أظلم . وأيضا كل وقت تسأل عن ممالك المصونة ، وكثرة عساكرنا المنصورة من قلتها . فلو كنت طالبا المحبة والصحبة والمصادقة ، ما وقع منك هذا .

وأما قولك إنَّ هولا كو أخذ من كلِّ مائة رجل رجلين وجاء بهم ، وأنت قد جئت بالرجلين وبالمائة ، وأعتادك على كثرة عسرك على قولك فقد علمناه ، وإن كان أعتادك على كثرة عسرك فاعتادنا نحن على الله تعالى وأستمدأنا من الحرمين الشريفين ، ومددنا من بهما من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والصحابة والصالحين رضى الله عنهم . فاذا تلاقينا يكون ما يقدره الله تعالى ويعطى الله النصر لمن يشاء ، وتعلم ذلك الوقت لمن العاقبة ؛ ويظهر فعل الله الرب القادر تعالى ، وعوائده الجميلة بنا التي لا شك عندنا فيها ولا ريب ، وقط ملوك التتار ما انتصروا على ملوك الإسلام ، بل ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين ، هم المؤيدون المنصورون المظفرون بعون الله تعالى ، وبركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، معودون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغنائم والفُتُوحات : لأنهم أهل الكتاب والسنة والعدل والخير والخوف من الله تعالى ، لا يفتنون في تحاربه ، ولا يُقَدِّمون على ارتكاب ما ينهى عنه ، فهم المؤمنون المتقون . وقال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقال : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ وسوف يُنْجِزُ الله تعالى وعده ، لأنه لا يُخْلِفُ الميعاد .

وأما ما ذكرته من أمر قرايوسف ويرحسن وغيرهما ، وأن في معاشهم زغلا ، وأنهم مفسدون . وجعلك لكل واحد منهم ذنبا ، وأنت العادل الخير المفلح ، والناس كلهم مناحيس وأنت الصالح ؛ والله يعلم المفسد من المصلح ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أن النور لا يمتنع مع الظلام ، ولا اليقظة والمنام ، ولا الخير والشر في حيز واحد : لأنها متضادة ، ليس بينها اتفاق ولا ألتئام ، وفعل المرء دال على نيته وطوره ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِهِ ﴾ وقال :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ وقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ وشتان ما بين أهل الخير والفساد، وأهل العدل وأهل البغي والعناد؛ فالخير هو المتقى، ومن يرتكب ما حرم الله ويعتقد أنه على الحق فهو الشقي .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْرِفَ قَبِيحَ خَطِيئَتِهِ * وَلَا الذَّنْبَ مِنْهُ مَعَ عَظِيمِ بِلْيَتِهِ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْجَاهِلِ مِنْهُ مَعَ الْخَطَا * وَسَوْفَ يَرَىٰ عِقَابَهُ عِنْدَ مَنِيَّتِهِ
وَلَيْسَ يُحَازِي الْمَرْءُ إِلَّا بِفِعْلِهِ * وَمَا يَرْجِعُ الصَّيَّادُ إِلَّا بِنِتْنِهِ !

وأما قولك إِنَّ نَعِيرَ الْعَرَبِ أَرْسَلَ بِالْخَفِيَّةِ يَطْلُبُ السُّلْطَانَ أَحْمَدَ، وَأَنَا نَرْسُمُ لِنَوَائِنَا أَنْ يَحْتَرِزُوا مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَيْهِ وَلَا يَمَكِّنُوهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِنْ أَتَفَقَ تَوَجُّهُهُ إِلَيْهِ يَكُنْ ذَلِكَ سَبِيحًا لِنَحْرَابِ الدِّيَارِ، فَقَدْ عَلِمْنَاهُ. وَالَّذِي نَعْرِفُكَ بِهِ هُوَ أَنَّا نَتَحَقَّقُ أَنْ مَا يَحْصُلُ خَرَابُ الدِّيَارِ وَالْذَّمَارُ وَمَوْ الْأَثَارِ إِلَّا لِمَنْ يَسْعَىٰ وَيتَكَلَّمُ بِخَرَابِ الدِّيَارِ ﴿وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ . وَتَعَلَّمْ دِيَارُ مَنْ تُحَرِّبُ، وَعُمُرُ مَنْ يَذْهَبُ، وَعَلَىٰ مَنْ تَكُونُ دَائِرَةُ السُّوءِ دَائِرُهُ، وَسَطَوَاتُ الْمَنَآيَا قَاهِرُهُ؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ . وَهَذَا نَحْنُ وَأَصْلُونُ بُجْيُوشِ وَجُنُودِ وَعَسَاكِرُ مُؤَيَّدَةٍ مِنَ السَّبَاعِ أَسْعَىٰ، لَا تَرَوْنِي أَسْلِحَتَهُمْ مِنْ دِمَاءِ الْبَغَاةِ وَلَا تَشْبَعُ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَىٰ لَا مَا تَسْمَعُ :

قُلْ لِلَّذِي فِي الْوَرَىٰ أَحْصَىٰ يُعَادِينَا : * احْذَرْ فَا مَرَكَ رَبِّ الْعَرْشِ يَكْفِينَا !
مَا زَالَ يَمْنَحُنَا فَضْلًا وَيَكْلُونَا * وَفِي الْعِدَا بَعْظِيمُ النَّصْرِ يَنْصُرُونَا !
أَقَامَنَا رَحْمَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِهِمْ ، * وَلَمْ يَزَلْ مِنْ جَزِيلِ الْجُودِ يُعْطِينَا !
بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَوَدَنَا ، * وَزَادَنَا فِي مَدِيدِ الْأَرْضِ تَمَكِينًا !
وَالْجَمِيلِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَقَفْنَا ، * شُكْرًا لَهُ سِتْرُهُ الْأَعْلَىٰ يَغْطِينَا !

قَدْ أَسْكَنَ الرَّحْمَةَ الْحُسْنَى الَّتِي أَمِنْتُ * بِهَا الْإِنَامُ بِأَقْصَى مُلْكِنَا فِينَا !
فَكَلَّمَا بِالْإِدْعَاءِ الْمُرْتَضَى نَطَقْتُ * لَنَا الرِّعَايَا، أَجَابَ الْكَوْنُ آمِينًا !
اللَّهُ حَافِظُنَا، اللَّهُ نَاصِرُنَا، * مَنْ ذَا يُعَانِدُنَا ؟ مَنْ ذَا يُقَاوِنُنَا ؟

والله الموفق بفضلته العليم ، والهادى إلى الصراط المستقيم ؛ بمنته وكرمه ، وجوده
ونعمه ، إن شاء الله تعالى .

كتب فى ... من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة^(١) .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشام إلى الديار المصرية ونزح هو
دمشق وحرّقها ، ثم انتقل عنها ، وتردّدت رسله بطلب أطلمش : أحد أمرائه الذى
كان قد أسرى فى أيام السلطان الملك الظاهر ”برقوق“ .

وفى هذه الحالة كان يُكْتَب له فى قطع الثلثين ، والعنوان بقلم جليل الثُلُث بحلّ
الذهب سطران ، مضمونهما « المقام الشريف العالى ، الكبيرى ، العالمى ،
العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ، الملجئى ، الملاذى ، الوالدى القطبى ، نُصْرَةُ الدِّين ،
مَلْجَأُ الْقَاصِدِينَ ، مَلَأُ الْعَائِدِينَ ، قَطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، دَامَتْ مَعْدِنَتُهُ تَيَمُّورُ كُورِ
كَان » . والبسملة فى أول الوصل الرابع ، والخُطْبَةُ جميعها بالذهب ، وكذلك البَعْدِيَّة وما
يتعلّق بالمكتوب إليه على عادة القانات ، والعلامة بيجليل الثُلُث بحلّ الذهب بالهامش
ماصورته : « المشتاق فرج بن برقوق » إلا أنه اختلف مكانها فى المكاتبات على
ماسياتى ذكره . إلا أن افتتاح المكتبة إليه فى هذه الحالة كان على ضريين بحسب
ما اقتضاه الحال .

(١) هنا آخر ما أضيف إلى الأصل من بعضهم .

الضرب الأول

(الافتتاح بـ «أما بعد» وذلك عند أول عقد الصلح)

وهذه نسخة مكاتبة كتبت إليه جواباً عما ورد منه بطلب أطلمش المذكور والتماس الصلح. جهزت صحيفة الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قاني بيه صحيفة رسوله خواجه مسعود الكججاني رسوله الوارد بكتابه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة. وعلم له فيها في الهامش بين السطرين الثاني والثالث بقلم جليل الثلث بحل الذهب «المشتاق فرج بن برقوق» على ما تقدم ذكره؛ والورق قطع الثلثين وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل الأرواح أجناداً مجنّده، ووصل أسباب الرشد والفلاح بمن انتصح باب الإصلاح ولم يخلف موعده، وكفل لمن توكل عليه في أموره النجاح يومه وغده. والشهادة له بأنه الله القاهر فوق عباده بقدرته المؤيده، والصلوة والسلام على أشرف نبي طيب الله عنصره ومجتهده؛ وأصلح ببعض نسله الشريف بين فئتين عظيمتين بلغ كل منهما من الخير مقصده. وعلى آله الطاهرين، وذريته الظاهرين بالمصالح المرشدة، وأصحابه الذين كانت غالب قضاياهم صلحاً بين الناس ورسلهم بالاتفاق مرددة ومن عديم الشقاق غير مترددة؛ صلاة وسلاماً فصل بهما حبلى البتة بالأبوة المتجددة، ونحمد بهما نار الحرب المتوقدة.

فقد أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقام الشريف، العالي، الكبير، العالم، العادل، المؤيد، المظفر، الملجئ، الملاذئ، الوالدي، القطبي، نصرة الدين، ملجأ القاصدين، ملاذ العائدين، قطب الإسلام والمسلمين، تيمور كوركان، دامت معدته. تهدي إليه سلاماً تلى سوره وآياته، وشاءت توالى غدواته وروحاته

ولا 'نتأهى' غايته ؛ وتبدى لشريف علمه أن مفاوضته العالية [التى] وردت أولا وأخرى ، تضمنت رموزها باطنا وظاهرا ؛ تجهيز الأمير أطمش لزم المقام الشريف إلى حضرته العلية : لتتجسم مادة الحركات ، وتسكن القلوب والخواطر فى سائر الجهات ؛ ويحدد الملكان فى الصداقة والوفاء ، والمحبة والصفا ؛ على الصورة التى شرحها ، ويبين مناهجها ومفاتيحها ؛ خصوصا ما أشار إليه من أن لجواب الكتاب حقا لا يضيع ؛ فوقفنا عليها وقوف إجلال ، وقهمنما ما تضمنته على التفصيل والإجمال .

والذى نبذ به إلى علومه الشريفة أن سبب تأخير أطمش أنه لما قدم المقام الشريف إلى حدود الممالك الشامية ، وتوجهنا من الديار المصرية ؛ عرض لنا ما أوجب العود إليها سرعا ، وكان الحزم فيما فعلناه بمشيئة الله تعالى . ثم تحققنا من المفاوضة الواردة على يد سودون ، وسودون (؟) والنمر ، والحاج يسق أحد أمراء أخورية ، قسمه بالله الطالب الغالب ، المذكر المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت أنه إن جهز إليه أطمش المشار إليه ، رجع المقام الشريف إلى بلاده ، وأنه متوقع حضوره إليه بقارة ، أو سلبية ، أو حصص ، أو حماة . فأخذنا فى تجهيزه إلى حضرته الشريفة على أجمل ما يكون .

فبينما نحن على ذلك إذ وردت علينا الأخبار بما اتفق لدمشق وأهلها ؛ من أنواع العذاب وتحريب قلعها وديارها ؛ وإحراق جامعتها الذى هو الجامع الفرد فى الممالك الإسلامية ، وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد . فلما توارث هذه الأخبار ، وتحققت هذه المصائب ؛ لمحتنا من عدم ترحلكم عن دمشق وهى عامرة نقض ما تقدر ، وعدم آتفاتكم إلى الأمير أطمش المذكور وتجهيزه . فلما وردت مفاوضته الشريفة المجهزة إلى صاحب ماردين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلة على يد المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، الناسكى ، الحسبى ، النسبى ، الشرفى ، عبد المؤمن ، شيخ

الجبّال، آبن وليّ الله، إمام العارفين، عبد القادر الجيلاني، أعاد الله تعالى من بركاته :
والصدر الأجلّ نحر الدين التاجر السفّار، المؤرّخة بثاني عشر ذي القعدة الحرام
من سنة أربع وثمانمائة، المتضمنة وصول المقام الشريف إلى أرزئكان وكناخ
قاصدا للبلاد الرومية، والقصد فيها تجهيز الأمير أطمش وأن يفتح باب المصالحه،
ويُسلك طريق المصادقة، رعاية لصلاح الملكين، ونظرا إلى إصلاح ذات البين،
وأَنه لا مَطْمَع إلا في صحة المودة، وإرسال أطمش صحبة شخص من مقربى حضرته
الشريفة : لينظر ما يصدر بعد وُصولها من تمهيد قواعد المجاملة، وتشييد مباني
الحبة . وأنّ المقام الشريف - زِيدَتْ عَظَمَتُهُ - أقسم بالله الذي هو في السماء إله
وفي الأرض الله، أن يكون في هذه الحياة محبا لمن يُحبنا، مُبغضا لمن يُبغضنا، وأنا
تتلقظ بحضور الأمير أطمش كما تلقظتم . فعند ذلك اجتمعنا مع مولانا أمير المؤمنين،
المتوكل على الله، أدام الله تعالى أيامه، والشيخ الإمام الفرد، شيخ الإسلام سراج
الملّة والدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى من بركته - وقضاة القضاة ومشايخ العلم
والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرئت المفاوضة بحضورهم . فلما سمعوا
ما تضمنته من عظيم القسم، والحلف ببارئ النسم، وعلّموا أنّ جُلّ القصد فيها
تطلّع المقام الشريف إلى تجهيز الأمير أطمش المذكور، فأجتمعت الآراء على
إرساله إلى حضرته الشريفة صحبة من آقتضته الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك
المفاوضة من المقام الشريف - زِيدَتْ عَظَمَتُهُ - على يد شخص من أهل أرزمير -
مؤرّخة بثاني عشر شهر صفر المبارك سنة تاريخه، متضمنة ما حصل من النصر
على آبن عثمان، والظفر به، والاستيلاء على غالب قلاعه. وزُبدت الكلام فيها الإسراع
بتجهيز أطمش المذكور، ليجمع شملَه بأولاده بالحضرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

علينا مفاوضة شريفة على يد المجلس السامي ، الشيخ ، الكبير ، الأوحدي ،
 العارفي ، السالكي ، المقربي ، مسعود الكججاني ، رسول المقام الشريف . وصحبته
 المجلس السامي ، الشيخ ، الكبير ، العالبي ، الإمامي ، القدوي ،
 الشمسي ، شيخ القراء ، إمام أئمة الكبراء ، محمد بن الجزري ، أدام الله النفع به .
 مؤرخة بغرة ربيع الأول سنة تاريخه ، متضمنة معنى الكائين المهجرين من ماردين
 وأزمير . وجُل القصد فيها تجهيز الأمير أطمش لتحصّل طمأنينة قلوب العالمين ،
 وإخماد باب الفتن ، وأن العدة على المشافهة التي تجلّها الخواجا نظام الدين مسعود
 المشار إليه ، وأن قوله قول المقام الشريف . ومهما عقد الصلح عليه وآلتم به ،
 كان من رأى المقام الشريف وشوره ، لا يخرج عنه ولا يميل إلى غيره بقول
 ولا فعل . فلما أحضرناه وأصغينا إلى ما تجلّه من المشافهة ، فإذا هي مشتملة على
 خالص المحبة ، وأن يكون المقام الشريف والدنا عوضاً عن قدس الله تربة ، وأن
 تجهز الأمير أطمش إليه ، وتكون عمدتنا بعد الله عز وجل عليه ، فقابلنا ذلك بالقبول
 والاستبشار ، ونحونا آية ليل الجلاء ، وأثبتنا آية نهار الوفاء ، في الإعلان والإسرار ،
 وقبلنا أبوته الكريمة على مدى الأزمان وتوالي الأعصار ، وشاهد الخواجا مسعود حال
 أطمش ، وعلم أهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمدة اعتماداً على أليته السابقة ، ووئوفاً
 بما صرح به من الاتحاد والمصادقة ، وعقدنا الصلح مع الشيخ نظام الدين مسعود
 المذكور بطريق الوكالة الشرعية عن المقام الشريف ، وحققنا نظير ما حلف عليه ،
 بموافقة مولانا أمير المؤمنين - أدام الله أيامه - على ذلك بحضور من شيخ الإسلام ،
 وقضاة القضاة ، ومشايخ العلم والصلاح ، وأركان الدولة الكبار ، مع حضور
 الأمير أطمش ، لزم المقام الشريف ، وشهادة من يضع خطه على نسخ الصلح التي

(١) كذا في الأصل وهي غاية لأصل لها في اللغة بالمعنى المراد له إذ مراده المشورة كما لا يخفى .

كتبت ، وجهزنا منها نسختين مثنويتين إلى حضرة الشريفة قرين هذا الجواب الشريف ، لتحيط العلوم الشريفة بمضمونهما ، وبأحدهما خطنا الشريف لتخلد يَمِزَاتِهِ الشريفة ، والأُخْرَى يَسْمَلُهَا بِخَطِهِ الشريف وتُعَادُ إلَيْنَا حِجَبَةَ رَسُولِنَا : المجلس العالى الأميرى ، الصَّكِيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المقرَّبى ، الأعزَّى ، الأَخْصَى ، الأصبلى ، الشَّهابى ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقرَّبنا ومقرَّب والدنا الشهيد - أدام الله تعالى نعمته - وجهزنا حِجَبَتَهُ المجلس السابى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المقرَّب ، المرتضى ، الأَخْص ، الأَكَل ، سيف الدين ، قانى باى الخالصكى الناصرى ، أدام الله سعاده ، المتوجهين بهذا الجواب الشريف ، المهجزين صحبة الأمير أطلش ، وبقية قُصَادِ المقام الشريف ورُسلِهِ .

ومما نبديه لعلومه الشريفة أنه مما تضمنته المُلَخَّص الشريف المجهز عطف الكتاب الواصل على يد الشيخ مسعود الكججاني مضاعفة الوصية بأولاد الشيخ شمس الدين الجزرى ورعاية أحوالهم وتعلقاتهم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبول وقررنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله - وكفى به شهيدا - قد أخلصنا النية للمقام الشريف ، وهاهنا الله عز وجل فى التعاضد والتناصر والاجتهاد ، فى عمل المصالح للعباد والبلاذ ، وعدم التقاصر والعمل بما فيه بياض الوجه عند الله فى الدنيا والآخرة ، وإجراء الأمور على السداد . بتوفيق الله عز وجل ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم استقبل لسان الحال يُنْشِدُنَا :

* يَا أَوَّلَ الصُّفُوِّ هَذَا آخِرُ الْكَدْرِ *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالى يُدِيمُ عَوَارِفَهُ الْوَرِيفَهُ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

والمستند «حَسَبَ المرسوم الشريف» .

الضرب الثاني

(ما صار إليه الأمر بعد وصول أطامش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوان سطران بقلم الثلث بماء الذهب ماصورته :

«المقام الشريف، العالى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، المظفرى،
الملجئى، الملائى، الوالى، القطبى، نصره الدين، ملجأ القاصدين، ملاذ
العائدين، قطب الإسلام والمسلمين؛ يَمُور كوركـان - زيدت عظمتـه - .

والطرة ثلاثة أوصال، والبسملة الشريفة فى أول الوصل الرابع . ثم « الحمد لله »
وتمة الخطبة بالذهب، وبيت العلامة عرض أربعة أصابع مضمومة، وما يليها
من الأسطر سعة ثلاثة أصابع، والعلامة الشريفة بين السطر العاشر والحادى عشر
من سطور الكتابة، موافقا لآتهاء الخطبة عند « أما بعد فقد صدرت هذه
المفاوضة ». والعلامة الشريفة بجليل الثلث بماء الذهب « المشتاق فرج بن برقوق » .
وهامش الكتاب أربعة أصابع مطبوعة، والخطبة وما يليها من البعدية وألقاب المقام
القطبى المركبة والمفردة الجميع بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمد لله الذى شيد قواعد الإصلاح، ومهد مواطن الرشد والتجاح؛ وجعل أذان
المؤمن ينجيب داعى الفلاح .

نحمده على أن أَلَفَ بين القلوب بلطف الارتياح، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له إله زَمَ نفوس المؤمنين بحبل التقوى من حية الجماح؛ ونشهد
أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى وَضَعَ من نور رسالته فجر الإيمان ولأح، ونفع

من نور معجزاته زهر الدين الحنفي وفاح ؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين شذوا
ظهور كلهم من الصنق بأقن وشاح ، وعلى صحابته الذين بنوا من عهدهم (٩) بفقيههم
في الدين الواجب والمندوب والمحذور والمباح ؛ وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد ، فقد صدرت هذه المفاوضة إلى المقام الشريف ، العالى ، الكيرى ،
العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ، الملجئى ، الملاذى ، والوالدى ، القبطى ،
نصرة الدين ، ملجأ القاصدين ، ملاذ العائدين ، قطب الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يُوقُ الخَلْقَ طُرّاً هَيْبَةً * فِيهِ نِهَايُهُ غَايَةُ التَّائِيلِ !

تيمور كوركان — زِيدَتْ عَظَمَتُهُ ، وَدَامَتْ مَعْدِنَتُهُ ؛ وَلَا زَالَتْ رَايَاتُ نَصْرِهِ
خَافِقَةُ البُنُودِ ؛ وَأَيَّاتُ فَضْلِهِ مَتَلَوَّةٌ فِي التَّهَامِ وَالنُّجُودِ ؛ وَتُحِبُّ فُضَائِلَهُ هَامِيَةً بِالْكَرَمِ
وَالْجُودِ ، وَمَهَابُهُ سَطَوْتُهُ تَمَلُّ الْوُجُودِ — تُهْدَى إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ مَاحِلًا فِي حَالَتِي
الشُّكُورِ وَالْوَرُودِ ، وَمِنَ الْإِخْلَاصِ مَا صَفَا وَضَعَتْ مِنْهُ الْبُرُودِ .

وتبدي لعلمه الشريف أن مفاوضته الشريفة وردت علينا جواباً عما كتبناه
إلى حضرته الشريفة ، على يد المجلس العالى الأميرى الشهابى ، أحمد بن غلبك
وسيف الدين ، قانى بيه الناصرى ، المجهزين بحجة المجلس العالى ، الأميرى ،
الجلالى أطمش ، لزم المقام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطمش
إلى حضرته الشريفة طيباً ، مبدياً بين يديه ماحملناه من رسائل الأشواق ، مبيتاً ماهو
اللائق بخلاله الحسنة عن حضرتنا مادّيج به الأوراق ؛ شاكرًا لإنعاماتنا التى هى
في الحقيقة من شيم فضلك الخفاق ، مبيتاً منه ومن نقوى الخطاب في نظم الكتاب
صدق المقال وصحة العهد ورسوخ الميثاق ؛ وأنه قد ثبت بما بث من غرائب المعانى
حصول الأمانى ، وسرى بعد ما يكون من هدايا التهانى ؛ وأن الذى آتفق الآن هو

المطلوب ، والمكتوب به إلى والدنا الشهيد الطاهر أولاً هو المرغوب ؛ وخلافه كان موجباً لنقل الحركات الشريفة إلى جهة البلاد ، وما اتفق فيه للعباد ؛ ولكن كل قضاء وقدر . ولما حصل قبول الإشارة بتجهيز الرسل والأمير أطمش ، صارت القلوب متفقه ، والعيون قازة ؛ وصفت موارد الصفاء ، وضفت برود الوفاء ؛ وقطعت جبال المنافاة والجفاء . وأن المقام الشريف كان أقسم في كتبه قسماً وأعاده ، ثم فصل مجله وأفاده ؛ وهو - والله الطالب الغالب ، المدرِك المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت - من يومه هذا لا يخالف ما صدر من عقد الصلح المسطور ، ولا يرجع عن حكمه للعهد المزبور ؛ ويحب من يحبنا ويغض من يغضنا ؛ ويكون سلماً لمسلمينا ، حرباً لمحاربينا ؛ ومتى استنصرنا به على أحد من مخالفينا أمدنا بما شئنا من العساكر ، وإنه أمر ماناله أحد من الناس غيرنا ، وإنه لو كان القسم على الوجه الذى ذكره مصرحاً مذكوراً فى لفظ الكتاب ، وعبارة الخطاب ؛ لكان أوضح ، والتبيين ألمح ؛ وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورة لمالكننا أحد من المفسدين يجهزه إلينا مقيداً . وحيث كان أحد من المفسدين بمالكننا المجاورة لمالكنه يعزفنا به لتجهزه إليه : لاتفاق الكلمتين ، واتحاد المملكتين ، وطمانينة قلوب الرعايا والسالكين من الجهتين ؛ وما تفضل به : من سؤال المقام الشريف الله عز وجل زيادة أسباب دولتنا ، ونمو إيلائنا ؛ وأب الهلال إذا رأيت نموه ، أيقنت أن سيصير بديراً كاملاً . وأنا سئى ما يصنعه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تلافى الأمور ، ما يظهر للخاصة والجمهور ، مما يزيد بديراً نمواً ، وقدرنا بين الملوك شموماً ؛ لأنه لنا أكفى كفى ، وأشق من الوالد والصاحب والخليل ؛ وإن من علامة الصفا ، إظهار ما خفى : وهو أن فى أطراف ممالكنا الآن بلاداً كانت داخلة فى ممالكه ، وهى أبلسين ، وملطية ، وكركر ، ونكنا ، وقلعة الروم ، والبيدة ؛ وأنه

كان حُمل معناها على لسان المجلس السامي، النظامي، مسعود الكنجاني أولاً، المهجّر الآن محبة الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه، وأن القصد أن نأمر من بها من الثواب أن تسلمها لتوابه، والمعول في انتظام الأمور على ما تحمله المشار إليه وعول عليه؛ وأنه شاكر لمراقبنا، موافق لموافقنا؛ وأنه يصنع إلى ما نبديه، ونُخف به ونُهديه؛ على الصورة التي أبداه، والتحية التي بكريم الشيم أبداه؛ فقد علمنا ذلك جملة وتفصيلاً، وشكرنا حسن صنيعه إقامةً ورحيلاً؛ وتضاعف سرورنا بوصول الأمير أطمش إلى الحضرة الشريفة. ووصل إلينا الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه مرّتين من ذكر محاسنكم ترتيباً، وعرضاً ما نفضلتم به في حقنا إكراماً وتوقيراً وتجيلاً؛ وأنهيّا بين أيدينا مأموماً به من الفضل الذي ماله من مزيد، والبر الذي تعجز الفصحاء أن تبدئ بعض محاسنه أو تُعيد؛ وأنهما كانا كل يوم من توفر الفضل في يوم عيد، وحصل لهما من الإقبال مالا يُحصى بالحصر والتحديد؛ لحمدنا لقيام الشريف الوالديّ حسن هذا الفضل العام، وشكرنا بحيل تفضله الذي أنجلم الغمام؛ وتزايد شوقنا وحبنا حيث زُمِرت ألفاظُ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام.

لَسْ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ * أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ!

وهذا هو اللاحق بالحلّال الشريفه، والمؤمل في جلال صفاته الزئيفه؛ ووصل الخواجا نظام الدين صاحبهما مبدياً عن جنابكم من رسائل المحبة والصفاء، والمودة والوفاء؛ ما يعجز عن وصفه الناظم والنائر، مُظهرًا من حسن المودة وغير المعرفة ما يفخر به الموالى والمؤثر؛ سالكاً من تأكيد أسباب الصلح ما يتجمل به مفارقة المفانر، معتذراً عما تقدّم فما قدّر ربّما يكون سبباً لإصلاح الآخر؛ متكفلاً عن صفاء طويّتك لنا بما يسرّ السرائر. فضاعفنا إكرامه، ورادفنا إنعامه، ووقرنا من العزّ

أقسامه ؛ وأزلناه منزلاً يليق به ، ووصلنا كل خير بسببه ؛ وما هو إلا مستحق لكل ما يُراد به من فيض فضل وفضل .

وأما ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيداً للصلح ، وتوضيحاً للنسج ؛ ولو كان القسم الذى أقسمنا به مصرحاً لكان أولى ، فقد علمنا ذلك وكتبنا ألفاظ القسم فى كتاب الصلح مصرحةً ، وأعدناه إلى حضرته ليقرأ على مسامحة الشريعة ؛ ويسمّله الخطب الشريف ويُعاد إلينا ، ونحن نكرر القسم ، بيارئ القسم ؛ الذى لا إله إلا هو ، الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الحى الذى لا ينسى ولا يموت ، أنا من يومنا هذا لا نخالف ما أنظم من عقد الصلح المسطور ، إلى يوم البعث والنشور ؛ ولا نُحِلُّ عُراه الوثيقة المشار إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ونكون حرباً لمن حاربه ، ومسلماً لمن سالمه ؛ ومُبغِضين لمُبغِضيه ، ومُحِبِّين لمُحِبِّيه ؛ ومن أشار بإشاره ، أو شنَّ على أحد من [رعاياه] غاره ؛ رادقنا إسعافه وضاعفنا أسنطهااره ؛ وأخلصنا القول والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بجمد الله قد تم وكل ، فىكون ذلك فى شريف علمه .

وأما ما أشار إليه من أمر القرى التى قصد تسليمها لنوابه ، وأنها داخله فى حدود مملكته : كابلستين ، وملطية ، وكركر ، ونكنا ، وقلعة الروم ، والبيرة ، فقد علمنا ذلك . ونحن نُبْدِى إلى علومه الشريعة أن هذه البلاد لا يحصل لنا منها نجاج ، ولا ينال ملكنا وتوابعنا منها فى كل وقت إلا الانزعاج ؛ وإذا جهزنا إليها أحداً من النواب ، تتكفل له غالباً بالخيول والرجال والركاب ؛ وبضواحيها من سراق الترمجان ، وقطاع الطريق من العُربان ؛ ما لا يتخفى عن مقامه . ولو كانت دِمَشْقُ أو حلب ، أو أكبر من ذلك بماله (٩) عن الطلب ؛ ما توقفتنا فيها عن قبول إشارته لتأكيد المحبة ، واتحاد الكلمتين من الجانبين فى أعلى رُتبته ؛ غير أن تسليمها من الوهن لمملكنا منافاة لما

تفضل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة سُلْطَنَتنا ، خصوصاً وقد وعدَ المقام الشريف الوالدئ بما سنرى ، وسوف تظهر نتيجه مما يتفضل به بين الوري ؛ وأن الذي سمح لنا به من الاستظهار ماإناله أحد من الناس ، وما حصل لنا بما أبداه الخواجا مسعود بين أمراء دولتنا من المشافهة عن مقامه الشريف من قوة الجاش والإيناس ؛ ونحس ترقب بئس حركاته ، وسديد إشاراته ؛ زيادة الخير في النفس والمُلك والمال ، وتوقع من جميل كَفَالته السعادة الأبدية في الحال والمآل ؛ فيكون ذلك في شريف علمه .

وقد جهّزنا بهذه المفاوضة المجلس العالي ، الأميرئ ، الكبيرئ ، الأعزئ ، الأخصئ ، المقرئ ، المؤتمئ ، الأوحدئ ، النصيرئ ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الخواص في العالمين ، منتخب الملوك والسلاطين ، منكلي بقا الناصري أميز حاجب ، أدام الله تعالى سعده ، وأمنح قصده ؛ وطل يده من الهدية المصرية ماثياً تجهيزه بمقتضى القائمة الملتصقة بذيلها ، وأعدنا المجلس العالي النظامئ : مسعوداً ومن معه إلى المقام الشريف ، متحملين من رسائل الأشواق والإعجاب ، مالا يقع عليه الحصر والتعداد ؛ وما أخرنا الخواجا نظام الدين مسعوداً هذه المدة الباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضية السلطان أحمد بن أويس ، وهربه من بغداد إلى حلب ، وجهّزنا من الباب الشريف من يُخيطره إلى دمشق ليحصل منه الأرب ؛ ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من كافل الشام المحروس ، بوصول قرأ يوسف بن قرأ محمد إلى دمشق في نقر قليل . فجهّزنا أحد الأمراء إلى كافل الشام بمنال شريف ، يتضمن القبض على السلطان أحمد بن أويس وقرأ يوسف المذكورين ، وإيداعهما الاعتقال بقلعة دمشق المحروسة ، وفاء

للعهد وتأكيده . وحملنا الأمير سيف الدين منكلى بفا المذكور، مشافهةً في معناهما .
والقصدُ من جميل محبته ، وجزيل أثوته ؛ قبولُ المجهز من ذلك ، وبسطُ العذر فيه
إذا وصل إلى حضرته هنالك : لأن الديار المصرية وأعمالها حل بها من المحل لعدم
طلوع النيل في هذه السنة مالا يُحصَر ولا يَحصى ، ولا سَمِعَ بمثله . وشمولُ نسخة الصلح
المعادة بالخط الشريف ، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلى بفا بالبرِّ الوريث ؛
والإصغاءُ إلى ما تمجَّله من المشافهة في معنى أحمد بن أُويس وقرأ يوسف ، والله تعالى
يشيِّد بتمهيدهِ قواعد الدين الحنيف ، بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

الثالث

(من ملوك توران من بنى جنكركخان القان الكبير، صاحب التخت،

وهو صاحب الصين والخطا)

قال في "التعريف" : وهو أكبر الثلاثة ، ووارثُ تخت جنكركخان . قال : ولم يكن
يكتبُ لترفعه وإبائه ، وطيرانه بسُمتة آبائه ؛ ثم تواترت [الآن] الأخبارُ بأنه قد أسلم
ودان دين الإسلام ، ورقم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام . قال : وإن صحَّ ذلك
— وهو المؤمل — فقد ملأت الأمة المحمدية الخائفين ، وعمت المشرق والمغرب ،
وأمتدت بين صفتي المحيط . ثم قال : فإنَّ صحَّ إسلامه وقُدِّرت المكتبةُ إليه ، تكون
المكتبةُ إليه كالمكتبة إلى صاحب إيران ومن في معناه من سائر القانات المقدم
ذكرهم ، أو أجل من ذلك .

قلت : ولم يتعرض إلى المكاتبه إليه على تقدير بقاءه على الكفر، ويشبه أن تكون
المكاتبه إليه على ذلك وشدة سطوته، فيعطى من قطع الورق بقدر رتبته . ثم يجوز
أن تبدأ المكاتبه إليه كصاحب القسطنطينية ومن في معناه ، مع مراعاة معتقده
في ديانتته بالنسبة إلى ^(١) كما يرعى مثل ذلك في المكاتبه إلى ملوك النصرانية،
والوقوف في الخطاب وما يخفى في سلوكه عند الحد اللائق به . والأمر في ذلك
موكول إلى اجتهاد الكاتب ونظيره .

المهييع الثالث

(في المكاتبات إلى من يميز العرب مما هو خارج عن مضافات
الديار المصرية، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فزقان)

الفرقة الأولى

(أئمة الزيدية)

قال المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : وهو من بقايا الحسينيين
القائمين بأمر الشط من بلاد طبرستان، وقد كان سلفهم جاذب الدولة العباسية
حتى كاد يطيح رداها، ويُسَمَّى بها أعداءها. وهذه البقية الآن بصنعاء وبلاد
حَضْرَمَوْت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآن فيهم في بني المُطَهَّر،
وتتقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن أول من قام من هذه
الأئمة باليمن الإمام (يحيى الهادي) بن الحسين الزاهد، بن أبي محمد القاسم الرضى،

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله الثروت والأقارب كما يعلم مما تقدم .

أبن إبراهيم طباطبَا، بن إسماعيل الدياج ، بن إبراهيم الغمر ، بن الحسن الثنى^(١) ،
 أبن الحسن السبط ، أبن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، فى سنة
 ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتضد^(٢)] ؛ وأنه كان ققيها عالما مجتهدا فى الأحكام ،
 حتى قال فيه أبن حزم : إنه لم يبعد عن الجماعة فى الفقه كل البعد . ثم [ولى
 بعده أبنه محمد المرتضى] وتنت له البيعة فاضطرب الناس عليه وأضطرب إلى تجريد
 السيف بفردة ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنة من
 ولايته [ولى بعده أخوه (أحمد الناصر) ثم أخوه (القاسم المختار) ثم (الحسين^(٣)
 المنتجب) . وأطرد أمرهم بصنعاء إلى أن ظب عليهم السليمانيون أمراء مكة عند
 خروجهم منها ، فاستقرت بأيديهم إلى أن ملك اليمن من جهة الساحل (أحمد الموطى)
 أبن الحسين المنتجب المقدم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام أبن أيوب سنة
 خمس وأربعين وستائة . وبقي أمر الزيدية هناك فى عقبه .

وقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية
 أبن قلاوون كانت فى (حمزة) وذكر فى " مسالك الأبصار " أن يحيى بن حمزة ولى بعد
 أبيه ، وكان فى زمن المؤيد داود بن يوسف صاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة
 أبن خلدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعائة كان (على بن محمد) من أعقابهم ، وتوفى
 قبل الثمانين . وولى أبنه (صلاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم ينكر إمامته لعدم

(١) ذكره فى مقدم فى ج ٥ ص ٤٧ " عبدالله " . وقد نهنا هناك قلاعن " الكامل لابن الأثير " أنه إبراهيم كا هنا ، قلينبه .

(٢) فى الأصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هذه الدولة فى ج ٥ ص ٤٧ وما يلها فارجع إليه .

(٣) الزيادة من ج ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر آين يحيى الزاهد لا أخوه .

(٤) أخره فى مقدم عما بعده .

استكمال الشروط فيه فيقول : "أنا لكم ماشتم إمام أو سلطان" . ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده ابنه (نجاح) فامتنع الزيدية من بيعته فقال : أنا "محتسب لله تعالى" . قال في التعريف : "وأمرأء مكة تُسر طاعته ، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرسول باليمن مهادات ، ومفاتيحات تارة وتارة" . قال : وهذا الإمام وكل من كان قبله على طريقة ماغيروها . وهي إمارة أعرابية لا كبر في صدورها ، ولا تنم في عرائنها ؛ وهم على مسكة من التقوى ، وترد بشعار الزهد ؛ يجلس في ندى قومه كواحد منهم ، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم ، سواء عنده المشروف والشريف ، والقوى والضعيف ؛ وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى في أسواق بلده ، لا يُغلظ الحجاب ، ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغت من غير توسع ، ولا تكثر غير مشبع ؛ هكذا هو وكل من سلف قبله مع علي شامل ، وفضل كامل . قال : في "مسالك الأبصار" : وليشعة هذا الإمام فيه حسن الاعتقاد ، حتى إنهم يستشفون بدعائه ، ويمرون يده على مرضاهم ، ويستشفون به المطر إذا أجذبوا ، ويألفون في ذلك كل المبالغة . ثم قال : ولا يكبر لإمام هذه سيرته - في التواضع لله ، وحسن المعاملة خلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر والعنصر الطيب - أن يُحجب دعاؤه ويُقبل منه . قال : وزى هذا الإمام وأتباعه زى العرب في لباسهم والعمامة والحناك ، ويُنادى عندهم بالأذان «حى على خير العمل» .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : آدم الله تعالى أو ضاعف الله تعالى نعمة ، أو جلال الجانب الكريم ، العالى ، السيدى ، الإمامى ، الشريفى ، النسيبى ، الحسينى ، العلوى ، سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأئمة ، بقية البيت النبوى ، نفي النسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلّاء ،

صالح الأولياء، عَلم الهداة، زعيم المؤمنين، ذُخر المسلمين، مُتجِد الملوك والسلاطين .
ولا زَالَ زمانُهُ مُرَبِّعاً، وَغِيْلُهُ مُسْبِعاً، وَقِرَاهُ مُشْبِعاً، وَكُرْمُهُ لَقِيضُ نَدَاهُ مَنْبَعاً، وَهُدَاهُ
حَيْثُ أُمُّ الْبُصْفُوفِ مَتْبَعاً، وَمُلْكُهُ الْجَمِيعُ بِالْيَمَنِ لَوْ أَدْرَكَهُ سَيْفُ بَنِي ذِي يَزَنَ لَمْ يَكُنْ
إِلَّا لَدَيْهِ مَتَّضِيٌّ وَتَبِعٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا تَبْعاً . وَلَا تَنَكَّتْ مَعَاقِدُ شَرْفِهِ بِالْجُوزَاءِ، وَعَقَائِدُ
حُبِّهِ تَعْدُ لِحَسَنِ الْجَزَاءِ، وَمَعَاهِدُ وَطَنِهِ أَهْلَةً بِكَثْرَةِ الْأَصْرَاءِ، وَمِيَاسِمُ أَهْلِ وَلَانِهِ تَعزُّ
إِلَيْهِ بِالْأَلِيعَاءِ، وَمِيَاسِمُ نَفُورِ أَوْدَانِهِ ضَاكِكَةٌ السُّيُوفِ فِي وَجُوهِ الْأَرْزَاءِ؛ هَذِهِ النُّجُوى
إِلَى رَوْضِهِ الْمُتَرَعِّعِ، وَإِلَّا فَمَا تُزِمُّ الرَّاكِبُ، وَإِلَى حَوْضِهِ الْمُتَرَعِّعِ، وَإِلَّا فَمَا الْحَاجَةُ إِلَى
السَّحَابِ؛ وَإِلَى حِمَاةِ الْمُخَصَّبِ، وَإِلَّا فَنِيمُ يَسْرَى الرَّائِدِ، وَإِلَى مَرَمَاهِ الْمُطَنَّبِ فَوْقَ
السَّمَاءِ، وَإِلَّا إِلَى أَيْنَ يُرِيدُ الصَّاعِدُ؛ تَسْرَى وَلَهَا مِنْ هَادِي وَجْهِهِ دَلِيلٌ، وَفِي نَادِي
كَرَمِهِ مَقِيلٌ، وَإِلَى بَادِي حَرَمِهِ وَمَا فِيهِ لِلْعَاكِفِ، وَإِلَى عَالِي ضَرَمِهِ مَا لَا يَنْكَرُهُ الْعَارِفُ،
وَفِي آثَارِ قَدَمِهِ مَا يَحْكُمُ بِهِ كُلُّ عَائِفٍ؛ وَفِي بَدَارِ خِدْمَتِهِ مَا يَذَرُّ عِدَاهُ كَرَامٍ اشْتَدَّتْ
بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . مَبْدِيَّةٌ وَأَوَّلٌ مَا تَبْدَأُ بِسَلَامٍ تُقَدِّمُهُ عَلَى قَوْلِ كَيْتٍ وَكَيْتٍ،
وَتَنَاءٍ وَلَا مَثَلُ قَوْلِهِ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ .



صدر آخر— وَلَا عُطْلُ مُحَرَّابٍ هُوَ إِمَامُهُ، وَلَا بَطْلُ عَمَلٍ هُوَ تِمَامُهُ، وَلَا جَفَّ
تَرَى نَبَاتٍ هُوَ غَنَامُهُ، وَلَا خَفَّ وَقَارُ أَمْرِي بِيَدِهِ الْمَصْرِفَةِ زَمَانُهُ، وَلَا أَرْتَدَّ مَضْرِبُ
سَيْفِ رُءُوسِ أَعَادِيهِ كَيْفَامُهُ؛ وَلَا أَرْتَأَى فِي حَصُولِ الْخَلِيدَةِ لَهُ مَنْ كَانَتْ إِلَى كَتِفِهِ
أَنْضَامُهُ . وَأَطَالَ اللَّهُ بَاعَ طَلَبِهِ، وَأَطَابَ بَأَنْبَاءَهُ سَمَاعَ أَوْلِيَائِهِ، وَأَدَامَ إِجْمَاعَ الشُّرُورِ
عَلَيْهِ، وَمُصَافَاتِهِ لِأَصْفِيَائِهِ وَتَرَامِيهِ إِلَيْهِ . صَدَرَتْ بِهَا الرَّاكِبُ إِلَيْهِ مُخَفِّةٌ، وَسَرَتْ

بها التجائب لتقف عليه والقلوب بها تحفه ، وأهوت لديه يشمخ بها لوضوحها
إليه الكبر ، وطوت إليه اليد طي الشقة تقيسها المطايا بالأذرع والثريا بالشبر ؛
تأتي بالعجب إذ تجلب إليه المسك الأذفر ، وتجلوه الصباح وما لاح والليل وما
أسفر ؛ وتحل في مقر إمامته ، وتحل العاقل بما نثره من الطل صوب غمامته ؛
موصلة لعلمه مالا يقطع ، ومضوعة عنده من عبر الشجر ما يستبضع ، ومعلمة له
كيت وكيت .

قلت : هذا ما أصله في "التعريف" وحاصله أنه يأتي بالصذر المقدم ذكره
إلى قوله : « منجد الملوك والسلاطين » ، ثم يأتي بالدعاء المناسب ؛ ثم يقول :
« هذه التجوى » إلى آخره « مبدية لعلمه » أو « معلمة » أو « صدرت بها الركائب »
ونحو ذلك .

ثم لم يتعرض في "التعريف" لقطع الورق الذي يكتب إليه فيه ، ولا للعلامة
له ، ولا لعنوان كتابه ، ولا لتعريفه ، ونبه على ذلك في "التتيف" ، وأنه أهمل ذلك
ثم لم ينبّه هو عليه . وقد رأيت في دستور منسوب للقر العلاءي بن فضل الله بيان
مأمله من ذلك فقال : والخطاب له بمولانا الإمام ، والطلب منه « والمسئول »
وختم الكتاب بالإتهاء ، والعنوان بالألقاب والدعاء المقدم ذكره ، والعلامة
« الخادم » .

وقد ذكر في "التعريف" أنه وصل إلى الديار المصرية ، في الأيام الناصرية « محمد بن
قلاوون » سقى الله عهده رسولاً من هذا الإمام [ابن مطهر إمام الزيدية ^(٢)] من صنعاء ،
بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطال فيه الشكوى من صاحب ابن ، وعدد قبائحه ،

(١) لعله محقة فانه ليس في كتب اللغة التي بأيدينا أحف به ولكن حف به واحف فنبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

وَنَشَرَ عَلَى عُيُونِ النَّاسِ فُضَائِحَهُ ؛ وَأَسْتَنْصَرَ بِمَدَدٍ يَأْتِي تَحْتَ الْأَعْلَامِ الْمَنْصُورَةِ لِإِجْلَالِهِ
عَنْ دِيَارِهِ ؛ وَإِجْرَائِهِ مُجْرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي تَعْجِيلِ دَمَارِهِ ؛ وَقَالَ : إِنَّهُ إِذَا حَضَرَتْ
الْجِيُوشُ الْمُؤَيَّدَةُ قَامَ مَعَهَا ، وَقَادَ إِلَيْهَا الْأَشْرَافُ وَالْعَرَبُ أَجْمَعًا ؛ ثُمَّ إِذَا أَسْتَنْقَذَ مِنْهُ
مَا بِيَدِهِ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِبَعْضِهِ ، وَأَعْطَى مِنْهُ مَا هُوَ إِلَى جَانِبِ أَرْضِهِ . ثُمَّ قَالَ : فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ
مُؤَدَّنًا بِالْإِجَابَةِ ، مُؤَدِّيًا إِلَيْهِ مَا يَقْتَضِي إِعْجَابَهُ ؛ وَضَمَنْتُ الْجَوَابَ أَنَّهُ لَا رَغْبَةَ ^(١) [لَنَا]
فِي السَّلْبِ ، وَأَنَّ النُّصْرَةَ تَكُونُ لِلَّهِ خَالِصَةً وَلَهُ كُلُّ الْبِلَادِ لَا قُدْرَ مَا طَلَبَ .

وهذه نسخته :

ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَالَ الْجَانِبِ - بِالْأَلْقَابِ وَالنَّمُوتِ - وَأَعَزَّ جَانِبَهُ عِزًّا تُعَدُّ
فَوَاضِلُهُ بِنَوَاصِي الْخَلِيلِ ، وَصِيَاصِي الْمَعَاقِلِ الَّتِي لَمْ يُطْلَعْ عَلَى مِثْلِهَا سُهَيْلٌ ؛ وَأَفَاقِصِي
الشَّرَفِ الَّذِي طَلَعَ مِنْهُ فِي الطُّوقِ وَتَمَسَّكَ سِوَاهُ بِالذَّيْلِ ؛ وَقَدَّمَهُ لِلتَّقِيَيْنِ إِمَامًا ، وَجَعَلَهُ
لِلْمُسْتَقِيَيْنِ عِمَامًا ، وَشَرَفَهُ عَلَى الْمُرْتَقِيَيْنِ فِي صِلَا النِّسَبِ الْعَلَوِيِّ وَتَوَرُّهُ وَصُورِهِ تَمَامًا ،
وَمَنَّ عَلَى الْإِيْمَنِ بِمُنَسَّهِ ، وَأَعْلَمَ بِصَنْعَاءِ حُسْنِ صَنْيَعِهِ وَبِحَضْرَمَوْتِ ^(٢) [حُضُورِ] مَوْتِ
أَعْدَائِهِ ، وَبَعَدَنَ أَنَّهَا مُقَدَّمَةٌ لِحَنَاتِ عَدْنِهِ ؛ وَلَا زَالَتِ الْآفَاقُ تُؤْمَلُ مِنْ فَيْضِهِ سَحَابًا
دَانِيًا ، وَتَهَلَّلَ إِذَا شَامَتْ لَهُ بَرْقًا يَمَانِيَا ، وَتَنَقَّلَ فِي رُتَبِ سَحَابِهِ وَلَا تَبْلُغُ مِنَ الْمَجْدِ
مَا كَانَ بَانِيَا .

هذه التجويز وكفى بها فيما يقدم بين يديها ، ويُقَوِّمُ وَلَا يَقُومُ مِنْ كُلِّ غَالِي الثَّنِ مَا لَهَا ؛
تَطْوِي الْمَرَاحِلَ ، وَتَجُوبُ الْبَرَّ وَالْبَلَدَ الْمَاحِلَ ، وَتَنْبُ إِلَيْهِ الْبِحَارُ وَتَقْدِفُ مِنْهَا الْعَنْبَرِ إِلَى
السَّاحِلِ ؛ وَتُرَبِّي بِهِ سَفِينًا ، وَتَحْطُ إِلَيْهِ بِل تَحْطُ لَدَيْهِ مِنْهَا ، وَتُؤَدِّنُ عَلَيْهِ - سِرَاهُ -
بِمَا لَمْ يَحِلْ إِلَيْهِ مِنْ نَظَرٍ ، وَلَمْ يَحِلْ مِنْهُ مِنْ سَبَبِ أَلْفِ بِهِ النَّوْمُ أَوْ نَفَرٍ ؛ وَرُودِ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يَا بُشْرَى وَلَمْ يَقُلْ هَذَا غُلَامٌ ، وَوَصُولِهِ بِالسَّلَامَةِ وَالسَّلَام ؛ وَمَاتَصَحَّتهُ مَا اسْتَصَحَّبَ مِنْهُ مِنْ صَحِيفَةٍ كُلُّهَا كَرَمٌ ، وَأَخْبَارٍ صَحِيحَةٍ كُلُّهَا مِمَّا لَوْ قُذِفَ بِهِ الْمَاءُ لَأَضْطَرَمَّ ؛ ذَكَرَ فِيهَا أَمْرَ الْمُتَغَلَّبِ الْعَادِي ، [وَالصَّاحِبِ الَّذِي يَقَعْلُ فِعْلُ الْأَعَادِي] ^(١) ، وَالْجَارِ الَّذِي جَارَ وَالظَّالِمِ الْبَادِي ؛ وَمَا مَدَّ الْأَيْدِيَ إِلَيْهِ مِنَ النَّهَابِ ، وَمَا اخْتَطَفَ بِهِ الْقُلُوبَ مِنَ الْإِرْهَابِ ؛ وَتَحَدَّثَ عَنْ أَخْبَارِهِ وَعِنْدَنَا عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَعْمَالِهِ مِمَّا لَهُ أَجْرُ الصَّبْرِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ ظُلْمُهُ ؛ وَقَصَّ رَسُولُهُ الْقَصَصَ ، وَزَادَ الشَّجِيءُ وَضِيقَ مَجَالِ الْغُصَصِ ؛ وَأَطَارَ مِنْ وَكْرِ هَذَا الْعُدُونِ طَائِرًا كَأَنَّمَا كَانَ فِي صَدْرِهِ ، وَحَرَّكَ مِنْهُ لِأَمْرِ كَانَ يَقْجِرُ لَهُ كَأَنَّ صَبْرَهُ ؛ وَقَدْ أَسْمَعَ الدَّاعِي ، وَأَسْرَعَ السَّاعِي ، وَبَلَغَ الْأَمَانَةَ حَامِلُهَا ، وَأَوْصَلَ الْكَلِمَةَ قَائِلُهَا ؛ وَمَرَّجَبًا مَرَّجَبًا بِدَاعِي الْقِيَامِ مِنْ قِبَلِهِ ، وَأَهْلًا أَهْلًا بِمَا بَلَغَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ؛ وَهَلُمَّ هَلُمَّ إِلَى قَلْعِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَمْ يُحِبَّ ظَنُّ غَارِسِهَا ، وَقَطَعَ هَذِهِ الصُّخْرَةَ الَّتِي لَمْ تُتَّصَبْ إِلَّا مَرْتَلَقَةً لِدَائِسِهَا ؛ وَالتَّعَاوَضُ الدَّاعِي لَهَا تَهَفَّ بِهِ هَانِفُهُ الصَّارِخُ ، وَسَمِعَهُ حَتَّى الرِّيحُ الْأَصْمُ وَالسَّيْفُ الْمُتَصَاوِخُ ، فَلْيَاخُذْ لِهَذَا الْأَمْرِ الْأَهْبَةَ ، وَلْيَشُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَنْتِ الْوَثْبَةُ ؛ فَقَدْ سَطَّرَتْ وَقَدْ نَهَضَ إِلَى الْخِيلِ مُلْجِمُهَا ، وَبَادَرَ وَضَعَ السَّهَامِ فِي السَّكَّائِنِ مَرْجِحُهَا ؛ وَكَأَنَّهُ بَاوَلِ الْأَعْنَةِ ، وَأَذَانُ الْحَيَادِ تَفُوقُ بَيْنَ شَطْرِي وَجْهَهَا الْأَسِنَّةُ ؛ وَكَأَنَّهُ بِرَسُولِهِ الْقَائِدِ فِي أَعْقَابِهِ الْجَلِيشُ الْمُطَلُّ ، وَالْأَلْوِيَةُ وَكُلُّ بَطَلٍ بِاسِلٍ يَتَنَدَّرُ الْوَعْيُ وَلَا يَسْتَنْدِلُ ؛ وَلَا أَرْبَ لَنَا فِي اسْتِزَادَةِ بِلَادٍ وَسَّعَ اللَّهُ لَنَا نِظَاقَهَا ، وَكَثُرْنَا مَوَادِّ أَمْوَالِهَا وَقَدَّرَ عَلَى أَيْدِينَا إِنْفَاقَهَا ؛ وَإِنَّمَا الْقَضْدُ كُلُّهُ وَالْأَرْبُ جَمِيعُهُ كَشَفَتْ تِلْكَ الْكَرْبَ ، وَتَدَارَكُ [ذَلِكَ الدَّيْمَاءُ الَّذِي] ^(١) أَوْ شَكَ أَوْ كَرَبَ ، وَإِنْ قُدِّرَ فُتُوحٌ ، وَتَيْسَرَ مَا طَرَفَ سِوَانَا إِلَيْهِ طَمُوحٌ ؛ كَانَ هُوَ أَحَقُّ بِسَقِيهِ : لِأَنَّهُ جَارُ

(١) بياض بالأصل ، والصحيح من التعريف ص ١٧ .

(٢) في الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكافئ كما لا يخفى .

الدار، والأول الذى كان له الدار؛ ويقال له لعظيم شرفه ما تسمَح به وإن جَلَّ،
ومانبه منه وإن عظم - شأن كل تبع وهو ببعضه ما استقل، وكأنه والخليل قد وافقه
يُجِدُّ في الإحضار، وتُسرع إليه وتكفيه مشونة الانتظار؛ إن شاء الله تعالى .

الفرقة الثانية

(أولاد رسول)

وهم المعروفون بملوك اليمن عند الإطلاق، ومقر مملكتهم حصن تعز . ورسول
هذا الذى كان يُنسب إليه ملوك هذا النسب من اليمن هو رسول أمير أخور الملك
الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . قال فى "التعريف" : ولما بعث الملك
الكامل ولده الملك المسعود أطسز، وهو الذى تسميه العائمة أقسيس ، بعث معه
رسولاً أميراً خور فى جملة من بعثه معه . قال : ثم تنقلت الأحوال حتى استقل
رسول بملك اليمن، وصار الملك فى عقبه إلى الآن . والذى ذكره المؤيد صاحب
حماة، وقاضى القضاة ولي الدين بن خلدون فى تاريخيهما وهو الصواب أن أول
من ملك اليمن على بن رسول، ثم أبوه المنصور عمر، ثم أبوه المظفر يوسف، ثم أبوه
الأشرف عمر، ثم أخوه المؤيد هزبر الدين داود، ثم أبوه المجاهد سيف الدين على،
وهو الذى قال المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" : إنه كان فى زمنه ،
ثم المنصور أيوب، ثم المجاهد على المقدم ذكره ثانياً، ثم أبوه الأفضل سيف الدين
عباس . وهو الذى قال فى "التتيف" : إنه كان فى زمنه فى الدولة الأشرفية «شعبان
ابن حسين» ثم أبوه المنصور محمد ، ثم أخوه الأشرف إسماعيل، وهو الذى كان
فى الدولة الظاهرية برقوق . ثم أبوه [الملك الناصر أحمد^(١)] وهو القائم بها الآن .

(١) يباض بالأصل هنا وفى ج ٥ ص ٣٣ أيضاً عند الكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحیح
من بنية المستفيد لابن الديع .

وأعلم أنَّ المكتابات بينَ صاحب مصر وصاحب اليمن من حين استقرت مملكةُ
اليمن مع بني أيوب ملوك مصر وصارت الملكان كالمملكة الواحدة ، ثم تواصلت
المكتابات بين ملوكهما وتأكدت المودة إلى زماننا هذا ، خلا ما وقع في خلال ذلك
من حصول تباين وقع بين أهل المملكتين في بعض الأزمان ، وهو على ضربين :

الضرب الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الأيوبية ، وهو أن تُفتح

المكتابة بلفظ « أصدرناها »)

وهذه نسخة كتاب عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر
والشام ، إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يستقدمه إليه ، معاونا له على قتال
الفرنج ، ويخبره بما وقع له من الفتوحات في سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهي :

أصدرنا هذه المكتابة إلى المجلس ، ومما تجدد بحضورنا فتوح « كوكب » وهي كرمي
الإستبارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرم ، وكان
يجمع الطرق قاصدا ، وملتقى السبل راصدا ، فتعلقت بفتحه بلاد الفتح وأستوطنت ،
وسيلكت الطرق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ؛ ولم يبق في هذا الجانب
إلا « صور » ولولا أنَّ البحر يُعجزها والمراكب تردها ، لكان قيادها قد أمكن ،
وجماها قد أذن ؛ وما هم بمجد الله في حصن يحميهم ، بل في سجن يحويهم ؛ بل هم
أسارى وإن كانوا طلقاء ، وأموات وإن كانوا أحياء ؛ قال الله عز وجل :
(فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا) ولكل أمرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه ،
وأمل لا بد أن يكذبه خائبه .

وكان نزولنا على «كوكب» بعد أن فتحنا «صفد» بلاد الديورية ومعقلهم ،
 ومشتغلهم وعملهم وحلهم الأخصن ومترلم ؛ وبعد أن فتحنا «الرك»
 وحصونه ، والمجلس السيفى - أسماء الله - أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته
 المتغله ، وقضيته المشككة وعلته المعضله ؛ وأن القرىح - لعنهم الله - كانوا يقعدون
 منه مقاعد السمع ، ويتبوءون منه مواضع للنفع ؛ ويحولون بين قات (؟) وراكبها ،
 فيذللون الأرض بما كان منه ثقلا على مناكبها . والآن ماأمن بلاد الحرمين ، بأشد
 من بلاد الحرمين ؛ فكلها كان مشتركا فى نصرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُراعى
 ولا تُرام ، وتُسامى ولا تُسام ؛ وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأفقنا فيها
 أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن صحت النصال من النصال ؛ والله المشكور
 على ما أنطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام . وإن بلاد الشام اليوم
 لا تسمع فيها لغوا ولا تأثما إلا قِيلا سلاسا [فادخلوها بسلام] ؛ وكان نزولنا
 على «كوكب» والشاء فى كوكبه ، وقد طلع بين الأنواء فى موكبه ، والثلوج تنشر على
 البلاد ملاءها الفضيض ، وتكسو الجبال عمامها البيض ؛ والأودية قد عجت بمائها ،
 وفاضت عند أمثلها ؛ وشمخت أنوفها سُبولا ، ففرقت الأرض وبلغت الجبال
 طولا ؛ والأوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشي المطلق فيها مشية الأسير فى الحلقات ؛
 فتجسنا العناء نحن ورجال السّاكر ، وكاثرتا العدو والزمان وقد يُجز الحظ المكثّر ؛
 وعلم الله النية فأنجَدنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ؛ ونزلنا من رؤوس
 الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها أهون من
 ثقلها (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

والحمد لله الذى ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الإسلام الذى هو سيفه
وسيف الإسلام الذى هو أخونا الطيب على الخبيث ؛ فذبح السيف ينقسم على
حديه ، ومنح الكريم يتعدى إلى يديه ؛ والآن فالمجلس - أسماء الله - يعلم أن الفرنج
لا يسألون عما فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ؛ فإنهم - خذلهم الله - أم لا تحصى ،
وجيوش لأستقصى ؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غضبا ،
ويطمع في كل مدينة كسبا ؛ ويد الله فوق أيديهم ، والله محيط بأقربهم وأبعدهم ؛
(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) . (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) .

ومأثم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تفاوت . وإن لم يُقدفوا من كل
جانب دحورا ، ويُبعوا بكل شهاب ثاقب مدحورا ؛ آستأسدوا وآستكلبوا ، وآلجأوا
وجلبوا وأجلبوا ، وحاربوا وحرّبوا ؛ وكانوا لباطلهم الداحض ، أنصر منا لحقنا
الناهض ؛ وفي ضلالم الفايض ، أبصر منا هُدانا الواضح ؛ والله درّ جريح حيث يقول :
إِنَّ الْكِرِمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَمَ أَبْنَاهُ * وَأَبْرُ اللَّيْمَةِ لِلْكَامِ نَصُورُ !

فَالِدَارَ إِلَى النَّجْدَةِ الْبِدَارُ ! ، والمُسَارعة إلى الجنة فإنها لن تُنال إلا بليقاد نار
الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة ! فإن البحار لأتلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار
لأيقف في وجوهها إلا الملوك الكبار :

وما هي إلا نهضة ثورت العلاء * ليومك ما حنت رَوَازِمُ يَدُبُ !

ونحن في هذه السنة - إن شاء الله تعالى - نزل على أنطاكية ، ويترل ولدنا الملك
المظفر - أظفروه الله - على طرابلس ؛ ويستقر الرّكاب العادل - أعلاه الله - بمصر
فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تطرق ، وأنّ الطلب على الشام ومصر
تفرّق ؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماء الله - مجرأ في بلاد الساحل

يَزْنِرُ سِلَاحًا ، وَيَجْرُدُ سِيفًا يَكُونُ عَلَى مَافْتَحْنَاهُ قُفْلًا ، وَلَمَّا لَمْ يُفْتَحْ بَعْدُ مِفْتَاحًا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ
لِأَحَدٍ مِّنَ الْأَنْحِمْ مِنْ شُعْبَةٍ لَهَا فِي كُلِّ مَسْمَعٍ سَمْعُهُ ، وَفِي كُلِّ رُوحٍ رَوْعُهُ ؛ وَفِي كُلِّ
مَحْضَرٍ مَحْضَرٌ ، وَفِي كُلِّ مَسْجِدٍ مَنِيرٌ ، وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ مَحْبَرٌ ؛ فَمَا يُدْعَى الْعَظِيمُ إِلَّا لِلْعَظِيمِ ،
وَلَا يُرْجَى لِمَوْقِفِ الصَّبْرِ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرِيمُ ؛ وَالْأَقْدَارُ مَاضِيَةٌ ، وَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ جَارِيَةٌ ؛
فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَنْصُرْ عَلَى الْعَدُوِّ الْمُضْعَفِ ، بِالْعَدَدِ الْأَضْعَفِ ؛ وَيُوصِلُ إِلَى الْجَوْهَرِ
الْأَعْلَى ، بِالْعَرَضِ الْأَذْنَى ؛ فَإِنَّا لَا نَزْتَابُ أَنَّ اللَّهَ مَفْتَحَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْقُتُورَ لِيُغْلِقَهَا ،
وَلَا يَجْمَعُ عَلَيْنَا هَذِهِ الْأُمَّةَ لِيُفَرِّقَهَا ؛ وَأَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دَارِهِ بَطْرًا ،
وَدَخَلَ إِلَى دَارِنَا كَانَ فِيهَا جَزْرًا ؛ وَمَا بَقِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَمْوَالٌ تُسَاقَى إِلَى
نَاهِبِهَا ، وَرِقَابٌ تُقَادُ إِلَى ضَارِبِهَا ، وَأَسْلِحَةٌ تُحْمَلُ إِلَى كَاسِبِهَا ؛ وَإِنَّمَا تُؤَثِّرُ أَنْ لَاسْتَطَوَيْتَ
صَحَائِفَ الْحَمْدِ خَالِيَةً مِنْ أَسْمِهِ ، وَمَوَاقِفَ الرُّشْدِ خَاوِيَةً مِنْ عَزَمِهِ ؛ وَتُؤَثِّرُ أَنْ يُسَاهِمَ
آلُ أَيُّوبَ فِي مِيرَاسِهِمْ مِنْهُ مَوَاقِفَ الصَّبْرِ ، وَمَطَالِيعَ النُّصْرِ ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا
الْآخِرَةِ الْفَاحِشَةِ ، أَشَدُّ مَتَأْ حِرْصًا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا الدُّنْيَا الْفَاقِصَةِ ، وَإِنَّا لَا يُسْرُنَا
أَنْ يَنْقُضِيَ عُمْرَهُ فِي قِتَالِ غَيْرِ الْكَافِرِ ، وَيَزَالِ غَيْرُ الْكُفِّ الْمُنَاطِرِ ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ سَيْفَهُ
لَوْ اتَّصَلَ بِلسَانِ نَاطِقٍ وَقَمٌ ، لَقَالَ : مَا دُمْتُ هُنَاكَ فَلَسْتُ نَمُّ ؛ وَمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى خُطْئَةٍ
يُخَافُهَا ، وَلَا مُتَكَلِّفٍ قَضِيَّةٍ يُحْكَمُ بِعَاقِبَتِهَا ؛ وَالَّذِي بِيَدِهِ لَا تَسْتَكْبِرُهُ ، بَلْ تَسْتَفْرِصُهُ عَنْ
حَقِّهِ وَتَسْتَضْمِرُهُ ؛ وَمَا نَاولْنَاهُ لَفَتَحَ أَرْضَهُ السَّلَاحَ ، وَلَا أَعْرَنَاهُ لِمَلِكٍ مَرَكِزَهُ السَّجَاحَ ؛
إِلَّا عَلَى سَخَاءٍ مِنَ النَّفْسِ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ ، عَلَى عِلْمٍ مَّا أَنَّهُ لَا يَقَعُدُ عَنَّا إِذَا قَامَتْ [الْحَرْبُ]
بِنَفْسِهِ وَبِمَالِهِ ؛ فَلَا نَكُنْ بِهِ ظَنًّا أَحْسَنَ مِنْهُ فَعَلًا ، وَلَا نَرْضَى وَقَدْ جَعَلَنَا اللَّهُ أَهْلًا أَنْ لَا نَرَاهُ
لِنَنْصُرَ أَهْلًا ؛ وَلَيْسَتْ شِرْ أَهْلَ الرِّشَادِ فَإِنَّهُمْ [لَا يَأْلُونَهُ] ^(١) حَقًّا وَاسْتِنَاضًا ، وَلِيَعِصَ أَهْلُ الْعَوَايَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ «يَالُو حَقًا» كَمَا تَقْدُمُ أَيْضًا فِي ص ٢٧ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَالصَّوَابُ مَا أَتَيْنَاهُ فِي الصَّلْبِ

كَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى وَقَوَاعِدُ اللَّفْظِ تَأْمَلُ .

فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضاً، ومن بيته يقطعن وإلى بيته يقفلن، وهو يحننا جواب مثله لملئنا، وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا، ولا تقعد به في الله نهضة قائم، ولا تحذله عزيمة عازم؛ ولا يستفت فيها قوت طالب ولا تأخذه في الله لومة لائم؛ فإنما هي سفرة قاصده، وزجرة واحده؛ فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والدكر والسَّمْع، ودان الله أحسن دين ولا حرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرجعه؛ ولتدبر ما كتبناه، وليفتهم ما أردناه؛ وليقدم الاستخاره، فإنها سراج الاستناره، وليغضب الله ورسوله ولدينه وأخيه فإنها مكان الاستغصاب والاستناره. وليحضر حتى يشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفرقة عمّا، وقد عاشوا ما عاشوا لا يعرفون أنّ لهم مع عمهم عمّا؛ والله سبحانه يُلهمه توفيقاً، ويسلك به إليه طريقاً، ويُجِدُّنا به سيفاً لرقبة الكفر ممزقا ودمه مُريقاً، ويجعله في مضار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً. إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني

(من المكاتبات إلى صاحب اليمن ما الأمر عليه من ابتداء الدولة التركيه وهلمَّ جرّاً إلى زماننا، وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أدام الله تعالى نعمة [أيام] المقام العالی»)

وهذه نسخة كتاب كتبت عن الملك الناصر محمد بن قلاوون، جواب كتاب ورد من صاحب اليمن في مقابلة البُشرى بدخول العساكر المنصورة إلى بلاد الأرمن، وطلب سلامش نائب التار بالروم الدخول في الطاعة؛ وذكر أنّ نائباً كان لأبيه

(١) أي صاحب اليمن في كتابه الذي ورد منه في مقابلة البُشرى.

في قلعة طمس وعصى عليه فظفر به فبشر بذلك ؛ ويحرضه على الجهاد وإنقاذ الأموال، ويهدده، ويوجه به قصاده إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله، وهي :

أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالی ! وأنقضه بفرض الجهاد الذي بمثله يُنتج، وأيقظه لمعين الغزو الذي ما ^(١) له تُدرک الرتب وترتفع الدرج؛ وأشهدته في سبيل الله مواقف النصر التي إذا أودعنا نبشرها الطروس عبت بما فيها من الأرج؛ وأراه مشاهد فتوحنا التي إذا حدثت الأحلام عن عجائبها حدثت من البحر ولا حرج؛ وصان مجده عن إضاعة الوقت في غير حديث الجهاد الذي هو أولى ما بذلت له الذخائر وأبتذلت فيه المهج .

صدرت هذه المكاتبة تخصه بتحية تنضوع نشرًا، وتُخفف من متجددات الظفر بشرًا، يملأ الوجود مسرة وبُشرى، وتُقص عليه من متجددات فتح يأتي على ما أُنعت فيه الأفكار قرائحها من مشتهى التهانى فلا يدع له ذكرًا، ويتلو على من ظن بعد ما سمع من البلاغ بلاغ العدا أن إزالة وإل عن مركزه فتح كبير : لقد جئت شيئًا نكرا . وتوضح لعله الكريم أن مكاتبة الكريمة وردت مقصورة على نبأ لا يُعتد بذكره ، محصورة على خبر لا ينبغي لمثل مجده أن يُمره على فكره، مطلقه عنان القلم فيما كان ينبغي طي خبره وتعفى أثره ، وإخفاء سببه وتركه تسيًا متسيًا فضلًا عن التبجح بذكره ، والتهنئة به ، إذ في ذلك مقابلة البحر بالثاد ، والروح بالجداد ؛ والشمس بالذبال ، والهدى بالضلال ؛ فلم يحل له في ذلك المراد، وأتى بما قالت له التهانى : (نحن في وادٍ وأنت في واد) ؛ وقابلناها مع ذلك بالقبول الذي آجتلى غررها،

(١) يياض في الاصل ولعله الذي بالقيام به تدرك الخ .

وَأَحْمَدَتْ لَدَيْهِ وَرَدَهَا وَصَدَرَهَا ؛ فَاحْطَنَّا عَلَيَّهَا بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي أَبْدَاهَا ، وَالْمُتَجَدِّدَاتِ الَّتِي عَظُمَ مَوْجِعُ نَشْرِهَا عِنْدَهُ فَأَهْدَاهَا .

(١) وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَمْرِ الْقَلْعَةِ الَّتِي كَانَ [النَّائِبُ بِهَا] لَوَالِدِهِ شَخْصًا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، وَوَلَّاهُ مَسْتَحْفَظًا ظَنَّنَاهُ مَعَ تَغَايُرِ الْأَحْوَالِ مُؤْتَمِّنًا عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ بَعْدَ انْتِقَالِ وَالِدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ طِمَعَ فِيمَا اسْتَوْدِعَ لِفَحْدِ الْوَدِيعَةِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَرَامَ الْمُنَازَعَةَ وَالْمُقَاطَعَةَ ؛ وَخَالَفَ وَحَالَفَ ، وَقَارَبَ الْعِصْيَانَ وَقَارَفَ ؛ وَأَنَّهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ قَلَعَ ذَلِكَ النَّائِبَ ، مِنْ تِلْكَ الْقَلْعَةِ الْمُغْتَبَصَةِ ، وَأَرَاخَ مِنْ هَمِّهِ النَّاصِبِ ، أَفْكَارُهُ وَوَصَبِهِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أوردَهُ عَلَى وَجْهِ الْبَشْرِ لِهَذَا السَّبَبِ الضَّعِيفِ ، وَأَبْرَزَهُ فِي مَعْرِضِ التَّهْنِئَةِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الطَّيْفِ ؛ وَأَرَادَ أَنْ يَتَكَثَّرَ فِيهِ بِمَا لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي كُثْرَةِ وَقُلِّهِ ، فَذَكَرَ بِرُوزِهِ يَجْمَعُهُ إِلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ فِي قُبَالَةٍ مَا أَتَصَلَّ بِهِ مِنْ نَبِيٍّ كُلِّ مَوْطِنٍ بَرَزَ فِيهِ الْإِسْلَامُ كُلُّهُ إِلَى الشَّرْكَ كُلُّهُ ؛ وَظَاهَرُ الْأَمْرِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ مَاعِصِيٌّ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ إِلَّا لِيَأْ بَأْ رَأَى بِالْمَمْلَكَةِ الْيَمِينَةِ مِنْ أَضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ ، وَأَسْبَابِ الْإِخْتِلَافِ وَالْإِخْتِلَالِ ؛ وَالْوَهْنِ الَّذِي حَسَّنَ لَهُ الْأَحْتِرَازَ وَالْإِخْتِرَالَ ؛ وَالْخُلُوعَ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى أَنْ (طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَّهِ وَالتَّرَالَ) ؛ وَامْتَدَادِ الْأَيْدِي الْعَادِيَةِ بِكُلِّ جِهَةٍ إِلَى مَا يَلِيهَا ، وَضِيَاعِ رَعَايَا كُلِّ نَاحِيَةٍ بِالِاشْتِغَالِ عَنْ أَفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَنْ يُبَايِسُهَا وَانْتِقَادِ تَصَرُّفِ مَنْ يَلِيهَا ؛ فَهُوَ الَّذِي أَوْجَبَ طَمَعَهُ ، وَقَوَّى ضِلَعَهُ ، وَحَمَلَهُ مِنْ مَرُكَبِ الْعِنَادِ ، وَأَرَاهُ نَظَرَاهُ بِتِلْكَ الْجِهَةِ مِمَّنْ سَلَكَ الْفُسَادَ . وَهَذَا الْأَمْرُ مَا خَفِيَ عَلَيْنَا خُبْرُهُ ، وَلَا تَوَارَى عَنَّا وَرُدُّهُ وَلَا صَدَرُهُ ؛ فَإِنَّ أَخْبَارَ مَمْلَكَةِ الْيَمَنِ مَا زَالَتْ مُتَوَاصِلَةً إِلَيْنَا بِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَضْطِرَابٍ وَافٍ ، وَاجْتِلَافٍ غَيْرِ خَافٍ ، وَهَيْجٍ لَا يَرِجَعُ الْأَمْرُ فِيهِ إِلَى كَافٍ كَافٍ ؛ وَمَا أَخْرَجَنَا لِحَقِّ جَيُوشِنَا الْمَنْصُورَةِ ، وَعَسَاكِرِنَا الَّتِي مَمَّا لَكَ الْعِدَا بِمَهَابَتِهَا مَحْصُورَةٌ ؛

(١) لَمْ يَأْتِ لَأَمَّا بِجَوَابِ وَاضِعٍ وَلَكِنَّهُ يَدْرِكُ بِالنَّامِلِ .

عن الوصول إلى المملكة اليمنية لتقوم أودها، وتمكين شتھا، وإقامة أمر الملك فيها، وحسم مادة الفساد عن نواحيها، وتطمين البلاد، وإنامة الرعايا من الأمن في أوطان مهاد، والاحتراز على الخزان والأموال، وصونها عن الإنفاق في غير جند الله الذين منعو دعوة الشرك أن تقوم وكلمة الكفر أن تقال؛ إلا لأن عساكرنا كانت الآن في الممالك والأقاليم التي بيد الكفر: من التتار المخدولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين؛ تقتل وتأسر، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر؛ وتضجهم حيث حلوا طلائع رعبها، وتضجهم منها أين طلوا ريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها.

وماسطرننا هذه المكتبة إلا وجيوشنا المنصورة قد وطئت عقر بلادهم فأذلتها وأذلتها، وغيّرت أحوالها وحالتها؛ وقاسمتهم شرقسة فلها منها الحصون والمصون، والجنات الوارفة الفصون، ولهم منها الخراب والتباب، والدارس الذي لا يحصل بكف دارس بيته إلا التراب؛ وهاهي قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسر العدا وغنائمهم ما يرزى عن الحصر؛ وما بيننا وبين ركوب هذا البحر ملك تمهده، وعدل تجده؛ وبغاة تكف غربها، ورعاة تؤمن بالمهابة سربها، وتصفى من أكار الفتن سربها؛ وخزائن لها عن غير الإنفاق في سبيل الله تصونها إلا بمقدار ما تستقر^(١) بها المنازل آسقرار السنة بالحقون لا النوم، وأضرمت

نواحيها، وأستأقت أهلها ومواسيها؛ وجعلت قصورها صعيدا، وزرعها حصيدا؛ وعقالها إماء، ومعاقها هباء؛ وأبتذلت مصونها الذي جعله الله لها أقبالا، وأختارت من حصونها لمكنا ما كانت سيوفنا له مقايح فلما فتح عدن له أقبالا؛ وأقتلعت من القلاع التي كانت بيد الكفر كل معقل أشب، وحصن شابت نواصي

(١) يباض بالاصل ولعله لا النوم باليون فسا من جهة العدا إلا وأضرمت الخ تأمل .

الَّذِينَ هُوَ لَمْ يَنْسِبْ ؛ قَدْ صُفِّحَ بِالصَّفَاحِ ، وَشُرِفَ بِأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ ، وَاسْتَدَارَ بِقِنَّةِ قَلْبِهِ
يَنْهَبُ التَّرَقُّقَ إِلَيْهَا هُوجَ الرِّيحِ ؛ فَطَهَّرَتْهُ مِنَ النَّجَسِ ، وَعَوَضَتْهُ بِصَوْتِ الْأَذَانِ
عَنْ صَنَوَاتِ الْجُرَاسِ ، وَأَحْرَسَتْ النَّاقُوسَ بِسُورَةِ الْفَتْحِ الَّذِي عَوَّدَتْهُ نُوبُ الدَّهْرِ
بِآيَاتِ الْحَرَسِ ؛ مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَى تِلْكَ الْقِلَاعِ مِنْ يِلَادٍ وَتِلَادٍ ، وَأَغْوَارٍ وَنَجَادٍ ؛
وَجَنَاطٍ وَغُيُوعٍ ، وَأَمْوَالٍ أَرْتُجِحُ بِهَا مَا كَانَ لِلْإِسْلَامِ فِي ذِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ بَقَايَا الدُّيُونِ .
وَكُلُّ تِلْكَ الْغَنَائِمِ مَتَحْنَاهَا جُيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ وَأَبْجَنَاهَا ، وَقَوَّيْنَاهُمْ عَلَى أَمْثَالِهَا مِنَ الْفُتُوحِ
بَرْقِ الْعَوَاقِقِ الَّتِي أَزَلَّانَاهَا ، بِالْقَنَاطِيرِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَرْحَنَاهَا ؛
وَمَا وَصَلَ الْآنَ قُصَادُهُ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ إِلَّا وَالبَشَائِرُ تَنْطِقُ بِأَلْسِنَةِ التَّهَانِي ، وَتَحْفِقُ
يَعْمِدَاتِ هَذِهِ الْفُتُوحِ فِي الْأَقَاصِي مِنْ مَمَالِكِنَا وَالْأَدْنَى ؛ وَقَدْ شَاهَدُوا ذَلِكَ وَشَهِدُوهُ ،
وَرَأَوْا مَا رَأَى غَيْرُهُمْ مِنْ نَوَادِرِ الْفُتُوحِ الَّتِي أَرَبَتْ عَلَى مَا أَلْفَوْهُ مِنْ قَبْلُ وَعَهْدُوهُ .
هَذَا وَمَا وَضَعْتَ الْحَرْبُ إِلَى الْآنَ أَوْزَارَهَا ، وَلَا تَعَدَّتْ نَارُ الْوَغَى الَّتِي أَعَدَّتْ
جُيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ لِلْأَعْدَاءِ أَوْارَهَا ؛ وَمَا يَمْضِي وَقْتُ إِلَّا وَالبَشَائِرُ مُتَوَارِدَةٌ عَلَيْنَا بِفَتْحِ
جَدِيدٍ ، وَنَضِيرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُخَلِّقٌ مُخَلِّقٌ وَفِي كُلِّ بَرِّ بَرِيدٍ . وَقُصْبَارِي أَمْرَ الْعَدُوِّ الْآنَ
أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ بَلَدٌ ، إِلَّا وَقَدْ (أَخْنَى) عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى (عَلَى) لُبْدٍ ؛ وَلَادَارُ إِلَّا وَقَدْ أَضْحَتْ
كَدَارِمَةٌ الَّتِي (أَقْوَتْ) وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ) ؛ وَلَا جَيْشٌ إِلَّا وَقَدْ فَرَّ وَأَيْنَ يَفِرُّ
وَهُوَ يَطْوِي فِي قَبْضَتِنَا الْمَرَاحِلَ ؟ ، وَلَا طَرَائِدُ بَحْرِ إِلَّا وَهِيَ مَطْرُودَةٌ فِي الْبَلَجِ لَيْقُفُهُمْ
أَنَّ الْعَطَبَ لَا السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ .

فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ زَايِنًا أَنَّ أَشْتَغَالَ جَيْشَ الْإِسْلَامِ بِجَانِبِ الْكُفْرِ هُوَ الْمَهْمُ الْمَقْتَمُ عَلَى
مَاسِوَاهُ ، وَالْفَرَضُ الَّذِي تَبَيَّنَتْ فِيهِ إِنْقَاذُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَتَحْكِيمُهُ «وَلِكُلِّ
أَمْرٍ مَانَوَاهُ» . وَرَأَيْنَا أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْجِهَةِ مَا يَفُوتُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَتَمَكُّنِهِ ، وَإِذَا
كَانَ اللَّهُ قَدْ أَقَامَ بِقُدْرَتِهِ مَنَا مَلِكًا لِنَصْرَةِ دِينِهِ فَإِنَّ الْيَمْنَ وَغَيْرَهُ فِي يَمِينِهِ ؛ وَهِيَ مُحْسُوبَةٌ

من أعداد ممالك المحروسة، ومعدودة من أقسام بلادنا التي هي يوفود الفتوح مانوسة؛ ولا بُد من النظر في أمرها، وإعمال الفكر في إزاحة ضرها، وتجريد العساكر المنصورة إليها، وإقدام الجيوش التي عادت الإقدام في الوغى عليها؛ ليكون العمل في أمرها بما يرضى الله ورسوله، ويبلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يطيقه سوله؛ فإن المملكة المذكورة توالى عليها المدد، ومضى عليها الأبد، وهممة من فيها إلى الله مضرّوفه، وعلى اللذات موقوفه؛ وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة حتى كأن الجهاد لم يبلغهم وغره حلمه، ولا أحاطت أفكارهم بشيء من علمه؛ بل كأنه على غيرهم وجب، وكأن ما أعد الله من الأجر عليه إنما أريد به الذين يكثرزون الذهب؛ وتماذت الأيام وليس في نكايه أعداء الله منهم مصيب، وتفزقت الأموال وما لجند الله فيما آحتوا عليه من ذلك سهم ولا نصيب؛ وأى عذر عند الله لمن جعله مؤتمناً على ماله فلم يكن له في سبيل الله إنفاق؟ وأى حجة لمن [لم] يقف موقف جهاد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق".

والآن فإن الله سبحانه وتعالى قد أقامنا لنصرة الإسلام ورفع كلمة الإيمان وتمهيد البلاد، وإجراء الأحوال في القريب منها والبعيد على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله عليه السلام من السداد؛ وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا تمسك بعتان فرسه، مكتحل بسهاد حرسه؛ لا يأمن العدو مهاجمة خيله في سراه، ولا مقاباة خياله في ركاه، حصنه ظهر حصانه، وجوابه على لسان سنانته، كلب سمع هبة أو وقعة طار على متن فرسه يلتمس الموت والقتل في مظانته؛ وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوخوا البلاد، وأذلوا أهل العناد، وطهروا السواحل، وأجروا في كل

موطن من أنهار الدماء مأوى البلد الساحل؛ وهزموا جيوش التاروهم في أعداد الكواكب، وحصدوهم بسيفهم عرورة (؟) وهم في نحو المائة ألف راكب؛ حتى إن ملوك التار الآن ليشتمون إرضاءنا وإغضاءنا، ويستدعون ويدعون للآباد ولآءنا؛ ويطلبون المسألة منا، ويوثون نسمة قبول تصد إلههم عنا؛ والطويل العمر منهم ومن والاهم هو الذي يهرب من بين يدي جيوشنا المنصورة ليسلم بنفسه، وإن أسلم ما يعز عليه من ماله ولده وعمره. فمثل هؤلاء الذين يستحقون أموال الممالك الإسلامية ليستعينوا بها في جهازهم لجهادهم، وينفقوها في إعدادهم لأعدائهم؛ ويصرفوها في ذنبهم عن دين ربهم.

وهذه المملكة العينية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربي عن الحضر والحد، ويزيد على الإحصاء والعدة؛ لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا يحمده عاقبته في المعاد؛ قد صعد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهرا، ويستزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيفهم قسرا وقهرا؛ وأيبت لمن تأبى الجهاد جانبا، ورضى باللهو صاحبا؛ وأقنى السلاح لغير يوم الباس، وأعنى ارتباط الجهاد بطرا ورياء الناس.

وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإحسان بما يحل إلههم من الأموال بالمملكة العينية: ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه؛ ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيب من مال الله الذي هو في يد من ولده شيئا من أمور عباده على حكم الإيداع؛ ويدخل ذلك في زمرة^(١) الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها؛ فخصيت المكابرة في الجواب عن ذلك، وأى عذر في المكابرة عن

(١) كذا في الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تأمل.

مثل هذا الأمر وشغل الوقت بذكره ؟ ونحن عندنا في كل وقت من البشائر بمواهب الفتح، وغرائب المنح، ومتجددات الظفر والنصر، ومتحليات التأييد التي قسّمت أعداء الله بين الحصد والحصر؛ مايبُ نشره هبوب الريح في البر والبحار، ويود الدهر لورقه بذهب الأصيل على صفحات النهار؛ وكل ذلك في أشد أعداء الله تعالى : من التار، الذين عُرِف عددهم وجلدهم، والفرنج الذين طال وكثر في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم، والأرمن الذين هم أكثر الباطنيين في الظاهر وإفقا، وأشدّ الفتنين في الباطن نفقا؛ وهم لهؤلاء وهؤلاء مادة تدمير وتبرير، وتغريهم وتغريهم فتصيرهم من نار الحرب المضرة لسوفا إلى جهنم وليس المصير؛ وأى شيء من ذلك يُذكر عند مواقف جيوشنا المنصورة، وظفر عساكرنا المؤيدة؟، لو كان حصل عنده الفكر الصائب ماوردت مكاتبه إلا وهى مقترنة بما يرضى الله ورسوله وأهل الإسلام : من إمداد الغزاة بالأموال، وإعانتهم على الكلف التي كُلفوا أعداؤها [بذلت] حال يلائمها الإنفاق في سبيل الله ويسئلونك عن الجبال؛ وهامى قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسرى العدا وغنائمهم مايرى عن الحصر؛ وما بينها وبين ركوب تيج هذا البحر ملك ثمهده، وعدل ثمهده؛ وبغاة تكف غربها، ورعايا تؤمن بالمهابة سربها، وتصفى من أكار الفتن شربها؛ وأموال تصونها، وخزائن يتره عن غير الإنفاق في سبيل الله مصونها؛ إلا بمقدار ما تستقرها المنازل استقرار السنة بالحقون لالنوم، وتأخذ أهبة لذلك المهي في يوم أو بعض يوم.

اللهم إلا أن تلي دعوة الجهاد من تلك الجهة باليسنة النفير، وتعي صفوف الجلال في الجوارى التي تكاد بأجنحة القلوع تطير؛ أو تبوب عنها خزائن الأموال التي تفتق في سبيل الله تعالى، أو تقوم مقامها التفقات التي تصرف إلى جنود الله التي تنفر في سبيل الله تعالى خفافا وثقالا، ليكون قد استدر ببركة ذلك الطل

أَخْلَافَ الْوَابِلِ ، وَأَنْفَقَ مَا اخْتَرَتْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي مَثَلُ مَا يُنْفَقُ فِيهِ كَثَلُ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ، وَتَسْتَعِدُّ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ إِلَى طَوْرِ يُصَوِّتُ بِرَأْيِهِ مُلْكَهُ وَيُصُولُ ، وَيَسْتَظِلُّ عَلَى الْوُجُودِ وَلَوْ أَنَّ الْبَرَسِيُوفَ وَالْبَحْرَ نَصُولُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُرِيدُهُ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَيُمْسِكُهُ مِنْ طَاعَتِهِ بِالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ وَالسَّبَبِ الْأَقْوَى ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الأسلوب الثاني

(وهو المذكور في " التعريف ")

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكْتُبَةَ بِلَفْظٍ : « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى جَانِبَ الْمَقَامِ الْعَالِي » إِلَى آخِرِ الْأَقْلَابِ ، ثُمَّ الدُّعَاءِ ، مِثْلَ : وَلَا زَالَ يُحْسِنُ وِلَايَةَ حَسَبِهِ ، وَيَنْهَضُ بِجَنَاحِ نَسَبِهِ ، وَيُصَوِّتُ مُلْكَهُ بَعْدَ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ قُضْبِهِ ، وَيُثَبِّتُ فِي الْيَمَنِ الْيَمِينَ فِي حَالَةِ إِقَامَتِهِ وَمُنْقَلَبِهِ .
أَصْدَرْنَا هَا إِلَى مَقَامِهِ مَوْثِقَةَ الْمَعَاطِفِ بِحُلِيِّهِ ، شَاكِرَةً مُلَا عَلَيْهِ ، ذَاكِرَةً مِنْ حَمَامِهِ مَا يَنْتَكِرُ السَّحَابُ بُولِيهِ ، مُبْدِيَةً لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ كَيْتَ وَكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصُدُورٌ تَنَاسُبُ كُلَّ سُلْطَانٍ بِهَا :

وَلَا زَالَ بِهِ « تَعَزُّ » تَعَزُّ وَتَفُوزُ بِهِ زَيْبُذْ ، وَيَخْرُجُ مِنْ عَدَنَ عَدَنُ فَضْلُهُ الْمَدِيدُ ، وَتَمْتَلِي بِوُقُودِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ : هَذَا تَطِيرُ بِهِ الْمَرَاكِبُ وَهَذِهِ الرَّاكِبُ كِلَاهُمَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ؛ وَلَا بَرِحَتْ بِهِ أَهْلَةُ الْأَوْطَانِ ، مُشْتَقَّةٌ صِفَاتُ قُطْرِهِ الْيَمِينِ مِنْ « الْإِيمَانِ يَمَانُ » ، مُحْجُوجًا بِالْجَلَالَةِ أَوْ مُحْجُوجًا لِمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِ الْأَرْكَانِ .

أَصْدَرْنَا هَا وَالسَّلَامَ يُبَارِي مَا تُثَبِّتُ أَرْضَهُ مِنْ نَبَاتِهَا الطَّيِّبِ ، وَيَحَارِي بِالثَّنَاءِ مَا يَنْهَلُ فِي أَكْثَافِهِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ سَحَابِهَا الصَّيْبِ ؛ وَتُسْرِي إِلَيْهِ بِتَحِيَّاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى قَادِمَةِ كُلِّ نَسِيمٍ ، وَفِي طَيِّ كُلِّ عَامٍ لَهُ وَقُوفٌ عَلَى رَبِّهِ وَسَلَامٌ ، وَتَوْصِيحٌ لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ .

دعاءً وصدرٌ يختصُّ بالمجاهد على، وهو :

ولا زال أفضلُ متوِّجٍ في يمينه، وأعلى عليّ إذا قيسَ ابنُ ذِي يَزَنِهِ ، وأشجعَ مَنْ
حمى بهُودَهُ مالا تقدرُ السُّيُوفُ على حمايته من وطنه ؛ ولا أنفكُ الملكُ المجاهدَ عن
عرْضِهِ المصُونِ ، وسيفَ الدين الذي يقومُ في المقروض من مرَاضِي الله بالمسنُونِ ؛
وأبَا الحَسَنِ لما يَحْسُنُ في فِطنتِهِ الحُسْنَى أو فِطرتِهِ من الظُّنون ، والعلِيّ قدرا إذا
أخذتِ الملوكُ مراتبها وحَدَقَتْ إليه العُيون .

صدرت هذه المفاوضةُ إلى حضرته وسلامها يتفاحُ لَدَيْهَا ، ويُصاغُ غَائِمَةً
في يَدَيْهَا ، وتجري سفائنُ إخلاصِهِ حَتَّى تَقَفَ عليها ، وتَسِرَى بِتَحِيَّاتِنَا محَلَّةً بالبُشرَى
في صباح كلِّ يومٍ يَقْرُبُ من الوُصُولِ إليها ، وتبدي لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف على صورة مكاتبة مفتحة بلفظ «أعز الله تعالى جانب المقام»
كُتِبَ بها إلى بعض ملوك اليمن في زمن من الأزمان؛ فأوردناها استشهادا لهذا
الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتَحَ المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كُتِبَ به إلى صاحب اليمن أيضا، عن السلطان الملك المنصور
قلاوون، مبشِّرا بفتوح صافيتا^(١)، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه
الله، وهو :

(١) لم نجد لفتح مصدرا على قول إنما أن يكون جارى العرف وإما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه
ووقائمه وهو بعيد تأمل . . .

أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمَقَامِ الْعَالِي، الْمُؤَلَوِيَّ، السُّلْطَانِيَّ، الْمَلِكِيَّ، الْمُظْفَرِيَّ، الشَّمْسِيَّ؛ وَأَشْرَكَهُ فِي كُلِّ بُشْرَى تُسَدُّ الرِّجَالَ لِاسْتِغَاثِهَا، وَتُحَلُّ الْحِجَى لِاسْتِظْلَاغِهَا؛ وَتَهَافُتُ التَّوَارِيخُ وَالسِّيَرُ عَلَى اسْتِرْفَاعِهَا، وَتَتَنَافَسُ الْأَقْلَامُ وَالسِّيُوفُ عَلَى الْأَفْهَامِ بِاجْتِنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا؛ وَلَا خَلَا مَوْقِفُ جِهَادٍ مِنْ اسْمِهِ، وَلَا مَصْرِفُ أَجْرٍ مِنْ قِسْمِهِ، وَلَا غَرَضُ هَنَاءٍ مِنْ سَهْمِهِ، وَلَا أَفْقُ ابْتِهَاجٍ مِنْ بُرُوعِ شَمْسِهِ وَطُلُوعِ نَجْمِهِ. سَطَرَ الْمُلُوكُ هَذِهِ الْبُشْرَى وَالسَّيْفُ وَالْقَلَمُ يَسْتَمْدَانِ : هَذَا مِنْ دِيمٍ وَهَذَا مِنْ نَفْسٍ، وَيَمْضِيَانِ : هَذَا فِي رَأْسٍ وَهَذَا فِي طَرَسٍ؛ وَيَتَجَاوَبَانِ : هَذَا بِالْصَّلِيلِ وَهَذَا بِالصَّرِيرِ، وَيَتَنَاوَبَانِ : هَذَا يَسْتَمِيلُ وَهَذَا يَسْتَمِيرُ؛ وَكُلُّ مِنْهُمَا يَنَافِسُ الْآخَرَ عَلَى الْمَشَافَهَةِ بِخَبَرِ هَذَا الْفَتْحِ الَّذِي مَاسَمَتْ إِلَيْهِ هُمُ الْمُلُوكُ الْأَوَائِلُ، وَلَا وُسِمَتْ بِهِ سَيْرُهُمُ الَّتِي بَدَتْ أَجَادُهَا مِنْ حِلَاةِ عَوَاطِلٍ؛ وَلَادَارَ فِي خَلْدٍ أَنْ مَثَلُهُ يَتَبَيَّنُ فِي الْمُدَدِ الطَّوِيلَةِ، وَلَا تَشْكَلُ فِي ذَهْنٍ أَنَّهُ سَيَذَرُكَ بِجَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ؛ وَهُوَ النَّصْرُ الْمَرْتَّبُ عَلَى حَرَكَتِنَا الَّتِي طَوَّيْتُ اللهُ لِرُكَابِنَا فِيهَا الْمَرَّاحِلَ، وَأَلْقَى بِدَرَرٍ عَسَاكِرِنَا مِنْ بَحْرِ الْحَدِيدِ الْمَسَاحِجِ إِلَى السَّاحِلِ؛ وَتُجَيِّمُنَا عَلَى الْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ: وَهِيَ طَرَابُلسٌ وَصَافِيَّةٌ وَأَنْطَرُوسُوسٌ وَمَرْقِيَّةٌ وَالْمَرْقَبُ، كَمَا يَهْجُمُ الْغَيْثُ؛ وَمُصَادِمَتِنَا صُدُورَهَا كَمَا يَصِيدُ اللَّيْثُ، وَسُلُوكُنَا مِنْهَا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ حَيْثُ؛ وَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الرُّوْحَةِ مِنْ إِغَارَاتٍ أَحْسَنْتَ مَقْلَبَ الْأَعْيَنَةِ؛ وَمَتَلَقَّ السِّيُوفُ وَخَتَرَقَ الْأَسِنَّةَ؛ وَمَاتِيًّا مِنْهَا مِنْ قُتُوحِ صَافِيَّةٍ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ، وَمَتَجَجَّعُ الْحَاضِرِ وَالْبَادِ؛ وَكَوْنُهَا قَدِمَتْ نَفْسَهَا فِي جَمَلَةٍ مَا يُقَرَّرُ بِهِ الضَّيْفُ، وَقَالَتْ : هَذَا فَتُوحٌ حَضَرَ عَلَى هَذَا الْفُتُوحِ لِهَذَا السَّيْفِ؛ وَتَلَطَّفَتْ فِي مَسْحِ أَطْرَافِ الْأُمَانِ، وَطَلَبَتْ شُكْرًا وَمِنَا شُكْرَانٍ؛ وَأَحْضَرَتْ إِلَيْنَا مِنْ أَهْلِهَا الْوَقْتَ وَهَدَيْتِ السِّيُوفُ فِي أَعْنَاقِهِمْ قَتَشَبَتْ بِهَا الْأَغْلَالُ، وَأَنْفَتِ إِيْمَانُ أَهْلِ الْإِيْمَانِ مِنْ مُصَاحِقِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الشِّمَالِ؛ فَاطْلَقَهُمْ سَيْفُنَا وَأَمَلَهُ يَمْتَدُّ إِلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ مِنْهُمْ مَالًا، وَأَكْثَرُ أَحْتِقَالًا،

وأبْرَمَ مَالاً، وَأَهْرَ سِوَقًا قِصَارًا وَرِمَاحًا طَوَالًا؛ وَأَسْتَطَارَ مِنْهَا شَرَارُ نَارِ الْحَرْبِ الْمُوقَدَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْقِلَاعِ، وَأَسْتَطَالَ إِلَى سِوَاهَا مِنَ الْحُصُونِ مِنْهُمْ الْبَاعِ؛ فَلَا حِصْنَ إِلَّا وَأَقْتَرَتْ نَيْبَتُهُ عَنْ نَصْرِ مُسَهِّلٍ، وَفَتَحَ مُعْجَلٌ وَمُؤْجَلٌ .

فَمِنْ ذَلِكَ حِصْنُ الْأَكْرَادِ الَّذِي تَاهَ بِعِطْفِهِ عَلَى الْمَالِكِ وَالْحُصُونِ، وَتَمَنَّحَ بِأَنْفِهِ عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى مِثْلِهِ يَدُ الْحَرْبِ الزُّبُونِ؛ وَغَدَا جَازِبًا بَضْبِغِ الشَّامِ، وَآخِذًا بِخَنَاقِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ؛ وَشَلَلًا فِي يَدِ الْبِلَادِ، وَشَجًّا فِي صَدْرِ الْعِبَادِ؛ تَقْضَى مِنْ عُسِّهِ صُفُورُ الْأَعْدَاءِ الْكَاسِرَةِ، وَتَرْتَاغُ مِنْ سَطَوَتِهَا قُلُوبُ الْجَبُوشِ الطَّائِرَةِ؛ وَتَرِيضُ بِأَرْضِهِ آسَادُ تَحْيَى تِلْكَ الْأَجَامِ، وَتُقَوِّقُ مِنْ قِسِيَّةِ سِهَامٍ تُصَيِّى مُفَوَّاتِ السَّهَامِ؛ تُعْطِيبُهُ الْمُلُوكُ الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ، وَيَصْطَفِي كِرَامَ أَمْوَالِهِمْ وَهُمْ صَارُونَ لِأَمْصَارُونَ؛ كَمْ شَكَّتْ مِنْهُ حِمَاةٌ تَتَى بِنِكَرِهَا قِلَّةَ الْإِنْصَافِ، وَكَمْ خَافَتْهُ مَعَرَّةٌ وَمِنْ مَعَرَّةٍ خَافَ؛ مَا زَالَتْ أَيْدِي الْمَالِكِ تَمْتَدُّ إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ عَلَيْهِ تَشْكُو مِنْ جَوْرِ جَوَارِهِ تِلْكَ الْحُصُونُ وَالصَّيَاصَى، وَتَبْكِي بِمَدْمَعِ نَهْرٍهَا مِنْ تَأْثِيرِ آثَارِهِ مَعَ عَصِيَانِهَا وَنَاهِيكَ بِمَدْمَعِ الْعَاصِي؛ حَتَّى نَبَّهَ اللَّهُ الْخَاطِظَ سِوْفَ الْإِسْلَامِ مِنْ جُفُونِهَا، وَوَفَّى النُّصْرَةَ مَا وَجِبَ مِنْ دُيُونِهَا؛ وَذَلِكَ بَأَنَّا قَصَدْنَا فَيَسِّحَ رَبُّنَا، وَنَزَلْنَا وَنَازَلْنَا عَمَّى صُفْعُهُ، وَخَتَمْنَا بِنِصَالِنَا عَلَى قَلْبِهِ وَسَمِعَهُ؛ وَلَهُ مُدُنٌ حَوْلَهُ خَمْسٌ هُوَ كَالرَّاحَةِ وَهِيَ كَالْأَنَامِلِ، وَتَكَادُ بِرُوجِهِ تُرَى كَالْمَطَايَا الْمُقَطَّرَةِ وَهِيَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الزَّوَامِلِ؛ مَا خِمْنَا بِهِ حَتَّى اسْتَبَحْنَا تَحْيَى تِلْكَ الْمَدَائِنِ الْمَكْنِيَّ عَنْهَا بِالْأَرْضِ بَاضٍ، وَأَخِمْنَا بِسَاحَتِهَا بِحَرًّا مِنَ الْحَدِيدِ مَا أَدْفَعَ حَتَّى فَاضَ؛ وَأَخَذْنَا الثَّقُوبَ فِي أَسْوَارٍ لَا تَنْقُضُ وَلَا يَنْقُضُ بُيُوتُهَا الْمُرْصُوصُ، وَلَا تَهْرَأُ الْمَعَالِيقُ مَا لَحَوَاتِمُ أَرْبَاجِهَا مِنْ قُقُوشِ الْقُصُوصِ؛ وَنَصَبْنَا عَلَيْهَا عِدَّةَ مَجَانِيْقٍ حُمِلَتْ فِي شَوَاقِقِ الْجِبَالِ، عَلَى رُءُوسِ الْأَبْطَالِ؛ فَتَغَيَّظَتِ السَّمُورِيَّةُ أَنَّ الَّذِي يَقُومُ بِهِ هَذِهِ تِلْكَ بِهِ لَا تُقُومُ، وَأَنَّ مَامِنْهَا إِلَّا لَهُ مِنَ الْأَيْدِي وَالرُّءُوسِ مَقَامٌ مَعْلُومٌ؛ وَصَارَ يَنْبَغِي بِهَا كُلُّ

كفى مَحْتَسِبٍ، وَأَرْوَعَ مِنْهُمْ، وَكُلُّ لَيْثٍ غَايَةٍ يَحْمِيهِ وَتَحْمِيهِ! فَشُكْرًا لِأَسْوَدَ حَتَّى غَابَتْهَا
تَهْتَرِسُ، إِلَى أَنْ جَنَّتْ أَسْوَارُهَا عَلَى الرَّكْبِ، وَكَانَتْ سِيَاهُ مُجَانِبِهَا تَمِيلُ مِنَ الْعُجْبِ
فَصَارَتْ تَمِيمُ مِنَ الْعُجْبِ، وَكَانَتْ تَطْلُبُ فَصَارَتْ تَهْرُبُ مِنَ الطَّلَبِ؛ وَأَشْتَدَّ
الْأَمْرُ عَلَى الْكُفَّارِ فَقَاتَلُوا قِتَالًا أَقْصَى مَضَاجِعِ الْأَسْلَحَةِ، وَأَطَارَ حِجَارَةً مُجَانِبِيهِمْ بِغَيْرِ
أَجْنَحَةٍ، وَأَنْجَحُوا بِسَجْوِ النَّصُولِ الْمُتَرْتِمَةِ عَلَى غُصُونِ السَّهَامِ الْمُتَرْتِمَةِ؛ وَهَذَا وَأَهْلُ
الْإِيمَانِ يَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِصَبْرٍ يَسْتَطْعِمُونَ مِنْهُ شُهْدًا، وَإِقْدَامٌ يَتَلَقَّى صَدَى الْحَدِيدِ
بِأَكْبَادٍ مَازَالَتْ إِلَى مَوَارِدِهِ قَصْدًا؛ يَتَحَمَّلُونَ نَارَ الْحَرْبِ الَّتِي كَلَّمَا أَوْقَدُوهَا أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَقَالَ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا، وَالْبِلَادُ الْفَرَنْجِيَّةُ قَدْ غَضَّتْ مِنْهَا الْأَبْصَارُ وَخَشَعَتِ الْقُلُوبُ،
وَأَعْتَقَدَ كُلُّ مَنْهَا فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْدَ هَذَا الْحِصْنِ الْمَطْلُوبِ؛ فَهَذِهِ تَوَدَّ لَوْ أَكْتَنَهَا
الْبَعَارُ تَحْتَ جَنَاحِ أَمْوَاجِهَا، وَهَذِهِ لَوْ أَسْبَلَتِ الرِّيحَ الْعَوَاصِفُ عَلَيْهَا ذُبُولَ عَجَاجِهَا؛
وَهَذِهِ لَوْ أَجَنَّتْ مِنْ قَوَى الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، وَهَذِهِ لَوْ خُسِفَ بِهَا الثَّرَى وَعَقَّتْ
مِنْهَا الْآثَارُ؛ وَذَلِكَ لِمَا بَلَغَهُمْ وَشَاهَدُوهُ مِنْ وَبِيلٍ حَلَّ بِأَهْلِ هَذَا الْحِصْنِ الْمَنِيْعِ،
وَمِنْ قُوَّةِ أَحْمَلِ رَبْعَةِ الْمَرْيِجِ، وَضَبَقِ بِجَالِهِ الْوَسِيعِ؛ وَقَرَّاجِ أَصْحَرَ الْحَدِيدِ مِنَ الْحَدِيدِ
وَالْأَبْطَالُ لَمْ تَضَجَّرْ، وَنُضَالِ أَسْهَرِ كُلِّ جَفْنٍ حَتَّى جَفَنَ السَّيُوفُ لِأَنَّا عَوَّدْنَاهَا مِثْلَ
جَفُونِنَا أَنْ تَسْهَرَ؛ فَكَمْ شَكَّتِ الثَّقُوبُ مِنْ مَنَاكِيِهِمْ زِحَامًا، وَالشُّرَفَاتُ مِنْ تَرْقِيهِمْ
الْأَزِمَاتُ، وَالرَّقَابُ مِنْ سَيُوفِهِمْ أَقْتَسَامًا؛ وَكَمْ حَمَدَتِ التَّجَارِبُ مِنْ رَأْيِهِمْ شَيْخًا وَحِيدَ
الْإِقْدَامِ مِنْ ثُبُوتِهِمْ غُلَامًا؛ قَدْ دَخَلُوا الْبِلَادَ فَلَا مَوْطِنَ إِلَّا لَهُمْ بِهِ مَعْرَكَةٌ، وَأَرْمَلُوا
الْحِلَالُ فَلَا مُشْرِكَ إِلَّا وَقَدْ أَرْمَلَ مِنْ مُشْرِكِهِ، وَأَزْجَحُوا الْكُفْرَ فَلَا قَلْبَ إِلَّا بِهِ مِنْهُمْ
خَوْفٌ وَلَا سَمْعَ إِلَّا لَهُمْ بِهِ حَرَكَةٌ، وَمَلَكُوا الْأَرْضَ كَثْرَةً وَكَيْفَ لَا يَكْثُرُ اللَّهُ جَمْعًا لِلْإِسْلَامِ
جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ بَرَكَهً .

وكتبنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هنيء بهذا الفتح الذى تُثني على كتاب
بشائره الحقائق ، وتجرى إلى سماع أخباره الركائب ؛ وتترأخ على المسير تحت
البُرد الواصلة به متون الصبأ وظهور الجنايب ؛ وإذا ذكرت ملاحمة ، قال كل :
هذا كتاب أم كتيبة تلوح ، وإذا شوهلت حمرة طرسه قيل : وهذا ما صبغته في اليد
المعلمة عليه دم الكفر المسفوح ، ويتعم - أعز الله نصره - بالإعلان بهذا النبأ
الحسن الذى تستروح إليه الأسماع ، وتسر بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه
ومن قلاعها العظيمة الاستناع ؛ فإنه ما برح الأئح يفرح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما
اشترك كل شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر إلى صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل
محى الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جواب تعزية أرسلها
إليه في ولده الملك الصالح فى ورق أزرق ؛ وكانت العادة أن تكون فى ورق أصفر .
ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعالى نصرة المقام إلى آخر الألقاب ، وأحسن تسليته الصبر على كل
فادح ، والأجر على كل مصاب قرح القرائح وجرح الجوائح ؛ وأوفد من تعازيه كل
مسكن طاحت به من تلقاء صنعاء اليمن الطوائح ؛ وكتب له جزاء التصبر عن جار
من دمع طافح ، على جار لسوئاء القلب صالح .

المملوك يخدم خدمة لا يئود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر
كارث ، ولا يثقلها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ؛
ويطيل العلم الكريم على ورود مثالي كريم ، لولا زرقه طرسه وزرقه لیسه لقال :

(وَأَيُّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) . تتضمن ما كان حدث من رُزْءٍ تَلَّاقَى الله بِتَّاسِيهِ ، وتوافى بَعْدَ الصَّبْرِ فَوَلَّى التَّسْلِيمَ تَلَيْنَ تَقَاسِيهِ وَتَمَرَيْنَ قَاسِيَهُ ؛ فَشَكَرْنَا اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَى وَحَدَّنَاهُ عَلَى مَا أَخَذَ ، وَمَا قُلْنَا : هَذَا جَزَعٌ قَدْ أَنْتَبَهَ إِلَّا وَقُلْنَا هَذَا تَثَبُّتٌ قَدْ أَنْتَبَذَ ، وَلَا تَوَهَّمْنَا أَنَّ فَلَنَ كَبِدٌ قَدْ أَخْطَفَتْ إِلَّا وَشَاهَدْنَا حَوْلَنَا مِنْ ذُرِّيَّتِنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَدَ ؛ وَأَحْسَنًا الْأَحْسَابِ ، وَدَخَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَوَقَّانَا اللهَ عِزَّ وَجَلَّ أَعْرَ الصَّابِرِينَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؛ وَلَنَا - وَالشُّكْرُ لِلَّهِ - صَبْرٌ جَمِيلٌ لَا نَأْسَفُ مَعَهُ عَلَى فَائِتٍ وَلَا نَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ ، وَإِذَا عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ حُسْنَ الْإِسْتِنَابَةِ إِلَى قَضَائِهِ ، وَالْإِسْتِكَانَةَ إِلَى عَطَائِهِ ، عَوَّضَ كُلَّ يَوْمٍ مَا يَقُولُ الْمُبَشِّرُ بِهِ :

هَذَا مَوْتِي مُؤَلَّدٌ . وَلَيْسَتْ الْإِبِلُ بِأَغْلَظَ أَكْبَادًا مِنْ لَهُ قَلْبٌ لِأَيَّالِي بِالصَّدَمَاتِ كَثُرَتْ أَوْ قَلَّتْ ، وَلَا بِالتَّبَارِيحِ حَقُرَتْ أَوْ جَلَّتْ ؛ وَلَا بِالْأَزْمَاتِ إِنْ هِيَ تَوَالَتْ أَوْ تَوَلَّتْ ، وَلَا بِالْحَقُونِ إِنْ أَلَقَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمْعِ وَالْمُجُوعِ وَتَخَلَّتْ ؛ وَيَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ مَنْ لَاحَلَبَ أَشْطَرُهُ ، وَيَأْسَفُ عَلَى الْفَائِتِ مَنْ لَا بَاتَ بَنِيَا لَخَطُوبِ الْخَطِيرَةِ ؛ عَلَى أَنْ الْفَاحِشَ بِمَوْتِ الْوَلَدِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَإِنْ كَانَ مُنْكَبًا ، وَالنَّافِخَ بِشُجُوهِهِ وَإِنْ كَانَ مُبْكِيًا ، وَالنَّائِخَ بِذَلِكَ الْأَسْفِ وَإِنْ كَانَ لِنَارِ الْأَسْفِ مُدْكِيًا ؛ فَإِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَثْبِيتِ اللهِ عِزَّ وَجَلَّ مَا يَنْسِفُهُ نَسْفًا ، وَمِنْ إلهَامِهِ الصَّبْرَ مَا يَجِدُّ لَتَمْرِيقِ الْقُلُوبِ أَحْسَنَ مَا بِهِ تَرْفَى . وَبِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا حُسْنُ اقْتِدَاءٍ يَضْرِبُ عَنْ كُلِّ رِثَاءٍ صَفْحًا ، وَمَا كُنَّا مَعَ ذَلِكَ - وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ - نُصْنِي لِمَنْ يُؤْنَبُ وَيُؤْنِ أَذْنَا ، وَلَا نُعِيرُهَا لِمَنْ يَلْجَأُ إِذِ الْوَلَدُ الذَاهِبُ فِي رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى سَالِكًا طَرِيقًا لَا عِوَجَ فِيهَا وَلَا أَمْتًا ، وَأَنْتَقَلَ سَارًا بَارًا صَالِحًا صَالِحًا وَمَا هَكَذَا كُلُّ الْمَوْتِ نَعْيًا وَنَعْتًا ، وَلَيْثُ كَانَ نَفَعْنَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ نَحْنُ بِالصَّدَقَاتِ وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِ نَنْفَعُهُ ، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ عَمَلُ أَبِيهِ وَقَدْ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى رُوحَ

ولدتنا إلى أعلیٰ علیین تحقّق أنه العمل الصالح يُرفعه ؛ وفيما نحن بصدده من اشتغال بالحروب ، مأيوئ مأيوئ من الكرب ؛ وفيما نحن ماكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وقلبه يحول ، بل عن تحيّل أسيف في الخاطر يحول .

إذا اعتاد القى خوض المنايا * فأهوت ماتمّ به الوحول !

فلنا بحمد الله تعالى ذرية دريه ، وعقود والشكر لله كلها دريه .

إذا سيد منهم خلا قام سيد * قثول لما قال الكرام فعول !

مامنهم إلا من نظر سعده ومن سعده يُتظر ، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن يسدّ حاله بكفاله وكفائته مسدّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غيب القمر) ؛ لا سيما من الذى يراد هو صلاحه أعرف ، ومن إذا قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلیٰ بناء سعيد أشرف . وعلى كل حال لا عليم إحسان العمل الذى ينتوق فى ربه ، ويعالج قضاء الحقوق فيُساعف مرسومه فى توصيله طاعة بحره وبره ؛ وله الشكر على مساهمة المولى فى الفرح والتّرح ، ومشاركته فى الهناء إذا سنع وفى السمع إذا سقح ؛ وما مثل مكارم المولى من يعزّب ذلك عن علمها ، ولا يعزى إلى غير حكيها وحلمها ؛ وهو - أعزه الله - ذو التجارب التى تحضّت له من هذه وهذه الزّبد ، وعرضت عليه منها الهضبة والوهد . والرغبة إلى الله تعالى أن يجعل تلك المصيبة للرّايّا خاتمه ، كما لم يجعلها للظهور فاصمه ؛ وأن يجعلها بعد حل هذا الهم وقصاله على عليه فاطمه ؛ وأن يحبب إلينا كل ما يلهى عن الأموال والأولاد ، من غزو وجهاد ، وأن يخولنا فليس يُعّد لدينا على مفقود تأدبا مع الله عز وجل غير السيوف فإنها تُعرف بالحداد ، وأن لا تُقصّف رماحنا إلا فى قود أو قواد ، ولا تُحول سروج خيلنا إلا من ظهر جواد فى السرايا إلى ظهر جواد ؛ وأن لا تُشقّ لتيّنا إلا

أَجَادُ النَّادَ، وَلَا تُجَزِّزُ غَيْرُ شُعُورِ مُلُوكِ النَّارِ تُتَوَجَّ بِهَا رُعُوسُ الرِّيحِ وَتُصْعَدُ بِهَا عَلَى
قِمِّ الصَّعَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ لِلْوَلِيِّ سَعَى مَرَاتِيهِ الَّتِي لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِمَا صَبَرْنَا
بِهِ لِأَقَامَتِ الْجَنَائِزِ، وَاسْتَحَقَّتِ النِّجَازَ، وَلَاهُوتِ بِالنَّفُوسِ فِي أَسْتِحْجَالِ الْجَنَائِزِ
مِنَ الْأَسَفِ وَغَيْرِ الْجَنَائِزِ، وَلَا شَغَلَ اللَّهُ لُبَّ الْمَوْلَى بِفَادِحِهِ، وَلَا خَاطَرَهُ بِسَائِحِهِ
مِنَ الْحُزْنِ أَوْ بَارِحِهِ، وَلَا أَسَمَعَهُ لَغْوِ الْمَسْرَاتِ مِنْ هَوَاتِفِ الْإِبْهَاجِ صَادِحِهِ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الأسلوب الرابع

(أَنْ تَفْتَحَ الْمَكْتَابَةَ بِقَلْبِ «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي»

وَعَلَيْهَا كَانَ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ)

وهذه نسخة كتاب من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ الْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ قُطْرُ - وَصَاحِبِ الْيَمِينِ
يَوْمُغْذِ الْمَنْصُورِ - بِالْإِشَارَةِ بِهَزِيمَةِ النَّارِ . وَأَظْهَرْنَا مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ
عَبْدِ الظَّاهِرِ، وَهِيَ :

«أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ، السُّلْطَانِيِّ، الْمَلِكِيِّ،
الْمَنْصُورِيِّ، وَأَعْلَى مَنَارِهِ، وَضَاعَفَ أَقْدَارَهُ؛ تَعَلَّمَهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ النِّصْفُ مِنْ شَهْرِ
رَجَبِ الْفَرْدِ، فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعَّرَ بِأَسِهِ * لَاخْضَرَّ جُودًا فِي يَدَيْهِ الْأَسْمَرُ

فَصَدَرَتْ هَذِهِ التَّهْنِئَةُ إِلَيْهِ رَاوِيَةً لِلصَّدَقِ عَنْ الْيَوْمِ الْمُحَجَّلِ الْأَغْرَ :

يَوْمَ غَدَا بِالْبَقْعِ فِيهِ يَهْتَدِي * مَنْ ضَلَّ فِيهِ بِأَنْجُمِ الْمُرَانِ

فَقِيَ أَذُنَ الدَّهْرِ مِنْ وَقْعِهِ صَيِّمٌ، وَفِي عِرْنَيْنِ الْبَدْرِ مِنْ نَقْعِهِ شَيِّمٌ، تَرَفَّعَ رَوَاةُ
الْأَسَلِ عَنِ الْأَسْتِ، وَيُسْنِدُهُ جَرُّ الْعَوَالِي عَنْ جَرِّ الْأَعْنَةِ، أَمَا النَّصْرُ الَّذِي شَهِدَ

الضربُ بِصِحَّتِهِ ، والظعنُ بِنصيحته ؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعالى استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام :

سعى الظمعُ المردى بهم لحثوفهم * ومن يمسكن ذيل المطاميع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ؛ وقد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطاهم ؛ وعاد كيدهم في نحورهم : (ورد الله الذين كفروا فيغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) .

راموا الأمور فذلوا لاحت عواقبها * يضد ما أملوا في الورى والصدر ،

ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة * عليهم شرعا في الورى والصدر !

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم * بالسهمرية مثل الوخز بالإبر !

لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .

تدرعوا بدروع البغي سابعة * والمرء يحصد من دنياه مازعا !

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيتهم في بحار الآمال ؛ فلك آمال خائبه ، ومراكب للظنون عاطيه ؛ وأقلعوا في البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ؛ وساروا وللشيطان فيهم وسوس ، نفرهم أمنيّة الظنون الحواس ؛ فما وسوس الشيطان كُفرا إلا وأحرقه الإيمان بكوكب هذا

وعساكر المسلمين مستوطنة في موطنها ، جاذبة عقباتها في وكور ظباها ، رابضة أسادها في غيل أفتاها ، ماتزلزل لمؤمنين قدم إلا وقدم إيمانه راسخه ، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخه ؛ ولا عقد [ت] برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان ، ولا تنطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ؛ ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ،

وأخبار الكُفَّار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خَلَطَ الصَّبَاحُ فَضْته بِذَهَبِ الْأَصِيلِ ،
وصار اليومُ كَأَمْسٍ ، وَسُخِثَ آيَةُ اللَّيْلِ بِسُورَةِ الشَّمْسِ ؛ وَاكْتَحَلَتِ الْأَعْيُنُ بِمِرْوَدِ
السُّبَاتِ ، وَخَافَ كُلُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِصْدَارَ الْبَيَّاتِ

ينامُ بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهِ وَيَتَّقِي * بِأُتْرَى الْأَعَادَى ، فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمًا !

إِلَى أَنْ تَرَأَتْ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَأَضْطَرَمَّ نَارُ الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَلَمْ تَرَ إِلَّا ضَرْبًا
يَجْعَلُ الْبَرْقُ نَفْثًا ، وَيَتْرُكُ فِي بَطْنِ كُلِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شُلُوبًا ؛ حَتَّى صَارَتْ الْمَقَاوِزُ
دِلَاصًا ، وَمِرَاتِيحُ الظُّلُمَاتِ لِلظُّلُمَاتِ عِرَاصًا ؛ وَأَقْتَنَصَتْ أَسَادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُشْرِكِينَ أَقْتِنَاصًا ،
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَنَاصًا ؛ فَلَا رَوْضَةَ إِلَّا دِرْعُ
وَلَا جَنُودَ إِلَّا حُسَامٌ ، وَلَا غِمَامَةً إِلَّا تَقَعُّ وَلَا وَبْلَ إِلَّا سِهَامٌ ؛ وَلَا مُدَامَ إِلَّا دِمَاءٌ
وَلَا تَقَمَّ إِلَّا صِهِيلٌ ، وَلَا مُعَرِّدَ إِلَّا قَاتِلٌ وَلَا سَكْرَانَ إِلَّا قَتِيلٌ ؛ حَتَّى صَارَ كَأَقْوَرِ الدِّينِ
شَقِيقًا ، وَتَلَوَّنَ الْحَصْبَاءُ مِنَ الدِّمَاءِ عَقِيقًا ؛ وَضَرَبَ النَّقْعُ فِي السَّمَاءِ طَرِيقًا ، وَأَزْدَحَمَتْ
الْجَنَائِبُ فِي الْقَضَاءِ بِجَعَلَتِهِ مِضْبِقًا ؛ وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ذَلِكَ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها في بعض
المجاميع فحفظها منه ، وهى فى غاية من البلاغة ، إلا أنها لا تخلو من تغيير وقع
فى بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث إنه ليس من أهل هذه
الصناعة . ولم يسعنى ترك إيرادها لما فيها من المحاسن ، ولأفرادها بأسلوب من
الأساليب التى كتب بها إلى ملوك اليمن ؛ فأوردتها على ما هى عليه ، وجزئ الله خيرا
من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ماجرى عليه في "التثقيف" أن تفتتح المكاتبة بلفظ
أعزَّ الله تعالى أنصار المقام العالی)

صدره على ما ذكره في "التثقيف" أعزَّ الله تعالى أنصار المقام العالی، السلطانی،
الملکی، الفلانی، الفلانی، مثل أن يقال : الأفضلی السیفی، ثم الدعاء؛ ثم يقال :
أصدرناها وتبدي لعلمه الكريم كذا وكذا . قال في "التثقيف" والمكاتبة اليه في قطع
النصف والطلب منه «والقصد من المقام العالی» وخاتمة الكتاب بالدعاء، والعلامة
«أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفي دستور المقر الشهابي بن فضل الله أن
خطابه يكون بالمقام العالی .

وهذه نسخة كتاب إليه ، ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في تذكرته أنه أنشأها
جوابا عن هديته ولم يكتب بها إليه ، وهو يومئذ الملك المجاهد سيف الدين على
أبن داود .

أعزَّ الله تعالى أنصار المقام العالی، ولا زالت مكارمه تحض من كل نوع بأحسنه،
وتثقف بأزیده وأزینیه، وتجلب كل غريب الديار من وطنه، وتمنح من السوابق
بما تمتد المجرة في رسته، ومن المحاسن بما يملئ على (على) أوصاف حسنه، ويعرب
عن الفرس والسيف والريح بأطيب لحن في نصيه وجره ورفعته .

صدرت إلى المقام العالی أعزَّ الله جانبه تصل بوداده، وتصف حبا على
بقواده، وتعرض ببراء مينية أحلام الكرى طمعا أن يرى طيفه في زقاده .
وتبدي أن كتابه الكريم ورد جالبا لدر مننه، جالبا لليمن من يمينه، نافعا بالطيب

من عَدَنِهِ ، نَاقِدًا من قُوَّة السِّيفِ بِمَا لَا يَدَّعِيهِ ابْنُ ذِي يَزَنَ ؛ فُتُوْمَلِّ مَا حَوَى من
كَرَم لَا يُجَارِي ، وَنِعِم تَمَلُّ الْبَرِّ بِرًّا وَالْجَارَ بِجَارًا ؛ وَأَبْدَعُ في الهبة التي قَدَر مَهْدِيهَا ،
وَقَدَّرَ فِيهَا من الصَّخْفِ مَا لَا يُوجَد إِلَّا فِيهَا ؛ وَجَاءَ بِكُلِّ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ الْمُرَاطِبُ ، وَتَهْتَرُّ بِهِ
الْخَزَائِنُ وَالْمُرَاطِبُ ؛ وَتَفْتَحُ من الرِّمَاحِ بِكُلِّ مَعْتَدِلٍ قَاسِطٌ ، وَبِمَا يُرِيدُ الْعِدَا من
أَسْنَتِهِ بِكُلِّ نَجْمٍ هَابِطٍ . كَمْ لَهَا من فَعِيلٍ جَمِيلٍ لَا يُشَارَكَ ، وَكَمْ قَالَ طَعِينٌ : إِنَّ لَهَا
كُفْبًا مَدُونًا وَمَا قَدَّرَ الطَّاعِنُ أَنْ يَقُولَ إِلَّا أَنَّهَا كَتَبَتْ مُبَارَكٌ . وَمن السِّيفِ بِمَا
لَا يَطْلُعُ النهرُ في نَصَلِهِ ، وَلَا يَطْمَعُ البرقُ في مَنَاضِلِهِ مِثْلُهُ ، وَلَا يَطْمَحُ الْهَلَالُ أَنْ
يَسْتَقِيمَ عَلَى شَكْلِهِ ؛ كَمْ أَحْمَدْتُ أَنْفَاسًا وَلَهَا أَلْتِهَابٌ ، وَلَمَعَتْ من نَوَاحِي الْعُمُودِ
كَأَنَّهَا تَصَلَّتْ أَنْمَلُ من خَضَابٍ . وَمن الْخَلِيلِ بِمَا تَرْقُصُ في أَعْنَتِهَا ، وَتَفْتَحُ عَلَى الْبُدُورِ
بِأَنَّهَا تَدُوسُ عَلَى أَهْلِهَا : من كُلِّ أَشْهَبٍ يُحْسِنُ آتِيْدَارًا ، وَيُحْسَبُ قَرَأًا قَدْ تَكَلَّلَ
إِبْدَارًا ، وَيُطْلَعُ في كُلِّ نَاحِيَةٍ نَهَارًا بِجَهَارٍ . وَأَدْهَمَ قَدْ غَصَبَ الظَّلَامُ ، وَأَسْتَدَارَتْ
غُرَّتُهُ فَاسْفَرَّ وَجْهَهُ تَحْتَ بُرْقٍ من لَنَامٍ . وَأُخْوِي أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ من بَيْتٍ للعَرَبِ ،
قَدْ حَوَى من الرُّوضِ مَا سَلَبَ . وَكُمَيْتٌ يَنْضُو النِّعَاقَ وَهُوَ سَبُوقٌ ، وَتَقَدَّمَ في مِيَادِينِهِ
بِفَاءٍ مَضْمَحًا بِالْخَلْقِ . وَأَشْقَرَّ قَدْ كَشَفَ الْبَرْقُ عِذَارَهُ ، وَأَطَارَ الرُّكُضُ مِنْهُ شَرَارَهُ ؛
وَمَعَهَا كُلُّ فَيْسَلٍ كَأَنَّهُ غَمَامٌ تَبْدَى ، أَوْ مَلِكٌ مُفْتَدَى ؛ بِمُخْرُطُومٍ يَرْتَدُّ كَالصَّوْبِ لِحَانٍ ،
وَيَمْتَدُّ كَالْأَعْوَانِ ؛ وَيَهْوِلُ مَنَظَرُهُ كَأَنَّهُ من تَمَامِ الْخَلْقِ بُيَانٌ ، وَيَتَحَرَّكُ فَتَحْسَبُهُ كُمٌ
رَاقِصَةٌ تُشِيرُ بِهِ إِلَى النُّدْمَانِ ؛ تَفْتَحُ مِنْهَا الْجُلُودُ ، وَتَقْتُلُ نَفْسَهَا بِنِيرَانِ الْحِقْدِ مَحَافِظَةً
عَلَى عُهْدِ الْهَتُودِ ؛ كَمْ أَحْسَنْتُ بِمُخْرَاطِمِهَا لَهَا مِنْ صُدُورِهَا الضَّيْقَةِ مَخْرَجًا ،
وَأَضَاعَتْ من قُرُوجِهَا بَيْنَ أَنْيَابِهَا طَوْزَةً صُبَّحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّبْحِ ؛ وَزُرَافَةٌ ، لَهَا إِنَافَةٌ ،
كَأَنَّهَا شَفَقٌ بَيْنَهُ مَجُومٌ ، أَوْ بُرُوقٌ تَكَلَّتْ بِقَطْرِ الْغَيْومِ ؛ لَهَا في الْمَدْخَلِ عَلَى الْقُلُوبِ

حذاقه، ووُلُوج من بابٍ ودُخُول من طاقه، وحمارة وحشية جاءت بوصف الربيع في اعتدال الليل والنهار، وجمعت الهالات والأقمار، ودلت على أصل كريم فتحت في فروعه الأزهار، وحكت بخطوطها الدّوح مما تراكم ظلّه فاطلم، وأنفّرج فانار. وغمر يؤلف على نقاره، ويسبح ليله في أنهار تناره؛ يتدفق في مثل أنبوب القناة المضطمر، ويصدق من شبه ركود الرّيا على الرمال بقطعة من جلدة الثمر. وقط الزباد الذي لائحته الأسود في صورها، ولا تسمع غزلان المسك بما يحزنه من عرفه الطيب في سرّرها؛ كم تنقل في بيوت وطابت موطنها، ومشى من دار أصحابه فقالوا: ربنا عجّل لنا قطنًا؛ وكذلك من الطيب ما يطيب، وما يزور بنفحه الحبيب؛ قد بعث أكبره، وأفاد أكثره؛ وأستخدم المتعممون به صنفه وكافوره وعنبره. وغير هذه الأنواع مما جاد بإرساله، وأتى من كلّ بديع به وبأمثاله؛ فقبولت بالقبول هذه التحف، وأكرمت إكرام من لها عرف و[بها] اعترف؛ ووجد سبحانه الذي تسرعت مواطره، وبعثت من طرفها بالروض وما تنوء عنه أزاره، وشرعت بما أتصلت بمصر أوائله وبألمن أواخره؛ والله تعالى يشكر همه التي تعالت، وشيمه العلوية التي لأجلها المحامد قد توالّت. وقد جهّزنا له من التحف المنعم بها ما أمكن تعجيل حمله، وجرّت عوائد ملوك الأقاليم بالتشريف من خزانتنا العالية بمثله؛ وحمّلنا رسله من السلام ما تعبق به الفجاج، وتعذب به البحار وهي ملح أجاج. والمراد منه أن يواصل بمكاتباته التي تتناوب الصدور، وتوب عن تحة البدور، وتؤب بما تقدّم به من السرور؛ والله تعالى يُديم لسلطانه التأييد، ولملكه التأييد، ولا قدره مابه تمزّعزّع ويميد زبيد. إن شاء الله تعالى.

فائدة — المكتبة إلى صاحب اليمن عن ولي العهد بالسلطنة كالمكتبة إليه عن السلطان نفسه في جميع المكتبة على السواء.

وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر عن «الأشرف خليل
ابن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبشرى بفتح
ظراً بلس .

وهذه نسخته :

أعزَّ الله تعالى نصرة المقام! وأوفدَ عليه كلَّ بشرى أحسنَ من أختها ، وكلَّ
تهنئة لا يجلُّها إلا هو لوقتها ؛ وكلَّ مبهجة يعجز البنائ والبيان عن ثبتها ونعتها ، وتبليج
فتوئ الدُرِّ والدَّرَارِي لو رقت هذه إلى ترقبها وسمت هذه إلى سمتها . وصبحه منها
بكل هاتفة أسمع من هوائف الجمائم ، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند
عزائم النسيم ؛ وبكل عاطفة أحنَّه الإتحاف بالإيخاف الذي شكرت الصفايح منه
أعظم قدير والصحائف أكرم قديم ؛ والغزو الذي لا يخص تهامة ببشره بل جميع
التجود والتهائم ، وذوى الصوارم والصرائم ، وأولى القوى والقوائم ، وكل ثغر عن
أبتهاج الإسلام باسم ، وكل بربر بتوصيل ما ترتب عليه من ملاحم ؛ وكل بحر عذب
يمون كل غاز لا ينجس عن جهاد الكفار في عقر الدار الشكائم ، وكل بحر ملح كم تغيظ
من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم .

المملوك يُخدم خدمة يقتفى فيها أثر والده ، ويحرق في تجليلها على أجل عوائده ؛
ويستفتح فيها استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف حميده ، ويصف ولأه
قد جعله الله أجل عقوده وأكل عقائده ؛ ويشفعها باخلاص قد جعله ميلة أحسن
ومائله وقلبه أزين وسائده ؛ ويطلع علمه على أن من يتجأ المتعرضين إلى الإعلان
بشكر الله تعالى في كل ما يعرض للمسلمين من نصر ، ويُفترض لهم من أجر غزوكم
قعد عنه ملك فيما مضى من عصر ؛ أن يقدروا هذه النعمة حق قدرها من التحدث

بِنِعْمَتِهَا ، والتنبية بِسَمَاعِ نِعْمَتِهَا ، وإرسال أَعْنَةِ الأَقْلَامِ بها في ميا دِينِ الطُّرُوسِ ،
وإدارة حِرْيَاءِ وَصِفِ حَرْبِ (٩) إِلَى مُوَاجَهَةِ خَيْرِ الشُّمُوسِ .

ولما كانتْ غَزَوَاتُ مولانا السُّلْطَانِ مَلِكِ البَسِيطَةِ الوَالِدِ خَلَدِ الله سُلْطَانَهُ قَدْ
أَصْبَحَتْ ذِكْرًا لِلْبَشَرِ ، وَمَوَاقِفُهُ لِلنَّصْرِ كَمَا جَاءَتْ هِيَ وَالْقَدَرُ عَلَى قَدَرٍ ؛ وَقَدْ صَارَتْ
سِيرُهَا وَسِيرُهَا هَذِهِ شِدُو فِي الْأَسْمَارِ ، وَهَذِهِ جَادَةٌ تَسْتَطِيبُ مِنْهَا حُسْنَ الْحَدُو السُّقَارِ ؛
فَكَمْ قَاتَلَتْ مَنْ يَلِيهَا مِنَ الْكُفَّارِ ، وَكَمْ جَعَلَتْ مِنْ يُوَالِيهَا وَهُوَ مَنْصُورُهَا مَنْصُورًا
بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

ولما أَذَلَّ اللهُ بِأَسْأِهَا طَوَائِفَ التَّنَّارِ فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْعَجَمِ ، وَجَعَلَ حَظَّ قُلُوبِهِمْ
الْوَجْعَ مِنَ الْخَوْفِ وَنَصِيبَ وَجْهِهِمْ الْوَجْمَ ؛ وَأَخْلَى اللهُ مِنْ نُسُورِهِمِ الْأَوْكَارَ
وَمِنْ أَسُودِهِمِ الْأَجَمَ ، وَقَصَّرَتْ بِهِمْ هِمَمُهُمْ حَتَّى صَارُوا يَخَافُونَ الصُّبْحَ إِذَا هَجَمَ ،
وَالظَّنَّ إِذَا رَجَمَ ؛ وَصَارَتْ رُؤْيَا الدَّمَاءِ تُفَزِعُهُمْ فَلَوْ أَحْتَاجَ أَحَدُهُمْ لِنَقِصِ دَمٍ
لِمَرِيضٍ لَأَجْنَحَ مِنْ خَوْفِهِ وَمَا أَحْتَجِمَ . وَأَبَادَ اللهُ الْأَرْمَنَ فِخْلًا بِالنَّبِيلِ مِنْهُمْ الْوَيْلَ ،
وَمَا شَمَّرَ أَحَدٌ مِنَ الْجُنُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ سَاعِدٍ إِلَّا وَثَمَرَهُ مِنَ الذِّلِّ الذِّلَّ ؛ وَلَا
أَثَارَ الْجِيَادِ مِنَ الْخَيْلِ عِنْدَ مُنْعَقِدِهَا إِلَّا وَظَنُوهُ مَسَاءً قَدْ أَقْبَلَ أَوْ لَيْلٍ ، وَأَتَتْهُ
نُوبَةُ الْقَتْلِ بِهِمْ وَالْإِسَارَ إِلَى التَّكْفُورِ لِيَقُونَ مَلِكَ الْأَرْمَنِ الَّذِي كَانَ يَحْيِي سَرَحَهُمْ ،
وَيَمُرِّدُ صَرَحَهُمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ هَتَفَ التَّنَّارِ وَيَسْتَرْجِعُ صَدَحَهُمْ ؛ وَتَعَتَّرَ طَرَابُؤُسُ
الشَّامِ بِأَنَّهُ خَالٌ أَبْرَثَهَا الْكَافِرُ ؛ وَلِسَانُ شُورَتِهِ السِّفِيرِ وَوَجْهُ تَدِيرِهِ السَّافِرُ . وَطَالَمَا
غَرَّ وَأَغْرَى ، وَأَجْرَّ وَأَجْرَى وَصَرَّ وَأَضْرَى ؛ فَلَمَّا تَوَكَّلَ مولانا السُّلْطَانُ وَعَزِمَ
فَتَوَكَّلَ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْبَسَاءَ بِهِ قَدْ نَزَلَ وَمَا تَشَكَّلَ أَنَّ ذَلِكَ فِي ذِهْنِ الْقَدَرِ قَدْ تَصَوَّرَ
وَتَشَكَّلَ ، وَأَنَّ يَوْمَهُ فِي الْفَتَكِ سَيَكُونُ أَعْظَمُ مِنْ أُمْنِيَّتِهِ ، وَأَعْظَمُ مِنْهَا مُعَادَاةُ غَدِهِ ،

وَأَنَّ نصر الله لن يُخْلِفَهُ صادقٌ وعده؛ أَكَلَّ يَدَهُ ندامةً على ما قَرِطَ في جَنبِ الله وساق الخَنَفَ لنفسه بيده، فَعَمَرَ الله بُرُوحَهُ الخَيِّثَةَ الدَّرَكِ الأَسْفَلَ من النار، وسقاه الخَنَفَ كأسًا بعد كأسٍ لم يكن لهما غَيْرُ المَلَكِ من نَحَارٍ . وكانت طرابِلُسُ هي ضالَّةُ الإسلام الشَّريده، وإحدى آبَاقِيَتِهِ من الأعوام العديده؛ وكلما مَرَّتْ شَمَخَتْ بِأَنفِهَا ، وثاقَتْ في تَحْسِينِ مَنَازِهِ مَنَازِيهِهَا وتزِينِ رَيَاحِنِهَا وَعَصْفِهَا، ومَرَّتْ وهي لَا تَفَازِلُ مَلِكًا بِطَرَفِهَا ، وكلما هَاقَمَ عَهْدُهَا تَكَثَّرَتْ بِالْأَفْوَاجِ والأَمْوَاجِ من بين يَدَيِهَا ومن خَلْفِهَا . إذِ البحرُ لها جِلْبَابٌ والسَّحابُ لها حِمَارٌ، وليس لها من البرِّ إلا بِمَقْدَارِ سَاحَةِ البابِ من الدار؛ كأنها في سَيْفِ ذلك البحرِ جَبَلٌ قد انْحَطَّ، أو مِثْلُ أَسْتَوَاءٍ قد نَجَحَ عن الخَطِّ ، وما قصد أحدٌ شَطْطَها بِنِكايةِ الأَشْطِ وَأَشْطَطَ .

قَدَّرَ اللهُ تعالى أَنَّ صَرَفَ مولانا السلطانُ إليها العِنانَ، وسَبَقَ جيشُهُ إليها كُلَّ خَبِيرٍ و"ليس الخَبِيرُ كالعِيانِ"، وجاءها بِنَفْسِهِ النَفِيسَةِ والسَّعَادَةِ قد حَرَسَتْهُ عِيونُهَا وتلك الخَافِوُفُ كُلُّهَا أَمَانٌ، وقد اتَّخَذَ من إقْدَامِهِ عليها خَيْرَ حِجَابٍ ومن مُقَاجَاةِهَا أَمَدَ عِنانٍ؛ وفي خِدْمَتِهِ جُنُودٌ لَا تَسْتَبِعُدُ مَقَازِهِ ، وكَمِ رَاحَتٌ وَغَلَّتْ وفي نَفْسِهَا لِلْأَعْدَاءِ حَزَازَةٌ؛ فامْتَطَوْا بِحُيُومِهِم من جبالِ لُبْنَانَ نِيجَانًا لها صَاعَتُهَا التَّلُوجُ، ومَعَارِجَ لَأَمْرافِيقَ بها غَيْرُ الرِّيحِ المَوجِ ؛ وَأَخْطَطَتْ تلكَ الجِيُوشُ من تلكَ الجَنَادِلِ ، انْحَطَّاطَ الأَجَادِلِ ؛ واندفعُوا في تلكَ الأَوْعَارِ ، اندَفَاعَ الأَوْعَالِ ؛ ولم يَحْفَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَرَبٍ لاصِقٍ، ولا جَبِلٍ شَاقٍ ؛ فقال : أَهَذَا مُنْخَفِضٌ أَوْعَالٌ، وَشَرَعُوا في التَّحْصِيلِ لما يُوهِي ذلكَ التَّحْصِينَ، وَأَبْقَى كُلُّ سَورَا أَمَامَ أسوارِها من التَّذْيِيرِ الحَسَنِ والرُّبِيِّ الرَّصِينِ؛ فَمَا لَبِثُوا إلا بِمَقْدَارِ ما قِيلَ لَهُمْ دُونَكُمْ والاختِطَابِ ، وَتَقِيلُ الجَنَابِيقُ على الخَلِيلِ وعلى الرِّقابِ ؛ حتَّى جَرَّوْها بِأَسْرَعٍ من جَرِّ النَّفْسِ ، وأَجْرَوْها على الأَرْضِ سَفَائِنَ وكَم قالوا : السَّفِينَةُ لَا تَجْرِي على يَأْسٍ ؛ وفي الحالِ قِيلَتْ لَهَا فَرَاوًا من

متوَقِّلها مَنْ يَمِشِي بها على رجلين ومنهم مَنْ يَمِشِي على أربع ، ووجَّهَتْ سِهامُها وجُوهَها إلى منافذها فما شُهِدَتْ منها عينٌ إلا وكان قُدَّامُها منها لاصِبٌ ؛ وألْقِيَتْ العَدَاوَةُ بنَ الحِجَارَةِ منَ الحِجَابِيقِ والحِجَارَةِ منَ الأَسوارِ ، فكم تَقَبَّتْ ونَقَبَتْ عن فلذة كبدِها ، عن
(١) وأوقِدَتْ نيرانُ المكايدِ ثُمَّ فكم حوَّلَها من صافِرٍ ومن صافِرٍ ، وكم رَمَتْهم بَشَرَرُ كالْقَصْرِ فوقَ الحافِرِ كما يقال على الحافِرِ ؛ وما بَرِحَتْ سَوْقُ أَهْلِ الإِيْمانِ في تَفَاقٍ ، على أَهْلِ التَّفَاقِ ، وأَكْرَهُمُ تُساقُ ، أرواحُهم الخبيثة إلى السَّاقِ .

وكان أَهْلُ عَمَّا قد أُنْجِدُوهم منَ البحرِ بكلِّ برٍّ ، ورمَوْا الإسلامَ بكلِّ شرٍّ وبكلِّ شرٍّ ؛ فصار السُّنْمُ الذي يَخْرُجُ بها لا يَخْرُجُ إلا مَقْتَرِنًا بِسِهامٍ ، وشُرُفاتُ ذلكَ الثغرِ كالثَنائِيا ولكنها لَكثَرَةٌ مَنْ بها لا تَقْتَرُّ عن اِتِّسَامِ .

وما زالت جنودُ الإسلامِ كذلك ، ومولانا السلطانُ لا تُرى جماعةٌ مقدِّمة ولا مُقدِّمة إلا وهو يُرى بين أولئك . واستمرَّ ذلكَ منَ مُسْتَهَلِّ ربيعِ الأوَّلِ إلى رابعِ ربيعِ الآخرِ ، فزحفَ إليها في بُكْرَةِ ذلكَ النهارِ وهو الثَّلَاثاءُ زَحْفاً يَتَمَحَّمُ كُلُّ هَضْبَةٍ ووَهْدَةٍ ، وكلَّ صُلْبَةٍ وصلْدَةٍ ؛ حتَّى أُنْجِزَ اللهُ وَعْدَهُ ، وفتحها المسلمونَ مَجَازًا وفي الحَقِيقَةِ فَتَحَها وَحْدَهُ ؛ وطلعتْ سَنابِقُ الإسلامِ الصُّفْرَ على أسوارِها ، ودُخِلَتْ عليهم من أَفْطارِها ، وجاسَتْ الكِسابَةُ إلى ديارِها ؛ فاحتازها مولانا السلطانُ لِنَفْسِهِ مَلْكا ، وما كان يَكُونُ لَهُ في فَتْحِها شريكٌ وقد قَتَلَ عنها شُرْكا ؛ وَكُلُّنا قِيلَ هذه طرائِسُ فَصِحَتْ قالَ النُّصْرُمانُ قُتِلَ فيها مِنَ التَّجْدِ الواصِلَةِ : واكثرَ عَمَّا وأَهْلُ عَمَّا ؛ وأعادَ اللهُ تَعَالَى بها قُوَّةَ الكُفْرِ أنْكَانا ، فكانَ أَخْذُها منَ مائةِ سَنَةٍ وثمانينَ سَنَةٍ في يومِ ثَلَاثاءَ ، واسترِدَّتْ في يومِ الثَّلَاثاءِ .

ولما عَمَّتْ هذه البشائر ، وَكَلَّ بها مولانا السلطان إلى كُلِّ من يَسْتَجِبِي حَسَنَ هذه العَرَّاسِ ، وَيَسْتَعْلِي نَفِيسَ هذه النَّفَّاسِ .

سَيَّرَ مولانا السلطان إلى المولى كُلِّ بِشْرِي تَقَعَّقَ بها البريد ، لُتْنِي بِأمره على كُلِّ من أَلْقَى السَّمْعَ وهو شَهِيدٌ ؛ وَكَيْلَ عَمِّ السُّرُورُ بِذلك كُلِّ قَرِيبٍ قَصِدَ أنْ يُعَمَّ الهَنَاءُ كُلِّ بَعِيدٍ .

وأَصْبَحَ المملوكُ هذه الخَلْدَةَ يَتَجَرَّبُ بين يديه تَجَوَّاهَا ، وَيَتَوَثَّبُ بعد هذه القَاتِحَةِ المَبَارَكَةِ لِكُلِّ سَانِحَةٍ يَحْسُنُ لدى المولى مَسْتَقَرُّهَا وَمَثْوَاهَا ؛ لِأَبْرَحِ المَقَامَ العَالِيَّ يَسْتَبْشِرُ لِنُكَاةِ الإِسْلَامِ بِكُلِّ فَضْلٍ وَبِكُلِّ نَعْمَى ، وَيَفْرَحُ بِسَرِّهِ الكُفْرَ إِذَا أَتَتْكَ وَبَسْفَحِ المُلْكَ إِذَا يُجْحَى ، وَبَسْمَعِ الشَّرْكَ إِذَا يُصَمُّ وَبِقَلْبِهِ إِذَا يُصْمَى ؛ وَاللهُ المَوْفَى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم)

قد تَقَدَّمَ في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنَّ بلاد البحرين لم تزل بيد العرب ، وَأَنَّهَا صَارَتْ الآنَ بيدَ بَنِي عَقِيلٍ - بِضَمِّ العين - من بَنِي حَامِرٍ بنِ صَعْصَعَةَ ، من هَوَازِنَ ، من قَيْسِ عِيلَانَ ، من الْعَدْنَانِيَّةِ . قال في " التعريف " : ومنهم قَوْمٌ يَصِلُونَ إلى بابِ السُّلْطَانِ وَصُولَ التُّجَّارِ ، يَحْبُوتُونَ جِيَادَ الْخَيْلِ وَكِرَامَ المَهَارِي وَالذُّؤْلُورِ وَأَمْتَعَةً من أَمْتَعَةِ الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ ، وَيَرْجِعُونَ بِأَنْوَاعِ الْحَبَاءِ وَالْإِنْعَامِ وَالْقَاشِ وَالسُّكَّرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَيُكْتَبُ لَهُمُ بِالنَّسَاجَةِ فَيَزِدُّونَ وَيَصُدُّونَ . قال : وَبِلَادِهِمُ بِلَادُ زَرْعٍ وَصَرْعٍ ، وَبَرْ وَبَجْرٍ ، وَلَهُمْ مَتَاجِرُ مُرْمِيحَةٍ ، وَوَصِلُهُمْ إلى الْهِنْدِ لَا يَنْقَطِعُ ، وَبِلَادُهُمْ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ ، وَلَهُمْ قُصُورٌ مَبْنِيَّةٌ ، وَأَطَامٌ عَلَيْهِ ، وَرَيْفٌ غَيْرُ مَتَسَعٍ ، إلى مَا لَهُمْ مِنْ أَلْعَمِّ وَالْمَاشِيَةِ ، وَالْحَاشِيَةِ وَالْقَاشِيَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ الْكَلِمَةَ قَدْ صَارَتْ بَيْنَهُمْ شَتَّى ،

والجماعة متفرقة . وقد سبق الكلام على بلادهم مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك .

قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إلى كُبرائهم «السامي» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مَادُونْ ذلك لمن دُونهم .

وأعلم أنه في "التتيف" قد جمع بين عَرَب البحرين وعَرَب البصرة وما وإلى ذلك ، وجعل المكتبة إليهم على ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — مَنْ يكتب إليه «السامي» بالياء والعلامة الاسم ، وذَكَرَ أَنَّ بها يكتب أميرهم ، وسماه حينئذ «صَدَقَ بن إبراهيم بن أبي دلف» وأن تعريفه فلان بن فلان . وذَكَرَ في رتبته في المكتبة يومئذ محمد بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلى بن منصور ،

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه «السامي» بغير ياء والعلامة الاسم . وذَكَرَ منهم بَدْرَان بن مانع — رُوِيَ بن أبي دلف — زَيْن بن قاسم — يُوْسُف بن قاسم ، سَعِيد بن معدى — راشد بن مانع — عيسى بن عرفة — ظالم بن مجاشع — إسماعيل آين صواري — كَلْبِي بن فاجد بن بَدْرَان — مانع بن على — مانع بن بَدْرَان ،

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه «مجلس الأمير» والعلامة الاسم . وعدَّ منهم جماعة ، وهم عظيم بن حسن بن مانع — موسى بن أبي الحسن — مُعَنْد بن مُعَاسِر — زيد بن مانع — هلال بن يحيى — معمر بن مانع — محمد بن حَلِيفَة .

قلت : وحاصل ما ذكره في "التعريف" و"التتيف" أن جملة المكتبة إليهم لا تجاوزُ المراتب الثلاث المذكورة ، والكاتب يستشير أخبارهم في القنطار ، ويُثَرِّل كل واحد منهم على قدر مرتبته من ذلك كما في الأسماء المتقدمة الذكر .

المهيم الرابع

(في المكتبة إلى صاحب الهند والسند)

وقد ذكر في " التعريف " أن صاحبه في زمانه كان اسمه أبا المجاهد محمد بن طغلقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، وبراً وبحراً ، وسهلاً وقفراً ، وأن سيمته في بلاده « الإسكندر الثاني » ثم قال : وتالله إنه يستحق أن يسمى بذلك ويوسم به : لا تساع بلاده ، وكثرة أعداده ، وغزير أمداه ، وشرف منابت أرضه ، ووفور معادنه ، وما تبتته أرضه ، ويخرج به بجره ، ويحجي إليه ، ويرد من التجار عليه . وأهل بلاده أمم لا تحصى ، وطوائف لا تعد . ثم حكى عن قوم ثقات منهم قاضى القضاة سراج الدين الهندى الحنفى ، وهو يومئذ مدرس البيدرية بالقاهرة ، والتاج البرى ، والشيخ مبارك الأنبايى : أن عسكر هذا السلطان نحو التسعمائة ألف فارس ، وعنده زهاء ألفي فيل يقاتل عليها ، وخلق من العبيد يقاتل رجاله مع سعة الملك والحال ، وكثرة الدخل والمال ، وشرف النفس والإباء ، مع الانضاع للعلماء والصلحاء ، وكثرة الإنفاق ، وعميم الإطلاق ، ومعاملة الله تعالى بالصدق ، وإخراج الكفاية للترزقه ، بمرتبات دائمة ، وإذارات متصلة ؛ بعد أن حكى عن رسوليه دميخوان وافخار ما قال : إنه لو سكنت النفوس إلى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدث عنه الغرائب ، ثم ذكر أنه أرسل مرة مالا يرسم الحرمين وبيت المقدس ، وهدية للسلطان تزيد على ألف دينار ، فقطع عليها الطريق باليمن ، وقُتل مُحضَرها بأيدى مماليك صاحب اليمن ، لأمر بيت بليل ؛ ثم قُتل قائلوه ، وأخذ أهل اليمن المال وأكلوه ؛

وكتب عن السلطان إلى صاحب إمين في هذا كتاب منه « وقد عددت عليه فعلته »
وقيل فيه : « وفعل مالا يليق ، وأمسى وهو يُعد من الملوك فأصبح يعد من قطاع الطريق » . وقد سبق في الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعظم قدر رجالها ما فيه كفاية عن الإعادة .

قال في " التعريف " : ورسم المكتبة إليه رسمُ المكتبة إلى القانات الكبار المقدم ذكرهم ، في هيئة الكتاب وما يكتب به والطغرة والخُطبة . وألقابه « المقام الأشرف ، العالى ، المؤلوى ، السلطانى ، الأعظمى ، الشاهنشاهى ، العالمى ، المجاهدى ، المرابطى ، المتأخرى ، المظفرى ، المؤيدى ، المنصورى ، إسكندر الزمان ، سلطان الآوان ، منبع الكرم والإحسان ، المعق على ملوك آل ساسان ، وبقايا أفراسياب وخاقان ، ملك البسيطة ، سلطان الإسلام ، غياث الأنام ، أوحده الملوك والسلاطين » ويدعى له . قال : ولم يكتب إليه في ذلك الوقت لقب ينسب إلى الخلافة نحو « خليل أمير المؤمنين » ومايجرى هذا الجرى ، إذ كان قد بلغنا أنه يربأ بنفسه إلى أن يدعى الخلافة ، ويرى له فضل الإنافه .

قلت : مقتضى ما ذكره في " التعريف " حيث قال : إن رسم المكتبة إليه رسم المكتبة إلى القانات الكبار في هيئة الكتاب وما يكتب به ، والطغرة والخُطبة ، أن المكتبة إليه تُفتتح بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله » كما تقدم في آفتاح المكتبات إلى القانات . والذي ذكره في " التنقيف " أن المكتبة إليه تكون في قطع البغدادى الكامل بالذهب والأسود ، كما جرت العادة به ، يعنى في كُتب القانات ، إلا أنه جعل رسم المكتبة إليه : « أعز الله تعالى أنصار المقام ، العالى ، السلطانى ،

(١) في الأصل وقد سبق القول في الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى » . ثم قال : وهذه الألقاب سطران كاملان وبينهما بيت العلامة على العادة ، وبعد السطرين المذكورين فى الجانب الأيمن من غير بياض « أبو المجاهد محمد ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمتة » . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالى
بيت العلامة

السلطاني ، العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى
قال فى " التعريف " : والعنوانُ جميعه بالذهب وهو سطران ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقيـة الكتاب بالسواد والذهب أسوة القانات ؛ وبه يُشعر كلام " التعريف " فيما تقدم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به ، ذكره فى " التعريف " وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُسيراً ، وزمانه بما يقضى به من خُلود مُلكه خيراً ،
وشأنه وإن عَظُمَ يتَدَقَّقُ بحراً ويُرْسِي قَيْراً ، ومكانه وإن جَلَّ أن يحيطَ به مسكن الليل -
بملا الأرجاء أرباباً والوجودَ عييراً ، وإمكانه يستكين له الإسكندر خاضعاً وإن حاز
نعياً جماً ومُلْكاً كبيراً ، ولا يَرَحُّ الملوكة بولائه تتشرف ، وبآلائه تتعزف ، وبما
تَطْبَعُ مهابته من البيض يبيض الهند فى المَهْجِ تتصرف . المملوكُ يخدمُ بدعاء يحلِّق إلى
أفقه ، [ويُحِلُّ العلياءَ والمجرَّة فى طَرَفِهِ ^(١)] ، ويُهدى منه ما يعتدلُّ به الناج فوق مرقفه ،
ويعتدلُّ له النجم ولا يثنيه إلا وسادة تحت مرقفه ، ويسمو إلى مقام جلاله ولا يسأم

(١) الزيادة من " التعريف " وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا ملَّت النجوم عن السير؛ ولا يزال يَصِفُ ملكه المَحمَدِيَّ
بأكثر مما وُصف به الملوك السلياني، وقد قال: وأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وعَلَّمَنَا
مَنْطِقَ الطير.

قلت: وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ابتداء المكتبة بالدعاء، خلافا لما تقدم
أنه مقتضى تصوير كلامه في "التعريف".

وأعلم أنَّ في هذه المكتبة على ما ذكره في "التعريف" شيئين قد خالف فيهما
قاعدة المكتبات عن الأبواب السلطانية.

أحدهما - إتيانه في "التعريف" في ألفابه بالمولوى. والثاني - قوله في الصدر المتقدم
الذكر «المملوك يخدم». فقد ذكر صاحب "التعريف" في كتابه "عرف التعريف":
أن السلطان لا يكتب عنه في العلامة «المملوك» وإنما خالف القاعدة في ذلك هنا
تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاء لرتبته، حيث قال في أول كلامه: إنه أعظم
ملوك الأرض على ما تقدم ذكره، فعبّر عن مقامه بما يليق به، وخطبه بما يليق
بخطابه، كما تقدم أنه كان يُكْتَب إلى أبواب الخلافة «المملوك» أو «الخادم يلتب»
ثرى الاعتبار «أو يقبّل الأرض» ونحو ذلك تعظيماً لمحل الخلافة، لا سيما
وقد تقدم أن صاحب الهند حينئذ كان يدعى الخلافة، إلا أنَّ نظام هذا الملك قد
اختلف وتقصَّ عما كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفي، واستقر مكانه
أبن خالته فيروز شاه.

ولعل المكتبة التي ذكرها في "التتيف" إنما رُتبت على حُكم ما كان في أيامه
بعد ذكر المكتبة المذكورة، بعد أن ذكر أنَّ محمد بن طغلقشاه مات وقام فيروز شاه

(١) لعل هذه البعديّة برمتها من زيادة الناصح أو طغيان القلم كما لا يخفى.

مقامه ، إلا أنه مثل المكتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضى أن يكون هو المعنى بالمكتبة . ثم تفرقت المملكة بعد ذلك في سلطنتين ، فيما أخبرني به بعض أهل الهند ؛ ثم تزايد تقصُّها بعد أن غزا [ها] تمرلنك وغلب عليها ؛ ثم نزح عنها ، وبكل حال فلا ينبغي أن يقصّر بصاحب الهند عن رتبة القانات . ولم أقف على نص مكتبة كتب بها إلى صاحب الهند فأذكرها .

المقصود الثاني

(من المصطلح المستقر عليه الحال من المكتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية في المكتبات إلى ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في المكتبات إلى صاحب أفريقية ، وهو صاحب تونس ، وتتضم إليها بحاية وقسنطينة تارة ، وتنفرد عنها أخرى)

وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك نقلا عن " التعريف " أن حد هذه المملكة غربا من جزائر بني مزغنان إلى عقبة برقة الفارقة بين طرابلس وبين برقة ، وهي نهاية الحد الشرقي ، ومن الشام البحر ، ومن الجنوب آنحربلاد الجريد والأرض السواخة ؛ إلى ما يقال إنه موقع المدينة المسماة بمدينة النحاس . ثم قال : وهو أجل ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدم هناك أيضا ذكر حال مملكتها ومن ملكها جاهلية وإسلاما ، وأنها كانت قبل الإسلام بيد البربر حين كان معهم جميع المغرب ؛ ثم آتت منها الروم

(١) أي الروم كما تقدم في ج ه أثناء الكلام على ملكة تونس .

والفرنج إلى أن انتهت حال الفتح الإسلامي إلى جرجيس ملك الفرنج في جملة ممالك المغرب، ودار ملكه يومئذ سبيلة، إلى أن فُتحت في خلافة عثمان رضى الله عنه على يد عبد الله بن أبي سرح، وتوالت عليها ثواب الخلفاء، وصارت داراً لملكها بها القيروان حتى صارت منهم إلى [بني الأغلب^(١)] ثم إلى العبيديين بنى عبيد الله المهدي، ثم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت، وهى بأيديهم إلى الآن. وهى مستقرة الآن بيد الحفصيين منهم، وهم يدعون النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وأنود بن علي بن أحمد بن والأل بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن ابن محمد بن مجيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمون بها من بنى أبي حفص يدعون الخلافة، ويدعى القائم منهم في بلاده بأمير المؤمنين، وربما كاتبه بها بعض ملوك المغرب. قال في "التعريف": ومن أهل النسب من ينكر ذلك، ويحلهم تارة بنسب إلى عدى بن كعب: رهط عمر بن الخطاب دون بنى عمر. ومنهم من ينسبهم إلى هنتاة من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمة مشهورة.

وهى الآن (إلى حدود النمامية) بيد السلطان أبي فارس عزوز، وقد دقخ البلاد وأظهر العدل ورفع منار الإسلام. وقد ذكر في "التعريف" أن السلطان بها في زمانه كان المتوكل على الله أبو يحيى أبو بكر.

ورسم المكتبة إليه فيما ذكره في "التعريف" أن يكتب بعد البسملة. «أما بعد حمد الله» بخطبة مختصرة في مقتضى الحال، ثم يقول فهذه المفاوضة، أو النجوى، أو المذاكرة، أو المطارحة، أو ما يجري مجرى ذلك، تهدي من طيب السلام (ومن

(١) بيض له في الأصل والتصحيح مما تقدم في ج ٥ ص ٢٢ .

هذا ومثله) إلى الحضرة الشريفة ، العليّة ، السنية ، السرية ، العالمية ، العادلية ، الكاملية ، الأوحدية ، حضرة الإمارة العدوية ، ومكان الإمامة القرشسية ، وبقية السلالة الطاهرة الزكية ، حضرة أمير المسلمين ، وزعيم الموحدين ، والقائم في مصالح الدنيا والدين ، السلطان السيد الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الم رابط ، المناصر ، المظفر المنصور ، المتوكل على ربه ، والمجاهد في حبه ، والمناضل عن الإسلام بذبه ، فلان ويدعى له بما يناسب مختصراً ، ثم يذكر ما يلي بكم الجدود .



صدر آخر - من " التعريف " أيضا :

صدرت إليه هدى إليه من طيب السلام ما ترقى في جانبه الغربي أصائله ، وروى فيما ينصب لديه من أنهار النهار جداوله ، ويحمله لكل غاد ورائح ، ويجرى به السفن كالمئذن والركائب الطلائح ، وتخص ذلك المقتر منه بناءً يعز لأن ينيب لبعده الدار ، ويستطلع ليل العراق به من فرق أفريقية النهار ، وتحامي مصر عن جارتها المنعة ، وتفخر بجاريها الشمس التي لا ترى في أفقها إلا مبرقه .

ولم يذكر في " التعريف " قطع الورق ، ولا العنوان ، والخاتمة ، والعلامة ، ووافق معنى ذلك . والذي ذكره في " التنقيف " أن رسم المكاتبه إليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، نظير ما كتب به لصاحب فاس ، وهو أن يكتب بعد البسملة بحيث يكون تحتها سواء في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبد الله وليه » ثم يخلى مقدار بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسملة . وهي « السلطان ، الأعظم ، المالك ، الملك ، الفلاني ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المؤيد ، المجاهد ، الم رابط ، المناصر ، المظفر ، الشاهنشاه . وهذه

تختصر غالباً - ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، مُنصِف المظلومين من الظالمين ، وارثُ المُلك ، سلطانُ العرب والعجم والتُّرك ؛ فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمنصار ، إسكندرُ الزمان ، مُولى الإحسان ، جامعُ كلمة الإيمان ، مُلك أصحاب المنابر والتُّخوت والتيجان ، ملك البحرين ، مسلكُ سبيل القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، ظلُّ الله فى أرضه ، القائمُ بسُنَّته وفرضه ؛ سلطان البسيطة ، مؤمِّن الأرض المحيطة ؛ سيدُ الملوك والسلطين ، ولِى أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلانى فلان الدين والدنيا » ويرفع فى نسبه إلى منتهاه « خلدَ الله سلطانه ، ونصرَ جيوشه وأعوانه . ويجهتد أن يكون « وأعوانه » آخر السطر أوقرياً من آخره . قال : والواجبُ بدل ولِى أمير المؤمنين قَسيم أمير المؤمنين ؛ ثم يقول : يُخْصُ الحضرة ، العالية ، السَّنية ، الشَّريفة ، الميمونة ، المنصورة ، المصونة ؛ حضرة الأمير العالم ، العادل ، العايد ، المؤيد ، الأوحد ، فلان ؛ ذنر الإسلام والمسلمين ، عُدَّة الدين والدِّين ، ناصرُ القزاة والمجاهدين ، سيفُ جماعة الشاكرين ، صلاحُ الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمدِ الله بِمُحْطَبَةِ مختصرة جداً ، فإننا نوضِّح لعلهُ الكريم ؛ وتعريفه « صاحب تونس » .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر ”برقوق“ من إنشاء علاء الدين ، وهى

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله وولَّيه .

السلطان الأعظم المالك ، المَلِك الظاهر ، الأجلُّ العالم العادل ، المجاهد

المرابط ، المتأخر المؤيد ، المظفر ، سيفُ الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ؛

نُجِّي العَدْلُ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفَ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، قَامَعَ الْخَوَارِجَ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ؛
وَارَثَ الْمُلْكَ ، مَلِكَ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْحَجَمِ وَالْتُرْكِ ، مُبِيدَ الطُّغَاةِ وَالْبَغَاةِ وَالْكُفَّارِ ،
مَمْلَكَ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِمِ وَالْأَمْصَارِ ؛ لِسَكَنْدَرِ الزَّمَانِ ، نَاشِرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ؛
مَلِكِ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ وَالْأَسْرَةِ وَالْتُّخُوتِ وَالْتَّيْجَانِ ؛ مَالِكِ الْبَحْرَيْنِ ، صَاحِبِ سُبُلِ
الْقِبْلَتَيْنِ ، خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمُ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، سُلْطَانِ
الْبَيْسِطَةِ ، مُؤَمِّنِ الْأَرْضِ الْمَحِيطَةِ ؛ سَيِّدِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، قَسَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
«أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقٍ» خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جُنُودَهُ وَأَعْوَانَهُ ، وَأَفَاضَ عَلَى الْعِبَادِ
وَالْبِلَادِ جُودَهُ وَإِحْسَانَهُ ؛ تَحِيَةً تَتَارَجُ نَفْعًا ، وَتَبْلُجُ صُبْحًا ؛ وَتَطْوِي بِعَرَفِهَا نَشْرَ
الْخَزَائِمِ ، وَتَعِيدُ مَيِّتَ الْأَشْوَاقِ حَيًّا إِذَا مَا ؛ تُحْضِ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ ، السَّنِيَّةَ السَّرِيَّةَ ؛
الْمُظْفَرَةَ الْمَيْمُونَةَ ، الْمَنْصُورَةَ الْمُصُونَةَ ؛ حَضْرَةَ الْأَمِيرِ الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمَجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ،
الْأَوْحَدِ ؛ ذُنُحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، عُذَّةِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ ، قُدَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، نَاصِرِ الْفِرَاقَةِ
وَالْمَجَاهِدِينَ ، سَيْفِ جَمَاعَةِ الشَّاكِرِينَ ، صَلَاحِ الدُّوَلِ ، الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ أَحْمَدِ ،
أَبْنِ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ، أَبْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي يُحْيَى أَبِي بَكْرٍ ،
أَبْنِ الْأُمَرَاءِ الرَّاشِدِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ دَوْلَتَهُ وَأَذَلَّ عَدَاَتَهُ ، وَأَنْجَزَ مِنْ صُعُودِ أَوْلِيَائِهِ
وُسُودَ آلَائِهِ صَادِقَ عِدَاتِهِ .

بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ جَامِعِ الشَّمْلِ بَعْدَ تَقْرِيقِهِ ، رَاتِقِ خَلِّ الْمُلْكِ عِنْدَ تَمْزِيْقِهِ ، وَالشَّهَادَةِ
بِأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبِيدُ الْبَاطِلِ بِحَقِّ سِرِّهِ وَسِرِّ تَحْقِيقِهِ . وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ مَوْحِ سَبِيلِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَطَرِيقِهِ . وَإِهْدَاهِ سَلَامَ مَا الزَّهْرُ
بِأَعْبَقٍ مِنْ قَنِينِهِ ، وَثَنَاءِ مَا الرُّوضُ بِأَعْطَرٍ مِنْ خُلُوقِهِ ؛ فَاِنْتَا نُوضِّحُ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ
الْكَرِيمَ وَرَدَّ وَرُودَ السَّنَةِ عَلَى الْجَفْنِ السَّاهِرِ ، أَوْ الْمُزْنَةِ عَلَى الرُّوضِ الزَّاهِرِ ؛ أَوْ الزَّلَّالِ
عَلَى الْأَوَامِ ؛ أَوْ الْبُرَّةِ عَلَى السَّقَامِ ؛ فَدَدْنَا إِلَيْهِ يَدَ الْقَبُولِ ، وَآرَتْحَنَا لَهُ آرْتِيَا حِ الشَّمَائِلِ

إلى السَّمُول، ومِلْنَا إلى مُفَاكَمَتِهِ مِثْلَ الْغُصُونِ إلى الرِّيحِ، وامتزجتا بِمُصَافَاتِهِ أمتزَجَ
الماءُ بالراح؛ وفَضَضْنَا خِتَامَهُ عن فِضِّي كَلَامِهِ، وذَهَبْنَا إلى ذَهَبِي نِشَارِهِ ونِظَامِهِ ؛
وتَأَمَّلْنَاهُ تَأَمُّلاً كُلَّ نَظِيرِ عَبْدِهِ وخَادِمِهِ ، ووَقَّفْنَا عليه وقُوفَ نَجِيحِ ضَاعٍ في التُّرْبِ
خَاتِمُهُ ؛ ونَظَمْنَا جَوَاهِرَ اعْتِبَارِهِ في فَلَائِدِ الْإِفْكَارِ ، وصَبَّوْنَا إلى اخْتِيَارِهِ كَمَا صَبَتْ
النُّفُوسُ إلى الْإِدْكَارِ؛ وفَتَحْنَا لَهُ جُهْدَ الطَّاقَةِ بَابًا من المحبة لم يُغْلَقْ، وتُقَسِّمُ بَيْنَ خَلْقِ
الْإِنْسَانِ من مَالٍ أَنَّهُا بغير قُلُوبِنَا لم تَعْلَقْ ؛ فإذا سَطُورُهُ جنودٌ مُصَطَفَةٌ ، أَوْ قِيَانٌ بها
الحِسانُ مُحْتَفَةٌ ؛ وإذا رَفْعُهُ طِرَازُ حُلَّةٍ ، أو عَقْدُ شَدَةِ الْبِنَانِ وحَلَّةٍ ؛ وإذا لَفْظُهُ قَدَرَقُ
وراق ، ومَرَّ بِالْإِسْمَاعِ فَلَا بِحَلَاوِيهِ الْأُورَاقِ ؛ وإذا مَعْنَاهُ الْطُفُّ من النَّسِيمِ
السَّارِي ، وأَعْدَبُ مَذَاقًا من الماءِ الْجَارِي ؛ وإذا سَجَّهَ يَفُوقَ سَجِّحِ الْجَمَامِ ، وَيُزِيرِي
بِالْرُوضِ الضَّاحِكِ لُبَّكَاءِ الْغَمَامِ ؛ وإذا سَلَامُهُ قد حَبَّتْهُ الْأَزَاهِرُ ، وطُوى بِعَرَفِهِ تَشَرُّ
الرُّوضِ الرَّاهِرِ ؛ وإذا هَتَأَتْهُ قد مَلَكَ عِنَانُ التَّهَانِي ، وَاسْتَمَطَّرَ عِنَانُ الْأَمَانِ من سَمَاءِ
الْأَمَانِي ؛ فَعَبَّرْنَا لَفْظَ عَيْدِهِ عن مَعْنَى الْحُبِّ ، وقَرَّبَ شَاسِعَ الذِّكْرِ وإنْ بَعْدَ الْمَدَى
بَيْنَ الْأَحْبَةِ ؛ وأَقَامَ شَاهِدَ الْإِخَاءِ على دَعْوَى الْإِخْلَاصِ قَبِيلَتَنَا ، ونَادَى مُطِيعَ الْمُوَدَّةِ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَلِيَيْنَاهُ ؛ سَقِيَا لَهُ من كُتَابِ غُدِّي بِلِيبَانِ الْفَصَاحَةِ ، وَجَرَى جَوَادُ التَّمَاحِ
من مِضْمَارِ الْمَلَاحَةِ ؛ لَاعِيبَ فِيهِ ، سِوَى بِلَاغَةٍ فِيهِ ، وَلَا نَقْصَ يَعْتَرِيهِ ، سِوَى كِلَالِ
بَارِيهِ ؛ لَعَمْرِي لَقَدْ فَاقَ الْأَوَانِحَ وَالْأَوَائِلَ ، فَمَا أَجْدَرُ كَلَامَهُ بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَكَلَامٍ كَدَمِجٍ صَبَّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الْهَوَاءُ يَكْتَشِفُ عَنْهُ !

راق لَفْظًا وَرَقَّ مَعْنَى فَاضِحِي * كُلُّ سَحِيرٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ عَبْدُهُ !

للهِ دَرَهُ من كِتَابٍ حَلَبَ دَرَّ الْأَفْرَاحِ ، وَجَدَّدَ من أَثْوَابِ الْمَسَرَّةِ مَا كَانَ قد أَخْلَقَتْهُ
يَدُ الْإِفْرَاحِ ؛ فَهَمَّنَا مَعْنَاهُ فَهَمَّنَا ، وَشَرَحْنَا مَتْنَهُ فَهَوَّاهُ فَانْشَرَحْنَا ؛ وَعَلِمْنَا مَا أَتَّصَلَ

بِسْمِعِكُمْ مِنْ خَبَرِنَا الْعَجِيبِ ، وَحَدِيثِ أَمْرِنَا الْقَدِيمِ الْغَرِيبِ ، الَّذِي أَظْهَرَ فِينَا اللَّهُ
 أَسْرَارًا ، وَكَتَبَ لَنَا مِنْهُ عَنَاءً كَبَتَ بِهَا أَشْرَارًا ، جَلَّ جَلَالُهُ خَافِضٌ رَافِعٌ ، مُغَلِّ بِحِكْمَتِهِ
 وَاضِعٌ ، سَبْلَاتِهِ أَوْجَدَ بَعْدَ الْعَدَمِ وَأَنْسَى شِمَّ أَنْشَأَ ، قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمَلِكُ تُؤْتِي الْمَلِكَ
 مَنْ تَشَاءُ ، كَسْرَ وَجَرٍ ، وَقَرْنَ الْمَبْتَدَأَ بِالْخَبَرِ ، وَهَبْ مَا كَانَ سَلْبَ ، وَجْعَلْ لَصَبْرِنَا حَسَنَ
 الْمُتَقَلِّبِ ، أَعَادِنَا إِلَى الْمَلِكِ مَعَ كَثَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَقِلَّةِ الْأَنْصَارِ ، وَأَظْهَرِنَا بَعْدَ الْخَلْقَاءِ
 لِجَاعِزَتِنَا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ ، وَأَبْرَزِ إِبْرِيذَنَا بَعْدَ السَّبْكِ خَالِصًا يَرُوقُ النَّاطِرُ ، وَيَفُوقُ
 بَرُوقَهُ وَجْهَ الرُّوضِ النَّاصِرِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ فِي ذَلِكَ نَبْرًا خَفِيًّا ، لَمْ يَزَلْ بِبِرْكَتِهِ رَسُولُهُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي حَفِيًّا ، قُتِمَ لَنَا فِيهِ بِوَابِحِ الْهَنَاءِ ، وَأَحَاطَ بِنَا طَوْلُكُمْ الطَّوِيلُ
 مِنْ جَاهُنَا وَهَاهُنَا ، فَاسْتَجَلَيْنَا مِنْ كِتَابِكُمْ عَرَائِشَ بُشْرَاهُ ، وَحَدَّثَنَا عِنْدَ صَبَاحِ طُرْسِهِ
 لَيْلَ مَسْرَاهُ ، وَشَكَرْنَا لَهُ هَذِهِ الْأَيَادِي الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا الْأَيْدِي الْمُتَطَاوِلَةُ ، وَتَبِينَا إِلَيْكُمْ
 غِنَاءَ الْبِنَاءِ الَّذِي فَاقَ بِجَاهِلِيهِ الرُّوضَ الْأَرِيضَ وَنِعْمَائِهِ ..

وَلَمَّا تَمَلَّكْنَا إِلَيْنَا رَسُولُكُمْ الْمَكْرَمَ ، وَصَاحِبُكُمْ الْكَامِلُ الْمُعْظَمُ ، ذُو الْأَمْلِ الطَّاهِرِ ،
 وَالنَّسَبِ الْبَاهِرِ ، وَالرَّأْيِ السَّيِّدِ ، وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ ، فَلَانَ : لَا زَالَ عَلَى مَقَامِهِ حَسَنًا ،
 وَجَقْنَ عَلَيْهِ لَا يَبِيعُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ وَبَسَنًا ، فَابْدِئْ إِلَيْنَا مَا فِي وَطْأِهِ ، وَأَخْلَجِ الصُّدُورَ
 بِحِكْمَةِ فَضْلِهِ وَقَصِلْ خُطَابَهُ ، وَأَخْذِ بِجَاذِبِنَا عَنْكُمْ أَطْرَافَ الْأَحَادِيثِ الطَّيِّبَةِ ، وَبِزِيلِ عَلَيْنَا
 مِنْ سَمَاءِ حَبِيبَتِكُمْ مُرْتَبَهَا الصَّيِّبَةِ ، وَأَطْرَبْنَا بِسَمَاعِ أَخْبَارِكُمْ ، وَنَصْرَ أَعْوَانِكُمْ وَأَنْصَارِكُمْ ،
 وَنَبَّ عَلَى مَا أَوْدَعَهُ كِتَابُكُمْ ، وَتَضَمَّنَتْهُ النُّصْرَةُ خُطَابُكُمْ ، وَدَوَّسَ جُنُودُكُمْ حَزِيرَةَ
 «عُودِشَ» وَعَوَّدَهُمُ بِالْمَنْ وَالْمَنْحِ ، وَتَلَاوَتْهُمْ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
 وَقَفُّوهُمْ مَتَقِيِّينَ مِنَ الْجِهَادِ بَظْلَهُ ، فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَعَقَتْ مِنْهُمْ
 عَلَى الْكُفَّارِ الْغُرَبَانِ ، وَأَقْتَنَبَصَتِ الرِّجَالُ أَجَاهَهُمُ الْقَتَابِصَ الْعِقْبَانَ ، وَجَاعَتُهُمْ كَالْجِلْبَالِ

الرؤاسى ، وظفرت بهم أنظافر الرماة ومخالب المراسى ، وغنث عليهم أوتار القيسى
فأرقصت رؤوسهم على الضرب ، وسقتهم كئوس الردى مُترعة ونعم هذا الشرب
لأولئك الشرب ، وأعادت المسلمين بالغنائم إلى الأوطان بعد نيل الأوطار ، وبشرت
الخواطر بما أقر العيون من النجاح والنجاة من الأخطار ، هذا والعدو الملقى السلم عند
الجهاد ، جىء بهم مقرنين فى الأصفاد ؛ يالها غزاة أشرق نورها كالغزاة ، وأشرق
يوم إسلامها على ليل الكفر فزاله ، وتولم منها الجهاد فلا يرى بعدها إن شاء الله
عقبا ، وتلا لسان الشوق إليه ((ياليتي كنت معهم فأفوز فوزا عظيما)) . لا زالت
رقاب الأعداء لأسيافكم قرايا ، وغر واتكم الصالحة تئلكم من الله أجرا وثوبا .

ولما عرضت علينا من جودكم عند العشى الصافات الجياد ، وحلينا منها
بقلائد منها الأجياد ؛ نقم لقد حيرتنا ، ألوانها إذ حيرتنا .

فمن أشهب - كأن الشهب له قنيصه ، أو الصباح ألبيه قيصه ، أو كأنما قلب
من الجبين فى قالب البياض ، وسقى سواد أحداقه أقداح الرباحة من غير حياض .
ومن أدهم - كأن النفس لمسه فى مداده ، أو الطرف أمد طرفه بسواده ؛ أو كأنما
تقمص إهاب الليل ، لما طلع عليه فجر غرته فوئى مشعر الذيل .

ومن أحر - كأنما صيغ من الذهب ، أو كؤن من النار واللهب ؛ أو كأن الشفق
لقى عليه قيصه ثم أشفق ، أو الشقيق أجرى عليه دمه دما وبخيه شقق .

ومن أشقر - كأنما أليس ثوب الأصيل ، وبشر السرية يمن طلعته بالنصر
والتحصيل ؛ أو كأن النصار كساه حلة العشاق ، وقد آدرعوا بأسواق المحبة مطارف
الأشواق ؛

ومن أخضر - كأنما تَلَقَّعَ من الروض الأريض بأوراقه، أو صَبَّحَ بالعذار المخضرة
وقد شُتَّت عليه مرائر عُشاقه؛ أو كأنما الرُّمْدُ تلوَّيْنُهُ، أو من شاربِ الشادينِ تكوينُهُ؛
كلُّ بِطَرْفٍ منها يسوقُ الطرف، ويروقُ الناظرُ بالحسنِ الناضرِ والطرف؛ تُقامُ به حجةُ
الإعراض وهو باعترافٍ ممتطيه قادر على، وينصب إلى الإدراك حسن السير بكمود
صَحْرِ حَطَه السَّبِيلُ من عَلي - فأسرَجْنَا لها جواد القَبُول، وأمتطينا منها صهوة كُلِّ
مأمول؛ وأعددناها مراكبَ لَوَاكِب، ولليل المهمات الواقعة بُدُورًا وَكَوَاكِب؛
وأطلقنا أَعْنَةً شُكْرها في مبادِينِ الحامد، وطَفِقْنَا تُرْبِجَ ذكرها بين شاكرٍ وحامد.

مكاتبة وزير تونس

رأيت في الدستور المنسوب للقرن العلائق بن فضل الله أنه كتب إلى أبي عبد الله
أبن مخلص .

صدرت هذه المكاتبة إلى ^(٢) الشَّيْخِي، الكيبرى، العالمى، الفاضلى،
الأوحدى، الأتكللى، الأرشدى، الأجمدى، الأثيرى، البليغى، الفلانى، مجدى
الإسلام، بهاء الأنام، شرف الفضلاء، زين العلماء، نجل الأكابر، أوحد الأعيان،
بركة الدولة؛ صفوة الملوك والسلاطين؛ (ويدعى له بما يناسبه). وتوسَّع لعلمه المبارك
كيت وكيت؛ ولم يذكر قطع الورق ولا العلامة ولا التعريف. والذي يظهر أنَّ قطع
الورق العادة، والعلامة «أخوه». والتعريف «وزير تونس».

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لما عرضت قد قرن بالقاء وهو جائز بعد لما وحتى إذا تأمل .

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه "إلى المجلس الشيخى" الخ .

الجملة الثانية

(في مكتبة صاحب الغرب الأوسط ، وهو صاحب تليسان)

وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك الكلام على هذه المملكة ومن ملكها جاهليّة وإسلامًا ؛ وهي الآن بيد بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر - والقائم بها الآن منهم إلى حدود الثمانمائة من الهجرة هو السلطان أبو زيّان ، ابن السلطان أبي حمو : موسى بن يوسف ، بن عبد الرحمن ، بن يحيى ، ابن يغمراسن ، بن زيّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن ركندار ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، ابن علي ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هذه المملكة في "مسالك الأبصار" مضافة إلى مملكة فاس : لا نضمها حينئذ إليها في مملكة السلطان أبي الحسن المريخي : صاحب فاس في زمانه ، ولذلك لم يذكر لصاحبها مكتبة في "التعريف" . على أني رأيت من صاحبها موسى ابن يغمراسن مكتبة إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتي إيرادها في جملة المكتبات الواردة إلى هذه المملكة . وذكر صاحب "التتيف" أن صاحبها في زمانه في الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» أي سلطانها يومئذ أبو حفص عمر بن أبي عمران موسى ، وأن المكتبة إليه مثل المكتبة إلى صاحب تونس المقدم ذكره على السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأي جماعة كُتب الإنشاء يكتبونه ، وكذلك رأيت في المستور المنسوب إلى المقر العلائي بن فضل الله ، ولم أظفر بصورة مكتبة فأذكرها .

(١) في "العبر" ج ٧ ص ٧٥ ذكرنا ويرر .

الجملة الثالثة

(في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى)

وهو صاحب فاس، وتعرف مملكته ببر العنوة . وقد تقدم الكلام على مملكته وأحوالها ومن ملكها جاهليّة وإسلاماً في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك، وأنها الآن بيد بني عبد الحق من بني مرين من زناتة من قبائل البربر، وأنها الآن بيد السلطان أبي فارس عثمان، ابن السلطان أبي العباس أحمد، ابن السلطان أبي سالم إبراهيم، ابن السلطان أبي الحسن علي، ابن السلطان أبي سعيد عثمان، ابن السلطان أبي يوسف يعقوب، ابن عبد الحق، بن محبو، بن أبي بكر، بن حمامة، ابن محمد، بن ورصيص، بن فكوس، بن كوماط، بن مرين، بن وزاجن، ابن مأنوخ، بن ورجح، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتييض، ابن المعز، بن إبراهيم، بن رجيك، بن واشين، بن بصلتن، بن شرا، بن أكجا، ابن ورشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر في "التعريف" أن السلطنة فيهم في زمانه في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت في السلطان أبي الحسن علي بن عثمان المقدم ذكره . ثم قال : وورث هذا السلطان ملك العزفيين بسبته، وملك بني عبد الواد بطنسان، وأطاعه ملك الأندلس، ودان له ملك أفريقية، وعرض عليه أخته فتزوجها، فساقها إليه سوق الأمة . ثم قال : وبني مرين رجال ألوي وناسها،

(١) تقدم في ج ٥ ص ١٤٤ "ورزق" .

(٢) تقدم "جديج" .

(٣) تقدم "ورشد" .

وأبطال الحرب وأحلاسها ؛ وهم يفتخرون بفزارة علمه وفضل شواه . قال : وهو اليوم ملك ملوك الغرب ، وموقد نار الحرب .

ورسم المكتابة إليه على ما ذكره في "التعريف" بعد البسملة :
 من السلطان الأعظم الملك الفلاني ، إلى آخر الألقاب المذكورة في المكتابة لصاحب تونس ، إلى قوله ونصر جيوشه وجنوده وأعوانه . ثم يقول : تحية يفتتح بها الخطاب ، ويقدم منها ما زكا وطاب ؛ وتقال هنا سبعيات مختصرة نحو أربع أو خمس ، يخص بها الحضرة الشريفة العلية ، الطاهرة الزكية ، حضرة المقام العالی ، السلطان ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرائط ، المتأخر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الأسرى ، الأسنى ، الزكى ، الأتقى ؛ [المجاهد في الله] ^(١) المؤيد على أعداء الله ؛ أمير المسلمين ، قائد الموحدين ، مجهز الغزاة والمجاهدين ، مجتهد الجنود ، عاقد البتود ، مالي صدور البراري والبحار ، مزرع أسرة الكفار ، مؤيد السنة ، معز الملة ، شرف الملوك والسلاطين ، بقية السلف الكريم ، والحسب الصميم ، ربيب الملك القديم ، أبي فلان فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أول نسبه . ويقال : في كل منهم : أمير المسلمين أبي فلان فلان ؛ ثم يدعى له : نحو أعز الله أنصاره أو سلطانه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بداء مطول مقفم . ثم يقال : أما بعد حمد الله ، ويخطب خطبة مختصرة . ثم يقال : أبصرت إليه ، وسيرت لتعرض عليه ، تهدى إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : وما تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكتابة - تهدى إليه من السلام ما يطلع عليه نهاره المشرق من مشرقه ، ويحييه به الهلال الطالع من جانبيه الغربي على أفقه ، وتصيب شوقاً أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفَنِيهِ والكَرَى الحَرْبَ ، وَوَدَّادًا يَمْلَأُ بِرسله كُلَّ بحرٍ وَيَأْتِي بِكُلِّ ضَرْبٍ ، وَشَاءَ يُسْتَرْوَحَ بِنسيمه وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَرْوَحُ إِلَّا بِمَا يُهْبُ مِنَ الغربِ ؛ مَقْدَمَةٌ شُكْرًا لِمَا يَهْرَمُ مِنْ عَزَمَاتِهِ الَّتِي أَعَزَّتِ الدِّينَ ، وَغَزَّتِ الْمُلُحِدِينَ ؛ وَحَلَّقَتْ عَلَى مَنْ جَاوَرَهَا مِنَ الْكُفَّارِ [تَحْلِيقٌ] صُقُورُ الرِّجَالِ عَلَى مُسَقَّةِ الْغُرَبَانِ ، وَتُحْمِمُ عِنْدَ الشَّجَاعِ عُدْرَ الْجَبَانِ ؛ وَتَبَيَّنَ آثَارُهَا فِي أَعْنَاقِ الْأَعْدَاءِ وَالسُّيُوفِ آثَارُ بَيَّانٍ ؛ وَإِنْ كَانَ فَعْلُهُ أَكْثَرًا طَارَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ ، وَطَافَتْ بِهِ مُحَلِّقَاتُ الْبَشَائِرِ فِي الْأَفْطَارِ ؛ وَسَارَ بِهِ الْحَجِيجُ تَعْرِفُ آثَارَهُ عَرَفَاتٍ ، وَصَارَتْ تَسْتَعْلِمُ أَخْبَارَهُ وَتَتَدَبُّ قَبْلَ زَمَانِهِ مَافَاتٍ .

والذي ذكره في "التثقيف" أنه كان السلطان في زمانه في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبي الحسن على المقدم ذكره؛ وذكر أن المكتبة إليه في قطع النصف، وأنه يكتب تحت البسملة في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله «عبدُ الله وولِيه» ثم يخلُ يِلْتُ العلامة؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية في أول السطر مساميًا للبسملة «السلطانُ الأعظمُ الملكُ الفلاني» إلى آخر الألقاب السلطانية المذكورة في المكتبة إلى صاحب تونس، إلى قوله : ونصر جُيُوشَه وَأَعْوَانَه . ثم يقول : مُحْصُ الْمَقَامِ الْعَالِي ، السُّلْطَانُ ، الْمَلِكُ ، الْأَجَلُّ ، الْكَبِيرُ ، الْمَجَاهِدُ ، الْمَعَاذِدُ ، الْمُرَابِطُ ، الْمُنَاغِرُ ، الْمُكْرَمُ ، الْمُعْظَمُ ، الْمُظَفَّرُ ، الْمَوْقَرُ ، الْمُؤَيَّدُ ، الْمُسْتَدَدُ ، الْأَسْعَدُ ، الْأَصْعَدُ ، الْأَرَشَدُ ، الْأَتَّجَدُ ، الْأَوْحَدُ ، الْأَمْجَدُ ، الْبَهِي ، الرَّكِي ، السَّيِّئُ ، السَّرِي ، فَلَان ، أمير المسلمين ابن أبي فلان فلان ، إلى عبد الحق المريني . والدعاء بما يناسب ذلك المقام ؛ ثم أما بعد حمد الله ، بخطبة لطيفة ، فإنا نقاوضُ صلته الكريم ونحو ذلك . وأكثر مخاطبته بالإخاء ونُحْنَمُ بالدعاء ،

(١) زدنا هذه الكلمة وإن لم تكن في الأصل ولا في التعريف لما لا يخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «مَلِكُ الغرب» . وفي الدستور العلاني أَنَّ الطَلَبَ منه بالمستمد، ويَنجُمُ باستعراض الحوائج والحِلْمِ مَكَلًا بالدعاء .

وهذه نسخة كتاب من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبي الحسن المَريَنيّ، في جوابِ كتابٍ ورد عليه منه وهى :

عبدالله ووليه ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، مؤمن أولياء الله المؤمنين ، ظلُّ الله الممدود ، وميسر السبل للوفود ؛ حامى القبلتين بحُسامه من أهل الجحود ، وخادم الحرمين الشريفين متبعاً للسنة الإبراهيمية فى تطهير بيت الله للطائفين والعاكِفين والُرَّحَمَ السُّجُود ؛ والقائم بمصالح أشرف روضة وطيبه يعطر طيبها فى الوجود ؛ ولِى أمير المؤمنين جمع الله به كلمة الإسلام بعد الاقتراق ، وقَعَ برُعبه أهل العناد والشقاق ؛ وأوزعه شُكر نعم الله التى أَلَفَتْ على ولّائه قلوبَ ملوك الآفاق ، وأتممه بها منحةً صَبَرَتْ له الملك بالإرث والاستحقاق ؛ وَسَيَّرَتْ كواكِبَ مناقبه فلها بالمغارب إضاءةٌ وبالمشرق إشراق . ابن السلطان السعيد الشهيد الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سقى الله عهدَه عِهَادَ الرحمة نواتِ إغراق ، وأبقى مجده بمحمد الذى للأمة المحمدية على تعظيمه إجماعٌ وعلى تقديمه اتفاق ؛ بِحُصِّ المقام العالى ، الملك الأجل الكبير ، الحجير ، العاضد ، المُثَاغِر ، المظاهر ، الفائز ، الحائز ، المنصور ، الماثور ، الفاتح ، الصالح ، الأتمكن ، الأضون ، الأشرف ، الأعرف ، الكريم ، المعظم ، أبا الحسن علياً أمير المسلمين ، ابن السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر ، الفانحر ، المساهد ، الزاهد ، الأورع ، الأروع ، أمير المسلمين ، أبى سعيد عثمان ، ابن السلطان ، السعيد ، الرشيد ، السابق ، الوامق ، الجامع ، الصادع ، أمير المسلمين

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، ناظم مُقَرَّق الفَخَّار، وهازِم قَرَق الفُجَّار، والملازم لإحياء سُنَّة الجهاد المتروكة في الأقطار، حتَّى يجمع في ملكه أطراف الغرب الأقصى للاستيلاء والاستبظهار، ويُخضع لفتكته كلَّ متكبرٍ جَبَّار، ويُرْصع في سِلْكِهِ مائاتِي وَصَعْب من تلك الديار، ويرفع لِنُكْسِهِ أَعْمَالاً من الجهاد والاجتهاد تُسرُّ الحَفَظَةَ الأبرار، يظهر فيها لِبَرَكَةِ الإِسْمِ العَلَوِيِّ من نُشر الهدى، وقهر العدا، أَوْضَحُ الأدِلَّةِ وأَيُّنُ الآثَارِ، ويُؤثِّرُ سلطاننا الحمديَّ من عَلَيَّ عَزَمِهِ، وَحِمَى حَزْمِهِ، باعِزُّ الأَعْوَانِ والأَنْصَارِ، فَتَنْقَرُ دُأْرُ الإِسْلَامِ من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يقرُّ لهم بِأَمِّ الْقُرَى قَرَارَ، وَيَسِيرُ سِوَاهُمْ لِبَيْتِ ذِي الْحِجْرِ وَالْحِجْرِ وَالْبَابِ وَالْمِيزَابِ وَالْمُقْتَرَمِ وَالْحِدَارِ وَالْأَسْتَارِ بِسِلَامٍ مُشْرِقِ الْغُرُرِ، مُوْتَقٍ الْحَبَرِ، وَثَنَاءٍ مَعَ رِيَّاهُ لَا يُعْبَأُ بِالْعَيْرِ مَعَ نُشْرِهِ وَلَا يَعتَبَرُ، وَوِدَادٍ خُفِيِّ الْخَبَرِ، وَاعْتِدَادٍ يَطُولُ مِنْهُ فِي أَلْسِنَةِ الشُّكْرِ عَنْ إِحْصَائِهِ وَأَسْتِقْصَائِهِ قِصْرَ، وَإِرَادٍ لِمَفَاحِرِهِ الَّتِي مَبَارَتْ بِهَا الْأَخْبَارَ وَالسَّيْرَ، وَاعْتِقَادٍ لِمَآثِرِهِ الَّتِي سَبَقَ عُثْمَانُهَا إِلَى إِحْرَازِ مَزَايَا الْفَضْلِ وَجَاءَ عَلَيْهَا عَلَى الْأَثَرِ.

أما بعد حمد الله الذي أمر أوليائه المؤمنين بالمُعَاوَنَةِ وَالْمُظَافَرَةِ، وَنَهَى عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ عَنِ الْمُبَايَنَةِ وَالْمُنَافَرَةِ، وَدَعَى الْحُجَّاجَ بِبَيْتِهِ حَرَمَةَ الْقَصْدِ وَكُتِبَ لَهُمْ أَجْرُ الْمُهَاجَرَةِ، وَدَعَا إِلَى حَرَمِهِ، مِنْ أَهْلِهِ مَنْ خَدَمَهُ، فَأَجَابَهُ بِالتَّلِيَّةِ وَأَتَابَهُ وَآجَرَهُ. وَالشَّهَادَةُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي تُسْعِدُ بِمَصَاحِبَةِ الْمَصَابِرِ، وَتُصْعِدُ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْفَاحِرَةِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ذِي الْمَنَاقِبِ الْبَاهِرَةِ، وَالْمَوَاهِبِ الزَّائِرَةِ، وَالْمَرَاتِبِ الَّتِي مِنْهَا النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْوَسِيلَةُ وَالشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَفْنَى اللَّهُ الشَّرْكَ بِصَوَارِمِهِمُ الْخَاصِدَةِ وَأَذْنَى الْقَتْلِ بِعِزِّائِهِمُ الْحَاضِرَةِ، صَلَاةً إِلَى مِظَانِ الرِّضْوَانِ مُتَوَاتِرَةٍ، مَارَبِحَتْ وَفُودُ مَكَّةَ الْبَرَكَةِ الْوَاقِرَةِ، وَوَضَحَتْ لِقَاصِدِي الْكِبْكِبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوَّجَهُ الْقَبُولِ سَافِرِهِ.

فإنه ورد - أورد الله تعالى البشرى على سمعه ، وأيد أهتمامه بتأليف شمل السعد وجمعه - من جانبه المكرم ومعهده وربّه ، كتاب كريم نسبه ، نعيم أدبه ، على منصبه ، ملى إذا أخلف السحاب بما يهبه ، سرى سرّت إلى بيت الله وحرّم رسوله القريب قربه ، على يد رسوله : الشيخ الأمين الأزكى ، الأورع الأتقى ، الخطيب البليغ ، المدرّس ، المفيد أبى إسحاق ابن الشيخ الصالح أبى زيد ، عبد الرحمن بن أبى يحيى ، نفع الله به ، وحاجبه الكبير المختار ، المرتضى ، الأعزّ ، أبى زيّان عريف أبى الشيخ المرحوم أبى زكريّا ، أيدّه الله تعالى ، وكاتبه الأجدد الأسعد أبى الفضل أبى الفقيه المكرم أبى عبد الله ، بن أبى مدّين ، وفقه الله تعالى وسلّمه ، ومنّ معهم من الخاصّة والعزما والفرسان المائلين فى خدمة الجهة المصونة بلفها الله آربها ، وقيل قربة ، والواصلة برّبكم المبارك الرواح والمعدى ، المعلن على إكمال فرض الحج المؤدى ، المرحولين بحمد العقبي كما حمّد المبدا ، ففضضنا ختامه الذكى ، وأفضنا فى حديث شكره الرّكى ، وعرضنا منه بحضرتنا روضا يأنع الرّوض به تحكى ، وحضضنا ثوابنا على إعانة خاصّة وفده وطمتهم على قضاء النّسك بذلك الحرم المكى ، وتلمّحنا فصوله الميمونة فإذا هى مقصورات على مثنويات محضه ، ورغبات تؤدّى من الحج قرّضه ، وهبات يعامل بها من يضاعف أجره ويوفيه قرّضه ، وقربات يحمّد فاعلها يوم قيام الأشهاد نشره وحشره وعرضه .

فأمّا ما ذكره من ورود الكّائين الواصلين إلى حضرته شحبة الشيخين الأجلين « أبى حمّد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبى لحيان » وأنه أمضى حكمهما ، وأجرى رسمهما ، فقد أثّرنا للأجر حوّه ، وأحترنا بالشكر فوزه ، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد ، وتأكّد أسباب الولاء على البعاد ، وإلا فع وجود إناصافه الحقوق

من غاصبها مُستَعاد ، والوُثوقُ بَصره للظالم وقهره للظالم لا يَخْتَلِفُ فيه اَعْتِقَاد ؛
وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال ، وآثرنا حَمْدكم في الحافل والحال .

وأما مانعته مما أشرتم إليه مما يتعين له التقديم ، ويستحق توفية حقه من تكرير
التكريم ؛ وهو تجهيزُ رُكِّكم المحروس في السرى والمقام ، في خدمة مَنْ يَقُومُ مقام
الوالدة المرجومة في الاحترام ؛ سقى الله صوبَ الرحمة صفيحها ، ورفى إلى الغرفات
روحها ؛ ومعها وجوه دولكم القز ، وأعيان مملكتكم من سُرّة بنى مَرِينِ الذين تُبْهِج
مرائيم وتُسّر ؛ وما نبهتم عليه من ارتفاع شانهم ، واجتماع قُوسانهم ، وأستيداع
أمانتنا نفائس أنفسهم وأديانهم ؛ فقد استقبلناهم على بُعيد الإكرام ، وأحللناهم من
القُرب في أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الإقبال والاهتمام ، وعرفنا حقهم
أهل الإسلام ؛ ونشرنا لهم يَفَنائِنا الأعلام ، ويسرنا لهم باعنائنا كل مَرام ؛ وأسرنا
بتسبيل طريقهم ، وتوصيل البرّ لفريقهم ؛ وأسدلنا الخُلع على جميعهم ، واحتفلنا بهم
في قدومهم ومقامهم وتَشِينهم ؛ وأجزلنا لهم أقسام الإنعام في توجيههم ، وكذلك
يكون في رُجوعهم ؛ وعرضوا بين أيدينا ما أصحبتهم من الطُرف والهدايا ، التي لا تحلها
ظهورُ البحار فكيف ظُهورُ المطايا ؛ من عُقود منظمه ، وبرودٍ مُسَهِّمه ، ومطاريَف
مُعَلِّمه ، ولطائف بالإمكان والإيمان مُعَلِّمه ، وصنائع محكمه ، وبدائع للأفهام مُفَحِّمه ،
وذخائرٍ معظمه ، وضرائرٍ للشموس في الكون والسَّمه ، وبوّابٍ تَفَرِّقُ بين الهام
والأجسام والهام ملحمه ، وأخايرٍ بمقدار مُهْلِيها في الجلال مُفَهِّمه ، وخيولٍ مُسَوِّمه
بالأهْلَة مُسَرِّجه والنجوم ملجمه ، معودة نزال الأبطال مُعَلِّمه ، ذواتٍ صدور
مبثورة وأكفالي مسأله ؛ تسحب من الحرير أذيالا ، وتصحب من الوشي سربالا ،
وتميسُّ بجللها وحلاها عُجبا وأختيالا ، ويقيسُ مشبهها سرعتها بالبرق فلا يتغالى ،
حائيات الأجسام ، طليات كالا كَام ؛ لَفُحُولها صهيل يدعُر الأسود ، ولسانيكها

وقع يَقْطُرُ الجُلمود، أُنْثَبِتِ الرِّواض، ورُكِبَتْ منها صَهْوَةٌ كُلِّ بَحْرِ سَابِجٍ حَيْثُ بَلَجُ الموتِ تَحْضُ، وقُرِئَتْ مرابطها بحماية جواهر النفوس من الأعراس، وجنيبة تَجْرُ من دُيولها كل قَضَا، وحُسِبَتْ لِاخْتِلَافِ شَيَاتِهَا كَأَنَّهَا قَطَعَ الرِّياض: من شُهْب كَأَنَّهَا آرَدَتْ الأَفَاح، أو غَدَتْ رافلةً في حُلِّ الإصباح. ودُهِمَ نَفَضَتْ عليها اللبالي صَبْغَهَا فلا بَرَّاح، وربما أَغْفَلَتْ من ذلك غُرُورًا وَاوْضاح. وُكِبَتْ كَأَنَّهَا فَتَحَ صُلْبُ البِطاح، تطيرُ إلى الظَّفَرِ بِمَنَاح. ومُحِرُّ كَأَنَّهَا خُلِقَتْ لِلنَّجَاح، وأُطْلِقَتْ أَعْيُنُهَا فَقَالَتْ أَلَيْسَنَّهُ أَسْتَهَا لِلطَّرَائِد: لا بَرَّاح. وخُضِرَ كَأَنَّهَا البُرْزَةُ المَوْشَاةُ الوِشَاح، أو مَشِيبٌ في الشَّبَابِ قَدْ لَاح. وشُقِرَ تَكْبُو في طَلَبِ الرِّياح، وتَجَبُّو نارَ البَرْقِ إِذَا أَمْسَى بَسَنًا سَنَائِكُهَا أَقْتَدِاح.

ووراءها البِغَال، التي تَحْمِلُ الأَثقال، ولا تَزِلُّ في الأَوَاحِلِ بِحَال؛ وعليها الزَّناريَّات المَوْشَع، وحَلْيُهَا الحِلَالُ المَلْمَع، وهي تَمْشِي رُويْدًا، وتُبْدى قُوَّةً وأَيْدًا؛ كَأَنَّ قَلَامَها قَنَاهَ عِيدًا (٩) وهي وافرَةُ الأَمْدَاد، فَاخِرَةٌ عَلَى الحَيَاد، باهرةُ العُدَدِ متكاثِرَةُ الأَعْدَاد، راسِخَاتُ القَوَائِمِ كَأَنَّهَا أَطْوَاد، شامِخَاتُ الرُّؤُوسِ حَالِيَّاتُ الأَجْيَاد، باذِخَاتُ الأكْفَالِ غِلَاطٌ شِدَاد، وسَارَتْ لها إلى رِحَابِنَا أَتْقِياد، وصارت من مَحَلِّ إِسْعَاد إلى مَوَاطِنِ إِضْعَاد؛ فَتَقْبَلُنَا أَجْنَاسُها وَأَنْوَاعُها، وتَأْمَلُنَا غَرَائِبُها وَإِبْدَاعُها؛ وَجَعَلُنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ في حَوَاصِلِنَا إِيدَاعُها؛ ثُمَّ اسْتَصَفَيْنَا مِنْهَا نَفَائِسَ أَثَرِنَا إِلَيْهَا إِرجَاعُها، وَفَرَّقْنَا في أَوَّلِيائِنَا أَجْتَبَاعُها؛ وَقَسَمْنَا مُشَاعُها، وَغَنِمْنَا لَمَّا أَفَاءَ اللهُ صَفَايَاها وَمِرْبَاعُها؛ فَتَوَالَتْ لِكُلِّ وَلِيٍّ مِنْهَا مَنَاح، وسَارَتْ إلى كُلِّ صَفِيٍّ مِنْهَا مَلْج، وَقَالَتْ الأَلْسِنَةُ وَطالَتْ في وَصْفِ ما عَلَيْهِ به فَتَح، فَاسْتَبَانَ وَوَضَّحَ، وَكَانَ لِأَهْلِ الإِيْمَانِ بِنِعْمَتِهِ أَعْظَمُ هَنَاءٍ وَأَكْبَرُ فَرَحٍ.

(١). من جملة معاني الفتح الماء الجاري على وجه الأرض شبهها في جريها بالماء الجاري على البطحاء الصلبة تأمل.

وسطرناها وزكككم المبارك قد رامت السرى نجائبهم ؛ وأنت أم القرى ركايبهم ؛
يسارهم الأمن ويصاحبهم ، ويظايرهم اليئن ويواظبهم ؛ فقد أعدت لهم المير في جميع
المنازل ، وشئت لهم الهيجان البوازل ؛ وأثريت لهم الموارد والمناهل ، وأمرعت
لهم بالميرة القفار والمراجل ؛ ووكلت بهم الحفظة في المخاوف ونصبت لهم الأدلة
في المجاهل ؛ وجردت معهم الفرسان ، وجدد لهم الإحسان ، وأكد لهم حقان حق
مرسلهم وحق الإيمان ، وقلدت درك حياتهم أمراء العربان ، وشهدت من تعظيما
لهم ما يتسدهم عليه ملوك الزمان بكل مكان ؛ وكتبنا على أيديهم إلى أمراء الأشراف
بالنہوض في خدمتهم والوقوف ، وأن يحيط بهم كل مقدم طائفة ويظوف ،
يتسلمهم زعيم من زعيم ، إلى أن تحط رحالهم بالحطيم ؛ ويحل كل منهم بالمقام ويقيم ،
وتكفل مناسكهم بشهود الموقف العظيم .

وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة ، أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه ؛ وتجله
بين الروضة والمنبر ، وتجله فقد ريج سعى كاتبه وبر ، وكتبته له بعدد حروفه أجور
توفر ؛ ويمكن من يرقى لتلاوته في الأصا والبكر ، ويضمن على ذلك فإنه من بيت
هم الملاك الأعلى وعندهم وفيهم جاءت الآيات والصور .

وعما قليل يتم حجهم وأعيادهم ، ويؤم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم ؛ فيكرم
جوارهم ويعظم نفارهم ، وتنم بإشراق تلك الأنوار بصائرهم وأبصارهم ؛ وتقو
أرواح نجد من ثيابهم ، وتلوح أنوار القبول على شبيهم وشبابهم ؛ ثم يعودون إلينا
فنعيد لهم الصلوات ، ونعيد كلا منهم ديم النعم المرسلات ؛ ثم يصدرون إن شاء الله
إليكم ركايبهم بالمتاع مقلات ، ومطاليمهم بالمتاع مكالات ؛ ويظفرون من الله
في الدارين بقسم النعم المنجزلات حتى يلقوا برحابكم عصا التسيار ، ويصونوا حر
وجوههم بالصبر على حر الحجير [من] لفتح النار ؛ ويدنحوا بما أنفقوا عند الله من

دِرْهم ودينار، أجزاً وماعند الله خير للأبرار، والله تعالى يقربه من تلك المواطن، ويُدنيه منها بالظاهر وإن كان يسرى إليها بالباطن، ويسهل [له] ذلك الحرّم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتى تحل ركائبه بين المروتين وتجزى، ويكون له بذلك على ملوك القرب تميز، وما ذلك على الله بعزيز.

لا زالت مقبولة على المدى هداياه، مجبولة على الندى سجاياه، مدلولة على الهدى قضاياه، منصوره على العدا سراياه، مبرورة أبدا تحاياهم. والسلام الأتم الذي يعبق رياه، والثناء الأتم المشرق حياه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة جواب الكتاب الوارد على الملك الناصر «محمد بن قلاوون» من أبى الحسن على الميرنى، صاحب فاس المغرب، بالبشارة بفتح بحاية، والانتصار على تلمسان.

وأستفتحه بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتُحَرَّرُوا مِنَ اللَّهِ يُضَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾.

ثم المكتبة المعهودة: من ألقاب الملوك، والدعاء. والصدر:

قهر الله بياسه من ناواه من أئمة الكفر وطغائه، ونصره على من لاواه من حزب الشيطان وحماه، ونشر أعلامه بالطفر بن خالفه من عداة الله وعدائته، وأجراه من بلوغ الوطر في سكونه وحركاته، على أجل أوضاعه وأكل عادته. ويسرله بدوام سعوته فتح ما استغلق من معاقل الحائدين عن مرضاته. ولا زالت ركائب البشائر عنه تسرى وإليه من تلقائنا تسير، ومصير الطفر حيث يصير، ويدور القلب المستدير، بسعده الأثيل الأثير، ويدور الحلك بضوء جبينه الذي يهتدى به الضال

وَلِجَا إِلَيْهِ الْمَسْجِرِ، وَتُغَوَّرُ أَعْيُنُ الْعِدَا إِنْ مَايُنُوا بِحَقِّهِ الْحَزَارَ وَنَاهَدُوا جَيْشَهُ الْمِيرَ . بِحُجَّةٍ تَحْكِي اللَّطَائِمَ عَرَفَهَا الشَّمِيمَ ، وَتَوَدُّ الْكَأِثِمُ لَوْ تَفَتَّتْ عَنْ مِثْلِ مَا لَهَا مِنْ نَضَارَةٍ أَوْ تَسْنِيمٍ ، وَيُودُّ عِنْدَ الْحَوَزَاءِ لَوْ أَتَتْظَمُ فِي عِقْدِهَا النَّضِيدَ النَّظِيمَ .

وَكَيْفَ لَا وَهِيَ نَجْمَةٌ صَادِرَةٌ عَنْ مَقَامٍ شَرِيفٍ إِلَى رَوْضَةٍ غَنَاءٍ تُزْرَى بِالنَّيْتِ الْعَمِيمِ ، وَارِدَةٌ مِنْ مَحَلٍّ عَظِيمٍ ، عَلَى حُجَا وَسِيمٍ ، مَنْطُويَةٌ عَلَى^(١) الْأَرْضِ مِنْ سَلَامَةٍ وَلِلْمُلُوكِ الْإِسْلَامِ مِنْ سَلَامٍ سَلِيمٍ ، وَطُرْفَةٌ تَشْرُهَا كَالْمَسْكِ الذِّي يَنْبَغِي أَنْ يَنْحَتَمَ بِهِ هَذَا الْكَلْبُ ، وَثَاءٌ يَسْتَفِزُّ الْأَلْيَابَ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي حَبَاتِ قُلُوبِ الْأَحْبَابِ ، وَيَسْتَدِرُّ أَخْلَافَ الْوُدِّينَ الْمُتَحَايِينَ فِي اللَّهِ فَلَا غَرَوَ أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ النَّصْرِ مِنْ كُلِّ بَابٍ .

يَتَسَابَقَانِ إِلَى ذَلِكَ الْمَجْدِ الْأُسْنَى فِي أَسْعَدِ مَضَارٍ ، وَيَتَسَاوَقَانِ بِجِازِ قَصَبَاتِ السَّبْقِ إِلَى تِلْكَ الْعُصْبَةِ الْمَشْرِقَةِ الْأَنْوَارِ ؛ وَيَزْدَادُ فِيهِمَا بِالْوُفُودِ عَلَيْهِ طَيِّبًا ، وَيَفْدُو عَوْدُ الْوُدِّ بِهِمَا رَطِيبًا ؛ حَيْثُ الرَّبْعُ مَرِيعٌ ، وَالْمَهْمِيعُ مَنِيعٌ ، وَالْعِزُّ مَجْدٌ وَالْقَدَرُ مُطِيعٌ ، وَنُحْبُ الْكَرَمِ ثَرَّةٌ ، وَرِيَاضُ الْفَضْلِ مُحَضَّرَةٌ ، وَعَسَا كُرُ النَّصْرِ تُحَلُّ نَحْوَهُ مِنَ الْمَجَرَّةِ ؛ حَيْثُ^(٢) تَسْتَعْرِ الْحَرْبُ ، وَيَسْتَحِرُّ الضَّرْبُ ، وَتَشْرِقُ شَمْسُ الْمَشْرِقِيَّاتِ لَامِعَةً .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ مُظْهِرِ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ ، وَمُطَهِّرِ أَرْجَاءِ الْبَسِيطَةِ مِنَ الْمَارِدِينَ الْمَارِقِينَ ؛ وَمَجْرِدِ سَيْفِ النَّصْرِ عَلَى الْجَاهِلِينَ الْحَائِدِينَ ؛ وَمُؤْمِنِ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ، وَنَجْزِلِ أَجْرِ الصَّابِرِينَ ، وَمُنْجِزِ وَعْدٍ مِنْ بَشَرِهِمْ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ بِقَوْلِهِ : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ .

(١) هي أوعية المسك أو أسواقها واحدها للعبة وفي الأصل العظام وهي تصحيف .

(٢) يياض بالأصل ولعله على ملء الأرض .

(٣) يياض في الأصل يسير .

الذى عَصَمَ حِمَى الإسلام بكل ملك قاهر ، وقَصَمَ عُرَى الشَّرْكَ بكل سلطان
فَدَا عَلَى عُدُوِّ اللَّهِ وَعُدُوِّهَ بِالْحَقِّ ظَاهِر ، وقَصَمَ كُلَّ فَاجِرٍ بِمَهَابَةِ أُمَّةِ الْمُحْسِنِ الَّذِينَ
مَامْنَهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ لِلْحَاسِنِ نَاطِقٌ وَلِقَمِ الْعِدَا نَازِر ؛ نَاشِرٌ عِلْمَ الْإِيمَانِ بِجُمَاةِ الْأَمْصَارِ ،
وَنَاصِرٌ عِلْمَ الْإِسْلَامِ بِمُلُوكِ الْأَقْطَارِ ، وَجَاعِلٌ كَلِمَتَهُ الْعُلْيَا وَكَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
السُّفْلَى ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ جَامِعَ قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى إِعْلَاءِ عِلْمِ الدِّينِ الْحَنِيفِ
وَلِإِنْ بَعُدَتْ بَيْنَهُمْ شُقَّةُ النَّوَى وَشَطُّ الْمَزَارِ .

وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ وَنِقْمَةً عَلَى
الْكُفَّارِ ؛ وَنَصْرَهُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ فِي إِمْرَادِ كُلِّ أَمْرٍ وَإِصْدَارِ ؛
وَالآنَ بِرَأْسِهِ صَلِيبُ الصَّلْبُوتِ وَأَهَانُ التَّنْكِيْسِ عَبْدَةَ الْأَصْنَامِ وَسَدَنَةَ النَّارِ ، وَأَيَّدَهُ
بِأَلٍ وَأَنْصَارٍ ، وَأَحْصَاهُ وَأَنْصَارٍ ، وَجُنُودُهُ تَهْوِي النَّقْعَ الْمُنَارِ ؛ وَأَتْبَاعُهُ مَا أَظْلَمَ خَطْبُ
إِلَّا أَجَالُوا سَيُوقِفُهُمْ فَبِدَا تَجْمُ الظُّفَرِ فِي سَمَاءِ الْإِيمَانِ وَأَنَارَ ، وَأُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى مَنْ
نَاوَاهَا ، ظَافِرَةٌ بِمَنْ حَادَاهَا ، مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومَانِ بِدَوَامِ
الْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ .

فَقَدْ وَرَدَ عَلَيْنَا كِتَابٌ مَّخْتُومٌ بِالتَّكْرِيمِ ، مَحْتَمُومٌ بِالتَّجْجِيلِ وَالتَّقْدِيمِ ؛ مَحْتَوٍ عَلَى وَصْفِ
فَضْلِ اللَّهِ الْعَمِيمِ ، وَنُصْرِهِ الْعَظِيمِ ، وَمَنْنَةِ الْجَسِيمِ ؛ فَأَكْرَمْنَا نُزُلَهُ ، وَنَشَرْنَا حُلَّهُ ،
وَتَفَهَّمْنَا تَفَاصِيلَهُ وَجَمَلَهُ ؛ قَيِّمْنَا بِوَصُولِهِ ، وَتَأَمَّلْنَا خَيَالَ النُّصْرِ الْعَزِيزِ مِنْ قُصْبُولِهِ ؛
وَوَجَدْنَاهُ قَدْ أَشْتَمَلَ مِنْ سَعَادَةِ مُرْسَلِهِ عَلَى أَنْوَاعٍ ، وَمِنْ وَصْفِ تَعْدَادِ نُصْرَتِهِ عَلَى
غَوْنٍ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ يُعْنِ اللَّهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ الْمُطَاعُ .

فَمَا مَازَكَهُ الْمَقَامُ الْعَالِي مِنْ أَمْرِ الْوَالِدَةِ الْمُقَدَّسِ صَفِيحِهَا ، الْمَغْمُورِ بِالرَّحْمَةِ
ضَرْحِهَا ؛ وَمَا كَانَتْ عَزَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَصْدِ مَبْرُورٍ وَتِجَارَةِ لَبِّ ثَبُورٍ ، وَأَمَّا إِلَى الْبَيْتِ .

الآمين والحرم المعمور؛ وما فاجأها من الأجل، وعاجلها من أمر الله عز وجل ؛
فالمقام أجل الله ثوابه يتحقق أن النية في الأجور أبلغ من العمل ، وأنه من أجاب
داعى الحسام فلا تقصير في فعله ولا خلل ؛ والله نسأل أن يكتب لها ما نوتته من
خير ، وأن يطيف روحها الزكية ببيت المعمور في جنات عدن كما أطاف أرواح
الشهداء في حواصل ذلك الطير .

وكنا نود أن لو قدمت ليتها منا زائدا الإكرام ، ويوافي مضاربها وفاد الاحتفال
والاهتمام ؛ ونستجلب دعواتها الخالصة الصالحة ، وتظفر هي من مشاهدة الحرم
المعظم والمنوى المكرم والبيت المقدس بالصفقة الراجحة . على أنه من ورد من تلقائكم
قابلاتنا من جميل الوفادة بما به يليق ، وتقدمنا بمعاملته بما هو به حقيق ؛ ويسرنا
له السبل وهديناه الطريق ، وأبلغناه في حرز السلامة مع ركننا الشريف أمله من
قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق .

وأما ما أشار إليه من أمر من كان «بتلمسان» وأنه من لا يعرف مواقع الإحسان ،
وما وصفه المقام العالى من أحوال ليس الخبر فيها كالعيان ، وأنه اعتدى على من
يتانحه من الملوكة ، وخرج عن القصد فيما اعتمده من ذلك السلوك ، حتى أن ملك
تونس أرسل إلى المقام أبنه ووزيره ، وسأله أن يكون ظهيره على الحق ونصيره ،
وأب المقام العالى أرسل إلى ذلك الشخص منكرا اعتماد ، طالب إصلاحه
لإفساده ؛ راجيا أن يكون ممن تنفعه الذكرى ، ظانا أنه ممن يابى أن يقال له :
(لقد جئت شيئا نكرا) وأنه بعد ذلك تهادى على غيّه ، وأراد أن يدوق طعم
الموت في حبه ؛ وأبى الظالم إلا تقورا ، وذكر الملك عنه أنه قتل أباه بعد أن آتاه الله
به نعمة ومُلكا كثيرا . وإن المقام العالى أناه نبأ عن أخيه المقيم بسجلماسة ، وخبر
صديق أوجب أن يعامل بما يليق بحيل السياسة وحرز الحراسة ؛ فبغذ المقام له

جُنُوداً ، وَعَقَدَ بُنُوداً ، وَأَضْرَى أَسُوداً أَوْهَنْتَ كَيْدَهُ ، وَأَذْهَبْتَ أَيْدَهُ ، وَاجْلَلْتَ صَيْدَهُ ، وَأَذَلْتَ بَاسَهُ ، وَأَزَالَتْ عَنْهُ سِيْمَا الْمُلْكِ وَتَزَعَّتْ لِبَاسَهُ . وَأَنَّهُ فِي غُضُونِ ذَلِكَ أَنَامَ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ يَسْتَصْرِخُ بِهِ عَلَى عُدُوِّ اللَّهِ وَعُدُوِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي سَعْدِيهِ عَلَى الْكَفَرَةِ الْمُعْتَدِينَ . وَأَنَّ الْمَقَامَ لَبَيَّ دَعْوَتِهِ مُسِرّاً ، وَأَكْرَمُ نُزُلِهِ مُمَرِّباً ، وَوَعْدَهُ الْجَمِيلُ ، وَحَقِّقَ لَهُ التَّامِيلُ . وَأَنَّ صَاحِبَ تِلْكَسَانِ لَمَّا غَرَّهُ الْإِمْهَالُ ، وَظَنَّ هَذِهِ الْمَهَامَّ تَوَجَّبَ لِلْمَقَامِ بَعْضَ أَشْغَالٍ ، أَعْمَلَ أَطْعَامَهُ فِي التَّجَرَّى عَلَى بَعْضِ مَمَالِكِهِ الْخُرُوسَةِ وَمَدَّ ، وَسَارَ إِلَى مَحَلٍّ هُوَ بَيْنَهُمَا كَالْحَدِّ . وَأَنَّ الْمَقَامَ عِنْدَ ذَلِكَ صَرَفَ إِلَيْهِ وَجْهَ الْعَزَمِ ، وَأَخَذَ فِي حِفْظِ شَأْنِهِ بِمَا لِلْأَعْلَامِ النَّصِيرِ مِنْ تَصَبُّبٍ وَمَا لِلْإِعْتِدَاءِ مِنْ رَفْعٍ وَمَا لِلْإِهْتِمَامِ مِنْ بَحْثٍ . وَأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُ مِنْ أَلِيمِ الْعِقَابِ حُلُولاً ، وَتَمَسَّكَ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [وَلَمَّْا] ^(١) لَمْ يَنْفَعَهُ الْإِنْذَارُ ، وَأَبَى إِلَّا الْمَدَاوِمَةَ وَالْإِضْرَارَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَقَامُ الْعَالِي مِنْ جَيْشِهِ الْخِصَمَ ، وَعَسَاكِرَهُ الَّذِي طَالَتْ تُعْضُدُهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَإِلَى أَعْدَادِهِ تَنْخَمَ ، كُلٌّ بِاسِلٍ يَقُومُ مَقَامَ الْكِتَابَةِ ، وَكُلٌّ مُشَاهِدٌ يَشَاهِدُ مِنْهُ فِي الْعَرِينِ كُلِّ غَرِيبِهِ ، وَكُلٌّ ضَرْغَامٌ تَعْرِفُ الْعِدَا مَوَاقِعَ ضَرْبِهِ لَكِنَهَا يَجْهَلُ نَيْدَهُ أَوْ ضَرْبِيهِ ، فَأَذَاقُوهُ كَأْسَ الْحِمَامِ صِرْفًا ، وَلَمْ يَتَّقُوا عَنْ نَحْوِهِ بَدُونَ نَفْسِهِ عَدْلًا وَلَا صِرْفًا ؛ إِلَى أَنْ أَخَذُوهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَبِيهِ ، وَشِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مِمَّنْ كَانَتْ تَخَالُصُهُ فِي الشَّدَائِدِ وَتُؤَا فِيهِ ، وَأَنَّ الْمَقَامَ الْعَالِي بَعْدَ ذَلِكَ سِيرَ مَطَارِفَ الْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ ، وَأَقْرَأَ أَحْوَالَهُمْ فِي عَدَمِ التَّعَرُّضِ إِلَى الْأُمُورِ وَالذَّرِّيَةِ ، عَلَى مَا هُوَ الْمُسْنُونُ فِي قِتَالِ الْبَغَاةِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ . وَفَهِمْنَا بِجَمْعٍ مَا شَرَحَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ هَذَا الظَّفَرِ الَّذِي آبَيْضَ بِهِ وَجْهُهُ الْفَتْحُ وَإِنْ كَانَ قَدْ احْتَرَبَهُ صَدْرُ النَّصْلِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ مُلْكَكَ رُقْيَا ، وَيُخَيِّرُ لِقَبُولِ النِّعَمِ لِقْيَا ، وَيَجْعَلُهُ دَائِمًا

(١) فِي الْأَصْلِ «لَمْ يَنْفَعَهُ» بِدُونِ لَمَّا :

كوصفه مظفراً وكاسمه علياً . وأن المقام العالى لما فرغ وجهه من هذه الوجهة ، وحاز هذا الملك الذى لم يُجزَّ أبأؤه كُنْهه ، عاد إلى المهم الذى قَدِمَ فيه سلطان الأندلس لأنه ابدئ ما المسلمون فيه من محاورة الأذى ، ومحاورة العدا ، وقرب المسافة بين هذين العدوَيْن كالشجأ . وفى عيونهم كالقذى . وأنه ثوى به من الطغاة من أسند على المسلمين أريية الردى . وأنه على جانب البحر المعروف بالرفاق ، وبه قُطانٌ يمتعون الإرفاد والإرفاق ، ويصبتون عن السبيل من قصد سلوكه من الرفاق . وأن البرأيا أيضاً مملوء منهم بصقور صائده ، وعُلُوج مُكابِده ، وكُفَّار معانِده ، وقُجَّار على الشسوء متعاضده ، والبحر مشحونٌ بغيران طائرة بأجنحة القلوع طارده ، صادرة بالموت وارده ، جارية فى فلك البحر كالأعلام إلا أنها بالإعلام بالخبر شاهده ، تخطف كل أم وقاصد ، وتقعّد لأهل الإيمان بالمرأصد ، وتُدنى الموت الأحمر ، من ركب البحر الأخضر ، وتمتّع السالك ، إلا أن يكون من أهل الضلال الحالك ، من يبيّ الإصفر .

وأن المقام العالى عند ذلك قام لله وغار ، وأتجد جنوده فى طلب النار من أهل النار وأغار ، وأتجد قاصد حرمه ببُعوث كرمه وأعار ، وأرسل عقبان قُوسانه محلقة إلى ذلك الجبل الشاخ الذرى وأطار ، إلى أن احاطت بهم جنوده إحاطة الآساد بالفرائس لإحاطة الهالات بالأقمار ، فما منهم إلا من أعمل على العدا رضى المتون وإدار ، وسار وناعى البين يقدّمه إلى أين سار ، وقدم عليهم ولده الميمون النقيبه ، المنفوخ غربه من مواقع النصر بكل غريبه ، الجارى على سنن آبائه الكرام ، المظفر أئى سرى المدسوح حيث أقام . وأنه مرّج جموعهم الكثيفه ، وهدم معاقلهم المنيغه ، وأسبذنى منهم القاصى ، وأستك العاصى ، وأخذ بالأقدام والنواصي ، وأحلّ العذاب والتكال ، بمن يستحقه من أهل الإلحاد والمعاصى ، وقرن بين الأرواح والآجال ،

وأذكّرهم بهذا النصر أيام ابن نصر وأعاد ، وأثبت لهذا الجبل حقيقة أسم المدح ،
وأسست في صحائف فعله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلمنا أيضا ما اعتمد الطاغى المغتال لعنه الله من الحضور بنفسه ، وجمعه
المُلاحدين من أبناء خدمته والمارقين من جنسه . وأنه أعظم هذا الأمر وأكبر ،
وأبدى الرّيفر لهذا المصّاب وأظهر ، وأقسم بمعبوده المصّور وصليبه المكسر ، أن لا يعود
إلا بعد أن يظفر بما سلبه الحق إياه وتبصر ؛ فإيا الله والمؤمنون أن تكون النية
إلا خائبة ، وقضت سعادة الإسلام أن تكون الأيام لما عقده من الطوية الرديّة
ناكبه ؛ فلما طال عليه الأمد وحان الحين ، عاد صفر اليدين ولكن بخفى حنين ؛
ناكها على عقيبها ، خاسئا لسوء متقلبه ، وأسرع إلى مقر طاعوته سرى وسيرا ،
ولو كان من ذوى الأبواب لتعقل في أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بَغْيَظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . وأنّ المقام العالى ألزمه بعد ذلك ما كان على أهل
«أغرى ناطة» له في كلّ عام موطّفا ، ووضّع عنهم إضرما برح كالأسر مجحفا .

وهذه عزّة إسلامية جدد الله على يد المقام بذلك القطر صدورها ، وسطر
في صحائف حسناته أجورها ، وأبقى له مذخورها ؛ وأعدّها له ليوم يجد فيه كلّ نفس
ما عملت من خير محضرا إذا شاهدت عرضها ونشرها . ومنّة من الله أربّت على العبد ،
وتجاوزت الحد ، ومزية لا تطمح الآمال إلى ميلها في جانبها ولا تمتد ، ورُتب جد
يلحق بها الولد الناجم في سماء المعالي رُتب الكرام من أب له وجد . والله يجعله مظفرا
على العدا ، منصورا على من حاد عن سواء السبيل وأعتدى ؛ مستحقا لحاسن
الأخبار على قرب المدة وبعد المدى .

وقد كان أخونا أمير المسلمين ، وسلطان الموحدين ، والدك الشهيد قدس الله
سره ؛ وبوّاه دار النعيم وبها أقره ؛ في كلّ آونة يُخبرنا بمثل هذا الفتح ، ويدكر لنا

ماناله من جَزِيلِ المنح؛ (فهذه شَيْئَتُهُ تَعْرِفُهَا مِنْ أَنْحَرَم)، وَسَنَّةٌ سَلَكَ فِيهَا الشَّيْلُ الصَّائِدُ سَنَنَ ذَلِكَ الضَّيْفِ الْأَعْظَمَ، وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَقَامَ الْمَقَامَ مَقَامَ أَبِيهِ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَأَبْنَيْ، وَصَلَّقَ بِمَا تُنْشِئُهُ مِنْ حُسْنِ أَعْمَالِكَ وَسَعِيدِ أَرَائِكَ أَنْكَ أَبُو الْحُسَيْنِ وَأَنَّ أَبَاكَ أَبُو سَعِيدٍ حَقًّا .

وَحَيْثُ سَلَكَ الْمَقَامَ سَنَنَ وَالِدِهِ الشَّهِيدَ، وَأَتَمَّحْنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ بِكُلِّ جَدِيدٍ؛ وَقَصَّ عَلَيْنَا أَحَادِيثَ ذَلِكَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ الْمُشْرِقِ بِأَنْوَارِهِ، وَنَصَّ مَتَجَدِّدَاتِهِ مَقْصَلَةً حَتَّى صَرْنَا كَأَنَّا مُشَاهِدُونَ لَذَلِكَ النَّصْرِ وَمَوَاقِعِ آثَارِهِ، فَقَضَى الْوُدَّ أَنْ تُخَفِّهَ مِنْ أَحَادِيثِ جَيْشِنَا الَّذِي أَشْرَقَتْ لَمَعَاتُ سَيُوفِهِ فِي الشَّرْقِ الْأَعْلَى بِمَا يُسَنِّفُ سَمْعَهُ، وَيُسْرِ مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ وَجَمْعَهُ، وَمَوْطِنَهُ وَرَبْعَهُ : لِيَتَحَقَّقَ أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِتَشْيِيدِ هَذَا الدِّينِ الْحَمْدِيُّ عَامَّةً، وَمِنَّتُهُ لِبَنِيهِ تَامَةً، وَأَلْطَافُهُ بِهِمْ حَافَةً، وَمُنَاصَرَتُهُ لِيَدِ سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ فِي أَعْنَاقِ الْعِدَا مُطْلَقَةً وَلَا تُكْفَى أَهْلُ الشَّرْكَ كَافَةً، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فَمَا يُبْدِيهِ لِعَالَمِهِ، وَيُهْدِيهِ لِسَعِيدِ فَهْمِهِ، أَنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مِنْ يَحْمِلُ لِأَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنْ مُلُوكِ الْكُفْرِ الْقَطِيعَةِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جَمَلَةِ الْإِفْضَالِ عَلَيْهِ وَالْإِنْعَامِ؛ مِمَّا لَكَ سَيِّسٌ، الَّذِي هُوَ فِي مِلَّتِهِ مِنْ سَاكِنِي الْبَرْكَالْرَيْسِ، وَبَيْنَ بَطَارِقَتِهِ وَطُغَاتِهِ كَالْكَنْدِ الْأَعْظَمِ أَوْ كَالْقُدِّيسِ النَّفِيسِ؛ وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ لِأَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْقَنَاطِيرِ الْمَقْنَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالخَلِيلِ الْمُسَوِّمَةِ مَا لَا يَحِيدُ عَنْهُ وَلَا يَحِيسُ، وَمَرْتَّبٌ لَا يَقْبَلُ التَّنْقِيسَ وَلَا يَسْمَحُ لِحَاقِهِ بِتَنْفِيسٍ، تَحْمِلُهُ نَوَّابُهُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ، وَيَقُومُونَ بِهِ عَلَى قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ وَهُمْ ضَارِعُونَ .

وَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْمُبَاضِي سَوَفَ يَبْعُضُهُ وَأَنْحَرُ، وَدَافَعَ عِنْدَ إِبَانِهِ وَقَصَّرَ، وَسَأَلَ مَرَّاحِمَنَا فِي تَقْيِصِ بَعْضِ ذَلِكَ الْمُقْزُورِ، وَأَرْسَلَ ضَرَاهَاتِهِ إِلَى نَوَّابِنَا بِالْمَسَالِكِ الشَّامِيَةِ

في هذا المعنى وكرر، وقدّر في نفسه المرافعة وأسرّ خسراً في ارتها (٩) والله أعلم بما
 قدر؛ فاقطعت أراؤنا الشريفة أن نرسل إليه بعثاً يذل قياده، ويتكسّر صمّاده،
 ويخرب بلادَه، ويوطئ أطواده، ويوهن عناده، ويذهب قساده، ويفرق
 أجناده، ويمزق أنجاده، ويقتل اعداده، ويقتل جموعه، ويذلل رُبوّه،
 ويُدري على مُلكه دُموه، ويذني خُصوه، ويقصّل تلك الأبدان التي هي
 للطغيان جموعه، فانهضنا إليه من الأبطال كلّ باسل، وأنهذنا إليه منهم
 كلّ ضِرغام خادِر يُظنّ الجاهل أنه متكاسل، وأشهدنا حربَه كلّ مؤمن يرى الشهادة
 معتمداً، والتخلف مأثماً والتباطؤ مغرماً، والمُدر في هذا المُهمّ أمراً محرماً. ويعدُّ
 الرُكوب إلى هذا السّفَر قُرْبَه، والرُّكُون إلى وطنه غُرْبَه، ويرغب فيما وعد الله به
 جيشه المنصور وحزبه، ويربأ بنفسه أن يكون من الخالفين حُبّاً لها وتكريماً،
 ويبادر إلى ما أمر به رغبة في قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . على صافات جياذ، ليس لما خيّر الطّير في سرعة المكرام أضداد،
 وعاديات عاديات على أهل العناد، وضاحيات ذابحات لدوى الفساد، ومُغيرات
 طالما أسفر صُبحُها عن النّجاح، ومُثيرات تقع يتلجّ غيبتها عن تحقّق النّجاة وإزالة
 الجُناح. وصوّاهل عِراب، كمّ للفضل بها من كُون ولّوت اقتراب، وأصائل خيل،
 تُحِيل لراكبها أنها أجرى من الرياح وأسرى من الليل، قد عُقد الخيّر بنواصيا، وعُهد
 النصر من أعرافها وصياصيا، وتسمّ راكبوها لذروة العزّ من ظُهورها، واحتووا
 على الكبير الأعلى من نصرتها على العدا وظُهورها، بسُيوف تبدّد الأوهام، وتزِيل
 الإيهام، وتُقدّ الهام، وتُذني الموت الزّوام، وتُطهر بيمانيها نجس الشّرك ودنّسه،
 وتقرّع أجسادهم فتسلوكلها عُيوناً ولكنّ بالدماء مُنجّسه، قد تسرّب كلّ منهم
 من الإيمان درّداً حصينا، واتخذ لبسه جُنة ولكن من الذهب والإستبرق ليكون

لفضل الله مظهرًا وإحساننا مُبينًا، واتَّخَذَ لِسَهَامِ الْقَيْسِ لِيَوْمِ النَّقَاءِ الْإِنْسَنَ الْحِدَادَ،
ومَدَّ يَدَ الْمُنْظَاهِرَةِ بِيضِ قِصَارٍ وَشُمَيْرِ صَعَادٍ .

فَلَمَّا جَاسُوا خِلَالَ تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَمَاسُوا يَرْفُلُونَ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ الَّتِي تَشْفِي
صُدُورَ قَوِيمِ مُؤْمِنِينَ وَتَضَيِّقُ الْكُفَّارَ ، لَمْ يَسْلُكُوا شُعْبًا إِلَّا سَلَكَ شَيْطَانُ الْكُفْرِ شُعْبًا
سِوَاهُ ، وَلَا وِطَنًا مَوْطِنًا إِلَّا وَكَلَّ كَافِرٌ يَأْبَاهُ ، وَلَا نَالُوا مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ وَعَدَّاهُمْ اللَّهُ ، وَمَا أَتَوْا لَهُمْ عَلَى ضَرْعٍ حَافِلٍ إِلَّا جَفَّ ، وَلَا مَرُّوا
عَلَى زَرْعٍ حَافِلٍ إِلَّا أَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ أَوْ حَطَبًا تَكْفِيهِ الْكَفَّ ، وَلَا هَشِيمٍ
إِلَّا حَرَّقُوهُ ، وَلَا جَمْعَ إِلَّا فَرَّقُوهُ ، وَلَا قَطِيعَ شَاءٍ إِلَّا قَطَّعُوهُ وَمَزَّقُوهُ ، وَلَا ضَائِرَ إِلَّا ضَنُّوا
عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ لَمْ يُؤْطَلِّقُوهُ ، وَمَا يَرْحَوُا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ نَازَلُوا الْبَلَدَ الْمَسْمُومَ بَأْيَاسَ ،
فَخَصِلَ لِأَهْلِهِ مِنْ مَسَاءِ الْأَشْتَقَاقِ الْأَصْفَرِ وَالْأَشْتَقَاقِ الْأَكْبَرِ بَقْطَعِ الْأَمَلِ مِنْهُ
وَأَتَّصَلَ الْإِيَّاسُ ، فَنَادَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصْنِ مَنْ أَسَارَى الْمُؤْمِنِينَ :

يَا رَحِمَةَ اللَّهِ حُلِّيْ فِي مَنَازِلِنَا * حَسْبِيَ بَرَأْحَةُ الْفِرْدَوْسِ مِنْ فَيْكِ

وَيَا نَصَرَ اللَّهِ أَثْبُرَ بِالظُّفَرِ رَايَاتٍ مُوَاكِفَةً وَمَنَازِلَنَا فُطْلَمَا كُنَّا نُوْمَلِكُ وَنُرْتَجِكُ ؛
وَيَا خَيْلَ اللَّهِ اارْكَبِي ، وَيَا خَيْلَ الْكُفَّارِ ااذْهَبِي ، وَيَا جُنْدَ إِبْلِيسِ اارْهَبِي ، مَنْ جُنْدَ اللَّهِ
الْعَالِيِينَ ؛ وَإِنْ وَجَدْتِ مَنَاصِبًا فَانْفِرِي ، وَيَا مَأْمُورَةً لِلْإِسْلَامِ مِنْ جُنُودٍ وَأَنْصَارٍ ، قَاتِلُوا
الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

وَكَانَتْ مُوَافَقَةُ عَسْكَرِنَا الْمَنْصُورِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْإِسْفَارِ ، فَلَمْ يَلِكُوا الْقَرَارَ ، وَلَا اسْتَطَاعُوا
الْفِرَارَ ، وَلَمْ يَجِدُوا مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . وَقَالَ : لَا وَزَرَ وَكَيْفَ بِهِ لِمَنْ يُلِي الْأَوْزَارَ ،
وَرَأَوْا مَا أَعَدَدْنَا لِحَصَارِهِمْ مِنْ مَجَانِيْقٍ تَقْدُ الصُّخُورَ ، وَتُكَدِّكُ الْقُصُورَ ، وَتَغِيضُ بِهَا
مِيَاهُ نَفُوسِ تِلْكَ الْأَجْسَادِ الْخَلِيئَةِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ؛ وَأَنَا أَمَدُّنَا

جُيُوشَنَا بِجَارِيَاتٍ فِي بَحْرِ الْفُرَاتِ ، مَشْحُونَةٍ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَمْوَاتِ ، وَالْعُدَدِ وَالْآلَاتِ ؛
وَأَرْقَدْنَا مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالْقَنَاطِيرِ الْمَقْنَطَرَاتِ ، وَأَوْقَدْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَتْجَادِنَا
بِالْدِيَارِ الْبَكْرِيَّةِ ، وَأَطْرَافِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، جُيُوشًا كَالسَّحَابِ الْمَتْرَائِمِ ، وَأَطْرَافِ عَلَيْهِمْ
عَقَبَانِ اقْتِنَاصٍ مِنْ عَقَبَانِ التَّرَاكِمِينَ اعْتَادَتْ صَيْدَ الْأَرَاقِمِ ، وَأَسْرَ الضَّرَائِمِ ؛ فَلَمَّا
تَحَقَّقُوا الدَّمَارَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ مَنْ أَهْلَكَ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ .

فَعِنْدَ الظَّهِيرَةِ حَمَى الْوَيْطِيسِ ، وَنَكَّصَ عِنْدَ إِعْلَانِ الْأَذَانِ عَلَى عَقِبِهِ إِبْلِيسُ ؛
وَشَاهَدُوا الْمَوْتَ عَيْنَانَا ، وَتَحَقَّقُوا الذَّهَابَ أَمْوَالًا وَإِخْوَانًا وَوُلْدَانًا ؛ أَدْعُنَا إِلَى السَّلَامِ ،
وَنَادُوا الْأَمَانَ الْأَمَانَ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، وَالْكَفِّ الْكَفِّ يَا جُنْدَ الْمَلِكِ الْمُوصُوفِ
عِنْدَ الشَّقَاقِ بِالْحَزْمِ ؛ وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعِقَابِ بِالْحِلْمِ . وَأَرْسَلَ طَائِفَتُهُمُ الْأَكْبَرُ
لِيفُونَ ، يُقَسِّمُ بِصَلِيهِهِ : إِنَّا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِزْيَةِ وَيُؤْفُونَ ؛
وَمِنَ الرِّعْيَةِ الَّذِينَ يُطِيعُونَ أَمْرَ مَلِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَعَنْ حِمَى الْإِسْلَامِ يَكْفُونَ ؛ فَعِنْدَ
ذَلِكَ رَأَى نَوَائِبُنَا بِذَلِكَ الْعَسْكَرِ أَنْ تُكَفِّ عَنْهُمْ شُقَّةَ الشَّقَاقِ وَتُطَوَّى ، وَلَانَتْ قُلُوبُهُمْ
لِتَذْكَارِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى ﴾ . وَطَالَعُوا عَلُومَنَا بِمَا سَأَلَهُ الْقَوْمُ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَمَا ضَرَعُوا إِلَيْهِمْ فِيهِ مِنَ الْأَمَانِ وَالْأَلْفَةِ ؛ وَإِعْطَاءَ مَا كُنَّا زَمَنًا بِهِ
مِنَ تَسْلِيمِ قِلَاجٍ مَعْدُودَةٍ ، وَتَسْوِغِ أَرْضٍ مَحْدُودَةٍ ، تَسْتَقَرُّ بِيَدِ نَوَائِبِنَا وَتُقَطَّعُ بِالْمُنَاشِيرِ
الشَّرِيفَةِ لِأَهْلِ الْجِهَادِ مِنْ أَبْوَابِنَا ، مَعَ اسْتِقْرَارِ مَارِسَتِنَا بِهِ مِنْ قَطْعِهِ ، وَعَقْدِ الْهَدَنَةِ
عَلَى أُمُورِهِ عِنْدَنَا مُحِبَّةً وَلَدَيْهِمْ فَظِيعةً .

هَذَا بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَتْ عَسَاكِرُنَا عَلَى قِلَاجِ لِمِ وَحُصُونِ ، وَخَرَزَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
وَمُصُونِ ؛ وَطَلَعَتْ أَعْلَامُنَا الْمُحَمَّدِيَّةُ عَلَى قَلْعَةِ آيَاسَ ، وَنَزَلَ أَهْلُ الْكُفْرِ عَلَى حُكْمِ

أهل الإيمان وزال التحفظ والإحتراس، وأُعلن بالأذان في ذلك الصّبح، وظهرت كلمة الإيمان كما بدأت أول مرة وهذا يُعني عن الشّرح؛ وعلّت الملة الخنيفة بذلك القطر وقام أهلها وصالوا، وعلّت أيدي الكفار ولعنوا بما قالوا .

وكان جيشنا قبل ذلك أخذ قلعة تسمى « بكاورا » واستزلوا أهلها قسرا ، واستراوهم عنها ما بين قتلى وأسرى؛ وهى قلعة شائعة الذرى، فسيحة العرا، وثيقة العرا، يكاد الطرف يرجع عنها خاسئا .

ولما اتصل بابوابنا هذا انجبر السّار، وشفع لنا من نرى قبول شفاعته في إجابة ماسأله هذا الشعب من إرجاء عذاب أهل الكفر إلى نار تلك الدار؛ منّا عليهم بالأمان، وقابلناهم بعد العدل بالإحسان؛ وتقدم أمرنا إلى نوابنا بكفّ السيف وإعماده، وإطفاء مسعر الحرب وإخماده؛ وأن يُجرى المنّ على مالوفه منّا ومعتاده، بعد تسليم تلك القلاع، وهدم الأسوار التي كان بها لأهل الكفر الإمتناع؛ واستبقاء الرعية، واستحياء الذرية، وإجراء الهدنة المسؤولة على القواعد الشرعية؛ وعاد عسكرنا منشور الذوائب، مظفر الكتائب، مؤيد المواقب، مشحونا بغرائب الرغائب .

وعند وصولهم إلى أبوابنا فتحنا لهم أبواب العطاء الأوفر، وبدلناهم بالتي هى أحسن وعوضناهم الذى هو أكثر؛ وأفضنا عليهم من خلع القبول ما أنساهم مشقة ذلك السرى وشقة السير، وتلا عليهم لسان الإنصاف ((ولباس التقوى ذلك خير)) .

وبعد ذلك ورد علينا كتاب بعض نوابنا بالأطراف من أولاد قرمان، القائمين بمشارك ممالكنا على وجه الأمن وسعة الأمان، بأنهم عند عودهم من سيس؛ ونصرتهم على حرب إبليس، استطردوا فأخذوا للكفر تسع قلاع، ما برحت شديدة الإمتناع،

لا تَمْتَدَّ إِلَيْهَا الْأَطْلَاعُ ؛ فَتَكِلُ الْمَاخُوذُ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ وَمَا قَبْلَهَا نَحَسَ عَشْرَةَ قَلْعِهِ ،
وَيَدَّ اللَّهُ شَمْلُ الْكُفْرِ وَفَرَّقَ جَمْعَهُ ، وَأَثَرْنَا أَنْ نَعْلِمَ الْمَقَامَ الْعَالِي بِلَمَحَةٍ مِمَّا لِلَّهِ لَدِينَا
مِنَ النَّعَمِ ، وَلَبَرَهُ مِنْ شَارَةِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَثَرِ أَخْلَافِ كَالْدِيمِ ، وَنُظْلِعُهُ عَلَى دَرَّةٍ مِنْ
سَحَابٍ ، وَغَرْفَةٍ مِنْ بَحْرِ عِبَابٍ ؛ وَطُرْفَةٍ نَشْرُهَا كَالْمِسْكَ الَّذِي يَبْنِي أَنْ يَخْتَمَّ بِهَا
هَذَا الْكِتَابُ .

وَنَحْنُ نَرْغَبُ إِلَى الْمَقَامِ أَنْ يَوَاصَلَ بِكُتُبِهِ الْمَفْتَحَةِ بِالْوِدَادِ ، الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى النَّصْرَةِ
عَلَى أَهْلِ الْعِنَادِ ، الْمَشْحُونَةِ بِمَوَاقِعِ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ الَّتِي تَضَاعَفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَتَزْدَادُ ؛
الْمَحْتَوِيَةِ عَلَى الطَّارِفِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالنَّالِدِ ، الْمُتَّصِلِ سَبَبُهَا بَيْنَ الْآبَاءِ الْكَرَامِ
وَتُجْبَاءِ الْأَوْلَادِ ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَجْعَلُهُ دَائِمًا لَثَرَاتِ النَّصْرِ مِنَ الرِّمَاحِ يَنْجِي ، وَلَوْجُوهِ
الْفَتْحِ مِنَ الصَّوَارِمِ يَحْتَلِي ؛ وَيُدِيمُ عَلَى الْإِسْلَامِ مَزِيدَ الْعِزِّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ كُلُّ آيَةٍ مِنْ
طَلَائِحِ رَايَاتِ مُحَمَّدٍ وَبَدَائِعِ آرَاءِ عَلِيٍّ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة كتاب جواب إلى صاحب فاس حيث ورد كتابه بالتعرض لوقعة
« تمرلنك » من إنشاء مؤلفه ، كُتِبَ بِذَلِكَ عَنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « فَرَجِ بْنِ
بَرْقُوقٍ » وَهُوَ .

عَبْدُ اللَّهِ وَوَلِيُّهُ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ (إِلَى آخِرِ أَلْقَابِ سُلْطَانِنَا) أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى
الْأَقْدَارَ بِرَفْعَةِ قُدْرِهِ ، وَأَدَارَ الْأَفْلاكَ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ ، وَأَذَلَّ رِقَابَ الْأَعْدَاءِ بِسَطْوَتِهِ
وَقَهْرِهِ ، وَشَخَّنَ الْأَقْطَارَ بِسُمُوعَتِهِ وَمَلَأَ الْآفَاقَ بِذِكْرِهِ ، يُحْصِ الْمَقَامَ الْعَالِي (إِلَى آخِرِ
الْأَلْقَابِ) : رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي مُلْكِهِ الشَّامِخِ مَنَارًا ، وَجَعَلَ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُ شِعَارًا ،
وَأَحْسَنَ بِحُسْنِ مَوَاتِنِهِ إِلَّا لِأَهْلِ الْكُفْرِ حَوَارًا ، بِسَلَامٍ فَوْقَ الْعَيْرِ عَيْقِهِ ، وَبِزْرِ

بَقِيَّتِي الْمُسْكُ الدَّارِيَّ قَتِيهٖ ، وَيُحْجِلُ الرِّوَضَ الْمُنْتَمِ إِذَا تَرَيْنَ بِالْبَهَارِ خَلُوقَهٗ ، وَشَاءَ
تَكَلُّمِ الْإِلْسِنَةِ الْبَلِيغَةِ عَنْ وَصْفِهٖ ، وَيُعِزُّ بِنَاءَ الْمَجْدِ الْأَمِيلِ عَنْ حُسْنِ رَصْفِهٖ ؛ وَتَعْتَرِفُ
الْأَزَاهِرُ بِالْقُصُورِ عَنْ طِبِّهِ أَرْجِهٖ وَمُسْكُ عَرَفِهٖ ؛ وَشُكْرُ يَوَالِي الْوَرْدِ فِيهِ الصَّدَرُ ،
وَيَحَقِّقُ الْخَبْرَ فِيهِ الْخَبْرَ ؛ وَيُسَبِّحُ فِي الْآفَاقِ ذِكْرَهٗ فَتَنْخِذُهُ السَّمَاءُ حَدِيثَ سَمَرٍ .

أما بعد حمد الله واصل أسباب المودة وحافظ نظامها ، ومؤد علائق المحبة بشدة
التيامها ، ورباط جاش المعاوضة بالتحاد كلمتها وتأسب مرامها ؛ ومجدد مسرات
القلوب بتوالي أخبارها المبهجة عن على مقامها . والصلاة والسلام على سيدنا محمد
أفضل نبي رعى الذمام على العباد ، وأكرم رسول قرن صدق الإخاء منه بصحة
الوداد ، صلاة تبلغ من رتبة الشرف منتهىها ، وتتطوى الشقة البعيدة دون بلوغ
مداه ؛ فإنه ورد طينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده ، وتهللت
البشر سعوته ؛ وشهد بصديق المحبة الصادقة شهوده ؛ وطلع من الجانب الغربي
هلاله فلاحت بالشرق بحسن التلقى سعوته ؛ ففر منه برؤيته الناظر ، وأبتهج بموافاته
الناظر ، ولاحت من جوانبه لوائح البشر فأحسن تلقاه سلطاننا الناصر .

وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنوانا للظاهر ؛ وفَضَضْنَا خَتَامَهٗ
المصون عن يدع كلام مخترع ، وبنات فكر قبله لم تُفترع ؛ وفصاحة قد أحكم اللسن
مباينها ، وبلاغة تناسبت ألفاظها فكانت قوالب لمعانها ؛ وبراعة قد أحسنت البديهة
ترتيبها فجاءت وتواليها تتبع هواديها ؛ وفيهنا ما أظهره من كوامن المحبة التي بلغت
من القلب الشخاف ، ويوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف أضعاف ؛
واتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالى من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالك الشريفة
من طارق الاعتدا ، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا .

ونحن نُبدي لعلم المقام العالى ما يوضح له أنَّ ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، وتُورد عليه من بيان السبب ما يحقّق عنده أنَّ ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل لأمرٍ قُدّر فى الأزَل، ومقدور الله تعالى لا يُدفع بالحيل .

وذلك أنه لما اتّصل بمسامعنا الشريفة قصّد العدو إلى جهتنا، وتجاوزهُ حدّ بلاده إلى أطراف مملكتنا؛ بادّنا الحركة إليه فى عسكرٍ لحب، وجيوشٍ يضيّق عن وسعها الفضاء الرّحب؛ من كل بطلٍ عرّكته الحروب، وثقّفته الخطوب؛ وحنّته التجارب، ونعيم عودِهِ بكثرة المنازلات قِراع الكتائب. قد امتطى طرّفاً عربى الأصل كريم الحسب، خالص العنق صريح النسب؛ يفوت الطرف مدى باعه المديد، ويسبق حافيه موقع بصره الحديد . وليس درعا قد أحكم سَردها، وأبرم شدّها، وبالقت فى السبوغ فاتصفت بصفات الكرام، وضافت عنها فنعت شبا حتى ذباب السهام . ووضع على رأسه بيضةً يخطف الأبصار ويميض برقها، وتزلى السهام الراشقة صلابه طرقيها؛ وترفعها الأبطال على الرؤوس فلا ترى أنها قامت ببعض حقّها. وتقلد سيقا يَمْضى على القلب ناضحاً، ويقضى باتقضاء الأجل انقضاءً نجه، لا يَبْنو عن ضريبة فيردّ، ولا يقف حده فى القطع عند حدّ. وأعتقل رُحماً يُجرى الدماء منأنه بأنايبه، ويمد إلى الفارس باعه الطويل فيأخذ بتلابيه؛ وتمسك المنايا بأسبابه فتتملّق منه بالأذيال، وتضرس الحرب بزرّق أنيا به كأنها أنياب أغوال . وتتكب قوساً موعز الآجال هلال هلالها، وموريد المنون إرسال نبالها؛ ومدرك الثارثة وترها، وموقد نار الحرب قندح شررها، قد آقرن بها سهام تُسابق الرياح فى سرعتها، وتعاجل الموت بصرعتها؛ وتختطف العيون فى ممرّها، وتختلس النفوس من مقورها؛ تدخل هجماً كُل محتجب، وتاقى الحذر من حيث لا يحتسب . وتناول عموداً يهجم على الأضالع بأضلاعه فيقدّعها، ويصافح الرؤوس بكفّه الملتحمة الأصابع

فدَمَغُها ؛ يُقَرَّب من الأجل كُلِّ بعيد ، ويُخَلِّق من العُمُر كُلِّ جديد ، ولا يُقاومه في الدِّفاع بيضةٌ وأنى تُقاومُ البيضةُ زُبَّةً من حديد .

وتحرَّكنا من الديارِ المصرية في جيوش لا يأخذها حَصْر ، ولا يلحقها هَضْر ، ولا يُظَنُّ بها على كثرةِ الأعدادِ كَسْر ، ولم نزل نُحَثُّ السير ، ونُسِرِع الحركةَ للقاء العدوِّ إِسْرَاع الطير ، حتَّى وافينا دِمَشقَ الحروسةَ فترَّنا بظاهرها ، مستمطِّرين النَصْرَ في أوائل حركتنا وأواخرها ؛ وأنقَضَ إلينا من عساكر الشام وعُربانها ، وتركنا الزائدة على العدِّ وعشرانها ، مالا ينقطع له مَسَد ، ولا يدخل تحت حَصْر ولا مَدَد . وأقبل القومُ في لفيف كالجرادِ المنتشر ، وأمواج البحر التي لا تُتَحَصَر : من أجناسٍ مختلفة ، وجموعٍ على تباينِ الأنواعِ مُؤتلفة ، وتراءى الجمعان في أفسح مكان ، ورأى كُلُّ قبيل الآخرَ رأى العين وليس الخبرُ كالعيان ، وأعدَّ الفريقان للترال ، وأحفرُوا خنادقَ للاحتراس وتبوَّأنا مقاعدَ للقتال ، ولم يبقَ إلا المبارزة ، وألْتَقَاءُ الصُّفوفِ والمُناجزة ، إذ وردَ وارِدٌ من جهتهم يطلبُ الصِّلحَ والمُؤادعة ، والجَنوحَ إلى السِّلْمِ وقطعَ المنازعة ؛ فأجبتناهم بالإجابة ، ورأينا أنَّ حقنَ الدماء من الجانبين من أتمِّ مواقعِ الرأى إصابته ؛ وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَمَّا أَنَا مِنْكُمْ قاصِدٌ * يَسْأَلُ في الصِّلحِ وَكَفِّ الْقِتَالِ
قُلْنَا لَهُ نَعَمْ الَّذِي قُلْتَهُ * والصِّلحُ خَيْرٌ وَأَجَبْنَا السُّؤَالَ

فبينما نحن على ذلك ، واقِفون من المُؤادعة على المُؤادعة على ما هنالك ، إذ بلغنا أن طائفةً من الخوثة الذين ضلَّ سعيهم ، وعاد عليهم بالوبالِ ولله الحمدُ بغيهم ، توجهوا إلى الديارِ المصرية للاستيلاء على نُحْتِ مَلِكِنَا الشَّريف في القِيَّه ، آمِلينَ ما لم يحصلوا منه إلا على الخيبة ؛ فلم يَسعُ إلا الإِسْرَاعُ في طَلَبِهِم ، للقبضِ عليهم وإيقاعِ النِّكالِ

بهم، وجازيتهم بما يُجَازى به الملوک من رام مرامهم، وظنّ العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سأموه إليه وفعل فعلته التي فعل، ليَقْضِيَ الله أمرًا كان مَقْعُولًا .

ثم لم نزل نَدَّأبُ في تحصين البلاد وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حافطين أقطارها المتسعة بجيوش لا يكلُّ حُدُها، ولا يُعَقِّبُ بالجُزُر مدُّها، ليَكُونُوا للبلاد أسوارًا، وللدولة القاهرة إن شاء الله تعالى أعوانًا وأنصارًا، وأعاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطئت بعد الاعترا ب .

وفي خلال ذلك ترددت الرُّسل إلينا في عَقْد الصلح وإمضاءه، ودَفَن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه، فلم يَسْعنا التلَكُّؤُ عن المصالحة [بل سَعِينَا] سَعِيها، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعَقَدْنَا لهم عَقْدَ الصُّلح وأَمَضَيْنَاهُ، وأَحْكَمْنَا قواعده تَوَكُّلاً على الله تعالى وأبرمناه، وجَهَّزْنَا إليهم نسخةً منه طمغنت بطمغة قاهم عليها، وأَعِيدَتْ إلينا بعد ذلك ليكونَ المَرْجِعُ عِنْدَ الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ فَمِيسُوقُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

والله تعالى يَجْنِبُ إِيَّاكُمْ الكَريمَ مواقعَ الغَيرِ، ويَقْرُئ مَوَدَّتَهُ الصادقة بصفاء لا يُشَوِّبُهُ على مِزَاجِ الزمان كَدْر، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في مكتبة ملك المسلمين بالأندلس)

وهو صاحب غُرْ نَاطَةَ ، وقُلتها تسمى سَحْرَاءَ غُرْ نَاطَةَ . وقد تقدّم في المقالة الثانية في المسالك والممالك ذكر هذه المملكة وأحوالها ، ومن مَلِكها جاهليّة وإسلاماً ، وأنها الآن بِيَدِ نَبِيِّ الأَحْمَرِ . وقد ذكر في " التعريف " أنهم من وَلَدِ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ ابْنِ عُبَادَةَ سيد الخِزْجِ الأنصاريّ : صاحب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم . وهي منهم الآن بِيَدِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدِ الْخُلُوعِ ابْنِ يَوْسُفَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ ابْنِ الرُّيْسِ أَبِي سَعِيدِ فَرْجِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ نَصْرٍ ؛ وقد أزلَّ اللهُ مَنْ يَجَاوِرُهُ مِنْ نَصَارَى الْقَرْيَةِ بِسَيْفِهِ ، وَامْتَنَعَ فِي أَيَّامِهِ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَوَانِرِ مَلُوكِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى مَلِكِ الْقَرْيَةِ مِنَ الْإِثَاوَةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، لَأَسْتَقْبَالَ سَنَةِ ثَنَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ .

وقد ذكر في " التعريف " أَنَّ سُلْطَانَهَا كَانَ فِي زَمَانِهِ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قِلَاوُونَ » أبا الفضل يَوْسُفَ ؛ وَلَعَلَّهُ يَوْسُفُ بْنُ إِسْمَاعِيلِ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ . قَالَ : وَهُوَ شَابٌّ فَاضِلٌ لَهُ يَدٌ فِي الْمَوْشِيَّاتِ . وَرَسَمَ الْمَكْتَابَةَ إِلَيْهِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي " التعريف " بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ "أَمَّا بَعْدُ" بِمُخْطَبَةٍ مُخْتَصَرَةٍ ، « فَهَذِهِ الْمَفَاوِضَةُ إِلَى الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ ، السَّنِيَّةِ ، السَّرِيَّةِ ، الْعَالِيَّةِ ، الْعَادِلِيَّةِ ، الْمُجَاهِدِيَّةِ ، الْمُؤَيَّدِيَّةِ ، الْمُرَاطِبِيَّةِ ، الْمُتَاغِيرِيَّةِ ، الْمُظْفَرِيَّةِ ، الْمَنْصُورِيَّةِ ، بَقِيَّةُ شَجَرَةِ الْقَضَارِ ، وَخَالِصَةُ سَلَفِ الْأَنْصَارِ ، الْمُجَاهِدِ عَنِ الدِّينِ ، وَالذَّائِبُ عَنْ حَوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ ، نَاصِرُ الْفُرَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ ، زَعِيمُ الْجِيُوشِ ، خُلَاصَةُ الْخِلَافَةِ الْمَعْظَمَةِ ، أَثِيرُ الْإِمَامَةِ الْمَكْرَمَةِ ، ظَهِيرُ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبِي فُلَانٍ فُلَانٍ . »

وهذا صدر لهذه المكتبة ذكره في "التعريف" وهو .

صدرت هذه المكتبة إليه متكفلةً بالنصر على بُعد الدار ، مجردةً النصل إلا أنه الذي لا يؤخره الدار ؛ مُسعدةً بالهم ولولا الاستغفال بجهاد أعداء الله فيمن قُرب لمّا تقممت سرعان الخليل ، ولا أقبلت إلا وفي [أوائل^(١)] طلائعها للأعداء الويل ؛ ولا كُتبت إلا والعجاج يُربّب السطور ، والفجاج تقذفُ ما فيها على ظهور الصواهل إلى بطون البحور . مبديةً ذكر ماعندنا بسببها مجاورة الكفار ، ومجاورة السيوف التي لا تمُلُّ من الثار ؛ مع العلم بما لها في ذلك من فضيلة الجهاد ، ومزية الجلاء على طول الجلاء ، ومصابرة السهر لأوقات منيمه ، ومكاثرة هذا العدو بالصبر ليكون لها غنيمه ، ونحن على إمدادها - أيدها الله - بالنصر والدعاء الذي هو أخفُّ إليها من العساكر ، وأخفى مسيراً إذا قدر حقه الشاكر ؛ ثقةً بأن الله سينصر حزبه الغالب ، ويكفُّ عدوه الغالب ، ويصل بإمداد الملائكة لجُنْدِه ، ويأتي بالفتح أو يأمر من عنده ، لتجرى أطلاؤه على ما عوّدت ، ويُؤخذ الأعداء بالحريرة ، لينصرون الله من ينصره وينظر إلى أهل هذه الجزيرة .

والذي ذكره في "التتيف" أن رسم المكتبة إليه مثل صاحب تونس في القلع والخطابة ، والاختتام ، والعلامة ، والتعريف "صاحب حمراء غرناطة" .

وهذه نسخة جواب إلى صاحب حمراء غرناطة . وقد ورد كتابه في ورقٍ أحمر يتضمن قيامه بأمر الجهاد في الكفار ، وما حصل من استيلاء بعض أقاليمه على ملكه ونزعه منه ، وأنه استظهر بعد ذلك على المذكور وقتلَه ، وعاد إلى ملكه على عادته . في جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعائة ، وهي :

(١) من "التعريف" زدناه .

نَحْصُ الحَضْرَةَ العَلِيَّةَ ، حَضْرَةَ الأَمِيرِ فُلَانٍ ، وَأَلْقَابَهُ ، جَعَلَ اللهُ لَهُ النُّصْرَ أَيْنَ سَارَ قَرِينَا ، وَالظَّفَرَ وَالْأَمْتِظْهَارَ مَصَاحِبًا وَخَدَيْنَا ، وَزَادَ فِي حِلَّةِ الْأَسْنَى تَمْكِينَا وَتَأْمِينَا ، وَمَنْحَ أَفْقِهِ الْغَرْبِيَّ مِنْ أَسِرَّةٍ وَجْهَهُ الْمُتَلَأُّى الْإِشْرَاقَ ، وَمَهَابَةَ بَطْشِهِ الَّذِي يُورِدُ الْعِدَا مَوَارِدَ الرَّدَى بِالْإِتِّفَاقِ ، تَحْصِينًا وَتَحْصِينًا - بِإِهْدَاءِ السَّلَامِ - . أَرْجُ عَرَفَاءَ ، وَيَبْلُجُ وَصَفَاءَ ، وَيَكَادِ يَمَازِجُ النَّسِيمِ لُطْفًا - وَإِبْدَاءَ الشُّكْرِ الَّذِي جَلَّاهُ مَلَائِسُ الْإِكْرَامِ وَأَضْنَى ، وَأَجْمَلَ مِنْهُ نَفَاسَ عَقْدِ الْمَوَدَّةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا فَلَمْ تَكُنْ تَخْفَى .

ثم بعد حمد الله مؤكِّد أسباب علاه ، ومؤيد موجبات نصره وما النصر إلا من عند الله ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أمدّه بملائكته المقرَّبين ، ونصره بالرَّعب مسيرة شهر كما ورد بالنص والتعيين ؛ ورفع باسمه أُلُويَّةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَقَعَ بِبَاسِهِ نَائِرَةُ الْبُعَاةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ .

وعلى آله وصحبه الذين لَازَمُوا التَّمَسُّكَ بِأَسْبَابِ الدِّينِ ، وَجَاهِدُوا فِي إِقَامَةِ مَنَارِ الْإِسْلَامِ لِمَا عَلِمُوا مِقْدَارَ أَجْرِهِمْ عِلْمَ الْيَقِينِ ، صَلَاةً مُتَوَالِيَةً مُتَوَاتِرَةً عَلَى مَمَرِ الْأَحْقَابِ مَا لَمْ يَنْبَغِ ؛ فَإِنَّا نَوْضِّحُ لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ وَرَدَ عَلَيْنَا مُشْتَمِلًا عَلَى الْمَحَاسَنِ الْغُرَاءِ ، مُغْرِبًا بِلِمْعَةٍ لَنَا بِحُجْرَةِ لَوْنِهِ أَنْ نَسْبِطَهُ إِلَى الْحُمْرَاءِ ؛ مُشْبِهًا وَرْدَ الْخُدُودِ وَالنَّقَاسُ فِيهِ كَالْخَالِ ، أَوْ شَقَائِقِ الثُّمَانِ كَمَا بَدَأَ رَوْضُهُ غَبَّ السَّحَابِ الْمُتَوَالِ . فَوْقَهَا عَلَى مَضْمُونِهِ جَمِيعِهِ ، وَتَلَمَّحْنَا بِدِيْعٍ مَعَانِيهِ مِنْ جَمِيلِ تَوْشِيْعِهِ وَتَرْصِيْعِهِ ، وَصَلَّمْنَا مَا شَرَحَهُ فِيهِ : مِنْ أَسْتِقْرَارِهِ عَلَى عَادَةِ سَلَفِهِ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ الْجِهَادِ ، وَقَطَعَ دَابِرَ الْكَفَرَةِ ذَوِي الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ ، وَتَوَطَّيْدِ مَا لَدَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَتَطْمِينِ مَا بَهَا مِنَ الْعِبَادِ ؛ وَمَا أَتَّفَقَ مِنْ قَرِيْبِهِ فِي الصُّورَةِ لِأَفَى الْمَعْنَى ، وَكَيْفَ أَسَاءَ إِلَيْهِ فِعْلًا وَقَدْ أَحْسَنَ بِهِ ظَنًّا ، وَأَنَّهُ رَصَدَ الْغَفْلَةَ مِنْ جَنَابِهِ ، وَأَقْدَمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ اِقْتِرَافِ الْبَغْيِ وَالتَّمَسُّكِ بِأَسْبَابِهِ ، وَلَمْ

إكالمات

ناب صبح الأعشى هذا على بعض كلمات مطموسة بالحبر
لأن في بعض المكتبات الأهلية على أصل لذلك الجزء فرؤى
تقارنى فى مواضعه إن أراد . وتسيلا لمعرفة مواضع البياض من
كان: ساقطاً لطمسه بين قوسين هكذا () . وهى :

مده لأقلام من ولّاة الوجه القبلى ، ويُؤتى بها فتصفظ عند
سها ما يحتاج إليه (فى كتابة السلطان و) يوضع فى دواته بقدر الحاجة .
منهاج الإصابة : ولا بدّ فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر ما يحتاج
سجّ القلم الحبرى فى القرطاس .

وأعلم أن للكُتّاب فيه طريقتين — إحداهما طريقة الثلث ، فتجرى الحال فيه على
الميل إلى (التقوير — و) الثانية طريقة المُحقّق ، فتجرى الحال فيه على الميل إلى
(البسط دون التقوير وسياق إيضاح الطر) يكتنن وكيفية (تشكيل حروفهما فيما بعد
إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر السمرىّ فى أرجوزته اختصاص قلم الطومار بأمور : أحدها أن
مستداراته كلها تكون بوجه القلم ، والمدّات بسنّه ، والتعاريق بوجهه مفتتلا فيها على
اليمين — الثانى أن الملم منه تكون مفتوحة مدوّرة (والفاء والقاف فيه (أواسطها محدّدة
وجنباتها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثلته بين السطور) —
الرابع أن يكون (الفضل من جانبي القرطاس متساويا فى المقدار — انلخامس أن
لا يكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولى زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس
فى الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام
والنون فى الأفراد والتركيب عند الابتداء وأنه (لا يجوز فيه) الطمس فى شىء من
عُقده كالصاد ، والطاء ، والفاء ، والقاف ، والملم ، والهاء ، والواو ، واللام ألف المحققة
بجمل ، والمعنى فيه أن الطمس لا يليق بالخط الجليل .

(३००/११६/१३६०/१०१)

